

القطوف اليسانة

من ثمار جنة الأندلس الإسلامي الدانية

عبدانيس الطبع

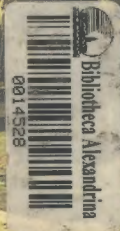
دكتوراه دولة في الفلسفة والآداب

من جامعة مدريد المركزية

محاضر في علم المكتبات والتوثيق

مجاز في الدراسات الشرقية والإسلامية

دار الفنون والعلوم



القَطْرُوفُ الْيَانَعَةُ

مَهْدُ عَمَارِ هِنَةِ الْأَنْدَلُسِ الْإِسْلَامِيَّةِ الدَّانِيَةِ

جميع الحقوق محفوظة للناس
الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



دار النشر والتوزيع

شارع الاستقلال - نفرون ٣٦٨٥٩٤ - ٢٢٠٨٨٨ - ٢٥٥١٥٤ - ورقيا : جيباكيوم - صوريه ٧٨٤٦ - بيجت (لبنان)
Jehiel St. - Phone 368594 - 228888 - 288484 - Cable : JARAHABKOUH - P.O.Box 7846 - Beirut (Lebanon)

القطوف البَيَّانَةُ

مِنْ ثَمَارِ جَنَّةِ الْأَنْدَلُسِ الْإِسْلَامِيَّةِ الثَّانِيَةِ

عَبَّاسُ رَانِيسُ الطَّبْلَعِ

دكتوراه دولة في الفلسفة والآداب
من جامعة مدريد المركزية

مجاز في علم المكتبات والتوثيق
مجاز في الدراسات الشرقية والإسلامية

بِكَلْبُوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

الى ينبوع العطاء والمجبة

المنبثق من أرض صيدون - والذاهبة أصوله حتى
بطحاء الحجاز عند بكة ، وبئر اسماعيل قرب البيت
العتيق حيث توالى النسيون من عهد ابراهيم وحمط
الوحي على عهد الأسين ، وعلى أنفان دو حنة تلق
الكبار الكبار حماة الدين الخفيف كالنيرات ، وفي أفلاكها
أسد الجزيرة وأشباله السعود ، والفصل ، والنخلة
والغهد الأغر .

الى هذا ينبوع التدفق خير إسلاما من فيض زمزم كما
تنب الرحمة أريجها للنسيم في الوادي كما صور جبرل
عطاءات تسو فوق اعتبار العرق والمذهب والاقليم
وتتناثر في زعم وفجار ، طلاب علم ، ورواد حضارة .

الى واحد من أقباس الضياء في بلد الضياء :
الى رفيع الحسيري أهدى كتاب : القطوف الياقة من
ثمار جنة الاندلس الاسلامي الدانية .

تحية كبار لأهدافه السامية في بناء جيل مؤمن برسالته
المملكة العربية السعودية ، ومؤمن عليها .

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الاهداء.....	٥
المحتويات.....	٧
المقدمة :.....	١١
موقف الخلافة من الفتح ، سكان اسبانيا	١٢
عداء المؤرخين الفرنجة للفتح الاسلامي	١٣
حول خطبة طارق بن زياد.....	١٥
رواية ابن خلدون وفتح القسطنطينية.....	١٦
موسى بن نصير يلحق بمولاه طارق بن زياد.....	١٨
ولاة الاندلس.....	١٩
احقاب الحكم العربي في الاندلس.....	٢٠
سقوط غرناطة آخر معقل اسلامي في شبه الجزيرة.....	٢١
مظاهر الحضارة والفكر في الاندلس الاسلامي.....	٢٤
منابع الثقافة العربية في الاندلس.....	٢٦
بين المشرق والمغرب العربيين.....	٢٧
الشعر الاندلسي ونشأته.....	٢٨
امليوغرسيا كومس والشعر الأندلسي.....	٢٩
شعر الطبيعة في الاندلس.....	٣٠

٣١	حقب وعصور الشعر الاندلسي
٣٢	الاسلام والشعر
٣٣	الادب المحدث والعصر العباسي
٣٤	نشأة الشعر الموشح
٣٦	نسقا الموشح
٣٩	الخصومة الأدبية بين المغرب والمشرق العربيين
٤٥	القسم الأول : موضوعات تاريخية :
٤٧	الطريق العربية الى الشمال الافريقي والاندلس
٤٩	فتح الاندلس
٥٣	الاندلس الاسلامي والتاريخ
٥٧	الخلاف السياسي بين العرب والشعوبيين
٦٦	معركة وادي البرباط الحاسمة
٧٥	معركة بواتية او بلاط الشهداء
٨٠	يومان في تاريخ بني أمية
٨٤	معطيات الحكم العربي في الاندلس ونتائجها
٩٠	الحضارة العربية في الاندلس
٩٤	جغرافية الأندلس العربي والبحث العلمي الحديث
٩٨	اوائل الجغرافيين في الاندلس
١٠٣	التاريخ العربي في الاندلس
١٠٨	معركة الزلاقة
١١٣	سقوط غرناطة
١١٧	كيف سقطت غرناطة
١٢١	القسم الثاني : اعلام الاندلس الاسلامي :
١٢٣	عبد الرحمن الداخل مؤسس الامارة الاموية في الاندلس
		عبد الرحمن الداخل يطأ مرسى المنكب
١٣١	ابن عبد ربّه اول مؤلف في الاندلس

١٣٥	زرياب ، علي بن نافع.....
١٤٠	ابو علي القالي واول سفارة ثقافية مشرقية الى الاندلس.....
١٤٤	عبد الرحمن الناصر ، اول خليفة اموي في الاندلس.....
١٤٩	ابن درّاج القسطلّي ، متنبّي الغرب.....
١٥٤	ابن درّاج القسطلّي مؤرخ الدولة العامرية (١).....
١٥٨	ابن درّاج القسطلّي مؤرخ الدولة العامرية (٢).....
١٦٤	ابن الفرضي ومعجمه تاريخ علماء الاندلس.....
١٦٩	ابن هانئ الاندلسي متنبّي الغرب.....
١٧٣	المعتضد الشاعر الملك.....
١٧٩	ابن حزم القرطبي ، اعظم مصنف انجبه الاسلام في الاندلس.....
١٨٣	ابن رشيّق القيرواني ، اول ناقد انجبه الشمال الافريقي.....
١٨٨	ابن زيدون ، الشاعر والوزير.....
١٩٣	المعتمد بن عباد الشاعر الملك.....
١٩٩	ابن حمديس الصقلّي شاعر الدموع.....
٢٠٢	ابن قزمان ومدرسته الزجلية.....
٢٠٦	القاضي عياض وازهار الرياض.....
٢١١	الفتح بن خاقان اديب الاندلس.....
٢١٥	ابن بسام ، الاديب والناقد.....
٢١٩	ابن زُهر ، الشاعر ، والوزير ، والطبيب.....
٢٢٤	ايوبكر محمد بن باجة ، اول مفكر فلسفي اطلعه الاندلس.....
٢٢٩	ابن الأبار وكتابه الموسوم بالحلة السيرة.....
٢٣٣	عبد الله الششتري ، الصوفي الزاهد.....
٢٣٧	ابن عربي ، شيخ الصوفية الاكبر.....
٢٤٠	لسان الدين بن الخطيب نابغة عصره.....
٢٤٥	لسان الدين بن الخطيب الشاعر.....
٢٥٠	ابن زمرك ، الوزير الوشاح.....

٢٥٤	غزيري ، لبناني في خلمة التراث الاندلسي
٢٥٨	ميكل آسين بلاثيوس - اكبر مستشرق انجبته اسبانيا الحديثة
٢٦٧	القسم الثالث : الحضارة والثقافة الاسلامية في الاندلس
٢٦٥	يومان في طليطلة
٢٧٠	مع التاريخ في غرناطة
٢٧٤	المسجد الجامع في قرطبة
٢٧٨	في رحاب المسجد الجامع بقرطبة وحمراء غرناطة
٢٨٩	الشعر والأدب في عهد الامارة بالاندلس
٢٩٣	الخصومة الأدبية بين المشرق والمغرب العربيين
٢٩٧	العنصر الغربي في الأدب الاندلسي
٣٠١	شعر الطبيعة في الأدب الاندلسي
٣٠٥	الحب والغزل في الأدب الاندلسي
٣٠٩	الغناء العربي
٣١٤	اوائل كتب الطبقات في الاندلس
٣١٩	فن المقامة في الأدب الاندلسي
٣٢٣	اصول الفلسفة في الاندلس
٣٢٩	التنصير الاسلامي في الكوميديا الالهية
٣٣٤	مدرسة طليطلة واثرها في خدمة الفكر الغربي
٣٣٨	الاتجاه القومي والوجدانية في شعر الحنين الى الاندلس
٣٤٣	المراجع العربية

المقدمة

كانت اسبانيا الإسلامية مجالاً للإبداع الفكري ، بعد ان توفرت لها عوامل الطبيعة الساحرة ، وعوامل الدولة الناهضة ، وكان تفاعل المسلمين الذين حملوا معهم من الشرق مدينتهم واحلامهم وطموحهم مع الإسبان سكان البلاد الذين كانت لهم خصائص من الطبيعة والفكر لم تكن لأولئك .

الفاثحون والإسبان

قلت كان تفاعل المسلمين مع سكان البلاد على ارض هذه الدولة التي كانت مزيجاً من الشعوب واللغات ، والتي فيها كان يلتقي المتناقضان ، عربي اسمر نحيل من اعماق الصحراء صهرته الشمس ، وغربي اشقر من اطراف اورويا امتزجت الالوان امام عينيه من زرقة في السماء ، وزرقة في البحر ، واخضرار في الأرض ، وثلج ناصع البياض على قمم الجبال ، حتى كادت هذه الالوان تنطبع في بؤبؤ عينيه اخضراراً في زرقة ، او زرقة في اخضرار ، وسمراء رقيقة الاحساس ، دعجة العينين مليحة القد تحس الشوق في اعماق ذاتها فتكتمه ، وهيفاء كان شعاع الصبح ينسدل على كتفها ، وتلتقي آلاف الصور امام عينها ، ومسجد شامخ كالطود في انفة وحرية الى جانب كنيسة قائمة كالطود ايضاً في عزة وكبرياء ، ولغة عربية تكتب من جانب ، ولغة غربية تكتب من جانب آخر ، كل هذه المتناقضات ، وكل هذا التفاعل والاحتكاك جعل من اسبانيا الاسلامية مدخلاً لنقل مدينيات العرب ، والفرس والاغريق وبقية

الشعوب التي تفاعلت في الشرق البعيد ، الى اوروبا المدينة ابدأ الى اسبانيا الاسلامية، والى النبوغ العربي الاسباني بمدنيتها الحديثة وتطورها العلمي الذي بنته على أسس البحث الذي وضع اعلام اسبانيا العربية ركائزه في الأدب والشعر والفلسفة والتاريخ والفلك والرياضة والموسيقى . كإوسع مدلول لمفهوم الأدب قبل تحديد ماهيته علمياً :

دخل العرب اسبانيا في رمضان سنة ثلاث وتسعين للهجرة ، «سبعماية واحدى عشرة» للميلاد ، الأرض الخضراء الضاحكة الممتدة في الجنوب الغربي من اوروبا بعد حملة استطلاعية قام بها احد القادة العرب قبل عام من الفتح .

موقف الخلافة من الفتح

وكانت تعليمات الخليفة في دمشق الى القائد العام في القيروان موسى ابن نصير صريحة إذ امره ان لا يتوغل بالجيش قبل ان يتأكد من إمكانات النصر ، عندها جهز جيشاً بقيادة مولاه عبد الله طارق بن زياد الليثي حاكم طنجة ، وهو بربري على الغالب من قبيلة زناتة ويعث له امرأة قال فيه « اذا كان اليوم واحداً وعشرين من مارس اشحن كما امرتك ان شاء الله ، فإذا اجريت فسر حتى يلقاك جبل اجرد احمر ، تخرج منه عين شرقية الى جانبها صنم فيه تمثال ثور ، فاكسر ذلك التمثال وانظر في من معك الى رجل طويل اشقر بعينه قيل ، ويده شلل فاعقد له على مقدمتك ثم اقم مكانك حتى يفشاك امري ان شاء الله » .

قال فلما انتهى الكتاب الى طارق كتب الى موسى « انني متته الى ما امر به الأمير ووصف ، غير اني لم اجد صفة الرجل الذي امرتني أن اوليه الأ في نفسي » .

سكان اسبانيا الأوائل

قلت دخل العرب اسبانيا في رمضان ، وكانت قبائل من الجبالقة والسلت ، والبسك قد دخلت في عصور التاريخ الأولى ، واستقر بعضها على

الشواطىء الساحلية ، ثم قصدها سلاطات من بربر افريقيا ، وحوالي القرن العاشر قبل الميلاد دخلتها سلاطات من الفينيقيين استوطنت قرطاجنة ، ثم شهدت البلاد في عصور الحضارة الاغريقية الاولى اليونانيين ثم الرومانيين ، وذلك في اوائل القرن الثالث للميلاد ، وفي اسبانيا حتى اليوم ترى آثار رومانية تدل على عظمة تلك الحضارة ، وعلى اثرها في تطوير الحياة الاسبانية آنذاك ، ومنذ ذلك الوقت اطلق الرومان على البلاد اسم (هسبانيا) وقد حكموها مدة طويلة حتى غلبتهم قبائل الفندال الجرمانية التي اسست لها على نهر الوادي الكبير مملكة سميت باسمهم (فندلس) ولعل من هذه الكلمة عرّف العرب على حد قول المؤرخين والنقاد كلمة (الاندلس) . والواقع انه لم يكن نصيب هذه القبائل الفندالية خيراً من نصيب الرومان فلقد اغار القوط عليهم ونسخوا الحكم الفندلسي ، واتخذوا مدينة طليطلة اقوى معقل في الشمال عاصمة لهم ، وفي هذه الحقبة التي استمرت نحواً من ثلاثة قرون عرفت هسبانيا على حد تسمية الرومان ، وفندلس على حد تسمية قبائل الفندال الدين المسيحي الذي انتشر على اعقاب الوثنية الاولى القائمة يومئذ في تلك الاصقاع . ويجمع المؤرخون العرب وفي طليعتهم ابن القوطية القرطبي ان آخر ملوك القوط بالاندلس غيطشة توفي عن ثلاثة اولاد اكبرهم الموندو ، ولم يكن أحدهم قادراً على ان يتولى الحكم ، وأن الأمر كان للقائد لذريق الذي لم يحسن سياسة البلاد ، وبالتالي لم يحسن معاملة الموندو مما دفع به مع اخويه ان ينحازوا الى طارق بن زياد القائد المسلم الفاتح ، وان يكونوا عوناً له على النصر .

لقد رافق الفتح الإسلامي لهذا الصقع من العالم المترامي على ساحل الابيض المتوسط شرقاً وعلى ساحل بحر الظلمات غرباً كثير من الروايات والاساطير التي يدحضها العلم ويرفضها التاريخ .

عداء المؤرخين الفرنجة للفتح الإسلامي

لعل اكثر هذه الروايات شيوعاً حتى بين طبقة المثقفين ان القائد طارق

ابن زياد قد احرق السفن التي اقلته والجيش عبر مضيق الجبل الذي سمي باسمه .

يوزع المؤرخون الفرنجة عمل طارق بن زياد هذا ، الى انه اراد ان يلهب نفوس جنوده ويجعلهم امام مصير محتتم ، وهكذا كتب للقوة الإسلامية النصر الذي دُخِ اوروبا قروناً ودفعها لأن تستفيق على واقع الحياة الإسلامية في الأندلس .

ان منطق الوقائع التاريخية وبالتالي النصر المؤزر الذي حققه المسلمون على ارض الجزيرة الخضراء ومن ثمة في الاندلس جميعاً يدحض الرواية الغربية ولا يقرها .

من الثابت كما يؤكد ابن القوطية القرطبي في كتابه تاريخ افتتاح الاندلس ان يوليان القوطي حاكم سبته لخلاف كان بينه وبين للزيق حاكم الاندلس قد رغب طارق بن زياد عامل مدينة طنجة على فتح البلاد ومدح له شرفها وموقعها واعانه على الفتح بعد موافقة موسى بن نصير حاكم افريقيا في القيروان، الذي استأذن بدوره الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق ، قلت ان يوليان حاكم سبته القوطي اعان العرب بسفن ست نقلت جيوشهم عبر المضيق .

امام هذه الحقيقة التاريخية لا يمكن ان يُقدم القائد الأموي طارق بن زياد على احراق سفن قدمها لهم رجل قوطي لتعينهم على نقل الجنود والعتاد .

هذا ونحن لو اخذنا برأي اصحاب الرواية ان السفن التي اقلت الجنود كانت اموية بالرغم من أن الواقع التاريخي يرفض هذا الرأي، ذلك ان المسلمين في فتوحهم لافريقيا والمغرب لم يركبوا البحر ، وليس لهم في الواقع على طول الساحل اسطول بحري ، كما انه ليس من تقاليد الحرب ان يتلف القائد عتاداً حربياً هو من اسباب النصر ، فضلاً عن ان طارق لن يستطيع ان يُقدم على مثل هذا الأمر الخطير دون ان يستأذن قائده العام .

الواقع انه ليست هناك وثيقة تاريخية تؤكد ان طارق بن زياد قد استأذن موسى بن نصير، فضلاً عن انه ليس في كل المصادر التي تؤكد ان خلافاً وقع بين القائد العام وطارق بن زياد ما يثبت ان موسى بن نصير قد اخذ على فاتح الاندلس مأخذاً عسكرياً وأحلاً .

ان الرواية الغربية التي حاولت ان تنقص من قيمة الفتح الإسلامي للاندلس فادعت ان طارق بن زياد قد احرق السفن إنما هي رواية مفسوسة على التاريخ الإسلامي ، وعلى القوة الأموية التي كتب لها ان تكسب نصراً مؤزرًا على ارض شبه جزيرة ايبيريا ، وان تغير من معالم التاريخ في اوربا كلها . الى جانب هذه الرواية التي دسها المؤرخون الفرنجة ، رواية أخرى دسها العرب الغلاة في عنصرتهم .

حول خطبة طارق بن زياد

وضع بعض المؤرخين العرب في عصر التدوين خطبة لطارق بن زياد ادعوا انه القاها في جنوده ابان الفتح الإسلامي للاندلس .

ان الناقد الذي يدرس خطبة ابن زياد هذه ، ويعلم بالتالي حقيقة الجيش الذي رافق القائد البربري لفتح البلاد يدرك ان الخطبة نُحِلَّت على لسان القائد الفاتح ابن زياد .

من المؤكد ان الجيش الذي فتح الاندلس بقيادة طارق بن زياد قد اناث على اثني عشر الف جندي ، منهم ثلاثمائة فقط على أكثر تقدير من العرب ، ومع ذلك فالرواية العربية تحصر على ان تؤكد قول طارق بن زياد « لقد اختاركم امير المؤمنين من الابطال عرباناً » .

كأنى بالمؤرخين العرب الذين حرصوا في عصر التدوين على تأريخ الفتح العربي واثبتوا خطبة القائد ابن زياد قد حاولوا ان ينكروا على غير العرب ما اسهموا به من خدمات في نشر الدعوة وفتح البلاد ، وانها من غير شك صورة للعراك الشعبي الذي احتدم بين العرب وبقية الشعوب خلال

الحكم العباسي . يدعو الى درس ونقد كثير من الروايات والمصادر . ومن هنا اكدوا « قول طارق عرباناً لا عرباً » .

رواية ابن خلدون وفتح القسطنطينية

اما الرواية الثالثة والتي تتصل بهذه المعركة الفاصلة في تاريخ العرب العسكري بالنسبة الى اورويما يعتبرها ابن خلدون في كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر امتداداً لما رسمت الخلافة في دمشق من خطط ، وانها محاولة وفق منهج مرسوم لاحتلال اورويما ، وبالتالي لاحتلال القسطنطينية عن طريق الغرب بعد ان تعذر الاستيلاء عليها عن طريق الشرق .

ويعتمد هذه الفكرة الاستاذ محمد عبد الله عنان احياناً الكتاب المعاصرين فيؤكد بأن الدولة الأموية كانت ترمي من وراء غزو القسطنطينية الى اكثر من الاستيلاء على عاصمة الدولة الشرقية ، فلقد كانت ترمي الى حمل الدعوة وفرض السيطرة على اورويما كلها ، فلما ارتدت جيوشها امام اسوار القسطنطينية شقت الى الغرب والى اورويما طريقاً آخر فجازت جيوشها الى اسبانيا ، واقتحمت جبال البرينة الى فرنسا .

امام هذا الخلط في التحقيق بكيفيات الوقائع التاريخية واسبابها ، حري بنا ان نؤكد بأن ابن خلدون قد اخطأ في فهم هذه الاسباب ، وبأن الكاتب العربي المعاصر بنى رأيه على وهم وخيال بعيدين عن الحقائق العلمية . والحقيقة ان الدولة الأموية قد حاصرت القسطنطينية مرتين ، المرة الأولى في عهد معاوية بن ابي سفيان سنة تسع وأربعين ٤٩هـ ستمائة وتسع وستين ٦٦٩م ، والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ تسع وتسعين هـ ، وسبعماية وسبع عشرة ٧١٧م . اي بعد فتح الأندلس على يد طارق بن زياد بست سنوات ، ومن حقنا هنا ان نتساءل ، اذا كانت الخلافة الأموية تنوي من وراء فتح اسبانيا الاستيلاء على اورويما وبالتالي على القسطنطينية ترى لماذا هاجمت عاصمة الدولة الشرقية للمرة الثانية سنة تسع وتسعين ٩٩هـ ، وطريقاً اورويما قد تمهدت امام جيوشها عن طريق الأندلس ؟ وهل كان بإمكان القوات العربية

التي عَجَزَتْ عن احتلال القسطنطينية عن طريق الشرق بعد حصار طويل الأمد وهي قريبةٌ من مراكز انطلاقها في سوريا ، احتلالَ القسطنطينية عن طريق أوروبا وهي القوة الخليط من الشعب العربي الفاتح يومئذ ، وهل ان اسوارَ القسطنطينية ، من جهة أوروبا هي من الوَهْن بحيث تستسلم سريعاً لهذه القوات . إن لم نأخذ بالاعتبار المضيق الذي يشطر المدينة إلى شرقية وغربية .

ان الحقيقة العلمية تَدَحُّضُ كل هذه الآراء ، فافتحام الاندلس كان وليدُ الاحداث المحلية والظروف الحياتية ، ولقد اكدنا نقلاً عن ابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الاندلس وعن غيره من المؤرخين العرب ، العوامل التي اهابت بالقائد العربي الى غزو جزيرة ايسريا وفتحها ، وليس من شك في ان الخلافة الأموية وهي الدولة العربية الاعرابية التي بنت حكمها على اساس تمجيد العنصر العربي كانت اعجزَ من ان تدبر تلك الخطط العسكرية ولم يكن لها اهدافٌ بعيدة المدى للسيطرة على أوروبا، وان كنت لا أنكرُ بأنها لو وفقت الى ذلك لما تراجعت عن اقتحام الحدود في سبيل نشر الدعوة ، وتأسيس امبراطورية عربية مترامية الأطراف .

ان العبقرية العسكرية وروح الجنديّة الحقّة التي اجتمعت لطارق بن زياد مع عواملٍ سياسية وظروف حياتية كانت كامنّة في البلاد ، هي التي هيأت النصر المبين لتلك القوة العربية ان تدخل الاندلس ، كما اتاحت لها خلال قرون ثمانية ان تنشيء تلك الحضارة وتقيم هاتيك المدنية ، وان تجدد في روح الادب العربي ، وان تضع اسساً جديدة في الفكرات الفلسفية ، وان تؤكد كروية الأرض ، وان تفكر في اختراق أجواء الفضاء بعد ان اسست في ارض الاندلس الجميل القشيب ، محاربَ عبادة يتيه الفكر في ينائها ، وأقامت فيها زهراء قرطبة ، وحمراء غرناطة ، وقصر اشبيلية وسط حوادثٍ بدعةٍ في الهندسة والتنسيق ، فواحةٍ بالنرجس والنسرين ، الى جانب مدن كانت مراكز للتفاعل الفكري والحضاري ، ومواطنٍ للعرب والاسبان على حد سواء .

موسى بن نصير يلحق بمولاه طارق بن زياد

بعد عام من دخول طارق ، قام موسى بن نصير القائد العام في حملة اخرى على الأندلس سلكت طريقاً مغايرة لطريق قوات طارق الا انها التقت في ما بعد مع القوات الأولى في طليطلة .

يقول الرازي في كتاب الرايات « إن القوات التي دخلت مع موسى بن نصير لم تكن نظامية وإنها كانت من رجال القبائل وكانت كل قبيلة تلتف برايتها وشعاراتها وقد استوطنت في ما بعد الاقاليم الأندلسية واقتطعت لها المزارع والحقول واخذت تسود مواطنها على غرار الحكم القبلي الفردي » .

في الواقع ان خطر هذه القبائل لم يُعرَف عندما كانت الدولة العربية في الأندلس في أوج سلطانها وقد تكشف سوء السياسة الفردية عند بدء انهيار الأندلس العربي فكانت هذه القبائل في خصوصتها وتَنكُّرها للمصلحة العامة اشدَّ على الدولة من سكان البلاد الاسبان انفسهم ، واني كناقذ للتاريخ في الأندلس استطيع ان اقرر ان هذه القبائل في سياستها واقطاعها وحكمها كانت احدى العوامل التي ادت الى خروج العرب من شبه الجزيرة بعد حكم استمر قرون ثمانية .

من المؤكد ان خلافاً وقع على ارض شبه الجزيرة بين موسى بن نصير الحاكم العام لشمال افريقيا وبين قائده طارق بن زياد لأن هذا الأخير لم ينجز الفتح كما كان قد قرر له ، ولأنه لم يلبِ الأمر الذي وجهه اليه موسى بعد ان استبطل عودته .

من المعروف في تاريخ الأندلس ان موسى بن نصير عين ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس وعاد مع طارق بن زياد الى دمشق ليقدم الطاعة للخليفة الوليد بن عبد الملك . وعند وصولهما الى بيت المقدس ارسل اليهما سليمان ابن عبد الملك شقيق الخليفة امراً يطلب فيه ان يترثا رداً من الزمن لأن الوليد كان على فراش الموت ، وإنه يرغب في ان يكون قدومهما في مطلع خلافته هو ، لأنه كان ولياً للعهد .

لم يستجب موسى لرغبة ولي العهد ودخل دمشق في عهد الوليد واستقبل استقبالاً حافلاً كان يوماً مشهوداً في تاريخ العاصمة الأموية .

سليمان بن عبد الملك وموقفه من موسى بن نصير

يؤكد النقاد والمؤرخون ان الخليفة سليمان بن عبد الملك بعد وفاة اخيه الوليد اساء معاملته القائد العربي الكبير موسى بن نصير وصادر املاكه وصرفه عن وجوه الخدمة العامة ، ومن المعروف ان موسى بن نصير توفي وهو في طريقه إلى الحج سنة ٩٦هـ - ٧١٤م .

من الثابت ان الدولة الأموية في الشرق خسرت المعركة الفاصلة بينها وبين قوى آل محمد سنة ١٣٢هـ - ٧٤٩م وعلى انقاض هذه الدولة العربية الاعرابية كما يقول الجاحظ قامت دولة بني العباس الاعجمية الخرسانية .

ولاية الأندلس

ان الحكم الفعلي للولاة الأمويين في الأندلس استمر نحواً من اربعين سنة من سنة ٩٢هـ / ٧١٠م إلى سنة ١٣٢هـ / ٨٤٩م . عندما سقطت الدولة الأموية في المشرق .

في هذه الحقبة بالذات كان والي الأندلس يومئذ عبد الرحمن بن يوسف الفهري فاستمر يحكم البلاد وهو يدعو على المنابر للدولة الإسلامية في بغداد حتى دخل الأندلس سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م عبد الرحمن بن هشام الأموي الذي قدر له ان يَهْرُبَ من ظلم العباسيين في المشرق وان يُقِيمَ مدة طويلة في المغرب عند اخواله بني نفرة .

خلال المدة التي حكم فيها الولاة الأمويون الأندلس وهي لا تزيد عن اربعين سنة تداول الحكم في قرطبة نحو من عشرين واليا منهم الصالح الإداري ، ومنهم المسرف المبلر حتى ان الأندلس العربي لم يعرف استقراراً طوال عهد الولاة .

احقاب الحكم العربي في الأندلس

في ضوء التاريخ العربي في الأندلس نستطيع ان نقيم احقاباً للحكم الأموي وهي التي اتفق عليها المؤرخون :

- ١ - حقبة عهد الولاة الأمويين من ٩٢هـ - ٧١٠م / ١٣٨هـ - ٧٥٥م .
- ٢ - حقبة عهد الإمارة من دخول عبد الرحمن صقر قریش سنة ١٣٨هـ - ٧٥٥م إلى قيام الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٣١٦هـ - ٩٢٨م .
- ٣ - حقبة عهد الخلافة الأموية في قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر الذي بويج بها سنة ٣١٦هـ - ٩٢٨م إلى سقوط الدولة الأموية في الأندلس وقد تخللها دولة بني حمود ، ومن ثمة قامت دولة بني امية الثانية وكان أول من حكمها المستظهر عبد الرحمن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ، وكان هشام المؤيد آخر من بويج بها .
- ٤ - حقبة دول ملوك الطوائف ، هذه الدول التي قامت عقب سقوط الدولة الأموية الثانية على اساس من العنصرية القبلية اذ استأثر بنو جهور بحكم قرطبة ، وبنو عبّاد بحكم اشبيلية ثم ضموا اليهم حكم قرطبة ، وبنو ذو النون بحكم طليطلة ، وبنو الانطس بحكم سرقسطة ، وهكذا اصبح الأندلس دويلات وشيع ، هي كما نعلم نتيجة لحكم القبائل التي دخلت مع موسى بن نصير في حملته .

معركة الزلاقة^(١)

كان بنو عبّاد في اشبيلية اقوى هؤلاء الملوك ، وقد لعبت دولتهم دوراً تاريخياً حاسماً في البلاد ، وفي عهد المعتمد الشاعر الذي كان في ذؤابة شعراء الأندلس رقة بيان واشراقه ديباجة وقعت معركة الزلاقة بين جيوش ابن ادفونس ملك قشتالة من جهة ، وبين جيوش بني عبّاد المؤيدة بجيش يوسف ابن تاشفين سلطان المرابطين في مراكش من جهة اخرى . المعركة التي

(١) ثمة دراسة خاصة عن معركة الزلاقة في هذا الكتاب انظر ص : ١٠٨ .

انتصرت فيها القوة الأندلسية المراكشية المتحالفة .

بعد هذا النصر المؤزر الذي حققه الجيش الإسلامي في الأندلس رجع يوسف بن تاشفين مع رجاله الى بلاده غير ان ملوك الطوائف عادوا الى منازعاتهم وخلافاتهم وكان على ابن تاشفين ان يحمي الأندلس مرة ثانية من غزو القشتاليين فدخل الأندلس وحمى البلاد الا انه خلع المعتمد وساقه اسيراً الى اغمات وظل رهيناً مَحْبَسِهِ حتى وافاه الأجل ، وهنا تنتهي الحقبة الرابعة من التاريخ العربي في الأندلس .

٥ - الحقبة التي قامت فيها دولة الموحدين في مراكش وقضت على دولة المرابطين وحكمت الأندلس ، وفيها كان نفوذ الأسبان قد أصبح قوياً بعد الزواج الذي تم بين فرديناند الخامس وإيزابيلا لاكاتوليكا .
٦ - الحقبة الأخيرة التي شهدت فيها مملكة غرناطة حصاراً اسبانياً شديداً قضى على كل أمل في الحياة ، بعد ان طلبت فك الحصار الاسباني عنها ، ورضيت في الثاني من ربيع الأول ٨٩٧هـ الثاني من كانون الثاني ١٤٩٢م الشروط التي املأها الاسبان وقبلها بنو الأحمر ، والتي نقضها الاسبان في ما بعد .

سقوط غرناطة^(١) آخر معقل اسلامي في الأندلس

ومع فجر ذلك اليوم غادر ابو عبد الله محمد قصر الحمراء موطن عزه ، وخرج للقاء عدوه الظافر ، وهم أبو عبد الله ان يترك جواده ليحيي الملك المنتصر ، ولكن فرديناند منعه ، وعانقه ثم سلم الملك الغرناطي مفاتيح الحمراء قائلاً : (ان هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب في بلادكم ، لقد اصبحت ايها الملك سيداً تراثنا ، هكذا قضى الله فكُن في ظفرك رحيماً عادلاً) . واتجه الملك بعدئذ مع فرديناند الى حيث كانت زوجته الملكة ايزابيلا تقدم لها خضوعه ، ثم انحدر مع اسرته الى البشرات ليحكمها باسم

(١) ثمة دراسة حول سقوط غرناطة في هذا الكتاب انظر ص : ١١٣ .

ملك قشتالة وفي طاعته ، واتخذ قرية أندرش مركزاً لحكمه ، وانتشر في الناس النبا ، فغضب الشعب وسخط على ابي عبد الله واعتبره مصدر الهزيمة وسبب النهاية .

ومع كل ذلك لم يقو الملك العربي ان يحكم تلك المقاطعة باسم ملك قشتالة ، فلقد ابت عليه مروءته ان يخضع للرجل الذي قاتله على ارضه ، فقرر ان يتجه نحو المغرب العربي .

كوكبة من الفرسان تجتاز في تودة وادي المرية الذي قضى الشتاء فيه على كل شيء ، على العشب الأخضر الذي كان يملأ ارضه اشراقاً ، وعلى ابتسامات الاشجار التي كانت تحيل جوارها الحزينة الى فُسحات طليقة من الطبيعة الضاحكة ، وعلى سواقي المياه الهاربة من النهر الواسع ، وعلى الطير المختبئ في اعشاشه ، بلى كانت هذه الكوكبة من الفرسان متجهة نحو الشاطئ من باب المرسى حيث كانت هناك عدة سفن اعددها فرديناند لأبي عبد الله محمد ، وما ان وصل الملك ذليلاً شاحب اللون متصنعاً للعة ، حتى اخذت السفن تمخر عباب اليم متجهة الى الملية ، دونما نظام ، ودون ان تعبأ بالرجل الذي كان الى الأمس القريب سيد هذه الأرض فلقد اندفعت معاً وكانت بمجموعتها المتفرقة اشبه بقوارب الصيد المزدحمة منها بسفن ملكية ، وما ان ابتعدت عن الشاطئ واخذت ارض الأندلس تصاغر وتتباعد عن عيني الملك حتى راودته عبرة لم يقو على ردها فبكى ، وسمعتة امه عائشة التي كان لها صفحات مشرفة في تاريخ المقاومة العربية في الأندلس فقالت له : (اجل ابك بكاء النساء ملكاً لم تدافع عنه دفاع الرجال) .

لقد انتهى الملك ابو عبد الله محمد إلى مدينة فاس ، وهناك تقدم من مليكها الشيخ الوطاسي مستجيراً به مستظلاً بلوائه ، ويحدثنا المقرئ في نفح الطيب فيقول : (بأن أبا عبد الله محمد بسط دفاعه بكتاب اسماء بالروض العاطر الانفاس في التوسل الى المولى الإمام سلطان فاس ، وقد دبحه الكاتب ابو عبد الله محمد العربي العقيلي) ، ويتبدى الكتاب بقصيدة بالشكوى والاعتذار مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم
 حُكْمٌ من الله حتم لا مرد له
 عينا لما مثله يُرعى من السدم
 وهل مرد لحكم منه مُنْجِم
 كُنّا ملوكاً لنا في ارضنا دول
 نَمْنَا بها تحت افان من النعم
 واي ملك بظلم الملك لم يَنَم
 فلا تَم تحت ظلم الملك نومتنا

بلى لقد سقطت غرناطة آخر معقل عربي في الأندلس ، ولم تجد كل
 المساعدات التي قدمها في ظروف معينة ، الحفصيون ، والمرابطون ،
 والموحدون ، فلقد سقط الحصن الأخير غرناطة المشرقة ابداً في عنفوان
 وكبرياء على الدهر ، المطلة على الدنيا في وسط سهلها ، وكان الجبل (سيرا
 نفادا) الحائل بينها وبين الأرض هناك ، ما زال معتزاً بحراسته الأبدية للمدينة
 العربية الشامخة .

ان عوامل داخلية وحياتية مع استئثار ملك ، وإنانية حاكم ، وخداع
 امرأة ، واسراف حاشية ، وتعصب عالم ، تضافت كلها على ضياع البلاد ،
 الا ان الطابع العربي والصيغة الشرقية والتقاليد والحضارة التي اقامتها العقيدة
 العربية هي الطابع المميز لتلك الأرض عن اوروبا كلها ، الوجه العربي الباسم
 في كل الوجوه المشرقة ، العين السوداء الكحيلة طابع كل العيون الجميلة
 الدعجة ، الذكاء العربي المتوقد خصائص الذكاء الاسباني المتحفز :

جارك الغيث اذا الغيث هما يا زمان الوصل بالاندلس
 لم يكن وصلك الا حُلماً في الكرى او خلسة المختلس

قلت ان اسبانيا الإسلامية كانت مجالاً للإبداع الفكري بعد ان توفرت
 لها عوامل الطبيعة الساحرة ، وعوامل الدولة الناهضة فلقد شهد سهل
 المصارة ، السهل الأفيع المنبسط قبالة قرطبة ، المدينة الحاملة عند اقدم
 جبل العروس الحارس ، المزهو الضاحك للطبيعة السمحة ولأزهار الأتحيان
 والنسرين التي تكلله ابان ثورة الربيع ، والمتكفيء في شيء من دعة على اطراف
 المدينة الأزلية مركز الولاية وقاعدة الإمارة ، وكرسي الخلافة بعدد ومجمع
 العلم ، وكعبة العلماء ، وجنة الأرض المبعثرة على جنبات النهر الكبير ، الذي

اخترق الأرض هناك عميقاً ومتسعاً فباعد بين طرفيها ، واندفع يشق السهل هادئاً تارة ، وثائراً مضطرباً تارة أخرى .

مظاهر الحضارة والفكر في الأندلس الإسلامي

قلت شهد سهل المصارة المعركة الفاصلة الحاسمة بين عهدين من حياة الأندلس العربي ، عهد الولاة الأمويين ، وعهد الإمارة الأموية ، العهد الذي كتب فيه للأندلس خلوداً في التاريخ ، ورسالة في الحضارة ، وصفحة مشرقة في الأدب ، ولحن جديد في الموسيقى ، وفكرة في الفلسفة ، ونظريات في الطب والفلك ، وانشودة في الغناء هي مزيج من العلم والشعر والموسيقى ، أو هي كل العلم والشعر والموسيقى في اتفاق عبارة وتجاوب لحن ، وتسميط ابیات ، هي الغناء إذا أريد بها الغناء ، وهي اللحن إذا أريد بها النغم ، أو هي اللمسات الخفية التي تداعب القلب وتهز أعماق النفس لتستحيل وترأ يتجاوب إيقاعه ، وترجع اصداؤه قبل ان يكون مركزاً للفهم والوعي ، لأن معنى الموشح الذي صيغ ابیاتاً منسجماً ذات اسماط متجاوبات متعانقات بالوزن والجرس والسبك ، ابداعاً من أعماق الذات الشاعرية الملهمة هو أعمق في النفس تأثيراً من الكلم الشعري المتداول المعروف يومئذ ، النابع من أعماق شعرنا العربي الأصيل .

وإذا كان الأندلس العربي لم يخلف لنا طوال عهد الولاة آثاراً تدل على حياته الفكرية كما يؤكد المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا ، فعهد الإمارة الأموية قد اوجد اتجاهاً جديداً في هذه الحياة اذ يعتبره النقاد مدخلاً لحياة الاستقرار بالنسبة للأندلس العربي ذلك ان العلم والأدب يحتاجان إلى الأرض ، وحيث لا أرض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا ميولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ، ولا احساس بالبناء . وهنا كانت المشكلة خلال عهد الولاة فلا استقرار ولا أمن ولا هدوء ولا تجاوب مع الذات الانسانية مبدعة الفكرة ، حكمة خاللة ، أو صلاة عميقة ، أو انشودة ازلية ، أو نظرية علمية أو فلسفية ، هذه الفكرة وليدة النفس الانسانية قد تكون

الذات نفسها مجال تأملاتٍ اعمق من الذات ، وابدع من تكوينها لأن الكلمة في الأصل ابداعٌ سماوي الاهي كائن منطلق متجاوب مع الأرض والسماء جميعاً .

من هذه النقطة بالذات ، من الاستقرار عينه ، كان عهدُ الامارة الأموية عهدُ الدولة والبناء والإبداع ، فالثقافة العربية الاندلسية قد تفتحت في هاتيك الأرض على تاريخ الأمة الحاكمة وآدابها فكانت في كل انطلاقاتها انعكاساتٍ للحياة الفكرية في المشرق العربي الذي كان لا يزال يتخبط بين القديم والحديث، بين تيارات العرب الأعراب ، وبين تيارات الاعاجم الخرسانيين ، ويحاول جاهداً ان يحدد مفاهيم أصيلة للتراث الجاهلي في ضوء التطور العميق الذي تفاعل فيه بعد ادب القرآن والحديث حكمةً وعبارة ، وقصة ، وبياناً ولغةً ، واذا كان العهد الأموي قد أرسى قواعد القصيدة الجاهلية في الأدب العربي كوزن، وقافية، ومظهر في فترة لم يكن بعد قد حدد مفهوم الأدب ومفهوم الشعر فيها لفقدان عوامل النقد يومئذ ، ولقلة الأبحاث في هذه الأصول، فالأدب الأندلسي مع اطلائته على الوجود ككائن خالد على الدهر هو في صميمه حقيقة الأدب العربي في المشرق ، فلقد حمل العرب الأولون كما حمل الداخل ورجاله هذا الشعر المشرقي الى الأندلس حيث كانت الحاجة فيه ماسةً لبعث حياة فكرية تتجاوب مع اهتمام العباسيين بالأدب والشعر ، والموسيقى والفنون الجميلة اطلاقاً . فالشعر الأندلسي في حياته الأولى كان من صميم الشعر العربي في المشرق ، والأدب الأندلسي من حيث المادة والموضوعات كان كذلك من صميم شرقنا العربي والفكرات الفلسفية التي قامت عليها أبحاث كبار الفلاسفة الأندلسيين كانت في الأصل كذلك فكرات للفلسفة اليونانية والإسلامية التي اهتم بها فلاسفة المشرق . وكبار شعراء الأندلس كانوا ينعنون بأسماء شعراء الدولة المشرقية ، غير اننا لا نستطيع ان نقرر بأن الأندلس العربي كان مقلداً في حياته الفكرية جميعاً للمشرق العربي ، فلم يكن لهذا الشرق الساحر ذي المفاتن والصور المجسمة في قلوب الأندلسيين والمحبب اليهم الا فضل الركيزة الأولى ، اما البناء الشامخ ، واما

الزخرف والفسيفساء ، واما النقوشُ والرسوم ، واما مادة البناء فكانت مزيجاً من تلك الحضارة الراسخة في هاتيك الأرض المتكبرية المتطاولة على الزمن . ومما اقام العربُ في اندلسهمُ الخالد من حضارة كانت تحاكي حضارةَ الجرمان والفندال والقوط الذين تألبوا على البلاد ، ثم طبعتها بالطابع المميز فكانت عربيةً اصيلةً ، هي اسطورةُ الدنيا في الأرض هناك .

منابع الثقافة العربية في الأندلس

ان الثقافة العربية في الأندلس هي الامتدادُ الطبيعي للثقافة العربية عامة مع عوامل البيئة المؤثرة ، وتمازج العرب والاسبان والحاجة الملحة في الإمارة الأموية الناشئة لمنافسة بلاطات بغداد الاسطورية .

لقد كان واقعُ الحياة الفكرية في الأندلس مع بدء حياة الاستقرار والأمن والبناء عقب قيام الإمارة الأموية المستقلة ، على يد عبد الرحمن الداخل كما اوضحت كواقع العلم والأدب في المشرق العربي ، يوم كانت الجزيرة العربية مركزَ الحياة الفكرية ، وموطنَ الشعر والأدب . فمكاظ وذو المجنة ، وذو المعجاز تلك الأسواق الأدبية شهدت مظاهرَ الحياة الأدبية التي مكنت العرب ان يبدعوا الحرفَ متناسقاً ، وكان نواة الحياة الفكرية لهذه الأمة ، التي كان ادبُها بعيد الدعوة من ارقى آداب العالم القديم ، وكان يوازي بقوة عناصره ، وقوة ابداعه وتفاعله مع الحياة ، ومع البيئة الأدب اليوناني والأدب الروماني ، وكان مع ذلك ارقى من الأدب اللاتيني والأدب الفارسي ، لأنه مع ضيق خيال مبدعيه ، كان يمثل كثيراً من خصائص الأدب الخالد ، فالأدب القصصي ، وادبُ الحوار ، والابداع تلك الميزات التي كانت بعض عناصر الأدب اليوناني الخالد ، كانت ممثلةً في الشعر العربي ، مع فارق البيئة والاستقرار والحضارة ، فالشعرُ الجاهلي ابنُ الصحراء كان مرآةً لحياة الجماعة العربية في كل مظاهرها ، وكان يمثل الى حد بعيد الحياة الاجتماعية ، وحياة الابطال ، ولا غرو ان شعر اليشكري القصّة ، وقصصُ ابي زيد وعنترة هي اصلق مثال لعناصر الأدب المميز ، ومظهر للجمال الفني . واذا كان الشعر في الجزيرة قد سبق النشر

الفني لأن الانسانَ بطبيعته عاطفةٌ قبل ان يكون فكراً ، فالشعر في الأندلس ايضاً كان اسبقُ من النثر الفني في الأدب العربي هذا النثر الذي حمّله في ما بعد اعلامُ كبار في العلم جميعاً مع فارق واحد ان الشعر والأدب كانا في الأندلس اخصبَ فكراتٍ واكثرَ موضوعات ، ذلك لأن الأندلس العربي كان مهداً لحياة ثقافية راقية ، وموطناً طيباً ، وبلداً للعلم والفن والأدب ، اسهم الفينيقيون في وضع ركائزه واقام عليه البناء شامخاً من بعد اليونانيون والرومانيون ثم اقبلت المسيحية فانعشت ودفعت به في معارج الابداع والبقاء . (ولعل هذا ما يفسر لنا سرّاً من اسرار الازدهار الفكري السريع الذي حققه المسلمون في اسبانيا ، على قلة اتصالاتهم بمنابع الثقافة القديمة والوسيلة في العالمين الإسلامي والمسيحي) فلقد عرفت اسبانيا القوطية اعلاماً كباراً امثال ايزدور الاشبيلي ، الذي كان يرجع في اصله الى الايبيريين الرومان والذي لم يكن كاتباً دينياً فحسب ، بل مصنفّاً موسوعياً ، حاول ان يجمع في كتبه كل ما انتهى اليه من علوم اليونان والرومان .

بين المشرق والمغرب العربيين

وهكذا نجد ان الأندلس ، الامارة الأموية ارضُ العلم والأدب ، والفن ، الذي وصل اليه عبر الزمان من الفينيقيين واليونانيين والرومانيين كان مطلقاً ، متجاوزاً متفاعلاً مع الشرق العربي ، كجزء من امبراطوريته الواسعة ، والذي انكمش على نفسه في ما بعد محاولاً تكوينَ دولة جديدة فيها ابدع ما في الغرب من مفاتن وآثار واجمل ما في الشرق من سحر وحضارة . وبالرغم من كل ذلك فلم يقو الشعرُ في الأندلس ان يستقل عن حقيقة الشعر المشرقي ، وان تفاعل في ما بعد وابدع ، فالنظرة الأندلسية الى المشرق كانت قدسية صادقة تجس بما لهذا الشرق العربي من سبق في ضروب الحياة جميعاً ، ولعل صاحب العقيد الفريد قد عبر عن هذه الحقيقة في مقدمة كتابه قبل ان يقدم ابوابه الآليء في قوله : « وَقَرَنْتُ بِهَا غَرَائِبَ مِنْ شِعْرِي لِيَعْلَمَ النَّاضِرُ فِي كِتَابِنَا هَذَا ، ان لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمتنثر » .

ويدوجلياً في قول صاحب العقد ان هذا الأدب الاندلسي في مطلع حياة الامارة كان « حظاً » من الشعر والنثر ، وكان العقدُ جميعاً في نظر صاحب بن عبّاد بضاعةً مشرقية . وفي ضوء قول صاحب العقد يؤكد المستشرق الاسباني المعاصر اميلوغراسيا كومس « ان الشعر الأندلسي نبع من بحر الشعر المشرقي وان تاريخه يصور لنا الحياة التي المت بالشعر العربي الاصيل ، فلقد كان لشعراء الاندلس ولع بدراسة الشعر الجاهلي ، ولكنهم كانوا يرون فيه شيئاً اثرياً قديماً ، وكذلك المحدثون من شعراء المشرق العربي لم يكن لهم عند شعراء الاندلس اثر بعيد ، في ما خلا بدواتٍ نلمحها بين الحين والحين ، ونلاحظها في الناحية الجمالية التي ظهرت مع الشعر القديم المحدث » .

الشعر الأندلسي ونشأته

وعلة ذلك انه في الوقت الذي ظهر فيه شعرٌ جديد بهذا الاسم في الأندلس كان الشعرُ القديم المحدث في اوجه في المشرق ، والحقيقة ان الشعر الأندلسي عامة في ما استثنينا بضع شواذ فقيرٌ جداً من الناحية الذهنية التفكيرية لأن شعراءه تأثروا بالشعراء الاعلام في المشرق بناحية البراعة لا بناحية التفكير ، فضلاً عن ان الشعر العربي كلّ في ذلك العصر كان في بدء نموه وتطوره واحتكاكه مع العالم المتحضر الذي خضع للدولة العربية بالفتح .

ليس من شك في ان هذا الشعر الاندلسي الذي كان بدايئاً في اول عهده بالإمارة تطور حتى بلغ أوج مجده في القرن العاشر الميلادي ، وفي عهد الخلافة الأموية بالذات ، واصبح صورةً للذروة النضج الفكري يعمل فيه العقل والتفكير والابداع والابتكار ، كما كان انعكاساً للخيال والعاطفة والبيئة . وقد شملت موضوعاته الزهد ، والهجاء ، والحماسة ، والنسيب ، والمديح ، والثناء ، والوصف بصفة خاصة ، وكان جُل ابداعهم في وصف الطبيعة الاندلسية وما فيها من سحر وتائق . غير انهم لم يظهروا براعة ذات بالٍ في الشعر السياسي والحماسي ، ولم يوفقوا كثيراً في شعر الحكمة والتهديب ، اما

شعرهم الديني فتتَّصه حرارة العاطفة وهم يتنقلون فيه من الوعظ الى وجد الصوفية دون تدرج .

اميليوغراسيا كومس والشعر الأندلسي

ان هذا الشعر الأندلسي الذي نبع من اعماق الشعر العربي على حد قول المستشرق الاسباني اميليوغراسيا كومس عملت ناحيتان على ابرازه ، وعلى تطوره ، فعرّب الأندلس قد انكروا الذات ، وقدموا كل أنواع التضحيات في سبيل الوصول الى منابر العلم والاساتذة المبرزين في العواصم الشرقية ، وكان عملهم هذا لما يبعث على الاعجاب الشديد ، اما الناحية الثانية فهي ان الصلة لم تكن قائمة بين الغرب العربي ، والشرق العربي فحسب بل كانت هناك كذلك صلة اخرى قائمة بين عنصرَي الثقافة في شبه الجزيرة، اسلامية، ومسيحية .

على هذه الأسس من عناصر الواقع الطبيعي للأرض الاسبانية وتاريخها وواقع البلاد السياسي نشأ الشعر العربي عامة وشعر الطبيعة والموشح الذي سوف ندرسه دراسة مفصلة والذي تميزت به تلك الأرض عن سائر الشعر في الدنيا العربية كلها . وكان نغم خالد متجاوب مع جمال الأرض في سحرها وكبرياتها ، ومع الشعب هناك في فرحته وفي حسرتة ، تلك الحسرة حكاية شعب مجده التاريخ ويكاه وعبر عنها ابن الأبار أحد اعلام الأدب والشعر في بيتين من قصيدته الكبرى مستعظفاً بها ابا زكريا الحفصي سلطان تونس وقد حوصرت مدينته بلنسية :

ادرك بِخَيْلِكَ، خيلَ الله اندلسا ان السبيلَ الى منجاتها دَرسا
يا للجزيرة اضحى اهلها جَزْراً للحادثاتِ وامسى جُدُّها تِيسا

تميز الأندلس عن سائر الأرض العربية بطبيعة مشرقة زاهية يتكبد فيها السهل الأفيع على اعتاب الجبل الأخضر ، وتداعب الأمواج ما امتد على شاطئ البحر من رمال فضية ، حيث تنكسر في دعة ولين حيناً ، وفي قوة وصخب احياناً اخرى ..

إلى جانب هذه الأرض الباسمة الفاتنة الساحرة المترامية الاطراف على ساحل أندلسيا تفتت طبيعته البلاد في الداخل عن مناظر تأخذ بالنفس والروح جميعاً ، فجبال قرطبة الشامخة الرابضة في الجنوب الغربي من الجزيرة ، وقرنطرة المتوجة بالأشجار المطوقة بشنيل نهرها الخالد ، وطليلة المترعة فوق نهر التاج الذي يمر بأطرافها وكأنه يحاول ان يلمس برق وخشوع تربتها الخصبة الخيرة ، والسهول المبعثرة في انحاء الأرض، لا تكاد الشمس تلملم عنها اشعتها الفضية حتى يغمرها ضوء القمر بشعاع ذهبي لا تمل العين النظر اليه والتأمل فيه .

هذه الطبيعة الضاحكة الباسمة ابان تفتح الريح ، والثائرة الصاخبة مع اطلالة الصيف ، والهادئة الناعسة تحت رذاذ الشتاء اوجت الى شعرائنا في الأندلس لوناً جديداً من الشعر غناه المتفوقون لحناً ابدياً علوياً فيه كل اختلاجات نفوسهم ، وعصارة احساسهم ، وانطلاقات خيالهم ، هو لحن اذا اريد به اللحن ، وهو صلاة للطبيعة الخاشعة اذا ما تغنوا به في تمتات ، هي كل السحر وكل الموسيقى .

شعر الطبيعة في الأندلس

واذا كانت الآداب الغربية قد عرفت هذا اللحن من الشعر في اواخر القرن الثامن عشر ، وكان مظهراً من مظاهر الحركة الابداعية بعد ان وجد الشعراء المبدعون في الطبيعة ميداناً فسيحاً لخيالهم ، وتربة خصبة لنمو العواطف الانسانية ، فلقد سبق الاندلسيون شعراء الغرب الى هذا اللون من الأدب الخالد حيث تركوا فيه خلاصة افكارهم ، وصادق عاطفتهم ، ونبأ مشاعرهم بعد ان وجدوا في طبيعة بلادهم انعكاسات لآلامهم وآلامهم ، ولما كانوا يحسون من شوق وهوى الى الأرض ، والى الطبيعة التي وجدوا فيها صداقة صوفية تجذبهم الى الساقية الهاربة من اعماق النهر ، والى الجبل الرابض هناك ، والى الغابة الكثيفة الملتفة المنتشرة في اعماق المنخفضات من الأرض عندما تتلاقى الجبال فلا تقوى ان تشد بعضها الى بعض فتترك هناك فسحات

طلقة من الأرض ، كفسحات الأمل امام الغريق المتطلع إلى الشاطئ .

وجاء ابن خفاجة ليغني أرضهم جنة الخلد :

يا اهل اندلس لله دُرُكُكُمْ ماء وظل وانهار وأشجَارُ
ما جَنَّةُ الخُلْدِ الا في ديارِكُمْ ولو تخيرت هذا كنتُ اختَارُ
لا تُخْتَشُوا بعدها ان تدخلوا سقراً فليس تُدْخُلُ بعدَ الجَنَّةِ النارُ

حقب وعصور الشعر الأندلسي

لقد اضحى من المقرر ان الشعر الأندلسي جميعاً قد مر في مراحل ثلاث ، فكان منذ بدء عصر الأمويين حتى اواخر القرن الخامس الهجري يمثل شعر التقليد لأدب الشرق ، واعلامه في هذا الأدب ابن عبد ربه وابن هاني ، وابن شهيد وغيرهم من شعراء الطور الأول . اما المرحلة الثانية وهي الحقبة التي امتدت خلال القرن الخامس فلقد اخذ الشعراء يصمدون عن الحاضر ويمثلون النفس ومشاعرها، والبيئة ومظاهرها مع الاحتفاظ بشيء من روعة الاسلوب التقليدي الذي اكتسبوه من الأدب المشرقي ، وبانتهاء القرن الخامس تم انتصار الجديد واتسعت حركة الموشحات ، هذا اللون الجديد من الأدب الأندلسي ، واعلامه ابن زيدون ، وابن عمار ، والمعتمد بن عباد، وابن الحداد ومن اليهم من شعراء الطوائف الذين كانوا يجمعون صور البيئة الجديدة الى معاني الشعراء السابقين .

أما المرحلة الثالثة فتضم شعراء القرن السادس الهجري ، الثاني عشر للميلاد حيث اخذ الشعراء يمثلون البيئة المترفة والجدّة ، واعلام هذا التطور ابن حمديس ، وابن عبدون ، وابن خفاجة وسواهم .

ان الوان شعر هذه المراحل الثلاث بما فيها من صفاء الشرق وتمازج الحضارات في هاتيك الأرض ، وخصائص الحياة الأندلسية قد انعكست كلها في هذا اللون الواحد من شعر الطبيعة ، الذي هو عنوان كتاب الشعر في الأندلس العربي :

الْوَلُّو دَمْعُ هَذَا الْغَيْثِ امْ نُقْطُ مَا كَانَ أَحْسَنَهُ لَوْ كَانَ يُنْقَطُ
اهْدَى الرِّيحُ الْبِنَا رَوْضَةً أَنْفَا كَمَا تَنْفَسُ عَنْ كَافُورِهِ السَّقَطُ
غَمَائِمُ فِي نَوَاحِي الْجَوِّ عَالِقَةٌ خَفَلْ تَحَدَّرْ مِنْهَا وَابِلٌ سَبِطُ
بَيْنَ السَّحَابِ وَبَيْنَ الرِّيحِ مَلْحَمَةٌ مَعَاصِمُ وَظَلَا فِي الْجَوِّ تَخْتَرِطُ
وَالْأَرْضُ تَبْسُطُ فِي خَدِ الثَّرَى وَرَقَاً كَمَا تَنْثُرُ فِي حَافَاتِهَا الْبُسْطُ
وَالرِّيحُ تَبْعُثُ أَنْفَاساً مَعْطَرَةً مِثْلَ الْعَيْبَرِ بِمَاءِ السُّورِ مُخْتَلَطُ

اضحى من الثابت بالرغم مما طرأ على العرب بعيد الدعوة من تغيير تناول جميع مظاهر حياتهم السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، ويدل حالهم واسس البيئة من واقع القبيلة ، الى واقع الأمة ، ومن زعامة الفرد المستبد ، الى حكم الخليفة العادل ، ومن حياة الصحراء والضرب في اطرافها الى حياة الحضرة والتمدن ، ومن رحلتي الشتاء والصيف ، الى حياة اقتصادية لم تعد تعرف تلك القافلتين اللتين كانتا تؤم الجزيرة من جلق تارة ، ومن اليمن تارة اخرى ، تنقل من دمشق واطراف بلاد الشام القرطاس والمتاع ، وتنقل من اليمن وجواره الجلود على حد قول طرفة بن العبد :

وَحَدَّ كَقَرطَاسِ الشَّامِي وَمَشْفَر كَسَبَتِ الْيَمَانِي قِدْهُ لَمْ يُجْرِدْ

ومن المنازعات القبلية ، والخصومات الحزبية ، والثأر الدنيء ووأد البريئات ، الى نوع من نظام الحكم وفق تشريع يكفل حق المستضعفين في الأرض .

الإسلام والشعر

يؤكد النقاد ان الحياة الأدبية في جميع مظاهرها لم تقو عوامل الدعوة ان تتناول قواعدها ، وان تبدل من حقيقتها كما تناولت بقية المظاهر الحياتية في الجزيرة العربية .

لقد ظلت القصيدة الجاهلية اقوى مظاهر هذه الحياة الأدبية سائدة في الأدب العربي ، فضلاً عن انها كرسست كمظهر ثابت ، نهج على منواله شعراء

الدولة الأموية ، وبعض شعراء العصر العباسي ، كما سادت في كثير من العصور الأخرى ، وتمكنت ان تسيطر في الأندلس وفي الشمال الأفريقي حتى بعيد القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد .

ان العصر العباسي ، وعوامل الخصومة السياسية بين العرب من جهة ، وبين الفرس من جهة أخرى لم يقوان يعدل في حقيقة القصيدة الجاهلية بالرغم من ان عدداً من الشعراء تعرضوا لها ، فقدر لهم ان يتناولوا موضوعاتها ، ووحدها ويدفعوا بها في اتجاه جديد يخالف المنهاج الجاهلي التقليدي الذي سارت عليه منذ عهد امرئ القيس الى عهد ابي نواس .

الأدب المحدث والعصر العباسي

ان الحقيقة العلمية تثبت ان العباسيين قد افلحوا في صرف القصيدة الجاهلية عن ذكر الأحبة ، ووصف الطلل ، وتعدد اغراض الشاعر في المعلقة الواحدة ، كما تثبت ان جهود المؤلدين من الشعراء لم تقوان تتناول هذه القصيدة الجاهلية من حيث واقعها العروضي ، لأن حقيقة شعر هذه الطبقة من المؤلدين كانت تواكب جوهر الشعر العربي .

امام هذه الظاهرة ، اقدم الخليل بن احمد الفراهيدي ، استاذ سيبويه والأصمعي وغيرهما من ائمة العربية على البحث في حقيقة هذه القصيدة الجاهلية حتى وفق إلى اكتشاف علم العروض وتدوين اصوله ، حتى غدا منهجاً مقررأ لواقع اوزان الشعر العربي عامة .

لقد ظلت القصيدة الجاهلية في بنائها العروضي ، واوزانها المختلفة التي حددها الخليل سائدة مع كل الجهود التي بذلها الشعراء من طبقة بشار بن برد ، وأبي العتاهية ، وأبي نواس ، وابن المعتز ، تلك الجهود التي لم تتعد الموضوعات الجديدة ، التي ما مرت بخاطر شاعر جاهلي ، او مخضرم ، او اسلامي .

في ضوء هذه الحقيقة نستطيع ان نؤكد ان هذه القصيدة الجاهلية التي

دخلت الى الأندلس مع الفتح ، سنة ثلاث وتسعين هجرية ، وانطلقت في ارضه كمنهج تقليدي لأدب الأمة المحاكمة لم تقو بعيد القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد ان تحتفظ بحقيقتها ومظهرها العروضي الذي قاومت به كل محاولات شعراء المشرق العربي . ذلك ان طبيعة البلاد ، وواقع الأمة في الأندلس كان يختلف عن طبيعة المشرق وواقع الأمة فيه .

ليس من شك في ان الخصومة السياسية بين العرب والفرس على الحكم كانت شديدة خلال عصور الخلافة العباسية ، الا ان كل ذلك لم يجرؤ ان يتعرض لحقيقة اللغة العربية كلفة رسمية للدولة سيطرت على اللغة الفهلوية وسادت في العصر الذهبي للأدب . بيد ان الشعب في الأندلس كان يستعمل العربية الفصحى كلفة رسمية يتعلمها الناس في المدارس ، ويكتبون بها الوثائق وما إليها ، اما في شؤونه اليومية فكان يستعمل لهجة من اللاتينية الدارجة ، ذلك ان عدد العرب الخالص الذين دخلوا شبه جزيرة ايبيريا كان قليلاً بالنسبة إلى سكان البلاد ، فضلاً عن اننا لا نستطيع اعتبار هؤلاء العرب ساميين او مشاركة ابتداء من جيلهم الثالث او الرابع بعد الفتح .

نشأة الشعر الموشح

هذا الازدواج في اللغة هو الأصل في نشوء طراز شعري مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية على حد قول المستشرق الاسباني خوليان ريبيرا :

«لقد اذرى اهل الأدب الفصيح هذا الطراز الجديد من الاتجاه الشعبي ، الا ان العامة اقبلت عليه ، وما زال امره يعظم حتى اصبح لوناً من الأدب اتخذ من الأدب الشعبي صورتين : احدهما الزجل ، والثانية الموشحة» .

فالزجل هو شعر يصاغ في فقرات تسمى ابياتاً ، وتبدأ مقطوعته بيت يعرف (بالمركز) او السمط تليه اغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد يتكون الغصن منها من ثلاثة مصاريع او اكثر ، ثم يعقبها بيت في نفس وزن المركز وقافيته وهكذا .

أما رأي المستشرق انخل كوثنالت بالنشأ وبالرغم من هذه العوامل التي عاشتها القصيدة العربية وجابهت بها الحملات المسعورة في بغداد لم تقو امام عطاء الاندلس الفكري ، وواقع العرب والاسبان في قرطبة ، وفي دنياهم الغارقة في الجمال ، وامام الانهار المنسكبة وفي ظلال الاشجار الوارفة ، وقبالة العيون الناعسة ، والوجوه الكرزية الساحرة .

قلت لم تقو القصيدة العربية في محيط امتزجت فيه لغتان ، العربية والرومنسية وتفاهمت فيه شخصيتان الشرقية الاصيلية ، والغربية المعجبة ، ان تقاوم الابداع ، والسحر ، والابتكار ، والموسيقى ، وهي وليدة الصحراء على نغم التشيد ، وابداع اللحن ، الا ان تتجاوب مع كل هذه المعطيات وان تلين امام نمط جديد للأوزان والعروض ، لم يتناول الوزن ولا العروض ، وانما وزع هذه الاوزان ، والعروض بشكل فني آخر ، او بعبارة اخرى وفق الى احياء كثير من العروض المهمل فوزعه يابداع فني جديد هو وليد البيئة ، وامتزاج اللغة ، وتطور الغناء والموسيقى .

عن هذا التوزيع الجديد للعروض ، وعن استخدام اشطار الاشعار ذات الاعاريض المهمة من قبل الشعراء الاعلام ، نشأ في الاندلس العربي الموشح من الشعر .

يؤكد النقاد وفي طليعتهم ابن بسام في كتابه الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة «ان مبتكر هذا النوع من الموشح هو الضرير مقدم بن معافى القبري ، الذي يعتبره شيخ الصناعة وامام الجماعة وانه سلك الى الشعر مسلكا سهلا» .

الى جانب هذا الرأي في مبتكر الموشح يثبت ابن بسام «ان صناعة التوشيع التي ابداع اهل الاندلس طريقتهما ، ووضعوا حقيقتها لم تكن من قبل مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود حتى كان عهد الشاعر الضرير الذي اقام منارها ، وكانما لم تسمع بالاندلس الا منه ، ولا اخذت الا عنه» .

يؤيد ابن خلدون رأي ابن بسام فيقول : « واما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قُطْرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية استحدثت

المتأخرون منهم فأن منه سموه بالموشح ينظمونه اسماطاً اسماطاً ، واغصاناً اغصاناً يكثررون منها ومن اعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عند قوافي تلك الاغصان واوزانها نهجاً متتالياً في ما بعد الى آخر الموشحة ، واكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة ابيات .

نسقا الموشح

للموشحات في ما يجمع النقاد نسقان رئيسان ، المؤلف والمختلف . اما النسق المؤلف فينظم من مطلع ومن ابيات ، والبيت يتألف من دور ومن قفل ، واما النسق المختلف فلا قاعدة له البتة .

هذا وللنسق المؤلف ثلاث درجات هي الموشحة المفردة (البسيطة) والموشحة المشناة (المزدوجة) والموشحة المركبة المتعددة الاسماط في المطلع .

ومن امثلة النسق المؤلف في الموشحة المفردة مثلاً تلك التي تنسب الى ابي بكر بن زهر والتي تتركب :
اولاً ، من مطلع يتألف من سمطين لكل منهما قافية مستقلة كقوله في السمط الاول والقافية المستقلة :

ايها الساقى إليك المشتكى

ثم يلي ذلك ، السمط الثاني ذو القافية المستقلة ايضاً :

قد دعوناك وان لم تسمع

وهكذا يتألف المطلع من سمطين ومن قافيتين مختلفتين :

ايها الساقى إليك المشتكى ، قد دعوناك وان لم تسمع

قلت إن الموشحة المفردة تتألف اولاً من مطلع يتألف من سمطين لكل منهما قافية مستقلة .

ثانياً ، من بيت يتألف من خمسة اسماط ، ثلاثة منها الدور وتكون على

روي واحد كقوله :

ونديم همت به في غُرَّتِه
ويشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته

ثم تختتم الموشحة المفردة بقفل يتألف من سِمطين هما تنمة الاسماط
الخمسة التي يتألف منها البيت جميعاً ، وقافية كُل سِمط من القفل تقابلُ قافية
السِمط المقابل في المطلع كقول الشاعر :

جَذَبَ الزُّقُّ اليه واتكا وسقاني اربعاً في اربع

وهكذا يكون لدينا في القفل سمطان ، القافية الأولى في السِمط الأول
وهي كلمة « اتكا » تقابل في قافيتها قافية كلمة « المشتكى » في السِمط الأول
من المطلع ، والقافية الثانية في السِمط الثاني ، وهي كلمة « اربع » تقابل في
قافيتها قافية كلمة « تسمع » في السِمط الثاني من المطلع ويقرأ الموشح كما
نظمه الشاعر :

ايها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع
ونديم همت به في غرته
ويشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزُّقُّ اليه واتكا وسقاني اربعاً في اربع

اما الضرب الثاني من النسق المؤلف فتكون الاسماط في مطلعها اربعة
(اي ضعف مطلع الموشحة المفردة) وينى صدرها المطلع على روي ،
وعجزاه على روي آخر ، اما البيت فيتألف من ستة اسماط تنسق في عمودين
متقابلين ، ويكون للثلاثة الاسماط في العمود الايمن روي واحد ، وللثلاثة
الاسماط في العمود الأيسر روي واحد آخر ، ثم تأتي اربعة اسماط هي القفل
فتقابل بقوافيها قوافي المطلع .

واما الموشحة المتعددة فهي التي يكون مطلعها مركباً من ستة اسماء مجزؤه ، كل ثلاثة اسماء تشكل جزءاً من المطلع ، واما البيت فيها فيتألف من ثلاثة اضعاف البيت في الموشحة المفردة ، اي من خمسة عشر سمطاً .

هذا النوع من الشعر الذي وفق اليه الاندلسيون في توزيع اوزان الشعر العربي التقليدي توزيعاً جديداً ، أثر في الغناء والموسيقى العربية ودفع بهما الى منحى جديد في الابداع والابتكار ، واوجد مذهباً جديداً في الشعر الأوروبي عامة .

ان القصيدة العربية الكلاسيكية التي رسخ الأدب الاسلامي في مطلع الدعوة قواعدها ، وافصح لها في العصور الأدبية الأخرى وشحها الاندلس العربي فكانت على حد تسمية الموشحة من الطير او الظباء لها غرتان مسبلتان من جانبيها هما على اغلب الظن في اعتقادي القافيتان المختلفتان في كل سمط من المطلع ، وقد كانت القصيدة العربية ذات قافية واحدة في عجز البيت الشعري .

في ضوء هذه الظاهرة قدم الأندلس للأدب العربي لوناً جديداً من الشعر ، هو الفن والابداع والموسيقى ، بل هو اللحن الأسر المتجاوب مع الأرغن الحالم في مراثي الالمان ، والانغام ، والاناشيد .

ومع كل ما قدمنا من دراسة عن الأدب والشعر فمما لا شك فيه ان الأدب ، في الشمال الافريقي والاندلس كان امتداداً لأدب المشرق في جميع مظاهره ، ذلك لأن تاريخ هذا الادب الذي اخذ في العصر الأموي يعبر عن كثير من النتاج الفكري يصور التطورات التي طرأت في الاصل على الشعر العربي في موطنه الأولى ، فشعراء الاندلس الذين كانوا في طليعة رجال الفكر هم كسائر شعراء المغرب اعجبوا بالشعر الجاهلي ، وان لم يترك هذا الشعر اثرأ واضحاً في أدبهم ، كما اعجبوا بشعر المؤلدين الذين ابتعدوا في وصفهم عن الصعراء وحياتها .

لقد اخذ هذا النفر من ادباء الاندلس والمغرب مع مطلع القرن الرابع

للهجرة، العاشر للميلاد يطرقون مواضيع جديدة لم تكن ظاهرة الأثر ، او واضحة المعالم عند الجاهليين او الأمويين اطلاقاً .

الشعر الأندلسي واثر الأدب المشرقي

امام هذا الواقع يقرر المستشرق الاسباني الدكتور اميلوغرسيا كومس في كتابه «قصائد عربية اندلسية» ان هذه الطبقة من شعراء المشرق ايضاً لم تترك اثراً بعيداً في الشعر الأندلسي الا ما صبغت به الناحية الجمالية فيه .

الحقيقة أن القصيدة العربية الكلاسيكية قد سادت في الأندلس وفي الشمال الافريقي ايضاً ، وان الأدب في هذه المنطقة من العالم العربي يومئذ لا يتميز بميزة ليست في الأدب العربي العام ، ولا غرو ان نقرأ من شعراء الأندلس والمغرب العربي قد اعجبوا ببعض شعراء المشرق ، ويرى الدكتور كومس ان المتنبي قد ترك اثراً بارزاً في جوهر القصيدة العربية الأندلسية، وان اثر المتنبي ظل في الشعر الأندلسي حتى موات الشعر العربي في اسبانيا الاسلامية .

إلى جانب هذا الرأي نجد الأديب الفرنسي هنري بريس يؤكد « ان اسبانيا الاسلامية في القرن الحادي عشر لم تتوقف عند حد اعجابها بالمتنبي ، فهناك شعراء آخرون اثاروا انتباهها فابن خفاجة الذي يعتبر اكبر مصوري الطبيعة ، والذي ليس هو اكثر من مقلد ماهر يعترف انه استقى اكثر مخيلته الشعرية من شعراء المشرق كالشريف الرضي ، ومهيار الديلمي » .

الخصومة الأدبية بين المغرب والمشرق العربيين

مع هذين الرأيين نجد رأياً آخر للمستشرق الاسباني الدكتور الياس مدب يؤكد فيه ان شعراء الأندلس بالرغم من اعتمادهم على الشعر المشرقي كمعين لتطور شعرهم ، فإن بعضهم وفي مقدمتهم ابن عبد ربه قد اثبت في كتابه المعقد مقاطع من شعره الغزلي ، وكأنه كان يحاول ان يؤكد ان شعره هذا يفوق

الشعرَ المشرقي رقة عبارة ، وجمال معنى .

من البديهي ان الرأي الذي توصل اليه المستشرق الاسباني سدبا يدل ولو بإشارة خفية الى الشعور الذي كان يحسه الاندلسيون نحو اعلام المشرق العربي ، وبالتالي يعبر عن حاجتهم الى تكوين شخصيتهم الأدبية المُميزة منذ مطلع القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد .

لقد كان الشعورُ السائد بين الطبقة الواعية الموجهة في شبه الجزيرة دافعاً لنفر من اعلام الفكر في المغرب العربي في ان يبحثوا عن خصائص مميزة للأدب في اسبانيا الاسلامية .

كان ابن حزم في طليعة هؤلاء المفكرين الذي يؤكد هنري بريس انه كان حكيماً عندما رأى أنه من العبث ان يذهب بعيداً للبحث عن اشياء متوفرة لديه ، والاندفاع نحو ادب المشرق ، ذلك ان هذا الأدب المشرقي لم يكن كافياً ليقدم معرفة تامة عن ماهية الانسان .

امام كل هذه الآراء ندرك ان مظاهر الخصومة الأدبية بدت في المغرب العربي منذ عهد الأديب ابن عبد ربه الذي اخذ يحاول مع الاتجاه الأدبي العام في البلاد تكوين شخصية ادبية مستقلة ، لها طابعها المُميز ، وان هذه المحاولة اخذت في القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد في رسم الخطوط الكبرى لهذه الشخصية الاندلسية الفذة ، التي راحت تبتعد عن مواكبة ادب المشرق عامةً وشعر المتنبي والشريف الرضي ، ومهيار الديلمي خاصة ، لأن هذا الشعر لم يعد بمقدوره ان يمد العبقرية الاسلامية - الاسبانية بتتاج يتوافق وتفتح هذه العبقرية على الآفاق الجديدة التي بهرت عرب الاندلس .

لقد كان التنافسُ شديداً بين قرطبة وبغداد ، بين المشرق والمغرب العربيين ، في السياسة ، والأدب ، والاجتماع تنافس في الحكم وفي الادارة ، الا انها خصومة معتدلة لم تكن لتُحس بها بغداد كما تُحس بها قرطبة الا في عهد المنصور ابي جعفر ، اما في غير عهد القائد العباسي فما كان اشد

احساس قرطبة لهذه الخصومة الخلاقة التي بنت الشخصية الأندلسية المتكاملة ، ذؤابة الحضارة العربية في الأدب ، والعلم ، والفن ، ونبراس الهداية لا في شبه الجزيرة وحسب وانما في اوروا كلها ، التي عاشت على اشعاع الفكر الاسلامي الأندلسي ، وعلى حصيلة نتاج مدرسة طليطلة في الترجمات الفلسفية والدينية التي كانت معيناً خصباً لبناء حضارة اوروية مستقلة قدّر لها في القرنين التاسع عشر والعشرين على حكم العالم .

ان الخصومة الأدبية التي استمرت رداً من الزمن بين المشرق والمغرب العربيين كانت المدماء الأولى في بناء الحضارة الغربية الحديثة ، المدينة للفكر العربي وللتراث الشرقي بخصائصها وشمولها .

الحقيقة ان هذه المدينة التي اطلت على العالم من هناك من الطرف الغربي الجنوبي لأوروا محملة بتاج العقل الإسلامي - الاسباني لم تلبث ان تماوتت على ذاتها وخبثت على نفسها اثر عوامل لم تقو العبقرية العسكرية والحلق الإداري والغنى ان تحول دون النفس الأخير ان يتلاشى ، والفضوء الشاحب ان ينطفئ .

ومن وراء الظلام الدامس الذي جثم على صدر الأندلس اشترأت عبقريات خالداً في الأدب ، والتاريخ ، والعلم ، يجلبها الفكر الحديث ويقدرها البحث العلمي .

وبعد « اين تبلغ هذه الدراسات في خوض ميدان رجب خصب كميدان الأدب الأندلسي ، وفق مدلول كلمته في العصر الأموي ، اين هي من الشعر الأندلسي وحده ؟ اين هي من الفلسفة او من التصوف ؟ اين هي من الطب والفلك والرياضة والنبات ؟ اين تبلغ وهي لا تكفي لعرض علم واحد من اعلام الفكر الأندلسي ، كابن حزم ، وابن قزمان ، وابن الأبار ، او المعتمد ، وابن عربي ، وابن حيّان ، كم للشعر ، وكم للثر ، كم للفن ، وكم للفلسفة ؟ » .

وبعد فهذه القطوف الياقة التي تقدمها اليوم ، هي في الواقع مظاهر لاسبانيا الاسلامية ، كانت في الأصل اطرافاً ، واجزاء ، وموضوعات شتى ،

حتى إذا التفت بين دفتي هذا الكتاب أقساماً ثلاثة تجسمت صورة للتاريخ والفكر ، والعلم ، والأدب ، والفلسفة والحضارة في الأندلس بعد ان ابدعها رجال مرموقون ، كُلُّ في دائرة نشاطه وثقافته ، ما كان بقدرة علم منهم ان يجعلها معبرة تامة في مجالات الفكر جميعاً كما كانت ، وكما هي صفحات مشرقة في تاريخ الحضارة الانسانية .

لقد استغرق القطاف نيفاً من ربيع قرن ، ومن جنة الاندلس الاسلامي ، حيث تولت اذاعتنا لبنان ، والقسم العربي في الاذاعة البريطانية ، اللتان استحققتا شكري وامتناني اذاعة هذه الأحاديث القطوف فأعانتا على هذه البحوث الموضوعية في دائرة اهتمامي وتخصصي وحققنا بذلك بعضاً من رغباتي في تعريف الاندلس ، ليس فقط الى المهتمين بالدراسات الاندلسية ، بل الى كل الذين شغفوا بالاندلس فكراً وحضارة ، وحتى الى الذين يكوه مجدداً ضائعاً ، ليس سعيّاً وراء استرجاع صقع ترامي في طرف امبراطوريتنا يومئذ وقد افسد الحكم العربي القبلي ، والاقطاعي سياسته وادارته بالرغم مما ابدع اعلامه الكبار ، قادة وعلماء ، بل تخوفاً من ضياع صقع آخر ، او من رمية في القلب ، بضربة سيف ، او طعنة رمح ، ويبدع عربية قبلية أخرى ؟

من هنا وما دامت هذه « القطوف الياضعة من جنة الأندلس الاسلامي الدانية » ، وفي الأصل موضوعات شتى فربما يقع القارئ الكريم فيها على عبارات قد تكررت عن غير قصد ، او على فكرات رددت ، ولكن عن عمد ، لا حباً في التكرار وهوليس من طبعي ، وانما هو نتيجة حتمية لتباعد الزمن بين قطاف ، وقطاف ، وثمره ، وثمره ، في حين ان الترداد وعن عمد كان سعيّاً وراء اشاعة ما كنت أصبوا اليه من خلال ما اكتب واذيع ايماناً برسالة الكلمة وما تبدع في العقل ، وتنشر في القلب ، والتي هي العقل والقلب معاً ، وفي تفاعل دؤوب من اجل الحق ، والخير ، والجمال ثالث المثل العليا التي نؤمن بها كأمة .

ليس من شك في ان هذه المقدمة ربما تلخص او تعرض وباقتضاب

لأقسام الكتاب الثلاثة : التاريخ ، الأعلام والحضارة ، إلا أنها بالحقيقة ليست سوى العبق والشذى لقطوف الجنة الأندلسية التي تقدم بعد ان طَوَّحَ الزمان بأشجارها السامقة ، الأمر الذي دفع الى نشر هذه القطوف عن « دار ابن زيدون » مَنْ شَغَفَ صاحبها بالأندلس وبشاعر ولادة ابنة المستكفي الخليفة ، التي نادى يوماً على ابن زيدون ، وقد برَّحَ بها الشوق اليه ، بشعر هو الأسمى في الحب يصدر وقبل قرون عشرة عن امرأة احبت :

تسرّقت اذا جَنَّ الظلام زيارتي فلّنتي رأيت الليل أكنم للسر
ويي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

قلت لقد شَغَفَ « شوقي » صاحب دار ابن زيدون بالأندلس فسعى بدوره الى نشر المحبة والمعرفة بالكلم الصادق الهادف فاستحق بدوره الشكر والامتنان ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين عبد الله ورسوله ، مبلغ العلم وخاتم النبيين وعلى آله وسلم .

بيروت في اول جماد الأولى ١٤٠٦هـ
الموافق ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦م
المؤلف

القسم الأول
موضوعات تاريخية

الطريق العربية

الى الشمال الافريقي والاندلس

بعد أن استقر الأمر في مصر للعرب على يد عمرو بن العاص اخذ القائد العربي يتطلع الى ما وراء الحدود ليحقق لأمنه امجاداً عسكرية الى جانب الانتصارات الباهرة التي سجلها التاريخ العربي .

لقد كان القائد العظيم لا يكاد يفرغ من اقليم حتى يشرع في اعداد العدة لفتح ما يليه ، فما ان كُتِبَ لجيوشه ان تستقر في فلسطين حتى شرع يمهّد لفتح مصر ، ولم يكد يفرغ من مصر حتى شرع في السير نحو برقة ، ثم تابع الزحف حتى وصل الى اطرابلس وقضى هناك على فلول الخصوم المنحسرة عن تلك البقاع .

ان الصحراء الممتدة من مصر الى برقة ، ومنها الى طنجة على طول الساحل الافريقي الموازي للبحر الأبيض المتوسط كانت الطريق العربية لهذه الجيوش التي حققت نصراً سريعاً على جيوش الرومان ، تلك التي هوجمت وفق اساليب وطرق عسكرية لم تكن تعهدها من قبل .

لقد تكشفت الحرب في لقاء الجيشين العربي الزاحف من الشرق ، والروماني المترصد به في مواقعه وقلاع على الساحل عن واقع الجيش العربي ، الذي تميز بخفة الانطلاق ، وسرعة الحركة وقوة المعنويات ، والایمان ، واعتماد الطرق الصحراوية في حركاته الخاطفة ، تلك الميزات التي دفعت به الى التغلب على الجيش الروماني على طول الساحل

الأفريقي ، هذا الجيش الذي كان في أكثره من المرتزقة ، والذي اعتاد أن يسير في عربات تجرها الخيول الشديدة على طرق مرصوفة بالحجارة ، ولم يكن يالفت حرب الصحراء ، فضلاً عن ضعف إيمانه بمبادئ الدولة التي يعيش في خدمتها .

امام هذا الواقع العسكري ، وعلى اثر الانتصارات الباهرة التي حققتها الجيوش العربية الزاحفة كان على عمرو بن العاص ذلك القائد الخبير في شؤون الحرب ، والداوية في الشؤون السياسية والحنق بالفطرة الى جانب ما اكتسبه الأيام من خبرة ، قلت « كان على القائد العربي ان يتطلع الى فتح افريقيا على حد تسمية المؤرخين القدامى لما يلي ليبيا اليوم من ارض وبلاد » .

لا شك ان عمرو بن العاص كان يتهبّ خوَضَ معارك جديدة على الساحل الأفريقي ، والتوغل في البلاد ، ولا علم له بنتائج هذه الحرب ، وإن كانت دلائل الفتوحات الأولى لبرقة ، واطرابلس تؤكد أن النصر سوف يكون بجانب القوى العربية .

هذا ويؤكد ابن الأثير في كتابه « الحلة السيرة » ، ان عمرو بن العاص كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك ويؤكد له ان الله عز وجل فتح عليه اطرابلس ، وليس بينها وبين افريقيا الا تسعة ايام ، فإن رأى امير المؤمنين ان يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل . الا ان الخليفة كتب اليه ينهاه عن ذلك .

لا غرو ان انتصار العرب في الزحف على افريقيا كان محققاً بفضل العوامل التي كان يتمتع بها هذا الجيش الى جانب ان القوى العربية لم تنطلق يوماً من مركزها الا لتستقر في البلاد الأخرى ، ذلك ان زحفها كان يرسم وفق مفهوم حياتي لم تعرفه الجيوش الأخرى ، فالعربي يوم ينطلق من موطنه الأول محارباً ، إنما كان ينطلق مع عائلته وعشيرته ومتاعه ، تلك العائلة التي كانت تسهل له سبل الحياة في اقامته الجديدة وتشد أزره ، وتدفع به إلى النصر .

✦ فتح الأندلس

ان هذه الحقيقة التي مكنت العربي من كل المعارك التي خاضها ، اساءت الى واقع العرب في الأندلس يوم اعقب موسى بن نصير غزو طارق بن زياد بزحف آخر على جزيرة ايبيريا ، فلقد كان جيشه مؤلفاً من عدد كبير من القبائل التي فرقها العصبية القبلية من جهة ، والبربرية والعربية من جهة اخرى حتى ان كلاً منها كان يلتف برايته وشعاراته ، كما يقول الرازي في كتابه الرايات .

هذه القبائل التي نزلت في اصقاع مختلفة من البلاد تعمل على تحقيق اهداف حياتية موضعية حتى اذا تكشفت الدولة العربية في الأندلس عن واقعها واخذ الاسبان في استرجاع البلاد ، تبدى اثر القبلية هذه في الحكم ، وظهر على المسرح السياسي خطرهما الذي كان سبباً رئيساً من اسباب انهيار الحكم العربي في الأندلس .

الحقيقة ان فتح افريقيا او المغرب على حد تقسيم الجغرافيين القدامى للشمال الافريقي لم يتم الا في زمن يزيد بن معاوية سنة اثنتين وستين للهجرة على يد عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان الذي غامر بنفسه واقحمها المخاطر في سبيل هذا الفتح الأول لبلاد المغرب .

نحن مع ابن عبد الحكم ، والبلاذري ، وابن الأبار ، واليعقوبي ، والبكري ، وابن خلدون ، وكل قد درس وأرخ لهذا الفتح العربي ، واكد ان محاولات كثيرة بذلت من قبل القادة العرب لتحقيق انتصار حاسم في الشمال الافريقي .

ان كتب المراجع تؤكد ان حملات كثيرة شنت على المغرب من اطرابلس وان هذه الحملات لم تكن الا بمثابة تمهيد عسكري وسياسي لمعركة فاصلة .

فبعد الله بن العباس غزا افريقيا سنة سبع وعشرين للهجرة ، ستمائة

وسبع واربعين للميلاد ، وان عبد الملك بن مروان قد غزا افريقيا مع معاوية بن حديج سنة اربع وثلاثين للهجرة ، ستمائة واربع وخمسين للميلاد كما ان معاوية بن حديج قام بغزوة ثانية للمغرب سنة اربعين للهجرة ، ستمائة وستين للميلاد ، ومن ثمة قام بغزوة ثالثة سنة ست واربعين للهجرة ، ستمائة وست وستين للميلاد .

هذه الغزوات كانت الضربات العسكرية الموفقة للقضاء على معنويات الخصوم ، وبالتالي على فهم حقيقة امكاناتهم ومبلغ استعداداتهم ، ومستوى تدريب جنودهم .

هذا فضلاً عن معرفة طرق موصلاتهم ، حتى إذا قام معاوية بن حديج كما اسلفت بغزوته الثالثة في سنة ست واربعين للهجرة ، ستمائة وست وستين للميلاد بدأ الزحف العربي المركز الصاعق على طول الساحل الأفريقي بقيادة عقبة بن نافع ، هذا الزحف الذي انتهى بنصر مظفر سنة اثنتين وستين للهجرة ، ستمائة واحد وثمانين للميلاد ، وقد سقطت طنجة حيث أطل منها على المحيط (بحر الظلمات) ورفع يديه الى السماء وقال : « يا رب ! لولا ان البحر منعني ، لمضيت في البلاد الى ملك ذي القرنين ، مدافعاً عن دينك ، مقاتلاً من كفر بك » . ومن بعد زحف الى ويليي او Volubilis المدينة الرومانية الأثرية في المغرب الأقصى .

لقد كان لهذا الفتح اثره البارز في الحياة الانسانية ، كما كان عاملاً اساسياً في فتح شبه جزيرة ايبيريا على يد طارق بن زياد عاملاً طنجة لموسى بن نصير .

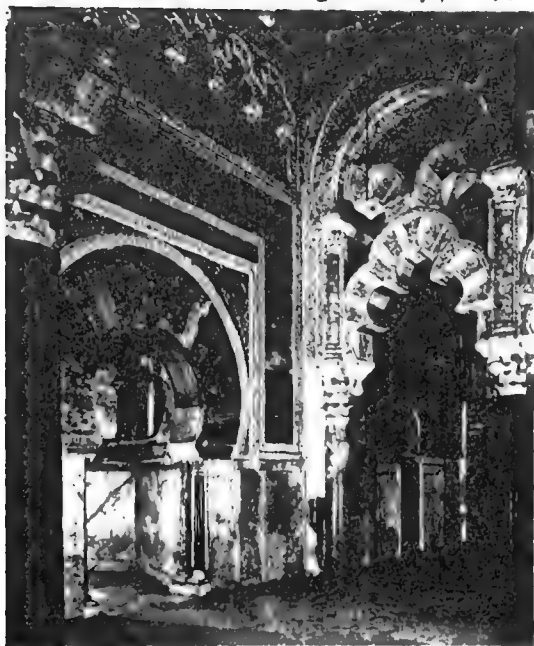
ان الطريق التي سلكها العرب الى افريقيا بعد احتلالهم لمصر وبقرة وطرابلس هي الطريق التي مهدت امام الحضارة العربية وحضارات العالم القديم التي تفاعلت في الشرق البعيد حتى قدر لها ان تتفاعل في طليطلة المدينة الناعسة على قمة الهضبة المسورة بنهر توجّه ، النافذة المشرقة على سهول وآكام فرنسا الجنوبية المدخل الطبيعي لمدينة العرب وحضارتهم الى

أوروبا، التي لم تحسن فهم هذه الحضارة وجوهرها فحولتها من حضارة فكرية روحية إنسانية الى مظاهر من المادية والقوة لإذلال الانسان ، لا لرفاهيته هدف الحضارة الاسلامية .

سوف تظل الطريق العربية إلى الساحل الافريقي النبراس الذي اشاع الضوء في الظلمات التي كانت تطوق افريقيا كل افريقيا فأتى عليها ، ثم تسرب قوياً الى اوروبا عن طريق الاندلس الاسلامي ، وبخاصة مدرسة الترجمات الاسلامية في طليطلة .



محراب الحكيم في المسجد الجامع بطرطبة



الاندلس الاسلامي والتاريخ^(١)

... والقيت حفنة من تراب ، فتناثرت ثم التقت وقد استقرت في اعماق اليم ، كادت تكون عائمة تفرقها الأمواج ، فجذبته اليابسة وشدتها اليها من الشمال ، وهكذا ظل البحر الأزرق يغسل اطراف الأرض التي وقعت فيه ...

انها شبه جزيرة كان اسمها في القديم إبارية ثم سميت باطقة ثم دعيت باشبانيا لأن رجلاً كان اسمه اشبان ملكها ردها من الزمن وسميت بعد ذلك بالاندلس نسبة الى قبائل الفندال الذين نزحوا اليها واستوطنوها .

تمتد شبه جزيرة إيسريا من الجنوب عند كنيسة الغراب على البحر المحيط الى الشمال عند الجبل المسمى بهيكل الزهرة الف ميل ومائة ميل وعرضها ستمائة ميل .

كان أول من اختط الاندلس بعد ان القيت حفنة التراب بنو طوبال بن يافث بن نوح فمن المؤكد انهم سكنوا الاندلس في الزمان الأول ويحدث الحميري في كتابه الروض المعطار في خبر الاقطار ان مائة وخمسين ملكاً حكموا الاندلس من سلالة طوبال ابن نوح هذا .

(١) من محاضرة القيت في مدرسة زهرة الاحسان بيروت ت ١٩٧٢ .

كانت اسبانيا او هسبانيا على حد تسمية العرب لها في ما بعد موطناً للرومان والفندال والقوط ، وكان آخر من ملكها منهم للذريق اسير في سجون الملك غيطشة الذي مات عن اولاد اكبرهم الموندو .

لم يستطيعوا مقاومته فانتهت الدولة وعاصمتها يومئذ Toledo طليطلة على حد تسمية العرب لها في ما بعد الى للذريق هذا الذي خالف مفاهيم حكم القوط للبلاد وا قدم على فتح بيت مغلق كان بها ، وكان الاقدمون قد حرموا فتحه ، يحميه زعماء القوم وقد وكلوا به بعضهم البعض ، عهد به الأول إلى الآخر ، وكان كل ملك منهم يملك يزيد على البيت قفلاً ، فلما ولي للذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما في البيت ، فاعظم ذلك اكابرهم و رهبانهم ، وتضرعوا اليه في الكف عن ذلك فأبى ، وظن انه بيت مال ، ففرض الاقفال عنه ودخله فوجده فارغاً لا شيء فيه سوى تابوت عليه قفل ايضاً ، فأمر بفتحه فالفاه فارغاً ليس فيه الا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمام ، متقلدي السيوف متكيي القسي ، وفي اعلاها في ما تقول الرواية العربية كتابة اعجمية جاء فيها : اذا كسرت هذه الاقفال وفتح التابوت وظهر ما فيه من هذه الصور فان الأمة المصورة فيه تغلب على الاندلس وتملكها . فوجم للذريق وعظم غمّه ثم أمر ببرد الاقفال واقرار الحراس على حالهم .

دخل العرب اسبانيا في رمضان سنة ٩٢هـ - ٧١٠م وكان يوليان حاكم سبتة القوطي على خلاف مع للذريق الذي اغتصب الملك من اولاد غيطشة ، وهنا تؤكد الرواية العربية ان يوليان هذا عندما وصل الى افريقية اتصل بطارق بن زياد الحاكم العربي في مدينة طنجة ، وانه رغبه في فتح الاندلس ، فكتب طارق الى القائد العام في مدينة القيروان وكان يومئذ موسى بن نصير فكتب بدوره الى الخليفة الأموي في دمشق الوليد بن عبد الملك ، فكتب اليه الوليد أن خضها بالسرايا حتى تختبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال ، فراجعه أنه ليس ببحر وانما هو خليج يتبين للناظر ما وراءه ، فكتب اليه : وان كان ، فلا بد من اختباره بالسرايا ، فبعث موسى عند ذلك رجلاً من جيشه هو

طريف بن مَلُوك المعافري في اربعمائة رجل فعبر بهم المضيق ونزل في الجزيرة المنسوبة اليه ، ثم اغار على الجزيرة الخضراء ونواحيها فأصاب سبياً ومالاً جسيماً .

بعد هذه الحملة الاستطلاعية التي تمت سنة ٩١هـ - ٧٠٩م امر موسى بن نصير قائده حاكم طنجة طارق بن زياد وهو على اغلب الظن من بربر افريقيا بالتوجه إلى الشاطئ الاسباني وقد بعث معه بسبعة آلاف من البربر والموالي ليس فيهم من العرب الا قليل ، وهياً له يوليان المراكب، وحل بالجبل الذي سمي باسمه يوم سبت في شعبان او رمضان سنة ٩٢هـ اثنتين وتسعين للهجرة آب سنة ٧١٠م سبعمائة وعشرة للميلاد .

من المؤكد في بعض كتب التاريخ ان القائد طارق بن زياد القى كلمة حماسية في الجند قبيل المعركة ، وانه احرق السفن التي عبر بها المضيق .

هنا كناقد للتاريخ العربي في الاندلس اود ان اتوقف لادرس نقطتين على جانب كبير من الأهمية :

١ - احراق السفن .

٢ - خطاب طارق بن زياد .

ان نقدة التاريخ الفرنجة وقد اقلقهم انتصار العرب الساحق ردوا هذا النصر الى رواية ابتدعوها اكدوا فيها ان القائد العربي احرق السفن .

الحقيقة ان امرأ من هذا لم يحدث لاسباب اهمها ان قائداً ما ، لا يجوز له عسكرياً ان يُتلف عتاداً حربياً له قيمته في المعركة .

ان قائداً كطارق بن زياد يتلقى الأوامر الحربية من القائد العام في مدينة القيروان لا يقدم على احراق سفن دون مراجعة قائده .

ان قائداً عاماً لا يخول نفسه اصدار مثل هذا الأمر قبل مراجعة حكومته .

ليس هناك وثائق او روايات تشير الى مثل هذه المشاورات .

ان القائد العربي الذي وطأ بجيشه ارض الاندلس لورأى من المصلحة العسكرية احراق السفن وريشما يتلقى الموافقة من القائد العام او الخليفة مع اعتبار حقيقة المواصلات في ذلك الزمن - لاضاع الوقت على نفسه وعلى جيشه - وسمح للعدو ان يبادره بالضربة القاضية الى جانب ان السفن كما اكدت وكما ذكرت الوثائق والمصادر المعتمدة لم تكن في الأصل ملكاً للعرب وانما قدمها يوليان حاكم سبتة ، فضلاً عن ان العرب في كل الفتوحات التي تمت لهم على طول ساحل افريقيا من سيناء الى طنجة لم يساند قواتهم البرية اسطولاً بحري .

فمن اين اتوا بهذه السفن ، وكيف سمح طارق بن زياد لنفسه ان يحرقها ؟

انها الرواية الأجنبية ، وبالتالي انعدام الرؤيا عند نقدة التاريخ الاسلامي !

هذا من جهة واما ما نسب المؤرخون الى طارق من خطبة فانا لا انكر عليه ذلك البتة ، ولكن كناقد انكر الخطبة التي نسبت اليه !

الدارس لتاريخ الأدب العربي يعرف ان التدوين لم يبدأ الا في العصر العباسي ، حتى ان حديث النبي العربي صلى الله عليه وسلم الذي يأتي اهمية بعد القرآن الكريم لم يجمع الا سنة ١٠١ للهجرة في عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز .

من هنا نذكر ان كلمة طارق التي نسبت اليه وضعت في عصر التدوين ودللتنا على ذلك الاسلوب المسجع ، والتنميق في العبارة ، وتخير الألفاظ والوصف الذي جاء فيها كقوله « العدو امامكم والبحر وراءكم » وهذا قول لا يصدر عن قائد لجيش يعرف ان العدو امامه والبحر وراءه ، انما يصدر عن مؤرخ تتراءى له صورة الجيش الفاتح ، فضلاً عن قول طارق الذي جاء في

خطبته « وقد اختاركم امير المؤمنين من الفرسان عربانا » مع ان كل المصادر التاريخية تثبت ان الجيش الذي دخل مع طارق كان من البربر وليس فيه غير قليل من العرب » .

نلاحظ هنا كلمة عرباناً لا عرباً .

الخلاف السياسي بين العرب والشعوبيين

كانت اول معركة بين العرب وخصومهم في طرف الجزيرة الخضراء ، ثم بعد تطاحن مرير انتصرت القوات الاسلامية وقضت على جيش لذريق الذي كان اكثره من المرتقة ، وقد انشق عنه اولاد الملك غيطشة « الموندو واخواه » وانحازوا بقوات ابيهم الى الصف العربي ، بعد ان احتلت القوات العربية مدينة قرطاجنة ، ثم تقدمت الى مدينة استجة فقرطبة وطليطلة العاصمة دون ان تلقى مقاومة تذكر ، ثم تابعت زحفها الى جليقية وانتهت الى استرقة في شمال البلاد .

بعد عام من دخول طارق ، قام موسى بن نصير القائد العام في حملة اخرى على الأندلس سلكت طريقاً مغايرة لطريق طارق إلا أنها التقت في ما بعد مع القوات الأولى في طليطلة .

يقول الرازي : « إن القوات التي دخلت مع موسى بن نصير لم تكن نظامية وانها كانت من رجال القبائل وكانت كل قبيلة تلتف برايتها وشعاراتها وقد استوطنت في ما بعد الأقاليم الاندلسية واقتطعت لها المزارع والحقول واخذت تسود مواطنها على غرار الحكم القبلي الفردي » .

في الواقع ان خطر هذه القبائل لم يعرف عندما كانت الدولة العربية في الأندلس في اوج سلطانها وقد تكشف سوء السياسة الفردية عند بدء انهيار الأندلس العربي ، فكانت هذه القبائل في خصومتها وتنكرها للمصلحة العامة اشد على الدولة من سكان البلاد الاسبان انفسهم ، واني كناقذ للتاريخ في الأندلس استطيع ان اقرر ان هذه القبائل في سياستها واقطاعها وحكمها كانت

احدى العوامل التي ادت الى خروج العرب من شبه الجزيرة بعد حكم استمر ثمانية قرون .

من المؤكد ان خلافاً وقع على ارض شبه الجزيرة بين موسى بن نصير الحاكم العام لشمال افريقيا وبين قائده طارق بن زياد لأن هذا الأخير لم ينجز الفتح كما كان قد قرّر له ، ولأنه لم يلب الأمر الذي وجهه اليه موسى بعد ان استبطأ عودته .

من المعروف في تاريخ الاندلس ان موسى بن نصير عين ابنه عبد العزيز والياً على الاندلس وعاد مع طارق بن زياد الى دمشق ليقدم الطاعة للخليفة الوليد بن عبد الملك ، وعند قدومهما الى بيت المقدس ارسل لهما سليمان ابن عبد الملك شقيق الخليفة امراً يطلب اليهما ان يترثا ربحاً من الزمن لأن الوليد كان على فراش الموت وانه يرغب في ان يكون قدومهما في مطلع خلافته هو ، لأنه كان ولياً للعهد .

لم يستجب موسى لرغبة ولي العهد ودخل دمشق في عهد الوليد واستقبل استقبالاً حافلاً كان يوماً مشهوداً في تاريخ العاصمة الأموية .

يؤكد النقاد والمؤرخون ان الخليفة سليمان بن عبد الملك بعد وفاة اخيه الوليد اساء معاملته القائل العربي الكبير موسى بن نصير وانه صادر املاكه وصرفه عن وجوه الخدمة العامة ، ومن المؤكد ان موسى بن نصير توفي وهو في طريقه الى الحج سنة ٩٦هـ - ٧١٤م .

من الثابت ان الدولة الأموية في الشرق خسرت المعركة الفاصلة بينها وبين قوى العلويين سنة ١٣٢هـ - ٧٤٩م وعلى انقراض هذه الدولة العربية الاعرابية كما يقول الجاحظ قامت دولة بني العباس الاعجمية الخرسانية .

ان الحكم الفعلي للولاة الامويين في الاندلس استمر نحواً من اربعين سنة من سنة ٩٢هـ - ٧١٠م الى سنة ١٣٢هـ - ٧٤٩م عندما سقطت الدولة الاموية في المشرق .

في هذه الحقبة بالذات كان والي الاندلس يومئذ عبد الرحمن بن يوسف القهري فاستمر بحكم البلاد وهو يدعو على المنابر للدولة الاسلامية في بغداد حتى دخل الاندلس سنة ١٣٨هـ ٧٥٥م عبد الرحمن بن هشام الأموي الذي قدر له ان يهرب من ظلم العباسيين في المشرق وان يقيم مدة طويلة في المغرب عند اخواله بني نفرة .

خلال المدة التي حكم فيها الولاة الامويون الاندلس وهي لا تزيد عن اربعين سنة تداول الحكم في قرطبة نحو من عشرين والياً منهم الصالح الاداري ، ومنهم المسرف المبلر حتى ان الاندلس العربي لم يعرف استقراراً طوال عهد الولاة .

من المؤكد ان العباسيين عندما اعملوا السيف في رجال بني امية تمكن احدهم عبد الرحمن ان يفر مع اخيه الى شمال سوريا ، وهناك ظل خائفاً متربصاً حتى داهمه الجند ذات يوم والشمس تلملم عن الأفق بقايا اضوائها المبعثرة ، فلم ير بدأ من ان يلقي بنفسه في اعماق الفرات ليعبره الى الضفة الأخرى ، بعد ان خدع الجند اخاه الصغير فارجعوه الى الشاطئ ، وهناك دونما رحمة ، ودونما شفقة يتروا رأسه ، ثم قضى الأمير الفتى اياماً طويلاً مختبئاً بين الغابات متوارياً عن الانظار ، مدبراً امر فراره الى المغرب ، وكان وهو الفتى ما زال يذكر نبوة مسلمة بن عبد الملك الذي توقع له ملكاً في الاندلس فيجد في ذلك املاً ليقطع هاتيك الفياقي الممتدة بين سوريا ومصر حتى يصل الى طرابلس ، في ليبيا فينزل عند اخواله من بني نفرة ، ولا يكاد يستقر به الأمر حتى يلاحقه امير البلد عبد الرحمن بن حبيب الذي كلف كعامل للمنصور ان يقتل الامويين وانصارهم ، وكان الفتى قد بلغه مقتل ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك على يديه ، فلم ير بدأ من ان يفر الى مكناسة ومن ثمة أن يلتجئ الى قوم من زناتة وهم من أشد بربر الساحل اكراماً للضيف واماناً للخائف ، حتى اذا ضاع عن اعين العامل ورجاله لحق بمليلة على الساحل الافريقي الى جانب البحر الأبيض المتوسط .

من بلدة مليلة بعث عبد الرحمن مولاه بلراً الى موالى المروانيين

وانصارهم في الاندلس فأخذ يجتمع اليهم وراحوا يشئون الدعوة له ، ويؤلبون له الرأي ، ويجمعون حوله الكلمة ، وكان الاندلس يومئذ شيعاً بالخلاف على اشده بين اليمينية والمضرية وقد دعمته المضرية وشدت من ازره وارادت له الامارة على خصمها وخصمه وولي الأمر في الاندلس عبد الرحمن بن يوسف الفهري آخر وال معين كان يراوغ ويمالئ رجالات البلاط في العراق فيدعو كما قدمت للخليفة العباسي على المنابر ، ويعلن ان حكمه كان مستمداً من الأوامر التي تصدر اليه من بغداد .

في عرض البحر ، وعلى الأفق البعيد سفينة تقترب من الشاطئ ، دون ان تحس حركة قوية تدفعها اليه ، وقد لاحت عن بعد كخيض ابيض على طرف السماء الداكنة ، وكان الموج هادئاً ساكناً ترتعش صفحته لتلك النسمات البليلة التي تداعبه فتبعث فيه طرفاً من حياة ، فينفرج في رفق كلما شق حيزوم السفينة عباب اليم الراكد الذي تضارب لونه بين الزرقة القاتمة ، وبين الخضرة الباسمة ابان تفتح الربيع .

لقد كان على الشاطئ نفر من الرجال كأن ثمة موعد بينهم وبين القدر فهم يمدون النظر في الأفق كأنهم كانوا يبحثون عن شيء في عرض اليم ، وتقرب السفينة مع الفجر المغط من وراء البحر اللامتناهي فتلوح على اطراف السماء اضواء باهتة لا تلبث ان تقوى كأن يداً خفية اخذت تلعب في ذبالة المصباح فتوقده ويتشر الضوء قوياً على جوانب السماء ثم يأخذ طريقه الى الأرض فيبدو الساحل جلياً امام الفتى القوي الذي هيء ليكتب تاريخاً جديداً لتلك الجزيرة التي القيت بالامس يوم خلق الله الأرض حفنة من تراب .

تلامس السفينة رمال المنكب المرقأ الصيفي الباسم القائم على الحصى بين البيرة والملية من اقليم مرسية في شرق الاندلس وينهض الأمير الفتى من جلسته ويهبط من السفينة وكأن جمال الأرض ، أو كأن المجد الذي ينتظره اهاب به الى ان يتطلع الى البلد الذي اعد ليكون امتداداً لحكم ذويه في المشرق .

ما ان تعاد أقدم عبد الرحمن الذي عرف في ما بعد بالداخل لأنه أول أمير

اموي دخل الاندلس بعد قيام الدولة العباسية ، قلت ما ان تطأ اقدام الفتى
الأرض حتى يتلقاه وفد من الرجالات على رأسهم ابو عثمان وعبد الله بن خالد
فيرحبون به ثم يتوجهون برفقته الى بلدة طرش .

كان هذا الاستقبال بعد نزول عبد الرحمن الداخل في الاندلس بدء
تاريخ جديد لشبه جزيرة ايبيريا هو عهد الامارة الاموية ، ويكون دخول عبد
الرحمن الاموي بلدة صراع شديد بينه وبين والي الاندلس عبد الرحمن بن
يوسف الفهري الذي استمر نحواً من عشرين سنة حتى قدر للأمير الاموي ان
يركز دولته ، وينظم جيشه ويحفظ حدود بلاده ، وان يقاوم الى حد بعيد كره
العباسيين له الذين حاولوا مرات كثيرة القضاء عليه ، فانتصر عليهم بحنكته
وسحره وحفاظه على الدولة وقتل كل الاشخاص الذين اتوا من الشرق حتى
سماء ابو جعفر المنصور الخليفة العباسي « صقر قرش » .

استمر حكم الامارة في الاندلس منذ دخول عبد الرحمن الداخل سنة
١٣٨هـ ٧٥٥م حتى اعلان الخلافة الاموية في قرطبة سنة ٣١٦هـ على يد عبد
الرحمن بن محمد الذي لقب بالناصر لدين الله بعد ست عشرة سنة من ولايته
كأمير ، وبعد ان ضعف نفوذ الدولة العباسية في المشرق وذهبت ريحها .

يعتبر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، وهو المعروف
بالداخل ويصقر قرش أول من أرسى قواعد الدولة الاموية في الاندلس ، وقد
خلفه من بعد ابنه هشام الرضي ، ثم ابنه الحكم بن هشام ، ثم ابنه عبد
الرحمن الاوسط ، ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن ، ثم ابنه المنذر بن محمد ،
ثم اخوه عبد الله بن محمد ، ثم ابنه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد
الله الذي اعلن نفسه خليفة وفي عهده تحولت الامارة الاموية في الاندلس الى
الدولة الاموية فيها .

يأتي عبد الرحمن الناصر ثاني شخصية اموية في الاندلس بعد عبد
الرحمن الداخل كما يعتبر منشيء الحضارة فيها ، وان الدور الذي اقامه خلال
الحكم العربي للجزيرة هو الدور الثالث :

مرّ الأندلس في :

١ - فترة عهد الولاة الامويين من سنة ٩٢هـ - ٧١٠هـ ، ١٣٧هـ / ٧٥٥م .

٢ - في فترة عهد الامارة من دخول عبد الرحمن صقر قرش سنة ١٣٨هـ - ٧٥٥م الى قيام الخلافة الاموية في قرطبة سنة ٣١٦هـ - ٩٢٨م .

٣ - في فترة الخلافة منذ اعلانها سنة ٣١٦هـ - ٩٢٨ الى سقوط الدولة الاموية في الاندلس وقد تخللها دولة بني حمود ، ومن ثمة قامت دولة بني امية الثانية وكان اول من حكمها المستظهر عبد الرحمن هشام بن عبد الجبار ابن الناصر ، وآخر من حكمها هشام المؤيد .

في مطلع هذه المرحلة الثالثة من تاريخ الاندلس العربي ، قدّر لمؤسس الخلافة فيها عبد الرحمن الناصر لدين الله ان ينشئ جيشاً قوياً من خيرة شباب الاندلس الذي كان مخلصاً لشخصه مؤمناً بقيادته الحكيمة ورجولته الفذة ، كما استطاع ان يضيف الى عداد الجيش جماعات من الموالي الجدد كوّنوها من عناصر اجنبية ، وهي التي عرفت بالصقالبة ، وكان معظمها من اوربا الوسطى .

بهذه القوى الجديدة الفتية غزا الناصر ممالك الاسبان في الشمال واخضعها لنفوذه ، كما تدخل في مهارة فائقة في الخصومات القائمة بين سكان مدن ليون ، وقشتالة ونبرة من الاسبان ، وتمكن بذلك من ان يسوس شؤونهم وينفذ مآربه السياسية الكبرى .

اضفى عبد الرحمن الناصر على الاندلس العربي ، النظام والرخاء ونشر في ارجائه المدارس والمؤسسات العلمية والثقافية ، واهتم بمكتبة القصر التي كانت اعظم برهان على درجة ثقافته العالية .

وفق عبد الرحمن الناصر الى انقاذ الحضارة الاسلامية الاندلسية الزاهرة مما كان يهددها من الاخطار الخارجية ، والخلافات الداخلية ، كما وفق الى تليق الفكر العربي بالفكر اليوناني ويؤكد الناقد الفرنسي هنري بريس ذلك ،

عندما يشير الى ان الراهب نقولا موفد امبراطور بيزنطة الرومانية الى عبد الرحمن ليشرح ويترجم كتاب «Dioscorides» تمكن خلال اقامته في قرطبة من ان يتعرف الى العالم ابن شهيد احمد بن عبد الملك ، فاستطاع ان يطلع على المؤلفات اليونانية ، هذه الموضوعات التي احياها فانتقلت الى ابنه ومن ثمة الى حفيده مع روح النقد وحلة الذكاء .

بعد سقوط الدولة الاموية الثانية في الاندلس وهي نهاية المرحلة الثالثة كان النفوذ العربي قد أخذ بالوهن بينما أخذ القشطييون يستعدون لاسترجاع بلادهم وفرض نفوذهم ، فاتسعت بذلك البقعة التي كانت تحت حكمهم .

في هذه الحقبة وبعد سقوط الدولة الاموية الثانية قامت في الاندلس دويلات كثيرة ، تعرف بدول ملوك الطوائف ، فقد استأثر بنو جهور بحكم قرطبة ، وبنو عباد بحكم اشبيلية ثم ضموا اليهم حكم قرطبة ، وبنو ذي النون بحكم طليطلة ، وبنو الافطس بحكم سرقسطة وهكذا أصبح الاندلس دويلات وشيع هي كما يذكر نتيجة لحكم القبائل التي دخلت مع موسى بن نصير في حملته .

كان بنو عباد في اشبيلية اقوى هؤلاء الملوك ، وقد لعبت دولتهم دوراً تاريخياً حاسماً في البلاد ، وفي عهد المعتمد الشاعر الذي كان في ذؤابة شعراء الاندلس رقة بيان ، واشراق ديباجة والذي تزوج باعتماد الرميكية التي شاهدها على ضفة النهر عند مرج الفضة واجازته على شطر من بيت عندما قال :

صنع الريح على الماء زرد

وطلب الى صديقه الشاعر ابن عمار ان يجيزه فأبطل فردت اعتماد : أي
درع لقتال لو جمعد .

قلت في عهد المعتمد وقعت معركة الزلاقة بين جيوش ابن ادفونش ملك قشتالة من جهة وبين جيوش بني عباد المؤيدة بجيش يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين في مراكش .

انتصر العرب في هذه المعركة ورجع يوسف بن تاشفين مع رجاله الى بلاده غير ان ملوك الطوائف عادوا الى منازعاتهم وخلافاتهم وكان على ابن تاشفين ان يحمي الاندلس مرة ثانية من غزو القشتاليين فدخل الاندلس ، وحمى البلاد إلا أنه خلع المعتمد بن عباد وساقه اسيراً الى اغمات في مراکش حتى وفاه الأجل .

سنة ٤٤٧هـ ١٠٥٥ م قامت دولة الموحدين في مراکش وقضت على دولة المرابطين وحكمت الاندلس ، وكان نفوذ الاسبان قد اصبح قوياً بعد الزواج الذي تم بين فرديناند الخامس وايزابيلا ولم يبق يومئذ تحت حكم العرب من الاندلس الا مملكة غرناطة وعلى رأسها ابو عبد الله محمد بن الأحمر آخر ملك عربي في الاندلس .

شهدت غرناطة المعقل العربي الأخير في الاندلس مأساة انهيار الحكم العربي فيها بعد ان طلبت فك الحصار الاسباني عنها ورضيت في الثاني من ربيع الأول ٨٩٧هـ الثاني ايضاً من كانون الثاني ١٤٩٢م الشروط التي املها الاسبان والتي قبلها العرب والتي نقضها الاسبان من بعد غدراً وخداعاً .

مع فجر ذلك اليوم المشؤوم غادر ابو عبد الله محمد قصر الحمراء موطن عزّه وخرج للقاء عدوه الظافر في سرية من الفرسان ، فاستقبله فرديناند في محلته على ضفة شنيel النهر الذي ينسكب لجينا في ارض غرناطة ، وهم الملك العربي ان يترك جواده ليحي الملك المتتصر ولكن فرديناند منعه وعانقه وكانت لحظة حاسمة سلم خلالها الملك العربي مفاتيح القصر الأحمر الى الخصم قائلاً « ان هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب في بلادكم ، لقد اصبحت ايها الملك سيد تراثنا هكذا قضى الله فكن في ظفرك رحيماً عادلاً .

في هذه المرحلة ينتهي حكم العرب للاندلس ويغادر الملك العربي الأرض التي احبها وتدمع عيناه وتراه امه عائشة التي كانت سيدة المقاومة العربية في غرناطة وهو يبكي فتلفتت اليه قائلة كلمتها التاريخية : « ابك اليوم بكاء النساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال » .

لقد سقطت غرناطة آخر معقل عربي في الاندلس ، ولم تجد كل المساعدات التي قدمها في ظروف معينة الحفصيون ، والمرابطون والموحدون فلقد سقط الحصن الأخير غرناطة المشربة ابدأ في عنفوان وكبرياء على الدهر المطلة على الدنيا في وسط سهلها ، وكان الجبل سيرانفاذا الحائل بينها وبين الأرض هناك ما زال معتزاً بحراسته الابدية للمدينة العربية الشامخة .

ان عوامل داخلية واخرى حيائية مع استئثار ملك ، وضعف حاكم وخداع امرأة ، واسراف حاشية ، وتعصب عالم ، واقطاع الحكم القبلي تضافرت كلها على ضياع البلاد ، الا ان الطابع العربي والصبغة الشرقية والتقاليد والحضارة التي اقامتها العبقريّة العربية هي الطابع المميز لتلك الأرض عن اوروبا كلها ، الوجه العربي الباسم صورة كل الوجوه الكرزية المشرقة ، العين السوداء الكحيلة طابع كل العيون الجميلة الدعجة ، الذكاء العربي المتوقد خصائص الذكاء الاسباني المتحفز .

هذا هو الاندلس العربي شيء من تاريخ ، وشيء من واقع ، إنه الاندلس الضائع .



معركة وادي البرباط الحاسمة

رمضان تاريخ ، ومحطات ، ومواقف الاحداث الكبرى في تاريخ الانسانية بعامة ، وتاريخ الاسلام بخاصة . حتى اضحى على الزمن رمزاً لبدايات ، وشعاراً لكرامات ، وموتلاً لهبات سماوية رحيمة .

في رمضان انزل الله القرآن منجماً على محمد ، عبده ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وفي رمضان انزلت التوراة على موسى ، وفي رمضان انزل الانجيل على عيسى المسيح ابن مريم عليهما السلام ، وفي رمضان في السنة الثانية للهجرة كان انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى ، وكان لها ما بعدها من مواقف حاسمة في تاريخ الدعوة الاسلامية ، ونشرها في العالم قاطبة .

وفي رمضان في السنة الثانية والتسعين للهجرة ، تموز (يوليو) سبعمائة واحد عشر للميلاد ، بل في يوم الاحد الثامن والعشرين من رمضان ، التاسع عشر من تموز (يوليو) اذن للعرب ان يدخلوا شبه جزيرة « ايبيريا » ويفتحوا الطريق امام الحضارة الاسلامية إلى قلب أوروبا ، ويطلوا ، بل ويعيشوا على ارض الاندلس المعطاء ويمثلوا فيها نقيضاً مما عرفت الجزيرة من عادات وتقاليد ، يتفاعل مع واقع البلاد ويقدم للعالم المتمدين مزيجاً من العلم ، والفن ، والأدب ، عصارة الحضارة الانسانية المميّزة .

في عرض البحر ، وعلى الافق البعيد سفن لا يستطيع المرء ان يحدد عددها بعد ، تقترب من الشاطئ دون ان تحس حركة قوية تدفعها إليه لبطئها

وثقل حملاتها من الرجال والعتاد ، في ما لاح على طرف السماء الداكنة خيط ابيض من الفجر .

مع ساعات الليل الأخيرة ، وابان الصيف كان الموج هادئاً ساكناً في بحر الزقاق ترتعش صفحته لتلك النسيمات البليلة التي تداعبه بفعل انفراج اليم كلما اوغلت السفن في البحر وراحت تجتاز المضيق بين شمال المغرب ، وجنوب اسبانيا ، هذا الذي كان في عهود جيولوجية غير قديمة برأ يصل ويربط بين قارتي افريقيا وأوروبا .

كان قائد الحملة متميزاً بفكر عسكري ، ونظرة حكيمة عميقة في وضع الخطط العسكرية وتطبيقها بدقة ، وحذر وبعد نظر حتى اضحى شخصية نادرة بين أمثاله واترايه من رجال الحرب والسلم .

اصدر القائد الأمر للسفن ان تبحر ومع الظلام اخذت تنحرف شمالاً بشرق ، مخالفة خط السير الشمالي المرسوم في اجتياز المضيق عادة لكي يفاجأ سكان الجزيرة الخضراء بقدوم القوات العربية دون ان يكتشفوا بانفسهم قدومها ، وقبل ان تنزل على الشاطئ الاسباني ، فتكون موضع هجوم مباغت من العدو .

وتبحر السفن وكأنها متجهة شرقاً إلى (سبتة) حتى إذا غابت في اليم ولم يعد مراقبو الشاطئ من الاسبان ومن الحرس والجنود رؤية وتحديد تحركها اخذت تتجه شمالاً مبتعدة عن الأرض الاسبانية ، فلإذا اوضحت في عرض البحر اتجهت غرباً ووست عند جبل اجرد احمر ، تخرج منه عين شرقية إلى جانبها صنم فيه تمثال ثور ، على ما يحدد ابن قتيبة في كتابه « الامامة والسياسة » والذي عرف مع الزمن باسم القائد العربي « طارق بن زياد الليثي » واضحى مشهوراً باسم جبل طارق (Gibraltar) واصبح مع الأيام من المواقع الاستراتيجية العالمية لخطورة مركزه ، وجبل طارق في الحقيقة شبه جزيرة صغيرة صخرية قابضة في طرف اسبانيا الجنوبي شرقي الجزيرة الخضراء (Aljéziras) .

تقول بعض الروايات العربية ان طارق بن زياد عندما دخل احدى السفن المنطلقة بالجند: « غلبته عينه فرأى في نومه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحوله المهاجرون والانصار قد تقلدوا السيوف ، وتنبكوا القسي ، ويمر النبي الأعظم بطارق ويقول له تقدم لشأنك ، ونظر طارق في نومه إلى المصطفى سيدي رسول الله واصحابه حتى دخلوا الأندلس فاستبشر وبشر اصحابه » .

لئن اذن للعرب ان يدخلوا « شبه جزيرة ايبيريا » في رمضان سنة ٩٢هـ - ٧١١م فالواقع ان اعداد الخطط ، بعد موافقة القائد العام موسى بن نصير حاكم افريقيا في « القيروان » وتوجيهات الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك في دمشق ، واوامره الصريحة في ان لا يزج بالجيش الاسلامي في معركة غير معروفة النتائج ، وخض البلاد بالسرايا ، ودراسة طبيعة الأرض ، ومبلغ تعلق الاسبان « بالملك » الحاكم المستبد المغتصب لعرش خصمه قد اخذ وقتاً طويلاً ، كل ذلك بعد ان حصل حاكم طنجة طارق بن زياد على عدد من السفن قدمها « يوليان » القوطي حاكم « سبتة » وعلى عهد بتقديم الادلاء وكل ما يعين على النصر .

قبل ان يدرس رجالات الاسلام من القادة والزعماء امر فتح الاندلس كانوا قد مهدوا له باحتلال كل الشمال الافريقي من عريش مصر حتى بحر الظلمات عند المحيط .

ان فتح الشمال الافريقي واخضاعه للحكم العربي اقام فيه حركة اجتماعية ناشطة لم يعرفها من قبل وقد اخذ باساليب الادارة ، والاتصال البريدي ، ونشر الثقافة العربية والاسلامية في اوساطه ، قبل ان يعرف التنظيم الاجتماعي في مطلع القرن الثاني للهجرة وتقسيم المسافة على طول الساحل الى ١٠٠٠ محطة ، يفصل الواحدة عن الأخرى ستة كيلومترات ، ويقوم على كل منها « رباط » هو عبارة عن مسجد ، وفندق ، ومدرسة ، ومستوصف ، وارض زراعية في آن ، تشبك البلاد من اولها في المشرق ، إلى آخرها في المغرب بمؤسسات متعاونة في خدمة الانسان ورفاهيته ، حقيقة الحضارة الاسلامية الانسانية .

كل هذا يدل على قيمة الفكر الاداري والاجتماعي الذي نظم ، وخطط وعمل على تهئية النصر لهذه القلة من الجنود التي عبرت في سفن اربع في رواية ، اوست في رواية اخرى « الزقاق » ونزلت ومع بشائر الفجر على برّ العدة .

من الثابت ان الجيش الذي عبر مع طارق بن زياد كان بربرياً خالصاً إلا من بعض الجنود العرب وكبار القادة كعبد الملك بن ابي عامر المعافري ، ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، وعلقمة اللخمي ، هذا لا يعني ان ليس في الجيش قادة من البربر ، فالمؤرخون يذكرون اسم القائد « مونوسة » البربري الذي قدر له مع زملائه من القادة ان ينفذوا ما أمروا به بدقة ، وقدرة ، ومهارة اكدت دورهم المجلي في الفتح .

ليس عجيباً ان يكون جيش الفتح في غالبيته من البربر لان الدارس لجوهر الدين الاسلامي ولغاياته من الفتوح وهو نشر الدعوة يدرك مدى قابليته كدين لاستيعاب المؤمنين الجدد لمجرد قولهم : « ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله » وقبولهم بأركان الاسلام والعمل بها .

في ضوء هذه الحقيقة كان الجيش الذي فتح ليبيا (المغرب الأدنى) في غالبيته من اهل مصر ، في حين كان الجيش الذي غزا الجزائر (المغرب الاوسط) في كثرته بربرياً من اهل ليبيا ، حتى إذا تم للعرب فتح كل الشمال الافريقي وسقطت طنجة القابعة عند ملتقى البحرين في (المغرب الأقصى) كان الجيش كل الجيش من البربر سكان الجزائر ، وطبيعي والأمر كذلك ان يكون جيش طارق بن زياد بربري في كثرته ، او بربرياً خالصاً .

كانت شبه الجزيرة الايبيرية تعيش في ظلم الحاكم وتحت قبضة يده الحديدية وكان النزاع بين اهلها على اشدّه ، والخلاف قائم في عمق بين معتصب السلطة وودريك « للديق » وقاتل الملك الشرعي غيطشه واولاده الموندو واخواه ، حتى إذا عرض يوليان على طارق بن زياد « حاكم طنجة » في البدء وعلى موسى بن نصير حاكم افريقيا في ما بعد دخول البلاد شاء موسى ان

يتحقق من صدق عزمته ، ولولائه فطلب إليه ان يشن الغارة على شواطئ شبه الجزيرة مكتشفاً ومتحققاً بالفعل ، وقتل وسبى ورجع بالغنائم ، وكان ذلك سنة ٩٠هـ - ٧٠٩م قبل عام واحد من حملة ابي زرعة طريف ، على شواطئ الاندلس ، والتي كان قوامها اربعمائة راجل ، ومئة فارس نقلوا بسفن «يوليان» ونزلوا في موضع يعرف باسم « بالوماس - Palomas » على مقربة من الموضع الذي حمل في ما بعد اسم جزيرة « طريف - Tarifa » .

كان ذلك في رمضان أيضاً سنة ٩١هـ تموز (يولية) ٧١٠م ، وقد سارعت يومئذ جماعات من رجال يوليان ، وانصار ابناء غيطشة لمساعدة القائد العربي وحرست المعبر حتى تم لهم ما ارادوا بعد ان قاموا بغارات سريعة خاطفة كحركات « الكومندوس » الشائعة اليوم .

يؤكد كل الذين ارخوا للمعركة وادي البرباط ان طلائع الجيش الاسلامي التي وصلت في رحلة السفن الاولى اقامت مكانا لها على الشاطئ ، واجتمعت فيها ريشما تم نقل الجيش جميعاً وذلك قبل المعركة الاولى التي حوى وطيسها واستمرت ناراها ، واشتد اوارها بخاصة عندما وصل الجيش القوطي بقيادة للزيق وذلك صباح الأحد في ٢٨ من رمضان سنة ٩٢هـ ١٢ تموز (يوليو) ٧١١م .

كانت المعركة مخيفة إذ القى القوط فيها بجيش يناهز المئة الف غالبية من الفرسان الاشداء ، والابطال المغاوير من ذوي التدريب البيزنطي المتقدم والمتطور في حين لم يكن الجيش العربي ليزيد عن سبعة آلاف ، الفرسان فيهم قلة بعامل ضعف الامداد عبر الزقاق ، وقلة السفن .

لم يكن هذا العدد الهائل من القوط ليرهب المسلمين او ليزعزع ايمانهم بالله والنصر ، «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله» ، «وما النصر إلا من عند الله» ، « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ، وان كانت القضية في كل حرب هي قضية المؤمنين ، بلى المؤمنين حقاً ، وليست قضية عدد وعدة وحسب .

ويثبت جيش الله ومن آزره من البربر الذين جاء بهم «يوليان» حاكم سبتة

وحليف العرب وقد بذل هؤلاء من الجرأة والاقدام وضروب الشجاعة ما يعجز البيان عن وصفه ، كيف لا وهم من خيرة رجال « عُمارة » وقد دربوا على نفس اساليب القتال البيزنطية واتقنوا فنون الحرب في الكر والفر ، تماماً كجيش لذريق ناهيك عما كانوا يتمتعون به من دفع معنوي ، وما يحسون من فخر وعزة .

لقد كانت المعركة حامية وفاصلة في آن فقد القى كل فريق بجموعه في نار آتونها المحرق التي خبرت القدرات ، ووازنت بين الرجال بعد ان صال الفرسان وجالوا على ساحة القتال ذهاباً واياباً ، وكراً وفرأ ، واقداماً واحجاماً ، واستبسل الفريقان إلى ان هبط الليل ولم يكتب لطرف منهما ان يحقق نصراً حاسماً وان كانت الشجاعة صنعة المقاتلين جميعاً .

مع الفجر عاد الفريقان إلى القتال ، وظلت الحرب بينهما سجالاً طيلة ايام سبعة ، وفي اليوم السابع وقد اخذت كفة العرب ترجح وان ابلا فرسان القوط مقدرة عظيمة في القتال ابان المعركة وثبتوا لضغط الجيش العربي الا انهم لم يلبثوا ان انهاروا جماعات جماعات امام الضربات المباشرة والمحكمة وكثرة الاصابات التي نزلت بهم ، ناهيك عما اصابهم من ويلات الحرب النفسية التي روجها يوليان وانصاره حيث اكدوا « ان العرب لم يقدموا إلى الأندلس للفتح والسيطرة بل للقضاء على « لذريق » والظفر بما في شبه الجزيرة من الثروات والغنائم » .

ما ان انتصف نهار اليوم السابع حتى وجد القوط انفسهم يقاتلون بعضهم بعضاً وقد اضمحوا وجهاً لوجه ، رجال لذريق يقاتلون انصار يوليان ، وحزب الموندو والاسرائيليين الذين خرجوا على طاعة الملك بقيادة « اوباس » واستغلوا الموقف العربي الراجح ، وتنحسر المعركة او تكاد عن الموت في كل ناحية وكل مكان ، القتلى يملأون الأرض والخيل مطروحة هنا وهناك ، والاسلحة مبعثرة ، والاشلاء متناثرة ، وبعض اجسام لا زالت فيها الحياة تن وتتوجع وتصرخ ولا مغيث ، والقادة من القوط الذين كانوا إلى ايام يرفلون

بالفاخر والناذر من اللباس ، ويخالج نفوسهم عز النصر اضحوا مضرجين
بدمائهم تدوسهم سنايك الخيل العربية ، النبيل منهم قرب خادمه ، والقائد
العظيم مطروح امام عبده ... !! انها المعركة ...

في صباح يوم الاحد الثاني الخامس من شوال ٩٢هـ ٢٥ تموز (يوليو)
٧١١م ، يمتطي طارق بن زياد فرسه ويجول في ساحة القتال المغطاة بالجنث
والتي شهدت هزيمة للذريق وجيشه في ما كانت مياه الجداول المتدفقة لا زال
لونها احمر قان . لقد دبت الفوضى في الجيش القوطي وفر للذريق مع نفر من
رجاله ، وطلائع الجيش العربي تلاحق فلولهم وتضرب اقصيتهم وهم لا يلوون
على شيء .

لقد قتل من القوط عدد كبير في ما جمع المسلمون ما لا يحصى من
الغنائم بخاصة ان عظماء القوط كانوا يعرفون بخواتم الذهب ، في حين كان
القادة يعرفون بخواتم الفضة ، اما الخدم والاتباع فكانوا يحملون خواتم
النحاس حتى قيل ان طارقال جمع منها ما لا يحصى ومن العناد والغنائم ،
وبخاصة الخيل حتى لم يبق من جنوده راجل .

بعد ايام قلائل جمع طارق جيشه مقتنماً الظروف الحرجة التي يعيشها
الجيش القوطي وسارع إلى قرطبة الا انه فوجيء بان حزب (غيطشة) الملك
السابق الذي غدر به للذريق اخذ ييذل مسمى لدى مجلس طليطلة ليستصدر منه
قراراً باعتبار وقلة (اخيلا) لحد ابناء الملك القليل ، ملكاً شرعياً للبلاد، الأمر
الذي لو تحقق لحتم عليه ان يعلن حرباً ضد حلفائه .

كانت اوامر « القيروان » كأوامر دمشق قد حتمت على القائد « ان لا يتوغل
في البلاد وأن لا يغتر بالجيش » ، ولكن ما هو موقف طارق أمام الأحداث
التي استجدت وكادت ان تقلب موازين القوى لغير صالح المسلمين ، لقد
رأى بفكره العسكري وبعد معركة شذونة ، او معركة وادي بكة ان الطريق
ممهدة أمامه إلى طليطلة ، فهل يؤب إلى طنجة تنفيذاً لأوامر موسى بن نصير
وهو قاب قوسين او ادنى من نصر نهائي مظفر .

لم يتوان البطل عن الاندفاع شمالاً إلى « استجة » ويجتازها مسرعاً إلى قرطبة حيث كان نفر قليل من فلول العدو مع حامية المدينة قد تحصنوا فيها وتوقع طارق مقاومة عنيفة .

لقد كان القائد الطلعة امام مواقف ثلاثة : ان يعود إلى طنجة مقر قيادته ، ان يحاصر قرطبة ، أو يزحف إلى طليطلة .

لم يكن امام طارق بن زياد إلا ان يزحف إلى طليطلة بعد ان احكم الحصار حول قرطبة واوكل امر القيادة فيها إلى مغيث الرومي مولى الوليد بن الملك . وهو في ذلك لم يتخذ هذا القرار اعتباطاً فطريق طليطلة في وسط الشمال من شبه جزيرة « ايسريا » كان امامه مههداً كما اشرت وكان احتلال عاصمة القوط في فكر ابن زياد العسكري يعني اطلاق الكمامشة العربية على قرطبة وسقوطها . وهكذا عبر الوادي الكبير عند منجبار (Manjibar) وسلك الطريق المار بمدينة جيّان (Jean) والذي كان يعرف في اليهود الرومانية بطريق « هانيبال » اللبناني الأصل فإذا اطل على طليطلة واحاط بها دخلها دون مقاومة تذكر فإذا هي شبه خالية ، فأهلها لاذوا بالفرار حتى كبار الكهنة ، عندها لم ير طارق سبيلاً إلا متابعة زحفه حتى « وادي الحجارة » في الشمال الغربي من شبه الجزيرة .

كان سقوط طليطلة بيد العرب مدعاة لمغيث الرومي ان يطبق فك الكمامشة الجنوبي على قرطبة ، فهو بعد ان ادرك بجيشه الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير وبعد حصار طويل لقرطبة انتظر ريثما سنع له عبور النهر فطوق المدينة الاثرية العريقة ، والتي هي مدينة في خمس مدن ، من كل ناحية وكل صوب حتى استسلمت حاميتها وسقطت في ايدي المسلمين .

ان دراسة نتائج معركة وادي برباط امر يطول ، فضلاً عن الاحداث التي شهدتها الأرض الاندلسية ابان الحكم العربي من مطلع عهد الولاة الامويين ، حتى سقوط غرناطة ، لقد كانت مسرحاً لمعارك طويلة وكثيرة ، واراضاً طيبة لعطاء خير ، ومساجد وكنائس ومعابد للمؤمنين ، ولغة عربية تكتب من

جانب ، ولغة اعجمية تكتب من جانب آخر . كل هذا التفاعل والاحتكاك جعل من اسبانيا الاسلامية مدخلاً لنقل مدنيت العرب والفرس والاغريق وبقية الشعوب التي تفاعلت في الشرق البعيد إلى أوروبا المدينة ابداً لاسبانيا الاسلامية وللنبوغ العربي الاسباني بحضارتها المعاصرة وتطورها العلمي الذي ينته على اساس البحث وركائز الموضوعية في الشعر والفلسفة ، والتاريخ ، والطب ، والفلك ، والرياضة والهندسة .

كل هذا في فكر القادة العسكريين كان يتم بفضل وعطاء وسخاء شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن .

ولكن بعد النكبة التي حلت بالاندلس ، وبعد النكبات التي تحل بالعالمين العربي والاسلامي اليوم هل لنا ان نردد مع ابن الأبار :
يا للجزيرة اضحى اهلها جزراً للحادثات وأمسى جدّها نَعْساً



معركة بواتية

لعل من أهم الأحداث التاريخية التي حفل بها الاندلس خلال عهد الولاة الامويين ، العهد الذي يبدأ بالفتح العربي لاسبانيا وينتهي بولاية يوسف ابن عبد الرحمن الفهري آخر وال اموي كان يرجع في شؤون الادارة والحكم الى قاعدة الامارة في القيروان، او الى مركز الخلافة في المشرق، والذي كان يمارس نوعاً من الحكم المنفرد المستبد في البلاد ، بعد ان اضحى الاندلسُ غريباً عن اداة الحكم العربية، لأن دمشق العاصمة الزاهية المطلة على غوطتها الفيحاء والمشرقة على العالم خلال الحكم الاموي ، قبله العرب ، وبلاط الدولة ، وملتدى الشعراء ، وبهجه النفس ، وسلوه الخاطر ، ونقطة الثقل في السياسة الدولية يومئذ شهدت على يد جيوش العباسيين التي غزتها من العراق الفصل الأخير من المسرحية التي انشأ فصولها معاوية بن ابي سفيان بالحنكة والمرونة تارة ، وبالقوة والخداع تارة اخرى ، كما شهدت الستار يلقي في شيء من حزن وفي كثير من حسرة على تلك الامجاد ، وهاتيك العبقريات الفضة التي عملت على بناء الدولة الاموية ، الدولة التي غيرت من مجرى التاريخ في الشرق العربي واملت على الحكم العربي تاريخاً جديداً قد لا يمت الى اسس رسالة هذا الحكم الا ببعض مظاهره ، والذي ليس هو الامتداد الطبيعي لاهداف وغايات الخلافة في شيء .

لقد كانت الدولة الاموية كما قال الجاحظ دولة عربية اعرابية وكانت

الدولة التي قامت على انقاضها دولة عجمية خرسانية ، ومن هنا كانت كلتا الدولتين على نقيض في التوجيه وفي تحديد الخطوط الكبرى لسياسة الحكم واهدافه ، وطبيعي ان تكون الدولة العباسية الجديدة صورة للحكم المرتقب عقب تأسيس الامبراطورية الاموية في دمشق من ناحية ، والواقع الطبيعي لاستمرار حكم الخلافة ومسايرة الزمن وتطوره من ناحية اخرى ، لو لم ينحرف بها قادتها عن الأهداف والمبادئ التي رُسمت لها في خرسان . والحقيقة ان بُعد الاندلس عن قاعدة الدولة الفتية الناهضة مع تقدير لعناصر سكانه من القبائل العربية الاعرابية ، ومن سلالات البيت الاموي ، ومن قبائل البربر المختلفة المتشاكسة ، ومن سكان البلاد الأصليين الذين امترحوا الى حد بعيد مع هذا الخليط من عناصر الشعب في الاندلس ، كل هذا كتب لعبد الرحمن بن يوسف الفهري آخر وال اموي كما ذكرت ان يكون مستبداً متفرداً في حكمه ، صارماً في احكامه ، حذراً في تنقلاته ، نافذ العزيمة داعياً لبني العباس مرونة منه وكياسة ليعبد الطامعين عن الاندلس ويقضي على آمالهم فيه ، ومع كل هذا لم يكتب له البقاء على رأس الحكم العربي في البلاد ، وبانقضاء عهده ودخول عبد الرحمن الداخل اقل عهد الولاة الامويين في الاندلس الخالد .

قلت لعل من اهم الاحداث التاريخية التي حفل بها الاندلس خلال عهد الولاة الامويين محاولة السمح بن مالك الخولاني اقتحام الحدود الشمالية الشرقية لشبه جزيرة ايبيريا ودفع القوات للتوغل في ما وراء هذه الحدود والسيطرة على اوربا ، ان الواقع التاريخي يؤكد ان القائد العربي وفق في اجتياز الحدود وفي الزحف على مقاطعة بروفانس في جنوب فرنسا وفي الاستيلاء عليها ، كما ان هذا الواقع يؤكد ايضاً بأن السمح بن مالك قد شنت شمل الثوار هناك والتحم مع قوات الدوق اكويتين في معركة حامية الا انه لم يستطع احتلال مدينة تولوز عاصمة الامارة ، فقد ارغم هذا الجيش العربي على العودة الى مقاطعة بروفانس بعد ان سقط قائده السمح بن مالك شهيداً على الارض الفرنسية سنة مائة واثنين للهجرة ، سبعمائة وعشرين للميلاد .

هذه المحاولة التي لم يكتب لها النجاح خلقت في رجال الجيش روحَ الثَّارِ واجبرت قيادته على رسم خطة احكم دقةً ، وأبعد هدفاً ، فاذا كانت سنة مائة وثلاث عشرة للهجرة ، سبعمائة وواحدة وثلاثين للميلاد وتسلم الحكم في الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك ، وهو راوية عبد الله بن عمر بن الخطاب واحد التابعين الذين دخلوا الاندلس للجهاد والرياط اخذ بزيارة المقاطعات المختلفة وتنظيم شؤونها وعهد بإدارتها الى نخبة من الاكفاء ، واعاد الى الاسبان معايدهم واملاكهم المغتصبة ، واعد الجيش اعداداً قوياً ، وزاد في عدده ، وازاد الى صفوفه كتائب جديدة من فرسان البربر باشراف قادة من العرب ، وحصن المناطق الشمالية ، ورسم الخطط لهجوم سريع صاعق ، وقد عجل بهجوم هذه القوى العربية على جنوب فرنسا ان احد امراء الشمال من العرب وهو عثمان بن ابي نسعة انشق على طاعة عبد الرحمن الغافقي وتحالف مع الدوق اكوين ضد العرب بعد ان تزوج ابنته .

كانت الخطة العربية تقضي باحتلال املاك الدوق والاستيلاء على مدن بوردو وليون وبيزنسون وسرعان ما كتب النصر للعرب واصبحت الطريقُ بعد هذا النصر ممهدة امام جيوشهم لاحتلال باريس .

هذا النصر الصاعق الب على القوى العربية التي ابتعدت عن مراكز انطلاقها في قرطبة وفي شمال اسبانيا كل القوى في اوربا كما وحد كلمة امرائها فتنادوا جميعاً لمجابهة هذا التيار ، وكان لهم في السهل الفسيح بين مدينتي تور ويواتية ما ارادوا ، وذلك سنة مائة واربع عشرة للهجرة ، سبعمائة واثنين وثلاثين للميلاد ، فانهمز الجيش العربي على يد كبير وزراء فرنسا الامير شارل مارتل بعد ان استشهد الامير عبد الرحمن الغافقي وبعد ان بهرت عيون الجيش الغنائم والتحف ، ونفائسُ الآثار التي استولى عليها والتي فرح بها ، والتي اذهلته عن النصر ، وعن طاعة اميره وقائده .

ان معركة يواتية كما يسميها النقاد الاجانب او معركة بلاط الشهداء كما

يسمى المؤرخون العرب كانت حداً للزحف العربي على أوروبا كما كانت نقطة تحول خطير في مجرى التاريخ العام ، فقد قال في نعتها احد النقاد الفرنجة « ان معركة تور انقذت اسلافنا البريطانيين وجيراننا الغاليين من نفوذ العرب الديني والمدني واخرت احتلال القسطنطينية » .

هذه المعركة الفاصلة في تاريخ العرب العسكري بالنسبة الى أوروبا يعتبرها ابن خلدون في كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر امتداداً لما رسمت الخلافة في دمشق من خطط وانها محاولة وفق منهج مرسوم لاحتلال أوروبا ، وبالتالي لاحتلال القسطنطينية عن طريق الغرب بعد ان تعذر الاستيلاء عليها عن طريق الشرق .

ويعتمد هذه الفكرة أحد الكتاب المعاصرين فيؤكد بأن الدولة الأموية كانت ترمي من وراء غزو القسطنطينية الى أكثر من الاستيلاء على عاصمة الدولة الشرقية ، فلقد كانت ترمي الى حمل الدعوة وفرض السيطرة على أوروبا كلها ، فلما ارتدت جيوشها امام اسوار القسطنطينية شقت الى الغرب ، والى أوروبا طريقاً آخر فجازت جيوشها الى اسبانيا ، واقتحمت جبال البرين الى فرنسا .

امام هذا الخلط في التحقيق بكيفيات الوقائع التاريخية واسبابها ، حري بنا ان نؤكد بأن ابن خلدون قد اخطأ في توهم هذه الاسباب ، وبأن الكاتب العربي المعاصر بنى رأيه على وهم وتخيل يعيدان عن الحقائق العلمية . والحقيقة ان الدولة الاموية قد حاصرت القسطنطينية مرتين ، المرة الأولى في عهد معاوية بن ابي سفيان سنة تسع واربعين للهجرة ، ستمائة وتسع وتسعين للميلاد ، والمرة الثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين للهجرة ، سبعمائة وسبع عشرة للميلاد اي بعد افتتاح الاندلس على يد طارق ابن زياد بست سنوات ، ومن حقنا هنا ان نتساءل ، اذا كانت الخلافة الأموية تنوي من وراء فتح اسبانيا الاستيلاء على أوروبا وبالتالي على القسطنطينية ، ترى لماذا هاجمت عاصمة الدولة الشرقية للمرة الثانية سنة تسع وتسعين

للهجرة ، وطريق اوربا قد تمهدت امام جيوشها عن طريق الاندلس ، وهل كان بإمكان القوات العربية التي عجزت عن احتلال القسطنطينية عن طريق آسيا بعد حصار طويل الأمد وهي قريبة من مراكز انطلاقها في سوريا احتلال القسطنطينية عن طريق اوربا وهي القوة الخليط من الشعب العربي يومئذ ، وهل ان اسوار القسطنطينية من جهة اوربا هي من الوهن بحيث تستسلم سريعاً لهذه القوات .

ان الحقيقة العلمية تدحض كل هذه الآراء ، فافتتاح الاندلس كان وليد الاحداث المحلية والظروف الحياتية ، ولقد اكدنا نقلاً عن ابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الاندلس وعن غيره من المؤرخين العرب العوامل التي اهابت بالقائد العربي الى غزو جزيرة ايبيريا وافتتاحها ، وليس من شك في ان الخلافة الاموية وهي الدولة العربية الاعرابية التي بنت حكمها على اساس تمجيد العنصر العربي كانت اعجز من ان تدبر تلك الخطط العسكرية ولم يكن لها اهداف بعيدة المدى للسيطرة على اوربا ، وان كنت لا انكر بانها لو وفقت الى ذلك لما تراجعت عن اقتحام الحدود في سبيل نشر الدعوة وتأسيس امبراطورية عربية بعيدة الحدود .

وبعد ، وازاء هذه الاحداث التاريخية والحقائق العلمية لا بد من ان ينحني المؤرخ امام عبقرية العرب العسكرية ، وامام تلك الشخصيات التي ظلت خالدة ، مشرقة على الدهر ، تحكي اسطورة العرب الخالدة في الفن ، والعلم والأدب ، والسياسة والمرونة والدهاء .

١ - لعل ما اشرنا اليه من رأي لابن خلدون هو من التكرار المتعمد توضيحاً لروايات دست على التاريخ الاسلامي .



يومنان في تاريخ بني امية

عرف الامويون في تاريخهم بعد معركة صفين يومين من اخلد ايامهم السياسية ، لعب فيها المجد والدهاء دوراً عظيماً الخطورة حتى قدّر لدولتهم ان تتبوأ الزعامة الفعلية في العالم الاسلامي بعد المعركة الأولى ، كما قدّر لها ان تؤسس صرح الحضارة الانسانية في الاندلس العربي بعد المعركة الثانية وبعد ان ركزت قواعد الحكم فيه على اسس جديدة من الادارة والنظام .

الحقيقة ان كلا اليومين كانا صورة واحدة في التاريخ ، وفي الخصومة السياسية ، وفي اوجه المعركة ونتائجها ، بالرغم من ان قرنا ونيفاً من الزمن كان يفصل بين الحدثين العسكريين .

لا بد لناقد ايام بني امية وتاريخهم الحافل بالمعارك والثورات من ان يقف طويلاً مع شاعرهم الاخطل يستجلي قوله :

اعطاهم الله جدا ينصرون به لا جذاً الا صغير بعد محتقر

الواقع ان حظ بني امية في نتائج المعارك التي خاضتها قواتهم كان عظيم الأثر في زعامتهم للعالم الاسلامي ، وفي اقامة عرشهم في شبه جزيرة ايبيريا بعد ان اعاد التاريخ نفسه في يومين متشابهين انجلت فيهما المعركة عن نصر ساحق للدولة الاموية العربية الاعرابية على حد قول الجاحظ ، وغدوا سادة المشرق والمغرب العربيين .

ليس من شك في ان المعركة التي وقعت على سهل المصاراة قبالة قرطبة في الاندلس اعادت الى امويي المغرب ذكرى ايام معركة مرج راهط فاتاحت لهم ان يتفاءلوا بنتائج معركتهم الجديدة ، والظروف العسكرية والسياسية بين المعركتين تكاد تكون واحدة .

يذكر ابن القوطية القرطبي في كتابه تاريخ افتتاح الاندلس « ان عبد الرحمن الداخل سأل اصحابه قبل بدء المعركة مع خصمه يوسف بن عبد الرحمن الفهري في أي يوم نحن ، ف قيل له في الخميس وهو يوم عرفة ، فقال اليوم عرفة وغداً الاضحى والجمعة وامري مع فهري ، ارجو انها اخت يوم مرج راهط » .

مضى قرن ونيف من الزمن بين معركة مرج راهط الى الشرق من دمشق ، الارض الفيحاء المنسكبة اخضراراً على ضفاف بردى اللجيني ، وبين معركة سهل المصاراة ، الأرض الحاملة على اطراف نهر الوادي الكبير ، والى اعتاب جبال سيرا مورينا في جنوب الاندلس .

ان زمناً طويلاً كهذا لم يكن كافياً لاطفاء اوار الخصومة السياسية ، والنفوذ القبلي ، والعقد الاعرابي بين القيسية واليمينية ، او بين عرب الشمال وعرب الجنوب واحلافها بالرغم من ان الاسلام حمل على القبلية وصهرها في بوتقة الدعوة فاعادها الامويون يوم نادوا بالشار لمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، الاموي البيت .

اضرم المعركة الأولى في المرج الضحّاك بن قيس الفهري احد كبار صحابة النبي صلى الله عليه وسلم في ما يحدث عماد الدين القرشي الدمشقي في كتابه « البداية والنهاية في التاريخ » ، واحد اصدق اعوان معاوية بن ابي سفيان ، ونائبه على دمشق .

هذا ، ويؤكد ابن عبد ربه في « العقد » والمسعودي في « التنبيه والاشراف » وغيرهما من المؤرخين ان سبب معركة مرج راهط هو وفاة

معاوية بن يزيد دون ان يعين ولياً للعهد ، لأن الخليفة المريض شاء ان يترك الأمر ليتخذ فيه اهل الحل منهاجاً جديداً عليهم يخالفون به منهج جده معاوية بن ابي سفيان حسماً للخلاف السياسي .

لم يلبث الناس ان سارعوا الى مبايعة عبد الله بن الزبير عقب وفاة معاوية بن يزيد وكان في ظليعتهم النعمان بن بشير الانصاري امير حمص ، وزفر بن الحرث الكلبي وهو على قنسرين وتبعهما في ما بعد الضحاك بن قيس الفهري الذي خرج الى مرج راهط في ستين الفاً من القيسية عندما دعى الى نفسه مروان بن الحكم شيخ بني امية ووقف الى جانبه عبد الله بن زياد وبني امية وكلب، وغسان، والسكاسك، وطى .

استمرت معركة المرج عشرين يوماً كاد يتصر فيها الضحاك لو لم يلجأ الامويون الى المهادنة والخذاع شأنهم في صفين، وما امن الضحاك رغبة الامويين في الصلح وفي مبايعة عبد الله بن الزبير حتى امسك عن القتال ولكن سرعان ما شدت عليه خيل خصومه ونزع قومه الى راياتهم من غير استعداد واقتتل الناس قتالاً شديداً يوحمل مروان بن الحكم حملة عنيفة نزل معها النصر وقتل الضحاك مع نفر كبير من فرسان قيس ورجالاتها البارزين .

ويشاء القدر ان يعيد التاريخ نفسه في يوم آخر في سهل المصارة ويجتمع عبد الرحمن بن هشام صقر قریش مع اليمانية واحلافها كما يلتقي يوسف بن عبد الرحمن الفهري مع القيسية وانصارها ويرجو الداخل ان يكون يومه مع خصمه كيوم جده مروان مع جده خصمه الضحاك الفهري ، واليوم جمعة واضحى فيتحقق رجاءه ويخضع الاندلس من جديد لنفوذ الحكم الأموي الذي انحسر عن المشرق بعد مقتل مروان بن محمد آخر خلفائهم .

نرى لو قدر للاختل شاعر الامويين ان يشهد معركة سهل المصارة بعد ان عرف مواقف دولته في معركتي صفين ومرج راهط هل سيعتبر هذا النصر الجديد اقبالاً سماوياً فيردد بيته الاول :

اعطاهم الله جداً ينصرون به لا جدّ الا صغير بعد محقر

ام ان الشاعر الاموي سوف يؤكد ان السماء امدت الامويين بعون الاهي
جديد على غرار ما امدتهم يوم صفين .

ويوم صفين والابصار خاشعة امدهم اذ دعوا من ربهم مدد
لا غرو ان الامويين ادركوا ان (الحرب خدعة) فلبجأوا اليها في صفين
ومرج راهط، وسهل المصارة ، وكلها ايام خالدة في تاريخهم السياسي
والعسكري .

هذا ، ولو كتب للاختل ان يؤرخ يومهم الخالد في الاندلس وقد التقت
اطراف السماء الزرقاء باردان الأرض الزمردية على جنبات الفردوس في شبه
الجزيرة لانشد ان السماء كل السماء نزلت على ارض الاندلس لتقف الى
جانب صقر قريش ، سيف الله المنتصر ! . وانها « بدر » أخرى ، والشعراء
يتبعهم الغاؤون !



معطيات الحكم العربي في الاندلس ونتائجها

بالرغم مما عرف الاندلس العربي من مظاهر حضارية كانت موضع دراسة النقاد والادباء ، فقد ظل مغلقاً بالنسبة للدراسات الرياضية والفلكية ، والعلوم العقائدية والعقلية وغيرها .

ليس من شك في ان واقع الاندلس الداخلي وخضوعه لعلماء الدين من المالكية المتشددين قد كان له اكبر الأثر في كثير من نتائج الحياة السياسية والفكرية ، وبالتالي من النهاية التي آل اليها مصيراً حتمياً للأحداث، والأساليب الحياتية التي رسمت لهذه البقعة من العالم العربي يومئذ ، وفق الأساليب المرسومة لبقية انحاء العالم الاسلامي .

ان طبيعة البلاد الاندلسية وما تكشف فيها من حضارات قديمة ، وسلالات بشرية ، وعقائد دينية ، ومذاهب فكرية كانت ادعى الى اهتمام المسؤولين العرب من الحكام والفقهاء مما رسموا لتلك البلاد من سياسة تقليدية كانت امتداداً للسياسة العربية في المشرق .

كان على الطبقة الحاكمة الواعية ان تأخذ الاندلس بحكم يتناسب والنفسية القومية التي جويت على ارض بلادها فيقوم منذ عهد الامارة الاندلسية في قرطبة نظام حكم يتلاءم مع جوهر ما حمل العرب الى الاندلس من عقيدة وفكرات سياسية ، واساليب في الحكم والادارة ، وبناء مجتمع جديد يساير ركب الاسلام وفلسفته في المجتمع ، وهو دين ودولة ، كما يتلاءم

مع عقلية ابناء البلاد ، ونفسيتهم وروحهم الثورية ، ونمط تفكيرهم ، وخاصة عقيدتهم القومية والدينية .

لقد كان موقفُ العرب في الاندلس يختلف اختلافاً كلياً عن مواقفهم في البلاد التي دانت لهم بالفتح ، فلم يكن الهدف الأول من الاستيلاء على شبه جزيرة ايبيريا نشر الدعوة الاسلامية في البدء وحسب ، فأهل الجزيرة كانوا يدينون بالمسيحية وهم من هذا القبيل اصحاب كتاب سماوي ، ولم يعرف عن العرب حتى تاريخ استيلائهم على الاندلس في حياتهم العسكرية انهم جابهاوا اهل كتاب ، بل من المعروف ان المسلمين الأوائل هاجروا الى الحبشة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم لأن اهلها من النصارى .

هذا فضلاً عن ان اقتحام العرب للاندلس لم يكن رغبة في الفتح والسيطرة ، او في جمع الغنائم ، فمن المؤكد ان العرب لبوا نداء شعب كان يعاني الظلم ، والاضطهاد ، والفقر ، والتعصب من طبقة فرضت نفسها على البلاد ، وابتاحت لنفسها الظلم ، وعشت بالقيم الاخلاقية ، وبالفضائل الانسانية .

الحقيقة ان فتح العرب للاندلس كان استجابة انسانية لشعب رغب في التخلص من حكم جائر ، وليس ادل على ذلك من المساعدات العسكرية ، والمعونات المادية ، التي قدمها الكونت يوليان حاكم سبته انتقاماً لشرفه الذي طعن في قصر الملك لذريق ، فضلاً عن جموع الشعب التي ناصرت الجيش العربي الفاتح ، وعن اولاد الملك غيطشة ، الموندو واخويه الذين وقفوا بجانب طارق بن زياد ، القائد العربي .

ان النصر الصاعق الذي حققته القوات العربية امام قرطاجنة اول مدينة اسبانية تحطمت اسوارها امام الجيش العربي ، هو الدليل الواضح على تفهم الشعب الاسباني لحقيقة الحملة العربية وبالتالي لاهدافها الانسانية والحياتية في شبه الجزيرة .

امام هذه الحقائق التاريخية التي تثبتها الوثائق العلمية وتؤيدها البراهين كان على حكام الدولة العربية في الاندلس، من ولاية كانوا يخضعون لأوامر دمشق تارة ، ولأوامر القيروان تارة أخرى ، ومن امراء امويين قد استقلوا بحكم الجزيرة ، الى خلفاء وملوك كانوا يوجهون للدولة ويرسمون سياستها العليا .

قلت كان على حكام الدولة العربية في الاندلس ان يتهجوا نهجاً مرسوماً يختلف عن منهج السياسة العربية في المشرق النابعة من فلسفة الحكم القائم والقاتل بان الاسلام دين ودولة .

هذه الفلسفة او جوهر النظام الذي اثبت جدارته وحقيقة منطوقه في كل البلاد التي خضعت للإسلام بالفتح .

نحن لا ننتقد جوهر الحكم العربي في الاندلس التابع من هذه الفلسفة في الحكم ، انما ننتقد مفهوم الحكم العرب في شبه الجزيرة لهذه الفلسفة في الحكم .

لقد فهم الحكماء في الاندلس الاسلام انه دينٌ ولم يفهموه انه مع ذلك دولة ، فلو قدر لأكثريتهم الساحقة ان يطبقوا هذين الخطين العريضين للحكم ، لما فشل العرب في سياستهم ولما اضطروا الى الخروج من الأرض الاندلسية .

من المؤكد ان الدولة كانت تخضع لنفوذ الفقهاء من المالكية ، وهم اشد الفقهاء تصلباً في آرائهم الفقهية ، والحق يقال انهم في كثير من احكامهم كانوا اشد تصلباً من اصحاب مدرسة الحجاز التي تعتبر الطرف الأول في التشريع الاسلامي ، الى جانب مدرسة العراق التي قامت على كثير من التسامح توافقاً مع روح الشريعة السمحاء وتجاوياً مع نفسية اهل فارس وخرسان .

فمن تشدد فقهاء الاندلس انهم حملوا على الخمرة ، في ارض جنّة منسكبة قبالة انهارٍ مبعثرة بين المروج ، تمد الاشجار الباسقة الفرعاء بغطاء الحياة ، وبين شعب مزيج من شعب لم يجرم الخمرة اصلاً ومن شعب دفعته الحياة المترفة والجنة المتكئة على ضفاف الانهار ان يجد في الخمرة النشوة

والمتمعة . وكان من الخير ان تحرم على القوط وعلى دفعات وكما نزلت الآيات الخاصة بها . وهكذا يستتب أمر التحريم على الجميع .
قلت حمل الفقهاء في الأندلس على الخمرة حتى فكر الحكم ، الخليفة العالم ان يقتلع اشجار الكرمة من البلاد ، فجاءه بعض الاعيان واكدوا له ان باستطاعة المدمنين عليها ان يصنعوها من ثمرة التين ، فصرف النظر عن اقتلاع الكرمة .

هذا النمط من التفكير في المحافظة او في التشديد على تطبيق الشريعة في وسط غريب هو الذي الب القلوب وبالتالي دفع كثيراً من سكان البلاد الى العصيان فالثورة .

قد يعتبر عمر بن حفصون في طليعة هؤلاء الناقمين الذين دفعتهم سياسة الدولة الى الخروج عن الطاعة والى التعاون مع خصومها ضد سلطتها الشرعية .

ان النهج الذي سار عليه الحكام العرب في الاندلس ، قد اوقف حركة التطور العلمي حقبة طويلة من الزمن الى جانب الاخفاق في السياسة العامة ، فلقد كان من نتيجة تشدد الفقهاء عدم النهوض بالعلوم الرياضية والفلكية ، غير انهم كانوا يتجاوزون عن الحساب ويبيحون الاشتغال به في ما يتصل بالعمليات التطبيقية المعقدة المتعلقة بقسم الموارد ليس الا .

في ضوء التفكير الساذج تأخر البحث في المسائل الفلسفية ، وفي امور الفلك ، وفي دراسة المعتقدات والمقارنة بينها ، ولا غرو فلاني اميل الى ان هذا التشدد دفع نفراً من اهل البلاد الى الأخذ بالأراء والمعتقدات والسياسة التي كانت تحرمها الدولة ، وعن المسير في هذه الطريق المناوئة لأهداف الحكم العربي في الأندلس اتجهت الدولة نحو الانهيار المحتم .

في اعتقادي ان الانفتاح والنقاش في امور عقائدية متأصلة في ضوء البحث العلمي وتجاوياً مع الانطلاق الطبيعي لسنة الطبيعة، افيد من الانكماش

والتزمت ، وليس ادل على هذه الحقيقة من النتائج التي توصل اليها الاسلام بعد المحنة التي اثارها البعض في قضية خلق القرآن الكريم ، هذه المحنة هي التي دعمت التفكير في ازالة الكتاب المبين بعد نقاش طويل دعمته السلطة لمصلحة عكسية ، فجاءت الحقيقة ناصعة بيّنة .

ان فوضى الحكمه العربي في الاندلس القائم على اساس من معطيات النفوذ والهوى ، هو الذي حال بين عدد من العلوم ان تتطور وتتفاعل ، وهو الذي ادى الى ضياع الأرض العربية ، الشرفه المشرعة على اوروبا ، المطلة على دنيا قابعة في الظلمات يومئذ ، لو قدر للعرب ان يطبعوها بطابعهم لكانت مبعث امل جديد لخير الانسانية وفلاحها .





حدائق جنة المريق في القصر الأحمر بقرطاجنة

الحضارة العربية في الاندلس

بين دخول العرب الى الاندلس سنة اثنتين وتسعين للهجرة ، سبعمائة واحد عشر للميلاد وحتى سقوط غرناطة ، آخر معقل عربي في تلك الأرض ، الزاهية الضاحكة للشمس ، المبتسمة للربيع سنة ثمانمائة وسبع وتسعين للهجرة ، ألف وأربعمائة واثنين وتسعين للميلاد ، قامت في الأندلس العربي حضارة أصيلة ، قدّر لها ان تأتي على أكثر ما خلفه القوط في هاتيك الأرض ، من عادات وتقاليده ، وان تطبع البلاد بالطابع المميز لهذه الحضارة ، وان تقوى على الاستمرار والبقاء حتى بعد انقضاء الدولة العربية التي لعبت الدور الرئيس في تطوير النظرة الانسانية الى واقع المجتمع ، والتي انشأت تلك الحضارة ورعتها خلال قرون ثمانية .

ان الحضارة العربية في الاندلس لم تكن لتمثل المفهوم اللغوي لمعنى الحضارة اليوم ، فالاندلس كان عريقاً بمدنية هي مزيج من حضارات الجرمان والفرنجال والقوط الذين تقلبوا على البلاد كغزاة او فاتحين ، وقد تركوا اثارا باقية تدلّ على عظمة تلك الامكانات في ابداع عبقرية الإنسان ، وفي ما يحفظ له على مدى التاريخ قيمة نبوغه ، وفضل انسانيته ، فالحضارة العربية في الاندلس قامت على نحو جديد ذي مفهوم انساني حضاري لا تقف مجالات نشاطه وطرق ابداعه ، امام صقل الحجر ورصفه ، وامام تشييد البناء وزخرفته وامام اقامة الطقوس والاحتفالات ، والتفنن في اقامة الهياكل والمعابد ، بل

تعدت كل ذلك ووجهت عنايتها نحو رفاهية الفرد واسعاده ، الفرد الذي هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع المُتَحَضِّر الأُمْل ، والمدينة الفاضلة ، الفرد الذي ترعاه الدولة فينصهر في المجتمع الذي هو بمظاهره ، وخصائصه حقيقة المجتمع الحضاري ، وصورة للحياة في شتى مظاهرها .

فالحضارة العربية في الاندلس قامت على ركائز اربع ، مما خلف الجرمان والفندال ، والقوط من مدنية وما تركوا من عادات وتقاليده ، وعلى ما حمل العرب من مدنية وثقافة ، ومن شعارات ، ونزعات قبلية ، وما عرف عنهم من حب للحكم والقيادة ، وعلى امكانيات البلاد ومقدرتها على المساهمة البناءة ، وعلى قابليتها في التحول بين أيدي الفاتحين لتتخذ الشكل والصورة التي اعدت لها مع المحافظة على طابعها الأصيل ، وعلى الاستفادة بقدر ما تسمح ظروفها من كل تلك الألوان الثقافية ، والمظاهر الحضارية وطرق المعيشة ، وسُبُل اللهو والغناء ، وضروب الرقص والموسيقى ، مع عناية خاصة واهتمام منقطع النظير للتغلب على كل العقد النفسية التي سيطرت على البلاد نتيجة للفتح ، فتفاعل كل ذلك بجاذبية الحكم الصالح والقيادة الحكيمة، وعن هذا التفاعل قُدِّر للاندلس ان يكون مدخلاً لنقل مدنيت العرب والفرس والاعريق وبقية الشعوب التي تفاعلت في الشرق البعيد الى اوربا ، الى جانب أنه كان مركز هذا التفاعل ومصدر هذه المدنية الجديدة التي بهرت اوربا خلال قرونٍ ثمانية .

والواقع ان الاسبان لم يندمجوا في هذه البوتقة العربية عقب الفتح ، ولم يكن ثمة مظاهر لهذه المدنية الجديدة طوال عهد الولاة الامويين الذين تمرسوا باعباء الادارة قبل تأسيس الامارة الاموية بقيادة عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وهذا ما يؤكد المستشرق الاسباني الكبير انخل كونثالت بالشيا اذ يقول : (قد لا نجد آثاراً لأي لون من ألوان الحياة الفكرية في الاندلس خلال السنوات الأولى التي اعقبت الفتح العربي لاسبانيا على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير ، بل ان الشعب الاسباني الذي دخل في طاعة المسلمين نتيجة للفتح ، لم يخلف آثاراً تدل على حياته الفكرية طوال عصر الولاة) .

لا غرو ان الادارة الاموية في الاندلس الموجهة من دمشق قاعدة الحكم العربي لم تحسن ضبط الادارة الحاكمة ولم تقو على وضع تخطيط لسياستها في البلاد ، فلقد كان الاندلس بالنسبة للحكم العربي ولاية تابعة للمغرب . فلقد تألب عليه خلال ست واربعين عاماً عشرون والياً ، ليس بين سياستهم لُحمة ، وليس بين اهدافهم صلة ، كل حكم البلاد وفقاً لمآربه ، وكل مهذ مع ذلك في حكمه دون ان يدري لدخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي كان دخوله ايذاناً بتأسيس الدولة الاموية في الاندلس الخالد .

ان الاندلس بما وجدت فيه من امكانات ، وبما بقي فيه من مدنيات ومع الارادة القادرة على بناء دولة ناهضة وضع امير اموي ركائزها واهدافها بلغ الاندلس خلال القرون المتوالية ، ووفق مخطط عمراني واداري مركز على اسس من الثقافة المفتوحة على الشرق والغرب جميعاً ، على القديم والحديث ، على الاسلام والمسيحية على التسامح والتقدير ، على الالفية والمحبة ، على العطاء والبذل ، وفي محيط دقيق تجمعت فيه قوى المواطنين الاصليين الذين بالرغم من اندماجهم الى حد بعيد في الوسط العربي كانوا يترقبون الفرص للانقضاض على الحكم ، قلت وفي هذا الوسط الدقيق قدّر لعبد الرحمن الداخل ولخلفائه من بعده ان يقيموا الحضارة العربية في الاندلس التي كان العلم ، والاخلاص ، والعمل ، رائدها الاول .

ان الاندلس ، وان خضع بالفتح العسكري للقائد طارق بن زياد ، فلقد وضع عبد الرحمن الداخل المدماك الاول في بناء صرح مدنيته الشامخ الذي يمر به العالم اليوم في طليطلة ، المطلة على نهر التاج ، وفي اشبيليا المسورة بالازهار وفي غرناطة الناعسة على ضفة شنيل ، وفي قرطبة المعجبة بالمسجد الجامع ، وبقنطرة الوادي حيث يتدفق الماء لجينا ، وحيث يلتقي العشاق وقتاً غير قصير فيتيهون هناك بين ما يختلج في قلوبهم من حب ، وبين ما يطفح في نفوسهم من شوق ، وبين ما يشاهدون من مناظر تأخذ بالقلوب والنفوس جميعاً ، الى جانب انها كانت كعبة العلم ، ومجلس العلماء ، قلت يمر

العالمُ امام بقايا تلك المدنية فيجدون انفسهم مجبراً على الخضوع والانحاء
امام الشخصية العربية الفلة ، شخصية صقر قريش مؤسس الحضارة العربية
في الاندلس

قلت يوماً لدار قوم تسانوا اين مكانك العزاز علينا
فأجابت: هنا اقاموا قليلاً ثم ساروا ولست اعلم ايننا

لا إنهم في كل مكان، انهم كالنجوم المضيئة، لقد تناثروا في اطراف
المعمور العربي فلحقوا بمدن المغرب ، كما لحقوا بمدن تونس ، وأقاموا
هناك مدنية تحاكي مدنيّتهم، وقصوراً على طراز قصورهم وكانوا في رحلتهم
تلك قد اقاموا الصلة بين الحضارة العربية في الاندلس وبين ما اقاموا من
حضارة في الشمال الافريقي .



جغرافية الاندلس العربي والبحث العلمي الحديث

ما ان عرف العربُ الاستقرارَ في شبه جزيرة ايبيريا بعد ان اخضعوها لنفوذهم السياسي سنة اثنتين وتسعين للهجرة، سبعمائة وعشرة للميلاد على يد طارق بن زياد حتى اخذوا في دراسة طبيعتها وتحديد اقليمها والبحث عن مصادر الثروات في ارضها .

لقد ظل عربُ الاندلس بعد القرون الأولى للفتح يأخذون بالمصور الجغرافي المعكوس المنحرف الذي وضعه بطليموس فكانوا يصورون اسبانيا على شكل مُثَلَّث غير مُتَنَظَّم ، اطرافه من الجَنُوب جزيرة طريف ورأس مُراكش ، ومن الشُّمال الشرقي رأس كريوس ومرسى فاندر ، وفي الشمال الغربي بلاد فينستير .

هذا وكانوا يعتبرون الشواطئ الممتدة من طريف الى كريوس او بالأقل الى طركونة وبرشلونة كأنها ثغورٌ جنوبية ، وقد اثبت هذه النظرية المراكشي في كتابه عن جغرافية الاندلس .

الواقع ان عرب الاندلس لم يأخذوا بمثل هذه الاخطاء الجغرافية وحسب بل أخذوا ايضاً بالرأي القائل ان جبال البرانس هي المعروفة اليوم باسم البيرنة هي ثغور الاندلس الشرقية .

استمر الاندلس على مثل هذا المخطط الجغرافي حقبةً طويلة من الزمن

حتى قدّر له علماء جغرافيون افضاً امثال البكري والادريسي ، وابن حوقل ،
والمقدسي وغيرهم ، وهؤلاء وان وقعوا في بعض الاخطاء الجغرافية بالنسبة
لقلة وسائل العمل الفني يومذاك فقد كشفوا كثيراً من الاخطاء القديمة وبددوا
اوهاماً شاعت ، وحددوا مسالك وممالك البلاد .

الواقع ان جميع الاطالس الجغرافية المتعلقة باسبانية الاسلامية ظلت
حتى ايامنا هذه تتناقل بعض الاخطاء القديمة الشائعة بالنسبة الى الارض
الاندلسية ، فاطالس «سبرونر» و«منكه» Spruner et Menka المطبوعة سنة
١٨٨٠م واطالس دريزين Draysen المطبوعة سنة ١٨٩٤م في كتاب
المستشرق الالماني اوغست مولر المسمى « الاسلام في الشرق والغرب » او
غيرها من الاطالس الأخرى تناقلت هذه الاخطاء منذ ايام طلائع الجغرافيين
الاجانب الذين اهتموا بمصور الاندلس الغربي .

نحن لا ننكر ان عدداً غير قليل من العلماء والمستشرقين توافروا على
دراسة تاريخ الاندلس وجغرافيتها الا ان الجهود التي بذلت لتصحيح هذه
الاطالسة كانت ضئيلة ومحدودة للغاية .

كان المستشرق الهولندي دوزي في طليعة المهتمين بالابحاث
الاندلسية ، وهو بالرغم من المجهودات الكبيرة التي خلفها في هذا الميدان لم
يترك اثرأ يذكر بالنسبة لتصحيح هذه الاخطاء الجغرافية .

قام دوزي بترجمة كتاب الادريسي الموسوم « بنزه المشتاق في اختراق
الافاق » وعلق على كثير من موضوعاته واهتم اهتماماً بالغاً في ترجمة اسماء
الاعلام التي ذكرها الادريسي في كتابه ، وبالرغم من ان ترجمة دوزي لكتاب
الادريسي جاءت محققة للغاية فالمستشرق الهولندي لم يكتسب للاخطاء
الجغرافية في الكتاب .

ان البحث العلمي يفرض على المهتمين بالابحاث الاندلسية جمع كل
المعلومات المتعلقة بجغرافية البلاد والتي تراكت منذ ايام كزيرير
Caisirir وكوندي Conde وهامنر Hamner ومهرن Mehren والنظر فيها في ضوء المصادر

العربية التي تعتبر المرجع الأول في مثل هذه البحوث .

لقد حَفَلَ الأندلسُ باعلام جغرافيين كبار كالحميري صاحب كتاب « الروض المعطار في خبر الاقطار » فقدم لنا فيه مُعْجَماً مَبْنِياً على بعض مظاهر الدراسات الحديثة في ذكر اسماء البلاد ومواقعها واسماء مؤسسيها واهم انهارها وجبالها وتعداد منتجاتها الزراعية واهم صناعاتها المحلية .

نحن لا ننكر مع اشادتنا بكتاب الروض المعطار للحميري الذي نشره المستشرق الفرنسي بروفنسال ان جغرافيات العرب لم ترد فيها تفاصيل كافية عن الاندلس ونحن بحكم هذا الواقع مجبرون ان نَقْتَنِعَ بما في ايدينا منها ، ككتاب الهمداني الذي ألف سنة ٩١٠م وكتاب الاصطخري الذي ألف سنة ٩٢١م في اوائل عهد عبد الرحمن الناصر ، وكتاب ابن حوقل الذي اكمله سنة ٩٧٦م والمقدسي الذي وضع كتابه في احسن التقاسيم .

قلت نحن مجبرون ان نقنع بهذه الكتب ، غير ان مناهج الدراسة العلمية تفرض علينا اليوم نمطاً جديداً في البحث والاستقصاء حتى تتمكن من اعطاء صورة حقيقية لجغرافية الاندلس العربي .

الدارس لما اورده ابن حوقل مثلاً عن اهم الكور والثغور الاندلسية، ولما اورده المقدسي عن هذه الكور يجد ان الفرق شاسع بالنسبة إلى عدد الكور واهميتها ، فابن حوقل يعتبرها ثمانية ويسميتها، والمقدسي يعتبرها اكثر عدداً ويسميتها .

في ضوء هذا الواقع هل يصح أن نأخذ بتقسيم واحد من هذين الجغرافيين ام علينا ان نرجع الى مصادر اخرى ؟

الحقيقة ان الابحاث الجغرافية الاندلسية لم تعرف مفهومها العلمي في عهد العرب وان قُدِّرَ للبلاد ان تنجب عدداً من اعلام الجغرافية .

ان الادريسي العالم الجغرافي وان كان قد اتحف العالم بمصور لحوض البحر الابيض المتوسط يعتبر من ادق المصورات الجغرافية بالنسبة الى الابعاد

والقياسات غير أنه اعتبر الشمال جنوباً والجنوب شمالاً، وهو وإن لم يوفق لاعطاء صورة حقيقية لواقع الحوض الجيولوجي فليس معنى ذلك ان الادريسي قد اخفق في عمله وقد قام به في عصر كان يفتقر الى الآلات والمعدات الفنية التي توفرت لعلماء العصر الحديث .

الثابت ان الدهر قد اتى على كثير من جغرافية ومعالم الاندلس الاسلامي وذلك كثيراً من آثاره ان لم يأت على اثاره كلها كما اتى على معظم كوره ومدنه العربية ، وان لم يكن ثمة فائدة من اعادة النظر في دراسة هذا الموضوع من اساسه فلا اقل من ان نهتم بتصحيح كثير من الاخطاء الشائعة خدمة لتراثنا العربي في الاندلس واسهاماً في البحث العلمي الرصين وتجاوباً مع واقع الحياة الفكرية المعاصرة ، لان الاندلس سيظل ابداً موطناً لحضارة انسانية خلّاقة .

لقد اضحى من المؤكد ان تضافر الجهود العلمية العربية والاجنبية التي يقوم بها الباحثون المختصون للكشف عن معالم هذه الحضارة الاندلسية الزاهية آخذة في تأدية سياستها نحو اضاءة كثير من الجوانب الغامضة في تاريخ الاندلس فضلاً عن اهمية البحوث بالنسبة الى حقبة طويلة من حياة البلاد التي تعتبر مركز الثقل في المدينة الأوروبية الحديثة .

ان امة ليس لها تاريخ يدرس لهي امة خاملة لم يكن لها من دور بارز في تفاعل المجتمعات وبناء الحضارات، وخدمة الانسان، ورفاهيته، ويكفي الاندلس العربي من فخر أنه بالرغم من انقراض الحكم العربي فيه ظل موضع دراسة وعناية الباحثين لأنه كان مادة علمية غنية لمناقبة امة حذقت الادارة والسياسة ، في حكم الشعوب .

وليس ادل على ذلك من كتاب الحميري « الروض المعطار في خبر الأقطار » ، والذي هو بيليوغرافية جغرافية متخصصة عني بتحقيقها الدكتور احسان عباس ونشرتها في بيروت مكتبة لبنان، العام الف وتسعمائة وخمسة وسبعون .

اوائل الجغرافيين في الاندلس

مع قيام الخلافة الاموية في الاندلس ، وفي عهد عبد الرحمن الناصر ، الذي جعل للاندلس العربي رسالة في الحضارة ، ومنهجاً في البناء ، وقاعدة للحكم والسياسة في الدولة ، اخذ علماء الاندلس يهتمون بالابحاث الجغرافية ، وبمصبورات الأرض وتحديد الاماكن ، وقياس المسافات ودراسة التربة ، ويضعون في ذلك الكتب والبحوث في ضوء اختباراتهم وحاجة بلادهم .

ان حب الرحلة ، والبحث ، والكشف عن واقع الطبيعة كان متأصلاً في نفوس الاندلسيين ، تدعوهم إلى ذلك الرغبة في رسم معالم الطريق ، وتحديد مسالكه بين بلادهم النائية المترامية في طرف العالم القديم ، وبين موطن الحضارة العربية في قلب العالم العربي ، كما تدعوهم الحاجة الملحة في كل عام الى مغادرة بلادهم والتوجه إلى الارض المقدسة لزيارة البيت الحرام يحدوهم الى ذلك الايمان والشوق والحنين .

من هذه الناحية بالذات ، من رغبتهم في الانطلاق الى مراكز الثقافة العربية والاسلامية في القاهرة ودمشق وبغداد ومن حينئذ الى مكة وما حول البيت العتيق والى تأدية فريضة الحج نشأ ادب الرحلة . وعلم الجغرافيا في الاندلس العربي الذي هيا لسكان البلاد واقعاً مرسوماً محدداً لاسفارهم وتنقلاتهم لم يكن مأمون الجانب من قبل ، كما دفع بهم ان يولعوا من بعد بالتنقل والاسفار ولعاً شديداً وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ان ظهر من بينهم من

الف في وصف رحلة او حاول ان يقدم نتيجة لتلك الاسفار وصفاً لنواحي المعمور .

لقد كان شأن جغرافي الاندلس في هذا العلم شأن علماء الاندلس في بقية مجالات المعرفة، فهم في بحوثهم ومصوراتهم ومنهج تأليفهم وفي رسم رحلاتهم وادب هذه الرحلات يتبعون في ذلك اعلام الجغرافيين العرب في المشرق العربي .

ان النقاد والباحثين يقسمون الادوار التي مر بها علم الجغرافيا وادب الرحلة في تاريخ الفكر العربي الى مراحل ثلاث ، يؤكدون ان الشرق العربي عرف طلائع هذه النخبة من الجغرافيين والرحالة منذ اواسط القرن الثاني للهجرة الثامن للميلاد ويزعمون اسماء نخبة من هذه الطبقة كالخوارزمي محمد بن موسى ، احد علماء عصر المأمون الذي وضع كتاباً في اصول « العمل بالاسطرلاب » ونقلت بعض مؤلفاته الى اللاتينية ، واحمد اليعقوبي من علماء القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد الذي رحل الى بلاد الهند ومصر والمغرب ووضع كتاب « البلدان » . والتاريخ من عهد الاوائل الى عصره هو ، والذي كان يوافق الطبري في رواياته ، كما يذكرون المسعودي ابا الحسن الذي نشأ في بغداد ، وطاف في بلاد فارس ، والهند وسيلان ، والصين ومدغشكر واذربيجان وغيرها ووضع في ما رآه وسمعه عشرات المؤلفات ، واشهر ما بقي من كتبه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الى جانب محمد ابن ابي مسلم الجرمي ، والفقيه الهمداني وابن رسته وهارون بن يحيى وابي الفروج قدامه والجيواني والبلخي والمقدسي وغيرهم . بينما لا يذكرون في عداد هذه الطبقة الاولى من الجغرافيين العرب واحداً من رحالة الاندلس او المغرب الاقصى .

ليس من شك في ان هؤلاء النقاد الذين اعتمدوا هذا التقسيم لاعلام الرحالة العرب ، قد اسقطوا سهواً او جهلاً اسم الوراق محمد بن يوسف من رجالات القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد من بين رواد علم الجغرافية

والرحالة الأوائل ذلك لأن الوراق الاندلسي الذي يرجع بنسبه الى وادي الحجاره في اواسط اسبانيا ، والذي نشأ وتادب في القيروان لانتقال آبائه الى قاعدة الحكم العربي في الشمال الافريقي ومن ثمة عاد الى قرطبة وقام فيها ، كان طلعة من بين اوائل الذين جابوا افريقيا وترك في ذلك ديواناً ضخماً سماه « مسالك افريقيا وممالكها » كما الف في اخبارها واخبار ملوكها وحروبهم كتباً جمه كانت عوناً لكثير من الجغرافيين الذين جاؤوا من بعده .

قلت ليس من شك في ان النقاد قد اسقطوا اسم الوراق من بين رواد علم الجغرافية الأوائل ، وان لم يتجاهلوا اسماء النخبة من جغرافي الاندلس خلال الدور الثاني في مطلع القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد كالبكري ، ابي عبيد عبد الله بن عبد العزيز من رجالات القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد الذي يعتبر بحق اول جغرافي اندلسي جليل الشأن .

هذا ويذهب دوزي المستشرق الهولندي الى القول ان البكري هو اكبر جغرافي انجبه الاندلس ، والبكري الذي ولد في قرطبة ولم يكتب له ان يرح شبه الجزيرة قد اعتمد في مؤلفاته على الجمع والتصنيف ، كما اظهر قدرة فائقة على الترتيب والتنظيم ، وموهبة عالية في وضع كتابه المسمى « بالمسالك والممالك » والذي لم يبق منه إلا جزء في صفة المغرب الاقصى ، والبكري في كتابه هذا يذكر الطرق التي تؤدي من ناحية الى اخرى ، ويصف المدائن والقرى التي تربطها ويضمن كلامه اخباراً غريبة فيها كثير من الفوائد العلمية والأدبية .

لقد قدر للمستشرق كاتومير بترجمة الجزء الخاص بالمغرب ، كما قدر للبارون دي سلان نشر الاصل العربي في سنة الف وتسعمائة واحدى عشرة ، والترجمة الفرنسية في سنة الف وتسعمائة وثلاث عشرة ، الا انه من المؤسف حقاً ان يفقد الجزء الخاص بالاندلس .

أما الكتاب الثاني الذي خلفه البكري ، وحظي بعناية النقاد والمستشرقين فهو « معجم ما استعجم » الذي يقول فيه دوزي : اننا بينما نجد

غيره من الجغرافيين يقعون في خطأ بعد خطأ ، ويناقضون انفسهم بين موضع وموضع ، اذ بنا نجد معلومات البكري واضحة ناصعة ، وكتاباته توصف بعبارة واحدة : « انها صادقة » .

الى جانب محمد بن يوسف البكري ، يأتي بين جغرافي الاندلس : الادريسي ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس المعروف بالشريف الادريسي وهو من رجالات القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر للميلاد . نشأ الادريسي في الاندلس ودرس في قرطبة ثم زار كثيراً من نواحي شبه الجزيرة والمغرب ومصر ، وآسيا الصغرى ، ثم زار صقلية حيث اعجب به ملكها رجار الثاني النرمانى ، وكان من هواة علم الفلك فوجد في الادريسي خير معين له على اشباع رغبته من ذلك العلم ، ولما كان ملك صقلية يرغب في ان يكون له كتاب في صفة الارض ، مؤلف عن مشاهدة مباشرة غير مستخرج من الكتب ، فقد تصدى الادريسي لوضع هذا الكتاب وانتخب نقرأ من اذكياها الرجال وبعثهم في شتى النواحي يصاحبهم الرسامون وجعل يتلقى ما يعودون به ويسجله أولاً فاولاً .

لقد فرغ الادريسي من اعداد كتابه سنة خمسمائة وثمان واربعين للهجرة ، الف ومائة واربع وخمسين للميلاد وسماه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » كما يعرف بالكتاب الرجاري « نسبة الى ملك صقلية صاحب الفكرة الأولى » .

لقد حظي كتاب الادريسي بعناية كبار العلماء والنقاد وذلك عن طريق موجز له طبع في روما سنة الف وخمسمائة واثنين وتسعين ، كما قام عالمان مارونيان هما سيونيتا وهزرونيثا بترجمة هذا المختصر الى اللاتينية ونشره في باريس سنة الف وستمائة وتسع عشرة باسم « جغرافية النوبة » هذا وقام المستشرق دوزي ، ودي خويه بنشر الجزء الخاص بافريقيا والاندلس من نزهة المشتاق معتمدين على مخطوط بالمكتبة الأهلية في باريس وارفقا النص بترجمة فرنسية لها نشرت في ليدن سنة الف وثمانمائة وست وستين كما نشره مصححاً ومعدلاً في مدريد سنة الف وثمانمائة واحدى وثمانين المستشرق سافندرا .

الى جانب هذه العناية التي لقيها الكتاب من المستشرقين لقي عناية فائقة من العالم المصري يوسف كمال اذ اخرج الكتاب اخراجاً علمياً مع التصاویر والرسوم التي خلفها الادريسي . هذه الرسوم والخرائط التي تشير الى ان الادريسي لم يكن بعد قد توصل الى تحديد ثابت في وضع تلك المصورات فهو في ما ترك لنا من خروط وصور يعتبر الشمال جنوباً ، والشرق غرباً وفي ذلك ما فيه من الخطل بالنسبة الى حقيقة علم الجغرافية اليوم ، الا ان الذي يحمد في هذه الخروط والمصورات ان الادريسي كاد يعطي واقع الكرة الارضية الرسم القريب من واقعها اليوم ، وفي ذلك ما فيه من الفضل والعلم والدقة على قلة الوسائل في ذلك العصر .

ليس من شك في ان الادريسي ابا عبد الله محمد بن محمد يعتبر اكبر جغرافي اطلعت عليه العصور الوسطى ، ونحن وان كنا نجد في كتابه اخطاء في حساب المسافات والابعاد والادراس ، ولكن لا ينبغي ان يغيب عن بالنا ان الادريسي وضع كتابه في النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد ، ولان موت ملك صقلية وما اعقبه من الاحداث والفوضى في دولة النورمان حالت بينه وبين ان يدخل على كتابه التعديلات الاخيرة الواجبة ، وكتاب الادريسي وان كان يضم بعض الخرافات المنتشرة في عصره على نطاق واسع ، فلقد كان وافر المادة عن البلاد الاوروبية دقيق الملاحظة .

في ضوء هذه الحقائق العلمية اسهم الاندلس العربي في تطوير علم الجغرافية ، واقام الدليل على جدارته في ان يتبوأ مركزاً مرموقاً في تاريخ الفكر الانساني .



التاريخ العربي في الأندلس

كان فتح العرب للأندلس حدثاً تاريخياً بالنسبة لتلك البقعة الساحرة الضابجة من الجنوبي الغربي لأوروبا ، المطوقة بالبحر والغارقة فيه لولا تلك الجبال التي تشدّها من الشمال الى الأرض .

قلت كان هذا الفتح حدثاً تاريخياً تلاقى فيه الشرق والغرب على عتبة الأرض الخضراء عند اقْدَامِ جيل طارق . كما قدّر لحضارة العالم القديم ان تجد من بعد في هذا الفتح سبيلاً الى قلب اوربا ، وان تتفاعل وتقيم علاقات ثقافية واجتماعية وسياسية ، وتعمل على بناء حضارة ذات مفاهيم إنسانية يعمل الفكر الحديث على ابراز حقيقتها ودراسة اهميتها ، وتحديد خصائصها ، ودوافع استمرارها .

هذا ، وبالرغم من النتائج الخطيرة التي كانت لهذا الفتح العربي بالنسبة للعالم لم يحفل الأندلس العربي بتاريخ هذه الظاهرة السياسية إلا في عهد الخلافة الأموية بالأندلس وبعد حقبة من الاستقرار والأمن والهدوء . لقد كان شأن الأندلس في ذلك شأن المشرق العربي الذي لم يفرغ لتأريخ الحياة العربية وظواهرها الاجتماعية والسياسية بعد الدعوة الا في العهد العباسي الذي قدّر فيه للدولة ان تكف عن الفتح ، وتعمل على تثبيت قدمها في حقول العلم والأدب والفن جميعاً . وكان من ذلك ثورة عنيفة على الأدب العربي القديم وحقيقته أثارها ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء ، ثم

حملها ادباء ومستشرقون معاصرون ، كما كانت ثورة عنيفة في تحديد شروط الاسناد وواقعه ، ومن ذلك نتجت انواع ثلاثة للحديث .

وإذا كان الحديث وقد جُمع بعد قرن واحد من بدء الهجرة قد قُسم في نظر الفقهاء إلى انواع ثلاثة : الصحيح ، والضعيف ، والموتور فما هو واقع كتب التاريخ العربي في الأندلس للفتح ، وبالنسبة لتلك الظاهرة التاريخية والسياسية .

ان باكورة هذه الكتب المحفوظة كتاب (اخبار مجموعة) لم تعرف الا بعد قرنين من الفتح ، ومما لا شك فيه ان ذلك مما دفع المستشرق الاسباني خوليان ريبيرا الى تقسيم كتب التاريخ العربي في الأندلس الى اقسام اربعة :

كتب متأثرة بعناصر مشرقية تفيض بأساطير تدور حول الفتح ، كمؤلفات ابن حبيب والرازي .

كتب تنقل الروايات الأندلسية المحلية على صورة ادق واحكم بعضها يأخذ جانب بني أمية ، ويمثله كتاب (اخبار مجموعة) وبعضها نلمح فيه الميل الى اسرة غيطشة صاحب البلاد قبيل الفتح ، وهو كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبي .

وكتب اخذ بعضها عن الطبري في ما يتعلق بأخبار المشرق منذ سنة مائتين وتسع وثمانين للهجرة ، تسعمائة واثنين للميلاد ، حتى سنة ثلاثمائة وتسع عشرة للهجرة ، تسعمائة واثنين وثلاثين للميلاد وأضاف اليها اخبار المغرب والأندلس كما فعل عريب بن سعيد من مؤلفي القرن الرابع الهجري ، العاشر للميلاد .

وكتب بعضها مبتكر ككتاب ابي عامر بن شهيد الذي يقع في مائة جزء والذي جعله على طريقة الحوليات ، وروى فيه الحوادث سنة فسنة منذ وفاة الإمام علي بن أبي طالب الى ايامه هو .

الى جانب هذه الكتب يجب ان نؤكد ان الأندلس عرفت الشعر التعليمي

كوسيلة لتأريخ اخبار واحداث الاندلس العسكرية والسياسية وكان صاحب هذا النوع من التاريخ هو الشاعر الأديب الفقيه أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد. من رجالات القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد، الذي خصّ كتاب العسجد الثانية بالخلفاء واخبارهم اذ اوجز اخبار الخلفاء الراشدين والأمويين في الشرق والاندلس الى ايام عبد الرحمن الناصر والذي تحدث في هذا الكتاب ويقصائد طوال عن الحملات السنوية التي قام بها الناصر عبد الرحمن.

هذا ومهما يكن من امر هذه الكتب وانواعها فهي لم تعرف منهجاً علمياً مرتبطاً بأصول علم التاريخ الذي هو في نظر ابن خلدون « مظهر لا يزيد عن اخبار الأيام والدول، غير ان في باطنه نظراً وتحقيقاً، وتعليلاً للكائنات، وعلماً بكيفيات الوقائع واسبابها ».

في ضوء اتجاهات طلاب هذه الكتب التاريخية في الاندلس، والتي ما زالت محفوظة ومتداولة نستطيع ان نؤكد ان كتابي، اخبار مجموعة الذي لم يُعرف مؤلفه، وتاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية القرطبي هما اهم ما بقي لنا من هذه الكتب التاريخية التي تصور وتعرض روايات على جانب كبير من الأهمية العلمية والتاريخية التي اعتمدها المؤرخون العرب والاسبان على حد سواء، كما اعتمدها كبار المستشرقين في دراسة تلك الحقبة الغامضة من تاريخ الاندلس. فكتاب (اخبار مجموعة) هو بنظر المستشرق ريبيرا « مجموعة مذكرات » وفقرات تاريخية سجلها صاحبها شيئاً فشيئاً، دون ان يقصد الى ربط الحوادث ربطاً منهجياً او يرتبها وفقاً للسنين.

ان هذه المذكرات التي يتألف منها الكتاب تعرض بإسهاب الفتح العربي وما رافقه، كما تعرض كثيراً من الأحداث السياسية من بدء الفتح حتى خلافة عبد الرحمن الناصر، والكتاب ابعدها ما يكون عن الأساطير الخيالية التي تصور بعض الخوارق التي يعتبرها بعض المؤرخين حوفاً سماوياً وحدثاً دينياً في تاريخ الدعوة والفتح الاندلسي ».

اما كتاب تاريخ افتتاح الاندلس لأبي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية من رجال القرن الرابع الهجري ، العاشر للميلاد ، العالم بالنحو ، الحافظ للغة المتقدم على اهل عصره ، الذي لا يشق غباره ولا يلحق شأوه كما يقول ابن الفرضي في كتابه (تاريخ علماء الاندلس) .

اما ذلك الكتاب فهو صورة لواقع البلاد من الفتح العربي حتى نهاية اماره عبد الله بن محمد سنة مائتين وتسع وتسعين للهجرة ، تسعمائة واثنى عشرة للميلاد . والكتاب على ما يرى خوليان ريبيرا الذي ترجمه الى الاسبانية بعد ان نشره المستشرق جيانجوس ليس من انشاء ابن القوطية نفسه ، انما هو اقرب لأن يكون سماعاً دونه عنه بعض من حضر مجلسه من تلاميذه ، وهو اخبار متفرقة قد يعارض بعضها بعضاً ، وتظهر ميل صاحبها وهواه كما تتخللها الروايات والاساطير الشعبية ذات الروح الشعرية تقوم على اساس من التاريخ لا يؤلف بينهما رابطاً او يجمعهما تناسق .

إن لكتاب تاريخ افتتاح الاندلس قيمة علمية كبيرة إذ يحمل طابعاً قومياً اندلسياً ، وهي ظاهرة على جانب عظيم من الأهمية إذ تصور طرفاً من حياة بلد كانت تعيش فيه اجناس مختلفة ذات اديان متباينة ، وقد اغفل هذا الجانب غير ابن القوطية من المؤرخين فضلاً عن انه يعرض اخباراً تظهر العرب الفاتحين بصورة ادنى من اهل البلاد اصحاب المواهب العظيمة والخلفي اللطيف .

هذه الألوان من الكتب التاريخية هي الركيزة العلمية لدراسة الظواهر السياسية والاجتماعية للفتح العربي وما رافقه من تطور في مختلف مجالات الحياة العامة ، إذ تصور لنا الاندلس الجميل القشيب ، الذي أعجب الشعراء بأرضه وسمائه ، طيره ونباته ، وتاه فيه الادباء وحرار في دراسته العلماء والمؤرخون ، عارياً من تلك الالوان الحضارية ، وذاك الزخرف والطلاء المعجيين اللذين اضافهما العرب الى واقع البلاد ، واقع ايبيريا ، اندلس العرب فيما بعد .



معركة الزلاقة

ان من أهم المعارك التي خاضها العرب على الأرض الأندلسية للحفاظ على الجنة التي آلت إليهم بحكم الفتح ، والإدارة ، والسياسة كانت معركة الزلاقة نسبة الى بطحاء الزلاقة من اقليم بطليوس في غرب الاندلس العربي .

لقد تحولت الأرض هناك الجنة الوارفة المترامية على ابعاد شبه جزيرة ايبيريا ، وعلى اطراف الأنهار عند الوادي الكبير حيث تندفع المياه تشق الحقول الخضراء وتروي المريج ، او تبث الحياة في الأرض التي استحالَت الى حدائق غناء تطوق المدن العربية وتمدها بالثمار والعطايا .

قلت لقد تحولت الأرض الى معسكر عربي يغلي بالإيمان والثورة للدفاع عن الحضارة العربية، وعن الدولة التي طوقت بقوات الدولة الاسبانية .

تؤكد كل المصادر العربية والاجنبية على حد سواء ان معركة الزلاقة التي خاضتها جيوش دولة بني عبّاد زعماء ملوك الطوائف في اشبيلية في الثاني عشر من شهر رجب سنة اربعمائة وتسع وسبعين للهجرة الف وست وثمانين للميلاد كانت اعظم معركة حربية تألّت فيها كل القوى ، وتطاحنت فيها كل امكانات الدولة العربية مدعمة بقوى المرابطين في المغرب العربي .

يرجع النقاد اسباب معركة الزلاقة التي خاضها المعتمد محمد بن عبّاد قبالة ادفونش بن فردينالد ملك قشتالة الى سوء الأوضاع الاقتصادية والمالية في

دولة بني عبّاد ، وعجزها عن تأدية الضرائب للملك الاسباني الذي كان يهادن العرب ليوم فاصل في تاريخ الجزيرة .

ان تأخر المعتمد محمد بن عبّاد صاحب اعتماد الرميكية المرأة التي رآها على ضفاف شاطيء الفضة والتي اجازته على شطر بيت بعد ان عجز شاعره ابن عمار أن يجيزه عندما قال :

صنع الريح على الماء زرد

فأجازته بقولها :

أيّ درع لقتال لو جمد

قلت ان تأخر المعتمد محمد بن عبّاد في دفع الاتاوة لملك قشتالة الذي كان يلاعب ملوك الطوائف على أرضه ليضرب بهم بعد ان تفرقت كلمتهم واصبحوا شيعاً وجد ان الفرصة سانحة ليشط في طلب بعض الحصون العربية زيادة على الضريبة ، وراح يمعن في التجني ، فقد طلب بواسطة رسوله الى الملك العربي ان يُسمح لملكة قشتالة ان تضع حملها في جامع قرطبة ، كما رغب ان تنزل زوجه الملكة في مدينة الزهراء لتختلف منها الى المسجد الجامع .

الحقيقة ان وزير الملك السفير لم يحسن التحدث بين يدي الأمير العربي ظناً منه ان وضع المعتمد اضحى تحت سيطرة مملكة قشتالة بينما كان المعتمد قد ايامه في كل طلبات السفارة التي قدّم لها . وعندما اغلظ السفير القول وشافه الملك العربي بما لم يحتمله « اخذ ابن عبّاد محبرة كانت بين يديه فضرب بها رأس السفير فقتله ، وأمر بصلبه منكوساً بقرطبة » .

ضجعت المدينة للحادث فاستفتى ابن عبّاد الفقهاء بعد ان سكّت عنه الغضب فبادره الفقيه احمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة ، وقد بنى الفقيه فتواه « خوفاً ان يكسل الملك ابن عباد عمّا عزم عليه من منابذة العدو آملاً ان يجعل الله في عزيمته لعرب الجزيرة فرجاً ونصراً » .

بلغ الخبر اذفونش بن فرديناند فأقسم ليغزوا ابن عبّاد في اشبيلية

ويحصره في قصره وجرد لهذه الغاية جيشين جعل احدهما يتجه نحو كورة باجة من غرب الأندلس ثم يمر على لبله الى اشبيلية على ان يسير هو في جيش آخر يسلك به طريقاً غير طريق الجيش الأول على ان يجتمع الجيشان على النهر الأعظم قبالة قصر ابن عبّاد .

كان ابن عبّاد فيما يؤكد الحميري في كتابه الروض المعطار في خبر الاقطار قد ارسل وفداً الى يوسف بن تاشفين امير دولة المرابطين في مراكش يضم قاضي القضاة بقرطبة ابا بكر عبيد الله بن ادهم وكان اعقل اهل زمانه ، وقاضي بعلبوس وغرناطة ووزيره الشاعر ابا بكر بن زيدون .

هذا ويؤكد الرواة ان ابن تاشفين عندما انتهت رسل ابن عبّاد إليه اقبل عليهم ، واکرم مثواهم واستجاب لنداء الأندلسيين فعبّر مع قواته المضيق حتى اتى الجزيرة الخضراء فخرج اليه اهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات .

لم يلبث يوسف بن تاشفين اياماً في الجزيرة حتى انتقل الى اشبيلية على احسن الهيئات ، جيشاً بعد جيش ، واميراً اثر امير ، وقبيلاً تلوقيل وبعث المعتمد ولده وولي عهده الى لقاء امير المرابطين يوسف بن تاشفين ، كما خرج المعتمد في اشبيلية في مائة فارس من وجوه اصحابه فأتى محلة يوسف فركض نحو القوم ، وركضوا نحوه فبرز اليهم يوسف وحده ، والتقى منفردين فتصافحا وتعانقا .

لما تحقق ابن فرديناند من موقف المعتمد واصراره على مجابهته في قعر داره كتب له متودداً مؤكداً « انه يكفي يوسف بن تاشفين العناء في ما بقي وانه لا يكلفه تعباً غير ان الفرصة في ما يؤكد المؤرخون كانت قد ضاعت ، واعلنت الحرب عندما لم يقبل ملك قشتالة بالشروط التي املاها امير المرابطين يوسف ابن تاشفين .

كان اول من وافى ابن عبّاد من قواد ابن تاشفين وقد وقعت الحرب بين الأندلسيين من جهة وجحافل القشتاليين من جهة اخرى داود بن عائشة وكان

بطلاً شهماً فنفس بوصوله عن ابن عبّاد ، ثم اقبل يوسف بعد ذلك وطبوله
تصدع الجوّ ، فلما ابصره ابن فرديناند قصده بمعظم جنوده فبادر اليه يوسف
وصدّمهم بجمعه فردهم الى مراكزهم وانتظم به شمل ابن عبّاد ووجد ربح
الظفر ، ثم صدقوا جميعاً الحملة ، واظلم النهار يومئذ بالعجاج والغبار ،
وخاضت الخيل في الدماء ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً ثم تراجع ابن عبّاد
الى يوسف وحمل معه حملة نزل معها النصر .

هذا ويؤكد الرواة ان ابن عبّاد أُثخن جراحاً في هذه المعركة وضرب على
رأسه ضربة فلقت هامه وهو الملك الشاعر كما جرحت يمينه يديه ، وطعن
في احد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة افراس وهو يقاسي حياض الموت ، وتذكر
في تلك الحالة ابناً له صغيراً تركه بأشيلية عليلاً اسمه العلاء وكنيته ابو هاشم
فقال والمعركة في اشدّ أوارها وهو الأب الرحيم :

ابا هاشم هشمتي الشقار ولله صبري لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

ان معركة الزلاقة التي انتصر فيها العرب في رجب سنة اربعمائة وتسع
وسبعين للهجرة ، الفوسث وثمانين للميلاد اخرت سقوط دولة بني عبّاد خمس
سنوات فقد اقدم يوسف بن تاشفين الذي ناصر المعتمد في معركة الزلاقة الى
خلعه سنة اربعمائة واربع وثمانين للهجرة ، الف واحدى وتسعين للميلاد بعد ان
فشل الملك العربي في تنظيم مملكته واحتاج ثانياً لمساعدة امير المرابطين
ليصد بجيوشه قوات قشتالة التي اخذت تضايقه . كما اخرت سقوط الأندلس
العربي في ايدي الاسبان نحواً من ثلاثة قرون .

الحقيقة ان معركة الزلاقة كانت اعظم معركة عربية خاضها العرب في
الأندلس العربي نفسه حفاظاً على الدولة والمجد ، والتراث ، إلا انها لم
تكن معركة المصير العربي في الأندلس الخالد ، لأنها لم تعبئ القوى العربية
لبناء الدولة ، إنما استعانت بقوى اسلامية لتؤخر المصير المحتم .

ليس من شك في ان المعتمد الذي رغب في مساندة يوسف بن تاشفين
كان يدرك مصير مملكته وقد نهاه اصدقائه من ملوك الطوائف عن استدعاء ابن
تاشفين ونصحوه بالتفاهم مع ابن فرديناند، إلا انه كملك عربي كان يسعى
لمرضاة الله احب ان يرعى جمال ابن تاشفين على ان يرعى خنازير ابن فرديناند .

بلى ان معركة الزلاقة كانت معركة عربية للحفاظ على المجد العربي في
الحرب ، والحب ، والشعر في تاريخ اندلسيا العرب ، التي ضاعت وبكاها
ابو البقاء الرندي ، كما بكاه كل العرب وكل المسلمين :

[دهى الجزيرة أمرًا عزاء له هوى له أحد وانهدُّ نُهْلان]
اصابها العين في الاسلام فامتحت حتى خلت منه اقطار وبلدان
فأسأل بلنسية: ما شأن مرسية وأين شاطبة ، أم أين جيان ؟
وأين قرطبة ، دار العلوم، فكم من عالم قد سما فيها له شان ؟
وأين حمص ، وما تحويه من نُزه ونهرها العذب فياض وملان ؟



سقوط غرناطة

في المدينة وجل ، وقد أغلقت الأبواب ، والحرس الملكي يربط على شرفات الأسوار، محملاً بالإيمان، مدججاً بالسلاح، والطبيعة من حوله حزينة باكية، والسماء مكفهرة واجمة، او كذلك ترى ، اما السهل المنبسط حول مدينة غرناطة فلقد بدى فاحماً اسود تحت طبقة كثيفة من الثلج ، لقد احرقه العدو وسّوده بالنار فأتى على كل شيء ، إلا على بقايا حفر الخيل ، وآثار المشاة ، وبقايا معركة الأمس القريب التي دارت حول اسوار المدينة الشامخة .

ونودي بالجند ، فانفرج باب البيرة ، واطلت كوكبة من الفرسان وعلى رأسها أبو القاسم عبد الله حاكم غرناطة، واجتمع الناس ، وتعالّت الأصوات ، واشربأت الاعناق وكثر الهمس ، والحاكم مطرق في طريقه الى الحمراء ، القصر الرابض المطل من عليائه على نهر شنيل ، وجبل شلير وكأنه كان يتحدى كل شيء ، حتى الطبيعة والقدر .

ودخل ابو القاسم على ابي عبد الله محمد ملك غرناطة وهو في مجلس من كبار الضباط والفقهاء والاعيان ، وعرض عليه شروط التسليم التي توصل اليها مع فردينالد الخامس ملك قشتالة . « عندئذ لم يملك كثير نفسه من البكاء والعويل » وتعالّت اصوات تطالب بالدفاع والجهاد ، إلا انها كانت اصواتاً خافتة نحيلة هذها الحرب والجوع والفاقة ، ويكى الملك وصاح « الله اكبر لا

اله إلا الله محمد رسول الله ، ولا مرد لقضائه ، تالله لقد كتب عليّ ان اكون شقياً ، وأن يذهب الملك على يدي .

وتعالى من اعماق التاريخ صوت الشاعر :

لكل شيء اذا ما تم نقصان
هي الامور - كما شاهدها - ذول
وهذه الدار لا تبقي على أحد
أين الملوك ذوو التيجان من يمن ؟
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
[ولو رأيت بكاهم عند بيئهم
يارب أم وطفل حيل بينهما
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
يقودها العليج للمكروه مكرهه
لمثل هذا يذوب القلب من كمد

فلا يُفّر بطيب العيش إنسان
من سره زمن ساءته أزمان
ولا يدوم على حال لها شان
وأين منهم اكاليل وتيجان
واليوم في بلاد الكفر عبيدان
لها لك الأمر واستهوتك أحزان
كما تفرق أرواح وأبدان
كأنما هي ياقوت ومرجان
والعين باكية والقلب حيران
ان كان في القلب اسلام وإيمان

وفي اليوم الثاني من ربيع الأول سنة ثمانمائة وسبع وتسعين للهجرة ،
الثاني من كانون الثاني سنة الف واربعمائة واثنين وتسعين للميلاد ومع
الفجر غادر ابو عبد الله محمد قصر الحمراء ، موطن عزه وخرج للقاء عدوه
الظافر في سرية من الفرسان ، فاستقبله فرديناند في محلته على ضفة شنيل ،
وهم ابو عبد الله ان يترك جواده ليحيي الملك المنتصر ، ولكن فرديناند منعه ،
وعانقه وكانت لحظة حاسمة سلم خلالها الملك العربي مفاتيح الحمراء قائلاً :
« إن هذه المفاتيح هي الأثر الأخير للدولة العرب في بلادكم ، لقد أصبحت
ايها الملك سيد تراثنا ، هكذا قضى الله فكن في ظفرك رحيماً عادلاً » .
واتجه الملك مع فرديناند إلى حيث كانت زوجته الملكة ايزابيلا فقدّم لها
خضوعه ، ثم انحدر مع اسرته الى البشرات ليحكمها باسم ملك قشتالة وفي
طاعته ، واتخذ قرية اندرش مركزاً لحكمه ، وانتشر في الناس النبأ ، فغضب
الشعب وسخط على ابي عبد الله ، واعتبره مصدر الهزيمة وسبب النهاية .

ومع كل ذلك لم يقو الملك العربي ان يحكم تلك المقاطعة باسم ملك قشتالة ، فلقد أبت عليه مروءته ان يخضع للرجل الذي قاتله على ارضه ، فقرر ان يتجه نحو المغرب العربي .

جاءك الغيثُ إذا الغيثُ هما يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكن وصلُك إلا حُلماً في الكرى او خِلْسَةً المُختلِسِ

كوكبة من الفرسان تنحدر في وادي المرية متجهةً نحو البحر من باب المرسى ، وعلى الشاطئ عدة سفن كان فرديناند قد اعدّها لأبي عبد الله محمد هبةً منه وعطاء ، وعندما وصل الملك ، وأخذت السفن تمخر عُباب الأزرق متجهة الى الملية وراحت ارضُ الأندلس تتصاغر ، وتتباعذ عن عينيّ الملك ، راودته عبرة لم يقو على ردها فيكى وسمعتة امه عائشة فقالت له : « أجل ابلِك بكاءَ النساء ملكاً لم تدافع عنه دفاع الرجال » .

والقيت حجب كثيفة على اعين الملك ، وعلى اعين الحاشية إلا انها لم تقو هذه الحجب ان تسدل على التاريخ .

وانتهى المطاف بأبي عبد الله محمد الى مدينة فاس ، وتقدم الى ملكها الشيخ الوطاسي مستجيراً به ، مستظلاً بلوائه ، ويحدثنا المقرئ في نفع الطيب فيقول بأن ابا عبد الله محمداً بسط دفاعه الى الشيخ الوطاسي بكتاب اسماء « بالروض العاطر الأنفاس في التوسل الى المولى الامام سلطان فاس » . وقد دبجه الكاتب ابو عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي ، ويبتديء الكتاب بقصيدة في الشكوى والاعتذار مطلعها :

مَوْلَى الملوِكِ ملوكِ العَرَبِ والعَجَمِ رَغِيّاً لِمَا يَمِثْلُهُ يُرْعَى من النِّعَمِ
حُكْمٌ من اللّهِ حَتَمٌ لَا مَرَدَ لَهُ وهل مَرَدٌ لحكمٍ منه مُنْخَنِمِ
كُنَّا مُلُوكاً لَنَا في أَرْضِنَا دَوْلٌ نَمْنَا بها تحت أَفْسَانٍ من النِّعَمِ
فَلَا تَمِ تحت ظِلِّ المُلِكِ نَوْمَتَا وَايُّ مَلِكٍ بظِلِّ المُلِكِ لم يَنْعَمِ

إلى أن يقول نثراً بعد المقدمة التقليدية .

« بيد أني أقول لكم ما أقوله لربي ، واجترائي عليه أكثر ، واجترامي اليه أكبر اللهم لا بريء فاعتذر ، ولا قوي فانتصر ، لكني مُسْتَعِيبٌ مُسْتَعْفِرٌ ، وما أُبريء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء . هذا على طريق التنزل والانصاف بما تقتضيه الحال ممن يتحيز الى حيز الانصاف ، وأما على جهة التحقيق ، فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق : « والله إني لا أعلم أنني إن أقررت بما يقوله الناس ، والله أعلم أنني منه بريئة لأقولن ما لم يكن ، ولئن انكرت ما تقولون لا تصدقوني فأقول ما قاله ابو يوسف : صَبْرٌ جَمِيلٌ واللَّهُ المستعانُ على ما تصفون » .

ويقول المقرئ : « بعد ان انتهى المطاف بالملك الى مدينة فاس ، وأقام فيها في ظل الشيخ الوطاسي بنى بعض القصور على طريق بنيان الأندلس رأيتها ودخلتها ، وتوفي رحمه الله بمدينة فاس عام اربعين وتسعمائة هـ ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة ، وخلف ولدين احدهما يوسف ، والآخر احمد ، وعقب هذا السلطان بفاس الى الآن ، وعهدي بليته الى سنة الف وسبع وثلاثين للهجرة يأخذون من اوقاف الفقراء والمساكين ويعتبرون من رحمة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أُذِرْكُ بِخَيْلِكَ ، خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسَا	إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا قَرَسَا
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسْتُ	فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزَرَا	لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعَسَا
وَفِي بِلَنْسِيَةِ مِنْهَا وَقَرْطَبَةٌ	مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا
مَدَائِنُ حُلُهَا الْأَشْرَاكُ مُتَبَسِّمًا	جَدْلَانِ وَارْتَحَلَ الْإِيْمَانُ مُتَبَسِّمًا
يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتِ لِلْعَدَى بَيْعًا	وَلِلنَّدَاءِ غَدَا أَتْنَاءَهَا جَرَسَا

وهكذا طوى التاريخ امجادنا وعجزنا في الاندلس ، ولم تجد كل المساعدات التي قدمها الحفصيون والمرابطون والموحدون ، فلقد اضاع البلاد ، استثنى ملك ، واثانية حاكم ، وخداع امرأة ، وتعصب عالم .



كيف سقطت غرناطة وهل كان سقوطها سبباً في طي صفحة العرب في الاندلس وهل من اثر لها على الأدب العربي

وجه الينا القسم العربي في اذاعة الـ B.B.C سؤالاً في برنامج « لكل سؤال جواب » حول سقوط غرناطة فأجبناه بما يأتي :

كان زواج فرديناند الخامس ملك ارغون بايزابيل الكاثوليكية ملكة قشتالة سنة الف واربعمئة وتسع وستين للميلاد آخر سلسلة في توحيد قوى الاسبان تجاه السلطة الاسلامية الحاكمة في غرناطة .

ان الخلافات الداخلية بين سلطان غرناطة ابي الحسن علي بن الأحمر وبين اخيه ابي عبد الله الملقب بالزغل (الشجاع) ، ومن ثمة بين السلطان نفسه وبين ولده محمد ابي عبد الله الذي خرج عليه سنة الف واربعمئة واثنين وثمانين للميلاد بسبب ولاية العهد التي قدم لها السلطان احد ابناؤه من زوجته الاسبانية الاصل عجلت بالقضاء على المعقل العربي الأخير في الأندلس .

لقد تمكن محمد ابو عبد الله من الاستيلاء على الحمراء بمؤازرة حامية غرناطة ولم يلبث ان اصبح سيد الدولة ، الا ان حكمه لم يدم طويلاً اذ وقع اسيراً في ايدي الاسبان حينما غزا بعض بلادهم ، فاجمع اهل غرناطة عندئذ على اعادة الوالد ملكاً عليهم وكان قد لجأ الى مאלقة فأبى الملك وقدم اخاه ابا عبد الله المعروف بالزغل الذي كان يخاصمه على حكم البلاد .

في هذه الفترة بالذات استغل الاسبان اسيرهم محمد ابا عبد الله

واستعملوه اداة لنكبة مملكة غرناطة بعد ان زودوه بالمال والرجال ، فقدر له سنة الف واربعمائة وست وثمانين للميلاد ان يحتل جانباً من عاصمة محمد وان يدفع البلاد مرة اخرى الى حرب اهلية طاحنة .

لم يكذب يطمئن محمد ابو عبد الله الى حكم غرناطة بعد ان خرج محمد الى بر العدو وقصد تلمسان حتى اخذ الاسبان يتهددون صنيعتهم ويطلبون اليه تسليم البلاد .

في سنة الف واربعمائة واحدى وتسعين للميلاد حاصر فرديناند الخامس غرناطة وراح يطبق عليها ، واشتد الحصار ورغب العدو في تجويع المدينة وحمل اهلها على التسليم « الى ان حل فصل الشتاء ، ونزل الثلج ، وتوقفت المرافق ، وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء واستولى العدو على اكثر الاماكن الزراعية في فحوص غرناطة فضاق الحال » وكان لا بد للحامية من التسليم في مدة شهرين ان لم يصلها العون ، ثم كانت النهاية المؤلمة .

في الثاني من كانون الثاني سنة الف واربعمائة واثنين وتسعين للميلاد غادر ابو عبد الله محمد قصر الحمراء وخرج للقاء عدوه الظافر في سرية من الفرسان فاستقبله فرديناند وكانت اللحظة الحاسمة التي سلمه فيها مفاتيح الحمراء الأثر الاخير لدولة العرب في اسبانيا .

ان سقوط غرناطة كان ايذاناً بطي صفحة العرب هناك فالملك العربي لم يقو ان يعيش في « البشرات » تحت حكم الملك الاسباني فغادر البلاد الى المغرب واستقر في مدينة فاس كما ان الاسبان لم يحترموا نص المعاهدة فاخذوا العرب بضروب الشدة والقسوة حتى اجبروهم في النهاية على مغادرة الاندلس .

الواقع ان سقوط غرناطة بالذات لم يتميز في تاريخ الأدب الاندلسي ، الا ان مملكة غرناطة وان خضعت في اكثر ايامها لنفوذ البرابرة فقد حفلت بعدد غير قليل من الشعراء والكتاب في طليعتهم الرحالة ابو حامد الغرناطي والشاعر ابن زمرك ، والعالم والأديب الوزير لسان الدين محمد بن الخطيب .

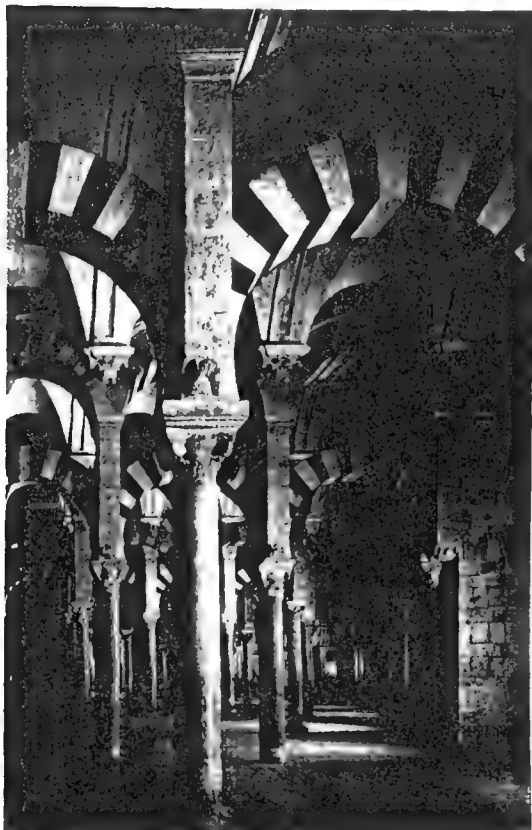
ليس من شك في ان اوضاع مملكة غرناطة في عهدها الاخير الهبت نفوس كثير من شعرائها وفي مقدمتهم وزيرها ابن الخطيب .

هذا، اما بالنسبة الى الأدب العربي عامة، فان لم يتميز سقوط غرناطة بالذات بمؤلفات خاصة فيكفي مؤلف المقرئ « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » الذي خص قسماً كبيراً منه بوزيرها العالم وسقوطها المريع . فضلاً عن الدراسات والبحوث المختلفة التي قام بها الباحثون والمستشرقون للكشف عن معالم الحضارة الزاهية التي اقامها المسلمون في الجنوب الغربي من اوروا .



القِسْمُ الثَّانِي
إعلام الأندلس الإسلامي

خانة الأعمدة في مسجد قرطبة الذي بناه عبد الرحمن الداخل



عبد الرحمن الداخل

مؤسس الامارة الأموية في الأندلس

قُر من المشرق ١٣٣هـ / ٧٥٠م أسس الامارة في قرطبة ١٣٩هـ / ٧٥٦م

عرف النصف الأخير من القرن الثاني للهجرة ، الثامن للميلاد أحداثاً جساماً بالنسبة للإمبراطورية العربية ، فالشرق العربي شهد قيام الدولة العباسية على انقاض دولة بني امية ، بينما شاهد المغرب العربي والأندلس خاصة قيام الدولة الأموية على انقاض حكم الولاة ، بعد فترة طويلة من الفوضى والظلم والاستبداد ، وفي هذه الفترة من تاريخ الدولتين ، العباسية في المشرق ، والأموية في المغرب عرف الحكم العربي في كلتا الدولتين نوعاً جديداً من الادارة والحنكة ، والتوجيه من أجل بناء افضل للدولة . ولعل الواقع الطبيعي للاحداث السياسية في الشرق العربي كان يحتم على رجال الدولة العباسية ان ينهجوا منهجاً جديداً في اقامة دولتهم الفتية بعد ان اغتصبوا الحكم بالقوة ودعموه بأفكار سياسية وعقائدية تناقض الى حد بعيد الأسس والمبادئ التي قامت عليها دولة بني امية في دمشق . ومن الطريف ان يسلك عبد الرحمن بن معاوية بعض السبل وعين الطرائق التي سلكها العباسيون ، في اقامة دولته في الأندلس ، وتشاء الظروف كما يؤكد ابن حيان اكبر مؤرخي العرب الأندلسيين بأن كلا الحاكمين ، ابا جعفر المنصور في بغداد ، وعبد الرحمن الداخل في قرطبة يتشابهان من حيث قوة الشخصية ، واساليب الحكم ، والمرونة الادارية ، ويرى ان مرد ذلك قد يكون على اغلب الظن الى ان والدته كل من الرجلين كانت سبية من قبائل البربر ، فوالدة ابي جعفر المنصور بربرية من الشمال الافريقي ، و« راح » والدته عبد الرحمن

بربرية من قبيلة نفرة ، وهذا ما اضفى على الرجلين نوعاً من الهيبة ، وقوة الشكيمة ، وقد يكون للاحداث السياسية في الشرق العربي والمغرب يد في خلق تشابه في صفات الحاكمين .

وليس من شك في ان الصفات التي امتاز بها صقر قريش مكنته من ان يتغلب على كل الصعوبات التي اعترضت سبيله لبناء دولة في الأندلس ، فقد له ان يمهّد بقوة شخصيته ، ونفاذ عزمته الطريق الى قرطبة ، وان يهدم كل الأسوار المادية والمعنوية التي ضربت حوله ، واقامت في طريق زحفه السريع الصاعق على البلاد وهو الأمير الذي لا يملك قوة ولا سلاحاً . وبينما كان اهل الجزيرة الخضراء واقلبي شذونة وطرش وغيرهما يبايعونه سيداً من سادات البيت الأموي ، الحكم والامارة والطاعة ، ترامى النبا الى يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، آخر وال اموي في البلاد ، وكان قد نهض لملاقاة بعض الخارجين عليه بقيادة القرشي العامري ، فارتد يريد اشبيليا ونزل حصن نيبية ، واحتاط القائد البطل لتفقات خصمه فعذل عندئذ من خططه ورغب في احتلال عاجل صاعق لمدينة قرطبة مما اجبر يوسف الفهري ان يسرع لملاقاته دون ان يكون قد وحد صفه ، وجمع شمله .

هذا وتشاء الظروف في هذه المعركة الفاصلة ان تقيم التشابه والصلات التاريخية وتعيّد الذكريات القديمة بين المشرق والمغرب ، بين القائد الداخل حفيد مروان بن الحكم ، وبين الوالي الأندلسي المدافع عن البلاد حفيد الضحاك بن قيس الفهري قائد عبد الله بن الزبير ، كما اقامت تشابهاً بين ابي جعفر المنصور وعبد الرحمن الداخل ، ويحدثنا ابن القوطية القرطبي فيقول : (بأن عبد الرحمن سأل خاصته قبيل يوم المعركة في اي يوم نحن ؟ فقيل له في الخميس ، وهو يوم عرفة ، فقال : اليوم عرفة وغداً الأضحى والجمعة ، وأمرني مع الفهري ارجوان يكون كيوم مرج راهط) . ومعركة مرج راهط كما هو مؤكّد كانت في يوم الجمعة ويوم اضحى ، وكان النصر فيها لمروان بن الحكم على عبد الله بن الزبير .

ان الرواية العربية تثبت في كثير من تفصيل وقائع المعركة التي دارت رحاها بين الرجلين قبالة قرطبة في موقعة المصارة ، والتي كان النصر فيها للداخل صقر قريش ، تلك المعركة التي غيرت من مجرى التاريخ الأندلسي وارتست المدمك الأول في بناء الدولة الأموية في الأندلس سنة مائة وثمان وثلاثين للهجرة ، سبعمائة وخمسة وخمسين للميلاد .

لقد كانت حياة مؤسس الدولة الأموية في الأندلس سلسلة من المؤامرات والمعارك ، والاحقاد ، والدماسير ، والمناورات السياسية ، والخلافات القبلية ، والشعوبية ، وإذا كان الخلاف القبلي المنتشر في طول البلاد وعرضها ، والمستحکم بين القيسية واليمينية من جهة وبين العرب والبربر من جهة أخرى ، وبين الشاميين والبلديين هو الذي مكّن عبد الرحمن الداخل من احتلال الأندلس ، فإن هذا الخلاف عينه هو الذي نقص عليه أيام حكمه الى جانب ما كانت تعدّه الدولة العباسية من مؤامرات للنيل من حكم الأمير الفتى ، وما الجيش الذي بعث به ابو جعفر المنصور بقيادة العلّابن مغيث الجُدّامي ، والذي انهزم على ارض الأندلس ، او تلك المحالّفات والسفارات التي قامت في ما بعد بين هارون الرشيد في العراق وشارلمان حفيد شارل مارتل الذي هزمت قواته جيش عبد الرحمن الغافقي في فرنسا ، ما هذه كلّها إلا مكائد مرسومة اعدتها الدولة العباسية للاطاحة بالدولة الأموية الفتية في المغرب .

والحقيقة ان شخصية عبد الرحمن الداخل القلّة اغرت كبار النقاد والمهتمين بالأبحاث الأندلسية ان ينصرفوا الى دراسة العوايل والظروف التي احاطت بالامير الأموي ، وان يتصلوا بعصره ويقرروا النتائج التي تكشف عن جانب كبير من القيمة العلمية ، فالمستشرق الهولندي دوزي الذي سمي عبد الرحمن بالطاغية ، والغادر يقول : (إن الرجل قد دفع ثمن ظفّره غالياً ، وان قلبه لم يعرف الرافّة نحو خصومه السياسيين ، وأنه لم يبق زعيم عربي او بربري يرغب في خدمته ، ولكن من العدل ان نصرّح بأن ملكاً لا يستطيع ان يحكم العرب والبربر بغير هذه الوسيلة ، وإذا كان العنف والطفغان في ناحية ،

ففي الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى) .

امام هذه الحقائق العلمية والتاريخية التي يشهدها المؤرخون لا بد من اثبات حقيقة اخرى ، وهي ان الأمير الأموي كان من ذوي القلوب الكبيرة الرحيمة ، ومن ذوي النفوس الطيبة النبيلة ، وان كان واقع الحكم قد فرض عليه ان يكون مستبدًا للحفاظ على رأسه وملكيته ، فالرجل كثيراً ما كان يسوءه الوضع القائم ، فيحن الى ملاعب شبابه في دمشق ، وفي جنات أرضها فيطل من اندلسه الصاخب على حقيقة ذاته ويتغنى بهاتيك الأرض من وراء وفود قومه النازحين الى ملكهم الجديد .

إقر من بعضي السلام لبعضي	أيها الراكب الميم ارضي
وفؤادي ومالكه بأرض	ان جسعي كما علمت بأرض
وطوى البين عن جفوني غمضي	قدّر البين والنوى فافترقنا
فعسى باجتماعنا سوف يقضي	قد قضى الله بالفراق علينا

لقد كان عبد الرحمن في نظر نفسه بعيداً بقلبه عن الأندلس الشامخ الذي اقامه عزيز الجانب على ركائز من القوة والعلم ، والمُحمران مع انه كان يبني امجاداً حقيقية كانت الواقع الطبيعي لامتداد الدولة الأموية .

ومهما يكن من امر فالدولة التي اسسها صقر قریش في قرطبة وضعت اتجاهات جديدة في الحضارة الانسانية ومفهومها ، وكانت مع كل ما وجه اليها من نقد ، الباب الكبير الذي عبرت منه حضارات العالم القديم الى اوربا قلب المدينة الحديثة .

إن البحث العلمي عندما يأخذ بدراسة التطورات التي طرأت على اوربا منذ القرن الخامس عشر يذكر ابدأ قرطبة ، ويذكر عبد الرحمن الداخل ، مؤسس الدولة الأموية وخلفاءه الأعلام من بعده .

عبد الرحمن الداخل

في عرض البحر ، وعلى الأفق البعيد ، سفينة تقترب من الشاطئ ، دون ان تحس حركة قوية تدفعها اليه ، وقد لاح عن بعد كخيوط ابيض على طرف السماء الداكنة ، وكان الموج هادئاً ساكناً ترتعش صفحته لتلك النسيمات البليلة التي تداعبه فتبعث فيه طرفاً من حياة فينفرج في رفق كلما شق حيزوم السفينة عباب اليم الرّاكذ الذي تضارب لونه بين الزرقة القائمة بعض الشيء ، وبين الخضرة الباسمة ابان تفتح الربيع ، وعلى الشاطئ نفر من الرجال كان هناك موعداً بينهم وبين القدر فهم يمدون النظر في الأفق كأنهم كانوا يبحثون عن شيء في عرض اليم ، وتقترب السفينة مع الفجر وتظهر على اطراف السماء اضواء باهتة لا تلبث ان تقوى كان يداً خفية اخذت تلعب في ذبال المصباح فتوقده ، فيتشع الضوء قوياً على جوانب السماء حتى يأخذ طريقه الى الأرض فيبدو الساحل جلياً امام ذلك الفتى القوي الذي هيء لتلك الجزيرة الملقاة الى شاطئ بحر الظلمات غرباً ، والأبيض المتوسط جنوباً ، فينهض ، او كان المجدد الذي كان ينتظره اهاب به ان يتطلع الى البلد الذي اعد ليكون امتداداً لحكم ذويه في المشرق فإذا هو مع صفر سنه وكمال رجولته يتهب لهذا الواقع الجديد فيقطب الجبين الا ان ابتسامة ظاهرة تطفو على ثغره فيبتسم ، وابتسم له من في السفينة من حرس ، كما يبتسم له مولا بدر وابو فريرة وتام ابن علقمة من سادات الشاميين في الأندلس ، اللذين هبطا الشمال الافريقي ليكونا ممثلين عن اهلها الذين بايعوه اميراً على أيبيريا أندلس العرب .

وتلاصق السفينةُ رمالَ المنكبِ المرفأ الصيفي الباسيم الملقى على
الحصى بين البيرة والملية من اقليم مُرسية ، ويتلقاه وقد من الرجالات وعلى
رأسهم ابو عثمان ، وعبد الله بنُ خالد فيرحبون به ثم يتوجهون برفقته الى
طرش حيث يتزلون في ضيافة عبد الله على الرحب والسعة .

وما يلبث الفتى عبدُ الرحمن بنُ هشام بنُ عبد الملك بن مروان في هذا
البيت رَدْحاً من الزمن حتى يرتفع عن عينيه ستارٌ كثيفٌ وتراعى له من هناك من
آخر الأرض دمشقُ الفيحاء ، ابتسامَةُ الأرض الخضراء على اقدام قاسيونَ
الجبَلِ الحارِسِ ، ويتراعى له بردى نهرها الخالد الذي يتفجرُ من اعماق
السهل الفسيح بين القرى المنتشرة عند سلسلة جبال لبنان الشرقية ، فيهزه
شعورٌ عميقٌ ، وتبدو لناظره بقايا المعركة عندما تآلب العباسيون بجيوشهم
على ملك بني امية في دمشق ، في احيائها الضيقة الملتوية حول المسجد
الأموي الكبير وعند باب البريد ، وفي السوق المنحدرة الى ساحة النوفرة الى
الغرب من قصر معاوية بن ابي سفيان مؤسس الدولة الأموية ، وانه ليدكرُ بعدُ
ذلك كيف التجأ مع أخيه الصغير الى شمال سُوريا متربصاً خائفاً حتى داهمته
الرايات السود ذات يوم ، والشمسُ تلملم عن الأفق بقايا اضرائها المبعثرة ،
فلم ير بداً من ان يلقي بنفسه في اعماق الفرات ليعبره الى الضفة الأخرى بعد
ان خلع الجنْدُ اخاه الاصغر فارجعوه الى الشاطئ وقاتلوه دونما رحمة ، وكيف
انه قضى اياماً طوالاً مختبئاً بين الغابات متوارياً عن الأنظار ، مديراً امر قراره
الى المغرب وكان هو الفتى ما زال يدكرُ نبوءةً مُسلمة بن عبد الملك الذي توقع
له ملكاً في الأندلس ، فيجد في ذلك دافعاً واملاً ليقطع هاتيك الفياقي الممتدة
بين سوريا ومصر ، ويجتاز الصحاري حتى يصل إلى طرابلس ، فينزَل عند
اخواله من بني نفرة ويكون موضعَ ملاحقة امير البلد عبد الرحمن بن حبيب ،
الذي كلّف كعاملٍ للمنصور ان يقتل الأمويين وانصارهم جميعاً ، وكان عبدُ
الرحمن قد بلغه مقتل ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك على يديه ، فلم ير
بداً من ان يفر الى مكناسة ومن ثمة من ان يلتجئ الى قوم من زناته وهم اشدُّ
بربر السّاحل اكراماً للضيف ، واماناً للمخائف حتى اذا ضاع عن اعين العايلِ

ورجاله لحق بعملية اقرب منطقة على الساحل الأفريقي من البحر المتوسط .

وكادت هذه الصورُ الحزينةُ ان تُطَيَّقَ على قلب الفتى فتدفعُ اليأسَ ان يتسرب الى نفسه لو لم يتطلعْ إلى ملك آبائه في الأندلس ، فيبعث موله بدران إلى موالي المروانيين واشياعهم ، فيجتمع اليهم فيثوا له الدعوة في البلاد ، ويؤلبوا له الرأي ، ويجمعوا حوله الكلمة ، وكان الأندلسُ في ذلك الحين شيعاً فالخلاف على اشدّه بين اليمنية والمضرية ، هذه التي شددت من ازره وأرادت له الامارة على خصمها وولي الأمر يومئذ عبد الرحمن بن يوسف الفهري ، آخر والٍ في الأندلس كان يمالئُ رجالات البلاط في العراق فيدعو للخليفة العباسي على المنابر .

ويعود الرسولُ من الأندلس بعد ان مهدَ امامَ سيده الطريقَ الى قرطبة مركزِ الولاية وقاعدةِ الخلافةِ الاموية في ما بعد ، حاملاً له نتائجَ مُباحثاته مع رجالات الامويين ، معدداً أسماءَ الشخصيات التي بايعته اميراً ، عارضاً عليه ما تم الاتفاقُ حوله مع الصميل بن حاتم ، وزير عبد الرحمن بن يوسف الفهري من ان يشارك الأميرُ الأموي الفهري الحكم كزوج لابنته .

الا ان عبدَ الرحمن الداخل يأبى ان يشارك الفهري الحكمَ ، كما يأبى مع ثقته بكل من بايعه ان يدخل البلادَ وحيداً ، فيبعث موله ثانيةً ليعودَ بوفدٍ من انصاره يرافقه في دخوله الى قرطبة ، ويرجعُ بَدْرَ ثانيةً ويرفقه ابو فريعة ، وتماهمُ بنُ علقمة وهما من سادات الشاميين كما ذكرنا .

ويطمئن الأميرُ في مجلسه ، وتأخذ وفودُ من طرش بزيارته ، ويُلقي الستار مرة اخرى امامَ عينيه فتغيب كلُ الخيالات التي كانت ترواهُ واشدها تأثيراً على نفسه ساعة قُتِلَ مروانُ بن محمد بنُ مروان بنُ الحكم ، آخرُ خليفة اموي في دمشق ، وينهضُ عبدُ الرحمن الذي عُرفَ بالداخل لأنه أولُ امير اموي من البيت الحاكم دخل الأندلسَ بعد انهيار حكمهم في المشرق ، قلت ينهضُ عبدُ الرحمن لاستقبال الوفود ، كما ينهضُ بعدئذ بأعباء الامارة ، ليخوضَ معركةً ليست بينه وبين عبدِ الرحمن بن يوسف الفهري فحسب ،

وإنما معركة فاصلة في تاريخ الاندلس ، معركة عسكرية على الميدان الحربي ،
ومعركة في الإصلاح على مرافق الدولة ، ومعركة في العلم على بيوتات
الاقطاعية والحكم المستبد ، ومعركة في الحضارة تلك التي اقامها شامخة
على الدهر ، ثابتة امام العاصفة ، باقية بقاء الأرض .

ليست العظمة أن يخوض القائد معركة حربية فينتصر فيها ، إنما العظمة
ان ينتصر القائد في معركة السلام ، معركة البقاء .



ابن عبد ربه

اول مؤلف في الأندلس

٨٢٤٦/٨٦٠ م ٨٣٢٨/٨٣٩ م

في طليعة الكتاب الموسوعيين في الأندلس اشراقه ديباجة ، ووضوح عبارة ، ودقة تصنيف وسعة اطلاع ، الكاتب ، الشاعر ، الأديب ، والمؤرخ ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه ، من اعلام القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد .

يعتبر الكاتب احمد بن عبد ربه في تاريخ الفكر الاندلسي في مقدمة الاعلام الذين اثاروا مشكلة تبعية الاندلس العربي الفكرية الى المشرق العربي ، فيؤكد المشرق الاسباني الياس تريز سديا ان ابن عبد ربه هو اول من اثار الخصومة الأدبية بين المشرق والمغرب العربيين ، حتى كان عهد ابن حزم فانتعت الفكر الأندلسي من تبعية المشرق الذي لم يعد يقوى ان يمد العبقريّة الاندلسية بمفاهيم تكشف ماهية الانسان .

ولد ابن عبد ربه في الاندلس سنة مائتين واربعين للهجرة ، ثمانمائة وستين للميلاد وقدر له كمولى لبني امية ان يتصل بالبلاط في قرطبة وان يمدح نفعاً من امراء الدولة الحاكمة كان آخرهم عبد الرحمن الناصر مؤسس الخلافة الاموية في الاندلس سنة ثلاثمائة وست عشرة للهجرة وتسعمائة وثمان وعشرين للميلاد الذي ترك فيه قصائد قد لا ترقى الى منزلة الشعر الاندلسي .

الدارسون لقيمة شعر ابن عبد ربه يؤكدون وفي طليعتهم المشرق

الاسباني انخل كورتالت بالثيا ان شاعرية الأديب الاندلسي لم تكن ممتازة، سواء في قصائده الطوال التي تحدث فيها عن الحملات السنوية التي قام بها الناصر او في مقطعاته التي قالها في مدح بني امية كقوله :

با لمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد انس

امام هذا الرأي للمستشرق الاسباني بالثيا لا بد من الاشارة هنا الى ان شاعرنا ابن عبد ربه كان اول من وضع الشعر في خدمة التاريخ فأرجوزته في وصف معارك الناصر لدين الله الخليفة الأموي الأول في الأندلس تعتبر ذات قيمة علمية وتاريخية على جانب كبير من الأهمية ، فضلاً عن انها سجل لكل الأحداث العسكرية التي تمت في عهد مؤسس الخلافة فهي تسمى المواقع ، وتحدد التاريخ ، وتذكر القلاع ، واسماءها والقواد وبلادهم .

من هذه الأرجوزة بالذات يؤكد النقاد المعاصرون عند دراستهم للشعر التعليمي ان العرب عرفوا هذا النوع من الشعر ليس فقط في الشعر الأندلسي وحسب بل في الشعر العربي عامة ، وان ابن عبد ربه الشاعر الأندلسي لم يسمح للشعر في اندلسيا العرب ان يقصر عن فنون الأدب العربي في المشرق .

واذا كانت الحقيقة في نظر بالثيا كما اشرت ، فإن شعر ابن عبد ربه لم يرق الى مستوى الشعر الأندلسي فبعض اشعاره الغزلية تنبئ عن ذوق وحساسية تفوق ما يبدو في فنونه الشعرية الأخرى .

جمع ابن عبد ربه اشعاره في ديوان سماه « الممحصات » اتبع فيه كل قطعة غزلية بأخرى في الحكمة والزهد ، رغبة منه في ان يدفع شعر الزهد اوزار الأفكار الدنيوية ومن غزله قوله :

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله درأ يعود من الحياء عقيفا
واذا نظرت الى محاسن وجهه ابصرت وجهك في سناه غريقا

الواقع ان ابن عبد ربه احتل مكانة مرموقة بين اعلام الأدب العربي عامة ويرجع ذلك الى تصنيفه لكتاب العقد الذي اتبع في وضعه منهجاً معيناً رسمه في مقدمة الكتاب، هذا وبالرغم من ضخامة الموضوعات التي عرض لها في كتابه لم يتعد عن الخطوط الرئيسة التي رسمها لنفسه .

ان الدارس لكتاب العقد الذي يعرف عادة بالعقد الفريد لنفاسته يجد ان الكاتب الاندلسي كان واسع الاطلاع ، غزير الفكرات ، مطلعاً على الأدب والفلسفة والتاريخ والاجتماع وان كتابه جاء شاملاً لموضوعات عصره وصورة حقيقية لثقافة الاندلسيين الذين درسوا تاريخ المشرق العربي في جميع مظاهره ومن هنا كان العقد الفريد صورة لتبعية الأندلس الفكرية للمشرق ذي المفاتن والسحر والجمال والاعجاب الذي تملك هذا النفر من ابناء المغرب فشهدوا بكل مآثره .

إذا كان النقاد قد اعتبروا كتاب العقد صورة لتبعية الفكر الاندلسي للمشرق لأن صاحب بن عبّاد عندما اطلع على الكتاب قال هذه بضاعتنا قد ردت الينا ، فالعقد كما اشرت هو اول من حمل الخصومة الأدبية بين المشرق والمغرب العربيين ، فابن عبد ربه كأديب اندلسي كان يدرك بالرغم من اعجابه بالمشرق وثقافته ان الاندلسيين وهم في مطلع حياتهم الفكرية قادرون على ان يجاروا هذا الأدب العربي .

لقد اشار الكاتب الأندلسي الى هذه الناحية في مقدمة الكتاب بقوله : « وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقه في مذاهبها وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابتنا هذا ان لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه حفظاً من المنظوم والمشور » .

يبدو جلياً ان الكاتب الاندلسي كان يريد ان ينوه بأن للمغرب العربي بالرغم من انقطاعه وبعده عن مواطن الثقافة العربية في بغداد ودمشق له حظ من النتاج الفكري قد يجاري الى حد ما الأدب العربي في موطنه الأولى .

لم يعد من المهم ان ندرس منهاج ابن عبد ربه في كتابه العقد فنشير الى

ان يضم خمسة وعشرين كتاباً ينقسم كل منها الى قسمين وأنه قد جعل عنوان كل باب من ابواب كتابه باسم جوهرة مما تنظم منه العقود، إنما المهم ان نؤكد ان ابن عبد ربه كان يدرك اهمية عمله وصعوبة متهاجه في قوله: «وقد الفت هذا الكتاب وتخيرات جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصل جوامع البيان فكان جواهر الجواهر ولباب اللباب وإنما لي فيه تأليف الاختيار وحسن الاختصار» ، الى ان يقول : « واختيار الكلام اصعب من تأليفه » .

لكتاب العقد اهمية علمية كبيرة اذ يطلعنا على احوال الحضارة الاسلامية في عصره كما يقول المستشرق الاسباني انخل بالثيا لأنه يعرض علينا ما كان ينبغي ان يحيط به المتحضر المتعلم في ذلك العصر من معارف، اما قيمته بالنسبة لتاريخ الأندلس فتنحصر في انه اول كتاب من نوعه كتب في الأندلس ووصل الى ايماننا وفيه اقدم عرض لتاريخ بني امية الاندلسيين .

ان لم يكن ابن عبد ربه في طليعة شعراء الأندلس فهو في ذؤابة اعلامه الموسوعيين حضور بديهة ، واتقاد ذهن ، وسعة اطلاع .



زرياب ، الطائر الاسود الغرد

من رجالات القرن الثالث للهجرة - التاسع للميلاد

عرف الغناء العربي طريقه الى الأندلس يوم حمله اليه ابو الحسن علي ابن نافع بعد ان قدّر لهذا الغناء ان ينطلق من موطنه الأولى في المدينة ، والطائف ، ونخبير ، ووادي القرى ، ودومة الجندل ، واليمامة ويستمر رديحاً من الزمن في بغداد العاصمة العباسية المطلة على دجلة المزهوة الضاحكة للنخيل ابداً .

قلت حمل الغناء العربي الى الأندلس ابو الحسن علي بن نافع ، زرياب الطائر الغرد الذي قدر له ان يحط على ضفاف دجلة من بلاد فارس ، وان يقيم في بغداد ، ويتصلّ بأسحق بن إبراهيم الموصلي استاذ الغناء العربي ورائده في حاضرة الرشيد .

لقد غنى زرياب بعد ان حلق الغناء على يد استاذ الموصلي الخليفة هارون الرشيد ، غناء عذياً مزيجاً من الغناء العربي جميعاً لا هو النصب ، ولا هو البناد ، ولا هو الهزج ، إنما هو ضرب خليط من هذه الألحان ربط بينها في دقة فتمازجت في فن وصنعة ، ومدها في صوت زخيم مع ضربات عوده الذي صنعه بيده بدعاً بين الآلات ، فردد الرشيد بعد ان طرب ، وردد الناس من حوله ترجيع الصوت الشجي :

يا أيها الملك الميمون طائره هارون راح اليك الناس وابتكروا

لم يكتب للطائر الغرّد الذي هزّ اعماقَ الخليفة ، واثار حسد استاذة ان يقيم على ضفاف دجلة ، وان يصيح علماً من اعلام الغناء العربي في المشرق فلقد ارغم في ما يقول المقرّي على مغادرة بغداد بعد ان هدده استاذهُ ورغبه في الهجرة ، وزوده بالطعام والمال والكسوة .

خرج زرياب من البلد الذي سما فيه نجمه ولم ييزغ ، وترك بغداد عاصمةَ المشرق العربي ، وحمل نفسه الى الاندلس الى مغرب الشمس ، حيث كانت تترك وراءها بابَ السماء محروقاً مضرجاً باللهب الذهبي .

بعد رحلة طويلة شاقّة اطل زريابُ من طنجة على الجزيرة الخضراء ثغرِ الأندلس الباسم بعد ان خلف وراءه في القيروان نقمةً زيادة الله بن إبراهيم الاغلب يوم شاء له ان يغنيه ، ويوم كُتب له ان ينشده شعر عنترة ، ويجعل نفسه في مقام الحاكم فيسخط هذا ويتهده ويمهله ثلاثاً ولأَ قتله .

ولولا فرارك يومَ الوغى لقدتكَ في الحرب او قدتني

وينطلق الطائر الغرّد في الأندلس ، وقد تكسرت الحانة الآ من شجو قليل ، وتماوت الصوت الغرد ، وتعب جناحاه وقد شلّهما الزمن يوم حملت اليه انباء قرطبة خبر وفاة الحكم ، الأمير الذي رحب بمقدمه ، وافسح له بين كبار حاشيته في بلاطه .

وكاد زرياب ان يعود بأهله الى المشرق ، لو لم يكن مع المجد ، والخلود في قرطبة على موعد فيثني من عزيمته منصور المغني رسول الحكم اليه الذي استقبله عند بحر الزقاق يوم حط في الجزيرة الخضراء ، ورغبه بعبد الرحمن الأوسط ولد الحكم ، والقائم بالأمر من بعده الذي رحب بمقدمه ، وكتب الى عمّاله فيما يذكر المؤرخون ان يحسنوا اليه ، وان يوصلوه الى قرطبة ، وقد امر له بدار من احسن الدور حُبل اليها جميع ما تحتاج اليه من اثاث ورياش .

في إحدى ليالي سنة مائتين وست للهجرة ، ثمانمائة واحد وعشرين

للميلاد والليل يلف قرطبة المدينة المكتئة على هضبات السيرا مورينا والممتدة مع شاطئ نهر الوادي الكبير ، في كبريائه وجلاله وخشوعه للصوت المنبعث من اعماقه يرتل نشيد الحياة الأزلي ، وهو ينسكب لجيئاً يتجاوب مع الشذى العابق من جنان الأرض ، اخذت قافلة من خيل الأمير عبد الرحمن بن الحكم سيد الاندلس الجديد ، ووارث البيت الأموي تؤم الساحة الكبيرة من باب الجزيرة الخضراء احد ابواب المدينة السبعة ، محملة بالمتاع .

كان لوقع حوافر الخيل على الأرض المعبدة صوتُ افاق له النيام من سكان المدينة في الساحة الكبيرة وما جاورها في الزنقات الضيقة ، واخذت رؤوسهم تُطل من بين قضبان النوافذ الحديدية ، وقد هلمت قلوبهم لهذه القافلة تدخل العاصمة مع الظلام الحالِك .

مدّ زرياب عينيه في هاتيك الأزقة الضيقة وكأنها قد اطبقت على ذاتها ، وفي تلك النوافذ العريضة المطلة على الدروب الملتوية ، والورود والريحان ، والياسمين يكاد كل هذا يمتد ويجلل بكساء سنديسي اخضر مزهر جوانات الجدران والنوافذ ، ويفرك زرياب عينيه ويتساءل وكأنه في حلم ، اهذه دمشق ابنة بردى ، ام قرطبة ابنة نهر الوادي الكبير .

لقد كانت العين الدعجاء ، ويؤبؤها الأسود الحالِك يرمي قلب الطائر الفرد بسهام كان يُحسها هو من دون عائلته جميعاً كلما تقدمت به القافلة نحو البيت الذي أُعد له ، وكان زرياب مطمئناً لهذه السهام تستقر في سويداء قلبه . فلقد اخذ يُحس الحياة تدب من جديد في صوته الرخيم ، وفي جناحيه المذهيين .

بعد ايام من قدوم زرياب إلى قرطبة رحب به الأمير عبد الرحمن بن الحكم في قصره ، واستمع اليه ينشئه الحاناً شرقية افاق معها حنينه وحبه الى المشرق العربي والى دمشق كرسى خلافة عائلته ، وهي غافية بين خمائل الغوطة الفيحاء .

ويطمئن الأمير الى الطائر الفرد الذي توسم فيه الرجولة والمروءة وكثيراً

من مزايا الرجال واخلاقهم ويفرض له عطاء شهرياً قدره مائتا دينار، وثلاثة آلاف دينار في كل من العيدين ، وخمسمائة دينار للربيع اذا لبس وشاحه في جنان المدينة الخالدة .

عاش زرياب في كنف الأمير الأموي ، في قصره وقد اخذ ينقل اليه عادات المشاركة في الظرف واللياقة وادب الطعام والشراب واللباس ، واخذت المدينة العاصمة في بيوتاتها الرفيعة العماد تحس تجاوباً مع ظرف زرياب ، وتفسح له في اعيادها ولياليها ، وما اجمل الليل ينسكب هادئاً في مدينة الأندلس قرطبة ، سيدة البلاد وقاعدة الامارة .

كان زرياب بدءاً في اللحن والشعر والغناء فكان يدعي « ان الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة الى صوت واحد ، فكان يهب من نومه سريعاً فيدعو بجارتيه غزلان وهنيدة فتأخذان عوديهما ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ويعود عجباً الى مضجعه » .

انشأ زرياب في الأندلس مدرسة فنية جعل لها قواعد ومناهج خاصة بها وكانت له اساليب يختبر بها هواة الفن ، والغناء فكان اذا تناول الالقاء على تلميذ يعلمه امره بالقعود على وساد مدور ، وامره ان يشد صوته جداً اذا كان قوياً ، فإن كان لين الصوت امره ان يشد على بطنه عمامة لتقوي الصوت فلا يجد متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم .

هذا ، وأما اذا كان التلميذ الصّ الأضراس لا يقدر على ان يفتح فاه او كانت عادته زمّ اسنانه عند النطق راضيه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاثة اصابع يبيتها في فمه ليال حتى ينفرج فكاه ، وكان اذا اراد ان يختبر المطبوع الصوت من غير المطبوع امره ان يصيح بأقوى صوته يا حجام او يصيح آه ويمدّ بها صوته ، فإن سمع صوته بها صافياً ندياً قوياً مؤدياً لا يعتريه غنة ، ولا حبسة ولا ضيق نفس ، عرف انه سوف يتجّب واثار بتعليمه ، وان وجدته خلاف ذلك ابعده .

إلى جانب هذه الاصول اضاف زرياب الى العود وترّاً خامساً ، وكان إلى

ايامه اربعة اوتار فحسب تقابل الطبائع البشرية الأربع ، عرف بالوتر الأوسط الدموي الأحمر ، كما اخترع مضرباب العود من قوادم التسر معنأضاً بها عن مرهف الخشب فأبدع في ذلك للطف قشر الريشة ، ونقائه ونخفته على الأصابع ، وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته اياه .

هذا ، وبالرغم من ان رجال الدين في الأندلس لم يكونوا ينظرون الى الموسيقى بعين الرضا ، وبينما كان الفقهاء يعتبرون الاشتغال بها امراً محطاً لا يليقُ إلا بالموالي والاماء ، ولم يكونوا يقبلون شهادة المغني او المغنية او الناذبة ، ولم يسمحوا بأن تباع كتب الموسيقى والانايد علناً ، فان سوق الفن نفقت في الأندلس بالرغم من ذلك كله حتى ان زرياباً يعتبر ركيزة اقام عليها الناصر عبد الرحمن في ما بعد صرح الحضارة العربية في هاتيك الأرض الساحرة .

سيظل زرياب الطائر الغرود الذي حمل في طيرانه البعيد ، وفي قلبه وعلى شفثيه الى الأندلس الخالد اللحن الشرقي الذي تمازج مع الحان الأرض هناك ، فكان علوياً طلقاً أسراً للروح وللقلب جميعاً .

بلى سيظل زرياب حيث هو وحيث كان من الفن والغناء والشعر العربي سيداً تتجاوب نفسه على اوتاره ، وعلى شفثيه وفي الحانه ، ليبقى غرداً بقاء الدهر . بالرغم من سواد بشرته .



أبو علي القالي

و أول سفارة ثقافية مشرقية

٩٢٨٩هـ / ١٠١١م ٩٣٥٧هـ / ٩٦٧م

في قرطبة حياة، فالمدينة المكتنة على هضبات سيرا مورينا، تشهد في عهد عبد الرحمن الأوسط، مؤسس الخلافة الأموية في الأندلس أول سفارة ثقافية مشرقية، تؤم الدولة بدعوة من الناصر لدين الله.

لقد خرج الحكم المستنصر ولي العهد باسم الخليفة، وفي رهط كبير من الوزراء والوجوه والأعيان والعلماء ليستقبل في قلب الدولة أبا علي اسماعيل القالي، بعد أن استقبل بحفاوة بالغة ومن الجزيرة الخضراء من وجوه الرعية، ومن يياض كورة المدينة ورجالاتها العظام يتقدمهم عامل الدولة ابن رماحس.

نشأ أبو علي القالي في بلدة بمنازجرد من أعمال ديار بكر، وأقام فيها حيث تلقى ثقافته ثم رحل إلى بغداد سنة ثلاثمائة وثلاث للهجرة، تسعيمة وخمس عشرة للميلاد مع أهالي قالي قلا الذي نسب إليهم.

في بغداد أكب القالي على الدرس، وجدّ، في التحصيل على علماء الحديث، وجهازة اللغة والرواية فسمع البغوي، والعدوي، والسجستاني، وأبي محمد يحيى بن محمد بن صاعد، والقاضي، والمحاملي، وأبي عبيدة، وأبي بكر بن مجاهد المقرئ.

كان القالي طلعة في النحو. والعربية، والأدب الى جانب تعمقه وفهمه

للحديث وأصوله، ويرجع في ذلك إلى النخبة من الأساتذة الذين درس عليهم أمثال درستوية، والزجاج، والأخفش الأصغر، ونفطويه، وابن دريد، وابن السراج، وابن الانباري، وابن أبي الأزهر، وابن شقير، والمطرز، وجَحْظَة، وابن قتيبة وغيرهم، وهم الذين تكررت روايتهم عنهم في كل ما كان يمليه من المحاضرات .

نبغ أبو عالي القالي في العلوم التي برع فيها نبوغاً لم يكن لأحد ممن تقدمه، أو تأخر عنه، وعدّه المؤرخون إماماً ثباً، وحجة فوصفه الضبي في كتابه « بغية الملتبس » « بأنه كان عالماً في اللغة، متقدماً فيها، متقناً لها فاستفاد الناس منه، وعولوا عليه، واتخذوه حجة في ما نقله، وكانت كتبه في غاية التقييد، والضبط والاتقان . وقد ألف في علمه الذي اختص به تأليف مشهورة تدل على سعة علمه وروايته » .

عاش القالي في بغداد خمساً وعشرين سنة، فبلغ فيها أوج مجده، وذروة شهرته، فكان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين وما عتَم أن استدعاه الخليفة الناصر إلى الأندلس لنشر علمه، والاستفادة من معارفه وعلومه، فلبى الدعوة وحط الرحال في قرطبة .

إن في استدعاء القالي من بغداد إلى الأندلس، وفي عهد عبد الرحمن الناصر الذي رفع منار العلوم والفنون أكثر من معنى، فجده سلمان كان مولى للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وولاء القالي للأمويين في تأدية رسالة الثقافة والعلم في الأندلس الأموي، حفظ لعهد بني أمية فَشَرَ رسالتهم وتحدث عن أمجادهم، وتاريخهم العظيم في المشرق والمغرب العربيين .

هذا، ومن المؤرخين من يؤكد أن الرجل بالرغم من مركزه العلمي العظيم في بغداد فإن الحظ لم ييسم له في كنف الدولة العباسية، ومن هنا كان ولاء أبي علي القالي للمبدأ وللدولة التي رعت جَدّه الأول وعرفت مركزه .

من الثابت أن أبا علي القالي كان أستاذاً جامعياً من طراز رفيع وفي مرتبة كبار المحاضرين الثقة الذين يقدرون الرسالة الجامعية، ويعون قيمة البحث

العلمي، وأصول النقد والاثبات، والموازنة والحكم، تلك الأحكام الأدبية التي يطلقونها بعد دراساتهم للنصوص، والتي هي قيمة وغاية الدراسة الجامعية الحديثة.

على هذا المنهج من البحث والدرس والتقرير كان يحاضر عالمنا في أيام الأخمسة بقرطبة، وفي غير هذه الأيام في المسجد الجامع بالزهراء أمام علماء الأندلس وأدبائها فكان يملئ من حفظه «ما أعمل نفسه في جمعه، وأشغل ذهنه في درسه، حتى حوى خطيره، وأحرز رفيعه، وروى جليله وعرف دقيقه، وعلق شارده وروى نادره، وعلم غامضه، ووعى واضح» .

في حدود هذا الواقع العلمي أملى العالم الجليل الثقة محاضراته اللغوية والأدبية التي استوعبها كتابه الأمالي الذي قال فيه محمد بن حزم: إن كتاب نواذر أبي علي مبار لكتاب الكامل الذي جمعه المبرد، ولئن كان كتاب أبي العباس أكثر نوحاً وخبراً، فإن كتاب أبي علي أكثر لغةً وشعراً.

إلى جانب كتاب الأمالي ألف القالي كتاب الممدود والمقصود الذي رتبته على التفعيل ومخارج الحروف من الحلق، مُستقصى في بابه، وكتاب الابل، وكتاب حلى الانسان والخيال وغيرها .

هذه الكتب التي يعتبرها النقاد ذخيرة علمية كبيرة، والتي يرجع الفضل فيها إلى الحكم المستنصر التلميذ الذي وعى علم أستاذه، وأحب الأدب عن طريقه، واشتدت رغبته في اقتناء الكتب بسببه فأسس أكبر مكتبة في الأندلس، لقد أجمع المؤرخون «على أن الحكم كان يحث أستاذه على التأليف، وينشطه بواسع العطاء» .

بلغ أبو علي القالي أستاذ الحكم الخليفة الأموي، وأستاذ النخبة من العلماء والأدباء والفقهاء في الأندلس مبلغاً عظيماً من الرفعة والشهرة فما زاده ذلك إلا تواضعاً واحتراماً للعلم وتقديراً لأثرابه من العلماء، فلقد سأل الحكم المستنصر ذات يوم: من أنبل من رأيته يبلدنا هذا في اللغة؟ فقال محمد بن القوطية.

لقد كان شرفاً عظيماً للعالم الكبير أن يهدي مؤلفه الأماي إلى الخليفة
عبد الرحمن الناصر وأن ينوه بفضلته على العلم والعلماء فيقول في مقدمة
كتابه :

« لقد جعلت غرضي أن أودعه من يستحقه، وأبديه لمن يعلم فضله،
وأجلبه لمن يعرف محله، وأنشره عند من يشرفه، وأقصد به من يعظمه ويقيت
مدة أبتغي له مشرفاً، حتى تواترت الأنباء بأن مشرفه في عصره أفضل من ملك
الورى، بذال الأموال، محقق الآمال، مفشي المواهب، معطي الرغائب أمير
المؤمنين، وابن عم خاتم النبیین « عبد الله بن محمد » محي المكارم، ومتبني
المفاخر » .

وبعد فإذا كان المستشرق الامباني أميليوغراسيا كومس يعتبر القالي أول
سفير للثقافة المشرقية في الأندلس، فلا شك بأن القالي كان أول أستاذ جامعي
في قرطبة كرسي الخلافة، وحاضرة الثقافة في الأندلس العربي .



عبد الرحمن الناصر أول خليفة أموي في الأندلس

ولايته ٣٠٠هـ/٩١٢م - ٣٥٠هـ/٩٦١م

مع الفجر الندي المثلل بأريج الزهر من صباح العاشر من ذي الحجة سنة مائتين وتسع وتسعين للهجرة ، تسعمائة واحدَى عشرة للميلاد ، أطل الأمير الأندلسي عبد الرحمن بن محمد من باب الساباط على جواده الأشهب ترافقه كوكبة من الفرسان الأشداء ، وقد شَهَرَت السلاحُ تحيةً للأمير الأموي .

كانت اطلالة الأمير في هذه الساعة المُبَكِّرة ، والليلُ يحاول أن يلملم أطرافه عن المدينة وهو في طريقه الى المسجد الجامع ليؤدي صلاة العيد باسم جده الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني سيد الأندلس العربي .

قلت كانت اطلال الأمير مع الفجر المشبع بالندى والمثلل بالأريج ايذاناً للشعب المحتشد لتحيته أن يشقْ أَعْنَانَ السماءِ بالتكبير ، وبالتحية للأمير المرتجى .

ورفع الأمير يده في تَوْدَةٍ وفي قوة ، وتعالىت الأصواتُ من جديد ، واندفعت الجماهيرُ في زنقاتِ قرطبة الضيقة ترافق موكب الأمير ، وكأنها كانت تحاولُ أن تعلنَ منذ اليوم ولاءَها ويَبْعَتَها للامارة المرتقبة .

بعد أشهر أربعة وفي يوم الخميس مُسْتَهْلَ شهر ربيع الأول سنة ثلاثمائة للهجرة ، السادس عشر من تشرين الأول سنة تسعمائة واثنتي عشرة للميلاد أعلن الأندلسُ العربي بيعَةَ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن

عبد الرحمن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وقد تلقب بالناصر لدين الله .

كان الأمير عبد الله بن محمد قد أخذ حفيده الفتى منذ حدثته ، ويوم قُتل أبوه غدرًا بضروب من العناية والرأفة والحنان ، فنشأ الأمير في القصر وقد أتقن أساليب التربية الحديثة وألم بالمعارف والعلوم الشرعية على يد نخبة من رجالات الأندلس أمثال أحمد بن بيطر ، ومحمد بن الزرّاد وغيرهما ، كما برع في فنون الحرب والتدرب على حمل السلاح ، وركوب الخيل على يد أبي العباس بن أبي عبده ، أحد قواد الأمير الأعلام .

الواقع أن الأمير عبد الرحمن الناصر وفق إلى انقاذ الحضارة الإسلامية الأندلسية الزاهرة مما كان يتهدها من الأخطار الخارجية ، والخلافات الداخلية في ما يقول المستشرق الإسباني انخل كونثالث بالثيا ، إذ أن الناصر كان ذا سياسة حازمة مكنت له من أن يُخضع جماعات العرب لسلطانه ، وأن يقضي على الفكرة القبلية التي كانت تضعف كيان الجيش الأموي في الأندلس ، الفكرة التي كانت تحمل القبائل على حضور المعارك بأعلامها والويتها ، والتي عرفها الأندلس مع دخول موسى بن نصير على حد قول الرازي في كتابه « الرايات » .

أخذ عبد الرحمن الناصر لنفسه المبادرة في كل قضايا البلاد ، ف قضى على العناصر التي كانت تؤازر عمر بن حفصون ، الرجل الذي خرج على طاعة الدولة وارتد عن الدين ، وعاث في البلاد فساداً فقدر له أن يصبح سيد الأندلس الجنوبي ، حتى أن الأمير عبد الله لم يجسر في عهده أن يعين والياً على تلك المناطق التي سيطر عليها العربي المرتد .

أنشأ الناصر لدين الله جيشاً قوياً من خيرة شباب الأندلس الذي كان مخلصاً لشخصه ، مؤمناً بقيادته الحكيمة ، ورجولته الغضة ، كما أضاف إلى عداد الجيش جماعات من الموالي الجدد كونها من عناصر أجنبية ، وهي التي

تعرف بالصقالة وكان معظمها من أوروبا الوسطى .

بلغت هذه الجماعات مركزاً مرموقاً في جسم الدولة الفتية حتى أن أحد النقاد المبح إليها مؤكداً بأن رجالاتها كانوا ينشؤون في قصر الخلافة، وأن العناية كانت تبذل في تأهيلهم بعلم طيب، ومن هنا انفتح أمامهم الطريق وأصبحوا يكوّنون الصفوف من الموظفين الإداريين ، والنخبة من القادة العسكريين .

بهذه القوى غزا الناصر ممالك الإيبان في الشمال وأخضعها لنفسه، كما تدخل في مهارة فائقة في الخصومات القائمة بين سكان مدن ليون، وقشتالة ونبرة من الإيبان، وتمكن بذلك أن يسوس شؤونهم وينفذ مآربه السياسية الكبرى.

بعد حقبة من الحكم العادل وفق الناصر لدين الله سنة ثلاثمائة وست عشرة للهجرة ، تسعماية وثمان وعشرين للميلاد ، وبعد أن دب الوهن في كيان الدولة العباسية في المشرق أن يعلن الخلافة الأموية في الأندلس ، وأن ينادى به أول خليفة في قرطبة .

أضفى عبد الرحمن الناصر على الأندلس العربي النظام ، والرخاء ، ونشر في أرجائه المدارس والمؤسسات العلمية والثقافية ، واهتم بمكتبة القصر التي كانت أعظم برهان على درجة ثقافته العالية ، والتي تكونت منها ومن مكتبتَي الأميرين محمد والحكم مجموعة الكتب العظيمة التي كانت موضع فخر الحكم المستنصر وأكبر دليل على مستوى الأندلس الثقافي .

الى جانب هذه العناية بالشؤون الداخلية هيا الناصر الاحترام والتقدير لبلاده في الخارج مما ساعد على زيادة موارد الثروة القومية ، والاهتمام بالحياة التجارية والزراعية والصناعية ، هذه الحياة التي بلغت الأوج ، والتي دفعت الخليفة الى توسيع قرطبة حتى أضحت تنافس بغداد في عظمتها وقصورها .

كان من الطبيعي أن يواكب هذه المظاهر الحياتية المادية في عهد عبد

الرحمن الناصر تطور في الحياة الفكرية والعلمية، فكان عصره زاهاً في مجالات العلوم والآداب جميعاً.

فابن عبد ربه صاحب كتاب العقد ترك لنا أرجوزة شعرية في معارك الناصر ومواقفه، على جانب كبير من القيمة التاريخية والعسكرية سجل فيها كل الأحداث التي عاشها البطل أميراً وقائداً.

مع اسم الشاعر ابن عبد ربه، يبرز اسم الشاعر ابن هانيء الأندلسي متنبى الغرب، والزبيدي فضلاً عن طبقة من المؤرخين الأعلام كالرازي، وابن القوطية القرطبي صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس، فضلاً عن صاحب كتاب أخبار مجموعة الذي لم يوفق العلماء بعد إلى تحديد اسمه، والذي حفظ لنا في كتابه وقائع التاريخ الأندلسي من الفتح إلى خلافة عبد الرحمن الناصر.

لقد عرف الأندلس في عهد الناصر بوادر علم الفلسفة على يد ابن مسرة، كما عرف نفراً من أبنائه أخذوا يهتمون بالدراسات الرياضية والفلكية حتى برز فيها في عهد الحكم المستنصر أحمد بن نصر، ومسلمة بن القاسم.

كان الناصر لدين الله شغوفاً بالعلم محباً للعلماء، وهو الذي استدعى نخبة منهم كان في طليعتهم أبو علي القاسي الذي جلس لتدريس الحديث واللغة العربية وآدابها في المسجد الجامع في قرطبة وفي مسجد الزهراء، ثم عهد إليه أمير المؤمنين تاديب ولده وولي عهده الحكم المستنصر.

ساعد الناصر على تلقح الفكر العربي بالفكر اليوناني ويؤكد الناقد الفرنسي هنري بريس ذلك، فيشير إلى أن الراهب نقولا مؤلفاً أميراطور بيزنطة الرومانية إلى عبد الرحمن ليشرح ويترجم كتاب « Dioscorides ». تمكن خلال إقامته في قرطبة من أن يتعرف إلى العالم ابن شهيد أحمد بن عبد الملك، الذي عُرف بصاحب الوزارتين وكان شغوفاً بالعلم والأدب فتمكن من أن يطلع على المؤلفات اليونانية، هذه الموضوعات التي أحيائها فانتقلت إلى

ابنه ومن ثمة إلى حفيده مع روح النقد وحلّة الذكاء .

هذا فضلاً عن رعاية الناصر للترجمة ومنها كتاب « تفصيلُ الأزمان ومصالحُ الأبدان » وهو تقويم فلكي مناخي زراعي فيه ذكرُ منازلِ القمر وما يتعلق به ومن الثابت أن مؤلفه هو الأسقف ريكيموندو الذي عمل في خدمة الناصر وحظي بعطفه ورعايته ، وعرف باسم ربيع بن زيد الأسقف .

أن الأندلسَ العربيّ مدينٌ للناصر بجهاز حكمه الإداري والعسكري ، فلقد انشأ فيه سنة ثلاثمائة وسبع وعشرين للهجرة ، تسعمائة وتسع وثلاثين للميلاد منصب صاحب الوزارتين فضلاً عن اهتمامه بوظيفة الكاتب أو صاحب الرسائل وهي من مناصب الوزراء ، وقد بلغت أربعاً في عهده إلى جانب الصلاحيات الواسعة التي أعطاها لوظيفة صاحب المدينة أو صاحب الليل وهو قائد الشرطة بحيث كان باستطاعته أن يحاكم المجرمَ ويقتله .

بلى إن عبد الرحمن الناصر وفّق إلى انقاذ الحضارة الإسلامية الأندلسية كما يقولُ بالثبات وعملَ على بناء دولة حديثة ، وأنشأ الزهراء وبنى مسجدها العظيم ونشر السلام ، وأوجد التعايش السلمي الحقيقي بين الديانات الثلاث الكبرى في الأندلس ، وأقام صرحاً حضارياً شاهداً على نبوغه الإداري ، وعظمته العسكرية .

« إن الناصر هو الذُرَّة العُليا في خلفاء بني أمية ، طال عمره ، واتسع سعده ، واشتهرت أيامه ، وبعد صيته ، وانتشرت بالمدونة الغربية طاعته ، وعلت على منابرها كلمته ، بعد أن استنزل الثوار ، وشيد القصور ، وخلد الآثار . »

سيبقى عبد الرحمن الناصر مشعلَ هداية ، ونبراس حضارة بعد أن أدى دوراً إنسانياً بارزاً في بناء الأندلس العربي الخالد .



ابن درّاج القسطلي

متنبي الغرب

٣٤٧هـ/٩٥٨م ٤٢٢هـ/١٠٣٠م

لقد ملك الحبُّ عليه قلبه، وكاد يسلبه الأناة والصبر بعدما استبدَّ به ،
فشاقه وهو في حضرة الحاجب المنصور ابن أبي عامر أن يذكر وداعه لزوجته
وطفله الصغير وهو يعارض قصيدة أبي نواس التي مدح بها الخصيب، أو أنه
أحب أن يثير عاطفة سيد قرطبة ليدرك بدوره مبلغ مكانته في نفس الشاعر :

ولما تَدانت للوداع وقد هَمَّا	بصبري منها أنةً وزَفِيرُ
تَناشِدُنِي عهدَ المودَّةِ والهوى	وفي المهد مَبْغُومُ النَّداءِ صغيرُ
عمي بمرجوعِ الخطابِ ولفظه	بموقع أهواءِ النفوسِ خبيرُ
عَصِيْتُ شَفِيعِ النفسِ فيه وقادني	رَواحُ بتَذابِ السَّرى وبكُورُ
وطار جناحُ البينِ بي وهَمَّتْ بها	جَوانِحُ من دُغْرِ الفراقِ تَظِيرُ

إنه متنبي الغرب، أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي، أحد
شاعرين في الأندلس تنافسا على هذا اللقب وظفرا به لأنه كما يقول ابن حيّان :
«سباق حلبة الشعراء الأندلسيين ، وخاتمة محبيني أهله أجمعين» .

ولد ابن درّاج في المحرم ٣٤٧هـ مارس سنة تسعمائة وثمان وخمسين
للميلاد على ما يذكر ابن بشكوال ، وفي قرية قسطللة درّاج من عمل جيان في
ما يؤكد ابن سعيد أقدرُ جغرافي الأندلس على التحقيق .

إن الدارس لحياة الشاعر قد لا يظفرُ بشيء عن طفولته وصباه وأساتذته

الأوائل لأن كلّ المراجع التي ترجمت له لم تحفل به إلا عندما سطع نجمه، وعلا كعبه في بلاط المنصور بن أبي عامر، قاهر الملوك، وسيد الأندلس آنذاك.

غير أن المطلع على تاريخ الأندلس في تلك الحقبة التي برز فيها الشاعر يستطيع أن يؤكد أن اطلائته على البلاد كانت نتيجة طبيعية لبُلُوغ الأندلس أوج عظمتها السياسية والاجتماعية والأدبية، وأن شاعرنا كان ثمرة من ثمار الأرض الطيبة، حضوراً بديهة، وسعة خيال، ومثانة سبك، وبلوغ غاية.

فالممالك الأسبانية في الشمال ذهب ريحها بعد أن تحكم بالبلاد ومصيرها عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر بحيث أجبروا أمراء البلاد الأصليين على أن يحتكموا إليهما ويؤموا قرطبة دار الخلافة عن رضا وهم صاغرون.

أما المجتمع الأندلسي فقد أصبح بفضل هذه السياسة الحكيمة مجتمعاً متكاملاً مما ساعد على انتشار الرخاء وازدهار الحياة الاقتصادية على نحو لم تعرفه البلاد قبل عصر الخلافة الأموية في قرطبة .

وكان من الطبيعي أن يصل الأندلس الإسلامي إلى مكان بالغ الرفعة في الحياة الفكرية والأدبية نتيجة للاستقرار السياسي، والازدهار الاقتصادي، وقد أصبحت قرطبة في مصاف العواصم الكبرى لا يتأخر مكانها عن مكان بغداد أو دمشق أو القاهرة.

في هذه الحقبة بالذات والأندلس مركز تفاعل بين الشرق والغرب يأخذ ابن درّاج على غرار أبناء عصره حظه من العلم فيتقن القرآن الكريم ويتفقه بالدين، ويجيد النظم ويحسن العربية وآدابها .

قد يكون ابن درّاج واحداً من الذين استهوهم قرطبة بمكانتها العلمية ومركزها الثقافي فزارها زيارات عابرة، إلا أننا لا نستطيع أن نأخذ برأي الأستاذ بلاشير الذي درس الشاعر مؤكداً عزمه على الانتقال إلى العاصمة والإقامة فيها من

أجل تولي منصب كتابي للحكم المستنصر إذ ليس في شعر ابن درّاج ما يدل على أنه اتصل بحاكم قبل المنصور بن أبي عامر.

لعل اجماع النقاد وفي طليعتهم الحميني على أن قصيدته الهائية وهي أول قصيدة له في المنصور وفيها يقول:

ولله عزمي يوم ودعت نحوّه نفوساً شجاني بينها وشجاها
وربة خدر كالجمان دموعها عزيز على قلبي شطوط نواها
وبنت ثمان ما يزال يروعي على الناي تذكاري خفوق حشاها

قلت لعل اجماع النقاد على أن قصيدته هذه تؤكد ما ذهب إليه خلافاً لرأي المستشرق بلاشير، على أن الشاعر لم يتخذ قرطبة مسكناً دائماً له إلا بعد اتصاله بالمنصور، إذ ليس من صدق الشعور في شيء والشاعر لأول مرة بين يدي سيد عظيم يرجو نواله أن يدفعه الخيال إلى تلقي مثل هذه الصورة التي تستلر الحب، وتثير كوامن النفس.

مما لا شك فيه أن قصيدته الهائية هذه لم تكن أول محاولة منه على قول الشعر، وإن له قبلها شعراً قليلاً أو كثيراً قد فقد، إلا أننا نلمح فيها آثاراً من تقليد الفكرة، ومظاهر من ضعف البناء في السبك يدفعنا إلى الجزم من أن القصيدة من نتاج الشاعر المبكر، وإنها مع ذلك تنم عن قدم ثابتة في ميدان الشعر.

لا غرو أن شاعرنا ابن درّاج في تحنانه لزوجته وأولاده، ودبوانته صورة صادقة لهذه العاطفة الأبوية الكريمة قد أفاد من تحنان وشعور الحبيطة بخاصة في أبياته التي بعث بها إلى عمر بن الخطاب يستعطفه بعد أن أمر الخليفة بسجنه وقد أساء إلى الزبير بن بدر في قصة طويلة أما مطلع القصيدة:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل، لا ماء ولا شجر
القيت كابيتهم في قعر مظلمة فاعفر عليك سلام الله يا عمر

قد تكون رسالة الشاعر إلى سليمان بن الحكم والتي يحتفظ بها ابن
بسام في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة يستعطفه فيها ويذكره بأولاده
وينهيها بأبيات يفتحها بيت الحطيئة الأنف الذكر :

ماذا تقول لأفراخ بذني مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ما أوضح العُذْر لي لو أنهم عَذروا وأجمل الصُّبر بي لو أنهم صبروا
لكنهم صَغُرُوا عن أزمَةٍ كُبرت في اعتذاري عمن عذره الصَّغُرُ

قلت قد تكون رسالة الشاعر إلى سليمان بن الحكم أصدق دليل على
إفادته من شعور الحطيئة الأبوي .

من المؤكد أن ابن درّاج شق طريقه إلى البلاط العامري في قرطبة وهو
بعد شاب غضّ الإهاب، لينّ العود، رقيق الحواشي إلا أنه استطاع بفضل
موهبة الشعرية واجتهاده أن يرسخ قدمه في الديوان، وأن يزاحم، عدداً كبيراً
من الشعراء الذين كانوا قد سبقوه إليه فيتعرضون له بالنقد والتجريح، ويتمهونه
بأنه كان منتحلاً لشعر غيره، متلبساً بغير ثوبه الحقيقي .

الواقع أن ابن درّاج، الشاب والأديب، والشاعر، والزوج، والوالد لم
يقدر أن يجد لنفسه في البلاط العامري مكاناً يسكن إليه، ويأمن فيه العوز،
ويقوى أن يتغلب فيه على كل خصومه من النقدة والشعراء الفحول إلا بعد أن
اجتاز امتحاناً أدبياً عسيراً أمام المنصور بن أبي عامر الشاعر والقائد . اجتازه
مطمئن القلب، واثقاً من الفوز .

لعل الغاية الأساسية من هذا الاختبار أن يدفع الشاعر التهمة التي قذف
بها وهي السرقة والانتحال .

هذا ويذكر الحميدي أن ابن درّاج القسطلبي حقق الرجاء فرد التهمة عن
نفسه، واستحق أن يكون في عداد شعراء الأمير الكثر، يجري عليه راتب
منتظم بعد أن أثبت اسمه في ديوان العطاء .

سنة عشر عاماً قضاها ابن درّاج في معية المنصور وولديه عبد الملك

وعبد الرحمن نظم خلالها اثنتين وثلاثين ما بين قطعة وقصيدة تعتبر بحق أروع شعره، وأجوده وأحق بالتقدير والاعجاب، هذه القصائد التي يجد فيها النقاد أجل مرجع لتأريخ وتقويم أعمال المنصور العسكرية الباهرة على الأرض الأندلسية .

لقد ظل ابن درّاج القسطلّي في ظل الدولة العامرية شاعرها الأكبر ، وكاتبها الأوحد حتى تراخت أيامه ، وأغضى عنه حمامه فأخرجته المحن من الظل الوارف، وسالت به الفتن مع القرن الحادي عشر للميلاد فضاء بين البلاد، وتاه عند العباد حتى وفاه الأجل في دانية على أغلب الظن ليلة الأحد في الثاني والعشرين من يونية سنة ألف وثلاثين للميلاد ، ويموته انطفأ السراج الذي أضاء الجوانب الغامضة من دولة بني عامر، أعزّ حكم عربي في الأندلس .



ابن درّاج القسطلي مؤرخ الدولة العامرية

يعتبرُ ابنُ درّاجِ القسطلي أوفرَ شعراءِ الأندلس اهتماماً بتاريخِ الأحداثِ التي عاشتها البلادُ في أواخرِ عهدِ الدولةِ الأموية وقبيلَ اندلاعِ الفتنَةِ، وقيامِ الجماعةِ الارستقراطية بالحكم.

ان الدارسَ لتاريخِ الفكرِ في شبه جزيرةِ ايبيريا قد لا يجدُ شاعراً أوقفَ جُلَّ اهتمامه، وغايةَ عنايته لتدوينِ دقائقِ هذه الأحداثِ كما دونَها شاعرُنا القسطلي حتى غدا ديوانه وثيقةً تاريخيةً يرجعُ إليه المؤرخون للوقوفِ على خاصيةِ هذه الدقائقِ وأسبابها.

قد تكون ملازمةُ الشاعرِ للمنتصورِ ابنِ أبي عامرٍ، ومرافقتهُ له في الحربِ والسلمِ، وإقامتهُ في معيَّةِ دولتهِ مدةَ ستةَ عَشَرَ عاماً سبباً جوهرياً ساعدهُ إلى حدٍ بعيدٍ على استجلاءِ غوامضِ هذه الأحداثِ، إلا أن البراعةَ الأدبيةَ، والأسلوبَ الطلي، وحسنَ العرضِ، ودقَّةَ الوصفِ وعمقَ الخيالِ، وسعةَ المعرفةِ في العلمِ والتاريخِ والأنسابِ وحسنَ المقارنةِ، قد أكسبت هذا التاريخَ الى جانبِ دقتهِ، واستجلاءِ أسبابه، جمالَ الصورةِ، وقوةَ التأثيرِ.

ربما لم يكِ ابنُ درّاجِ أولَ شاعرِ أندلسي لازمَ أميراً من أمراءِ البلادِ وأرخَ له، فكتابُ «العقدِ» الموسومِ «بالفريد» يحفظُ لنا أرجوزةً طويلةً لمؤلفه ابن عبد ربه في تاريخِ غزواتِ عبد الرحمن الناصر أولِ خليفةِ أموي في البلادِ، فضلاً

عن أن كثيراً من الشعراء والكتاب أمثال أبي عبد الله بن الأبار، وأبي البقاء الرندي، وابن الخطيب وغيرهم قد تركوا لنا نماذج من القصائد التاريخية في مواضيع شتى. غير أن شاعراً أندلسياً واحداً لم يبلغ ما بلغه ابن دراج في كثرة ما ترك من هذا اللون المزيج من حياته وشعره، وعلمه وعقله، وأدبه وبلاغته، صورة حية لأزهى حقبة عاشها الأندلس العربي تحت ظل الرماح وفي عنفوان وكبرياء العز والمجد والسلام.

من هذه الحقيقة بالذات يعتبر النقاد ديوان الشاعر وثيقة تاريخية تعرض في كثير من شغف أخبار الغزوات والحروب التي خاضها المنصور على الأرض الأندلسية، والتي بلغت نحواً من اثنتين وخمسين غزوة، أخضع فيها كل الممالك لارادة حكمه العربي ولعظمة دولته الفتية، وبذل بها من وجه التاريخ في شبه الجزيرة، وثبت دعائم الملك العربي على قواعد من الأمن والاستقرار، حتى غدا العلم الأوحد والسيد الأول.

من أولى مظاهر هذه العزة التي أثلها المنصور وخلدها شاعرنا القسطلي قدوم ملك البشكنس شانجة بن غرسية الى قرطبة في الثالث من رجب سنة ثلاثمائة واثنين وثمانين للهجرة، الرابع من أيلول تسعمائة واثنين وتسعين للميلاد زائراً ومستصرخاً كما يقول ابن الخطيب، مثبتاً كل العهود التي سبق له ونقضها من قبل، محكماً المنصور في ملكه وعرشه بعد أن أوقع به العامري في معارك عدة، قتل في احداها ابن له، مقدماً له احدي أجمل بناته التي أعتقها المنصور، وتزوج بها فأنجبت له ابنة عبد الرحمن :

وَيَحْمُ زِمَارَ الْمَلِكِ وَالدينِ مِنْ حَمَى	أَلَا هَكَذَا فَلَيْسَ لِلْمَجْدِ مِنْ سَمَا
عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ أَنْ يَتَقَدَّمَا	وَحَقُّ لِمَنْ لَاتَى فَأَقْدَمَ سَيْفُهُ
إِذَا الْخَيْلُ كَرَّتْ أَنْ يَكُونَ الْمُعْظَمَا	وَمِنْ حَقَرَتْ مُسْتَظَماً الْهَوْلَ نَفْسُهُ

إلى أن يصف الشاعر حال الملك الاسباني، وواقعه المؤلم، وقد جاء يلتمس من الأمير العربي الأمن والرجاء، ويتعهد له بالوفاء في العهود المبرمة .

والقسطلبي من بعد أرخ لنا وفي السنة ذاتها قدوم ولي عهد ملك قشتالة
شانجة بن غرسية بن فرديناند Sancho Garcia موقداً من قبل أبيه غرسية قومس
على المنصور بن أبي عامر مقدماً له خضوع دولته مرتقباً أمره فيها :

اليك منك فرار الخائف الوجل وفي يديك أمان الفارس البطل
وقد تيمم شنج منك عائدة تجيره من سيوف الكرب والوهل
وقاد نحوك والتوفيق يقدّمه جيشاً من الدل ملء السهل والجبل
خاضوا اليك بحار الموت زاخرة يemor فيهن موج النقع كالظلل
لله يوم من الأيام فزت به فرداً من المثل فيها سائر المثل

هذا ويحفظ لنا الديوان قصيدة أخرى، أرخ فيها الشاعر وقوع ملك
قشتالة أسيراً في يد المنصور، اذ أن الملك الاسباني كما يبدو لم يدرك المعنى
العميق لحسن وفادة المنصور لولي عهده فراح يناوئه ويناصبه العداء من جديد،
مما أجبر الأمير العربي على اقتحام مملكة قشتالة سنة ثلاثمائة وأربع وثمانين
للهجرة، تسعمائة وأربع وتسعين للميلاد، واحتلال حصونها المنيع وإيقاع
هزيمة منكرة بالجيش القشتالي، غير أن الملك وكان أشد أعداء المنصور
صلابة عاود الحملة على الثغور العربية، فجرد المنصور عندئذ جيشاً على
خصمه انتهى بإيقاعه أسيراً في يد العرب وذلك في الخامس عشر من ربيع
الثاني ٣٨٥، التاسع عشر من أيار ٩٩٥ م عندها أمر المنصور بنقله الى قرطبة،
غير أنه لم يلبث أن توفي بعد أيام .

تناضل عنك أقدار السماء وتبطش عن يديك يد القضاء
فما قصرت رماحك عن عدو ولو أعيا به أمد التنائي
فما فتحاً لمفتتح ويشرى لمنتظر ويا مرأى لراء

ثم يتابع الشاعر عرضه لأحداث المعركة ووقائعها الى أن يصف الملك
وقد وقع أسيراً .

بعد ستة أشهر من هذا النصر المؤزر الذي أرخه ابن دراج في ما أرخ وفي

شوال سنة ثلاثمائة وخمسة وثمانين للهجرة، تشرين الثاني تسعمائة وخمسة وتسعين للميلاد يُكْتَبُ لشاعرها أن يرافق الأمير العامري على رأس الحملة التي قادها المنصور لتأديب مملكة «ليون» في الشمال الغربي من شبه جزيرة أيبيريا والتي كان يحكمها برمند الثاني ابن اردون، والذي حاول الثورة على المنصور بعد أن آوى عبد الله بن عبد العزيز الأموي خصم الأمير وشجعه من قبل على عصيان أوامره.

في هذه القصيدة يبلغ ابن دراج القسطلي شأواً بعيداً في دقة الوصف، وصدق الشعور حتى وكأنه تَرَبُّ المتنبّي حقاً بخاصة في المطلع الذي ينم عن إيمانه العميق، وأعجابه الكبير بالأمير العامري :

أَوْ تَخْتَرِ الْعَلِيَا فَأَنْتَ خِيَارُهَا	أَنْ تَفْخَرِ الدُّنْيَا فَأَنْتَ فَخْرُهَا
وَالْأَرْضُ مَعْمُورٌ بِمُلْكِكَ دَارُهَا	وَالْمَجْدُ مَمْنُوعٌ بِسَيْفِكَ عِزُّهَا
وَجَرَى بِسَعْدِكَ لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا	وَهَيْتَ بِذِكْرِكَ أَرْضَهَا وَسَمَاوُهَا
وَسَرَتْ بِنُورِكَ فِي الدُّجَى أَقْمَارُهَا	وَهْدَيْتَ بِهَدْيِكَ فِي الظَّلَامِ نَجْمُهَا
فَلَكُمْ سَنِيٌّ سَنَائِهَا وَفَخَارُهَا	يَا عَامِرِيْنَ اغْمُرُوا رُتَبَ الْعَلَا

بعد أن يمتدح القسطلي الأمير العامري يأتي على وصف المعركة وأحداثها فيطالعنا هنا بصورتين متمزجتين عن معركتين عربيتين «فتح عمورية» لأبي تمام، و«الحدث الحمراء» لأبي الطيب مع الفارق في المستوى بين أدب المشرق وأدب المغرب .

بلى لقد كان ابن دراج شاعراً عظيماً في مقدمة شعراء الأندلس ، بارعاً في صوره ، دقيقاً في تاريخه ، وكأنه كان واحداً من الشعراء العرب المعنيين بالقول : « الشعر ديوان العرب » وهكذا اعتبر ديوانه بحق وثيقة تاريخية في الدولة العامرية ، تعتمد كمرجع بالغ الأهمية في دراسة إمارة اخضعت كل الممالك الإسبانية لفسوذ الحكم العربي في ازهى سفة من حياة الأندلس العربي .

ابن درّاج القسطلي

مؤرخ الدولة العامرية « ٢ »

إذا كان التأريخ هو الكشف عن الوقائع وأسبابها كما يؤكد ابن خلدون في مقدّمته، فشاعرنا أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي في ديوانه الذي يعتبره النقاد وثيقة تاريخية في الدولة العامرية قد يُقَصَّر عن مُهمّة المؤرخ الذي يحاول درس الوقائع وأسبابها، غير أنه في كثير من شعره يُفْلِح وإلى حد كبير في تحديد الخطوط العريضة لمظاهر التأريخ .

ليس من شك في أن المؤرخ والشاعر على طرفي نقيض فيينا يعتمد المؤرخ على الناحية العلمية الموضوعية الصرفة، يتجه الشاعر إلى الأخيّة والابتكار والشعور، غير أن ابن درّاج القسطلي قد زاد في شعره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والأنساب، فضلاً عن سعة صِدره، وجيشة بحره، وراحته في ما يتعب الناس، وطول نفسه في ما يضيّق الأنفاس كما وصفه بذلك ناقد الأندلس أبو عامر بن شهيد .

من هنا وفق ابن درّاج في أن يكون مؤرخ الدولة العامرية كشاعر من أكبر شعراء الأندلس يمزج بين الموضوعية والخيال ، ويبهر في المدح براعة لا يقدر عليها إلا من أوقف كل شعره على لون واحد من العطاء وقد استفاد له كل مقوماته من مظاهر العزة والنصر ، والمجد والكرم ، والآباء والسودد حتى جاء هذا اللون الواحد من المديح ويجمع النقاد وكأنه ألوان الشعر جميعاً يبرز

أول ما يبرز هذه الوقائع التاريخية التي سمت بشاعرنا الى رتبة مؤرخ الدولة العامرية .

لقد أرخ ابن درّاج وفي كثير من دقة واسهاب كما أسلفنا في حديث سابق وفوذ ملوك البشكنس وقشتالة ونبارة على المنصور بن أبي عامر ، كما عرض صورة حية لمعركة «ليون» التي قادها العامري بنفسه والتي ارتفع بها شاعرنا الى مصاف الشعراء الأبطال الذين يقحمون أنفسهم المعارك ايماناً برسالة ، وتمجيداً لقائد أمير .

الحقيقة أن معركة «ليون» لم تكن الوحيدة بين المعارك التي رافق بها القسطلي قائده العظيم ، فالديوان يحفظ لنا كثيراً من قصائد الشاعر في غزوات العامريين ، والتي قد تكون معركة «سنت ياقوب» Santiago de gompostela أجّلها وأعظمها خطراً في التاريخ العربي الأندلسي عامة ، لأن قوة عربية واحدة خلال قرون ثمانية من احتلال العرب لاسبانيا لم تقو على اقتحام هذه المعاقل النائية للاسبان الخالص في شبه الجزيرة ، فضلاً عن أنها أقدس البقاع الاسبانية والأوروبية على الإطلاق في القرون الوسطى .

يجمع المؤرخون وفي طليعتهم الحميري « أن كنيسة سنت ياقوب » في اعتقاد أهل المدينة قد بنيت على رفات يعقوب الحواري الذي قتل في بيت المقدس ونقل تلامذته جثمانه سراً في موكب حتى انتهوا به إلى موضع الكنيسة على البحر المحيط في ثغور ماردة ، فبنيت ليوم معروف جعل عبداً لها ، وأصبحت منذ ذلك الحين من أول مراكز الحج بين الأوروبيين جميعاً .

لهذا يُعتبر فتح « سنت ياقوب » على يد العامريين أجّل فتح عربي وأخطره في عمق معاقل القشتاليين حيث تفيض كتب التاريخ الأندلسي بذكر أحداثه وتضارب آراء النقاد حول شخصية القائد العربي ، فبينما يذكر الحميري في « الروض المعطار » أن عبد الرحمن بن المنصور هو الذي قد غزا المدينة وأوسع أهلها قتلاً وأسراً ، وقراها وأسوارها هدماً واحراقاً ويؤيده في ذلك ليقي بروفنسال نقلاً عن كتاب « مفاخر البربر » يؤكد الحميدي في الجلوة عن استاذة

ابن حزم بأن المنصور استدعى عَقِبَ الفتح شاعرنا القسطلي وعبد الملك الجزيري وكلفهما انشاء كتاب الفتح الى الحضرة والى سائر الأعمال .

الواقع أننا لا نحاول هنا أن ندرس رأياً تاريخياً ونفصل فيه بقدر ما نريد أن نؤكد بأن ابن درّاج استمهل يومين أو ثلاثة ليتمكن من انشاء كتاب الفتح وهذا ما دفعنا إلى التأكيد « على أن الارتجال ليس ميدان الشاعر » بينا انفذ الجزيري الأمر .

الدارس لقيمة هاتين الرسالتين يجد في الجذوة قول الحميدي فيهما : « أما ابن الجزيري فقال : سمعاً وطاعة ، وأما ابن درّاج وكان معروفاً بالتنقيح والتجويد والتؤدة فأخذ وقته ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح ، وقد وصف الغزاة والمركة من أولها إلى آخرها ومشاهد القتال وكيفية الحال بأحسن وصف ، وأبدع رصف فاستحسن ووقع الاعجاب بها ، ولم تزل منقولة متداولة وإلى الآن ، وما بقي من نسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح عين ولا أثر » .

من الثابت أن ابن درّاج الى جانب رسالة الفتح في مدينة «سنت ياقوب» لم ينظم قصيدة واحدة كما جاء في الروض المعطار فديوان الشاعر يحفظ لنا قصائد ثلاث ، الأولى في المنصور بن أبي عامر ، والثانية في ولديه عبد الملك وعبد الرحمن . والثالثة في عبد الرحمن خاصة .

لعل هذه القصائد الثلاث تكشف عن غموض الروايات التاريخية وتضارب الآراء في حقيقة شخصية قائد المركة فثبت دون مجال للشك بأن المنصور بن أبي عامر كان على رأس الحملة في ما كان يعاونه فيها ولده عبد الملك وعبد الرحمن ، بينا أبلى عبد الرحمن خير البلاء كما يؤكد الحميري في الروض المعطار ، وليفي بروثنسال نقلاً عن كتاب مفاخر البربر كما أشرت .

أن ابن درّاج القسطلي بعد أن يزِيلَ هذا اللبس حول الروايات

التاريخية يمدح المنصور عقب الفتح بقصيدته الأولى في هذه الغزوة ومطلعها .

اليوم أنكص إيليس على عقبه مبرأ سبب الغاوين من سببه
واستيقنت شيع الكفار حيث نأت في الشرق والغرب أن الشرك من كذبه
«بشتياقة» لما أن دلفت له بالبيض كالبدر يسري في سنا شهيه

والشاعر إذ يعرض صورة صادقة للأعمال الحربية الجليلة التي قام بها القائد العامري ويصف المعركة وأرضها ، والقوم وأوضاعهم يخلص إلى المنصور فيشيد بعظمته وقدرته العسكرية والإدارية .

فالله جازيك يا «منصور» دعوتَه بسعي ماض لنصر الدين محتسبه
وعن كتائب للإسلام قُذت بها الى رضا الله حتى كُن من كتبه
وعن حُسام هدى لم تجل صفحته إلا أسلت دماء الشرك في سُطبه

وأما قصيدته الثانية في معركة «شنت ياقوب» هذه، فهي كما أسلفت في مدح ولدني المنصور عبد الملك وعبد الرحمن ، والتي لا تخرج في موضوعها عن تمجيد بطولتهما وجهادهما فهو يذهب فيها مذهب قصيدته الأولى في الإدهما والمعركة وموقعها والعدو وفلوله وإن خصها بالأميرين القائدين لينفذ من ورائها الى مدح الوالد القائد السيد والتي يقول فيها :

لك البشرى ودمت قرير عين بشأني كوكبيك الثاقبين
مليكني حمير نشأ وشباً بتيجان السناء متوجين
هما للدين والدنيا محلاً سؤيدا وأهما في المقاتلين
نذرتهما لدين الله نصراً فقد قاما لنورك وإقيين
وابن دراج بعد أن يشهب في تعداد خصال القائدين البطلين يلمح الى المعركة ويلاهما عند نهري كورونيو ويوغو قرب حدود البرتغال .

وقد خسف «كُرنة» بالعوالي و«بوغنة» بادئين وعائدين

سُورَةُ الْهُدَى يَوْمَ اسْتَطَارَا إِلَى الْأَعْدَاءِ أَيْمَنَ سَانَحِينَ
وَشَامَ الْكَفَرِ يَوْمَ تِمَمَّاهُ بِجَنَدِ الْحَقِّ أَشَامَ بَارْقِينَ

ثم يختم قصيدته هذه مهنتاً المنصور بولديه الأميرين القائدين .

فَصْرَةٌ أَغْنَيْنِ الْإِسْلَامِ إِلَّا تَزَالُ بِمَنْ وَلَدَتْ قَرِيرَ عَيْنِ

هذا وأما القصيدة العظيمة فهي مدح عبد الرحمن بن المنصور وتعداد مفاخره، وتخليد مآثره العسكرية في بلائه العظيم، وفي مواقفه المشرفة التي غطت على ما يسدو على مواقف مَنْ يسواه من رجالِ العامرية وقادتها في معركة « شنت ياقب » وكانت تحجبُ بلاءَ المنصور القائد حتى أوقعت بعض المؤرخين وفي طليعتهم الحميري في اللبس فأنبت في كتابه « الروض المعطار » أن عبدَ الرحمن هو صاحبُ هذا الفتح المؤزر .
واتبعه في ذلك المستشرق ليفي بروفنسال كما أسلفنا معتمداً على كتاب « مفاخر البربر » .

أن شاعرنا القسطلي بعد المطلع الذي يصفُ فيه عبدَ الرحمن بالبدر الذي يدورُ في فلك المجد .

هو البدرُ في فلك المجد دارا فما غسق الخطب إلا أنارا

قلت بعد المطلع يعرض لصفات القائد وأخلاقه وشجاعته ويعدد مواقفه حتى ينتهي إلى تصويرِ الفتح الذي هو أشبه ما يكون بالنور ، محدداً منزلة معركة « شنت ياقب » من أمجاد العرب ومعاركهم جميعاً :

تَجَلَّى لَنَا فَارْتَنَّا السُّوْدُ عِيُوبَ الْمَنَى فِي سَنَاهِ جَهَارَا
وَحَلَّ فَحَلَّتْ جَسَامُ الْفَتَا ح تَبَلَّى اخْتِيَالَا وَتَزْهَى افْتِخَارَا
وَمَنْ يَسْمُ فِي ذُرُوتِي جَمِيرَ وَيَحْتَلُّ مِنْ يَمَنِ الْمَلِكُ دَارَا
وَحَسِبَ الْخَلِيفَةُ إِثَارُهُ لَكُمْ دُونَ هَذَا الْأَنَامِ اقْتَصَارَا
وَعَمَّ بِهَا فَتَحُكُ الْأَرْضُ نُورَا كَمَا ذَوَّتِ الشَّمْسُ فِيهَا النَّهَارَا

في ضوء ما تقدم في مفهوم التاريخ وحقيقته في رأي ابن خلدون،
فابن درّاج القسطلّي قد بدأ في كثير من شعره وخاصةً في تاريخه لمعركة
« شنت ياقب » المؤرخين الأندلسيين الأفاضل وكانت شهادة أبي عامر بن شهيد
فيه بأنه قد زاد في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب شهادة
حقّي وتقدير واعجاب ، انزلته منزلة مؤرخ الدولة العامرية في رأي كثير من النقاد .

وهل عبثاً أن يحظى ابن دراج القسطلّي بلقب المتنبي بعد أن جراه في
«الحدث الحمراء» وماشئ ابا تمام في «فتح عمورية» ، والأندلس الاسلامي في
مجاهدة خصومه من الطامعين ، ومناوئيه من المتمزتين احوج ما يكون الى شاعر
كبير يرد عنه سهام الحقد ، فيعرض لمن حمل هذه السهام فارتدت اليه ووقعته
اسيراً في ايدي العرب ، ولم يلبث من بعدها ان مات وكأنه لم يكن بالأمس
ملك قشتالة المناويء :

أسيرٌ ما يُعَاذِلُ في فكّك	وعانٍ ما يساوى في فداء
هو الداء العيأ شفيت منه	فما للدين من داء عيأ
حمى شيع الضلال فأهلت	الملك الرقي منها الولاء
وأتبّع قل «غرسية» عجلاً	يسوقهم الردى سوق الحدا

ومن شعره البطولي في معركة « ليون » :

يا قائد الخيل العتاق كأنما	عزماته ارمأحها وشفأرها
أوطأت ارضَ المشركين كسائباً	فيها وشيكُ فنائها ودمأرها
وتركت ارض «ليون» وهي كأنها	لم تغن بالأمس القريب ديارها
مرفوعة لك في العلا اعلامها	لما غدت بك عاقياً آثارها
والخيل والابطال تجهد خلفها	ألا يشطّ على الخليل مزارها
حتى قدمت بمفخر الفتح الذي	احيا المنى بقدمه استبشارها

ابن الفرضي

ومعجمه تاريخ علماء الأندلس

١٠١٣/٥٤٠٣ م ٩٦٢/٤٣٥١

في ما كان الناس يطوفون بالبيت العتيق، وقد تعالت أصواتهم في دعاء رحيم، وترنحت أعطافهم، وخشعت قلوبهم، وعَلِقَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالسَّمَاءِ، كان أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي القرطبي، المعروف بابن الفرضي يتعلّقُ باستار الكعبة، ويسألُ الله في شيء من رجاء، وكثير من تَضَرُّعٍ، الشهادة والمغفرة.

غير أنّ الرجل لم يلبث بعد هذا التضرع الحار أن انحرف عن الكعبة بعد أن شافه ذكر أهله في قرطبة إلا أنه ندم، وهم أن يرجع ليتعلّقُ باستار الكعبة من جديد ويستقبل الله على ندائه فيستحي، ويكي، ويحن إلى موطنه وزوجه ويسترجع الذكرى :

مَضَتْ لِي شُهُورٌ - مِنْذُ غُيْبْتُمْ - ثَلَاثَةٌ
وَمَا خِلْتُنِي : أُنْقَى - إِذَا غِيبْتُمْ - شَهْرًا
وَمَا لِي حَيَاةٌ - بَعْدَكُمْ - اسْتَلَّهَا
وَلَوْ كَانَ هَذَا : لَمْ أَكُنْ فِي الْهَوَى ، حُرًّا
وَأَمْ يُنْسِلِنِي طَوْلُ التَّنَائِي ، هَوَاكُمُ ،
بَلَى : زَادَنِي وَجْدًا ، وَجَدَّ لِي ذِكْرِي

فإذا ما استعاد العالمُ المرجعُ كُلَّ ذلك ، راودته أطيافُ عذابٍ على نفسه
شدته إلى الأرض ، وكاذت أن تبعده عن السماء اخلاصاً لمن أحب ، ودفعه
الشوق والحنين إلى أن يعيش أهله أملاً ، فاذا سُدَّتْ عليه السبلُ إلى العينِ
التي أعجب ، وإلى القلبِ الكبير الذي أخلص ، راح يعللُ النفسَ في لقاءِ
قريب ، مُستعِيبُ الدهرِ على ما أصابه .

يمثلكم لي ، طولُ شوقي اليكُم
ويدنيكُم : حتى أناجيكُم سراً
سأستعيبُ الدهرَ المُفروقَ بيننا ؛
وهل نأفِي : أن صرّت استعيبُ الدهرِ
أعللُ نفسي : بالمُنَى في لقاءِكُم ؛
وأستنهلُ البرَّ الذي جُبْتُ ، والبحرِ

ويرضى الشاعرُ الفقيهُ الثقةَ بالمصيرِ الذي آل إليه ، ويرجو لو يطوي
الأرضَ راضياً غيرَ كاره ، ويقطعُ البحرَ جاداً غيرَ عاثٍ ، ويتنقلُ من بلدٍ إلى
آخرٍ سعياً وراءَ الإنسان الذي أحب ، بعد أن حُتِمَ عليه أن يغادرَ بيته ، ويفارقَ
أبيه :

ويؤنسني طيِّ المراحلِ تَوْنَكُم :
أروح على أرضٍ ، وأغمدو على أنحزى
وتأللُ : ما فارقتكم : عن قلى بكم ؛
ولكنها الأقدارُ : تجري كما تُجرى
رَعَتَكُم من الرُحمنِ : عَيْنُ بصيرةٍ
ولا كَشَفْتُ أيدي الردى عنكُم يثراً

ويعودُ علامتنا ابنُ الفرضي إلى الأندلسِ ليلقى زوجه ويطمئن إليها بعد
أن سَمِعَ في مكة من أبي أيوب يعقوب ابنِ الصيدلاني المكي ، وفي مصرَ من

أبي بكر أحمد المهندس ، وأبي محمد الضرار ، وبعد أن عَرَّجَ في طريق
عودته على القيروان ليسمع العالم المحقق أبا عبد الله النُّفَرِيَّ ، وأبا الحسن
علي ابن خَلْف ، المعروف بالقابسي .

ويقفُ الرجلُ الصالحُ ذاتَ غروبٍ بباب السماء ، وقد تَرَكْتُهُ الشمسُ
محروقاً مضرجاً باللهب ، لِيَرْفَعَ نحوها دعاءً أشدَّ رجاءً ! وأقوى عاطفة ، على
ذنْبٍ اقترفه ، وسِرِّ كاد أن يُعلِنه في الكعبة ، وراح يَبْكِي وَيَسْتَرْجِمُ الإله
الأعظم :

أَسِرُّ الخُطَايَا عِنْدَ بَابِكَ واقِفٌ
على وجلٍ مما أَنتَ به عارِفٌ
يَخَافُ ذَنْباً لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبُهَا
ويرجوك فيها ، فهوراجٍ وخائفٌ
ومن ذا الذي يرجو سواك ويتَّقِي
وما لك في فصلِ القضاءِ مخالِفٌ

فاذا استلهم ابنُ الفرضي عاطفته الدينية الصادقة ، وابتهل الى الله
بآياتِ رُهْبِيَّةٍ تفيض بالتقوى والايمان نادى ربّه من جديد وفي كثيرٍ من أملٍ أن
يُحْسِنَ عاقِبَتَهُ ، ويغفرَ ذنبه ، ويُكْرِمه يومَ الحساب ، وكأنه عادَ اليه يرجوه أن
يُكْرِمه بالشهادة :

فما سيدي لا تُخْزِنِي في صحيفتي
إذا نُشِرتْ يَوْمَ الحسابِ الصَّحَائِفُ
وكن مؤنسِي في ظُلُمَةِ القبرِ عندما
يصدُّ ذُو القُربى ، ويحفو المِزَالُ
لئن ضاق عني عَفْوُكَ الواسِعُ الذي
أُرْجِي لِإِسْرَافِي فإِنِّي لَتَالِفُ
وتستجيب السماءُ لدعاءِ العالمِ الورعِ فتكتبُ له الشهادةَ ويقتلُ على يدِ

البربر في ثورتهم على قرطبة في السادس من شوال سنة أربعمائة وثلاث للهجرة ، الحادي والعشرين من نيسان سنة ألف وثلاث عشرة للميلاد وهو يردد فيما يؤكد ابن حزم عمن رآه بين القتلى قوله : « لا يُكَلِّم أحدٌ في سبيل الله ، والله أعلم بمن يُكَلِّم في سبيله ، ألا جاء يوم القيامة ، وجرحه يُعَبِّ دماً ، اللون لون الدَّم ، والريح ريح المسك » . ويوارى العلامة الشهيد متغيراً من غير غسلٍ ، ولا كفنٍ ، ولا صلاة .

ولد أبو الوليد ابن الفرضي في قرطبة سنة ثلاثمائة واحد وخمسين للهجرة ، تسعمائة واثنين وستين للميلاد وبها نشأ ، وعاش ، وأتم دراسته على نخبة من جهابذة علماء زمانه أمثال أبي زكريا يحيى بن مالك بن عائذ ، ومحمد بن أحمد بن يحيى القاضي وأمثالهما كما يؤكد الحافظ الذهبي في كتابه العبر في خبر من غير .

كان ابن الفرضي فقيهاً محدثاً خطيباً جماعاً للكتب حتى صار له فيها خزائن عامرة ، وقد قرض الشعر وقال فيه أبياتاً تفيضُ بعاطفة دينية ظاهرة كما يؤكد المستشرق الإسباني انخل كونثال بالتيا بينا يعتبره ابن بسام صاحب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » شاعراً مقلداً هو الى العلماء ادخل منه الى الشعراء .

وضع ابن الفرضي كثيراً من الكتب مثل ، تاريخ شعراء الأندلس ، وكتاب أخبار شعراء الأندلس ، في ما جمع في المؤلف والمختلف كتاباً حسناً ، غير أن شهرته طارت بمعجم أعلامه المسمى « تاريخ علماء الأندلس » أو تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس وهو أقدم معجم رجال عام في المكتبة الأندلسية بلغ فيه الغاية والنهاية ، فنشره المستشرق الإسباني كوديرا في سلسلة المكتبة العربية الأسبانية في سنتي ١٨٩١ - ١٨٩٢ .

اعتمد ابن الفرضي في وضع كتابه الذي رتبّه على حروف المعجم على مؤلفين سابقين عليه منهم ابن الطحان أبو الأصم عبد العزيز بن علي الأشبيلي من أهل استجة ، وعلي بن معاذ بن سمعان بن موسى ، في ما وضع تلميذه أبو

بكر بن مهلب ذيلًا على الكتاب أسماء « تعليقٌ على تاريخ ابن الفرضي واستلحاق » .

هذا ويُقضى لمعجم ابن الفرضي عددٌ من العلماء والناهبين فوضع ابنُ بَشْكَوَال ذيلًا عليه باسم « كتاب الصلة » كما وضع ابنُ الأَبَار تكملةً لكتاب الصلة أتم به تراجعَ علماء الأندلس حتى القرنِ السادس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد .

الحقيقةُ أن عنايةَ الناسِ بالأندلس بلغت الغايةَ في تصنيفِ معاجمِ الأعلام وفهارسِ الكتب وذاعت بينهم ذبوعاً واسعاً ، وهي وإن دلت على شيء فعلى مستوى المعارفِ واتساعِ آفاقها عندهم حتى مست الضرورةُ إلى وضعِ المعاجمِ لطوائفِ الرجال وفروعِ العلم جميعاً . غير أنَّ معجمَ ابنِ الفرضي الذي جمع فيه ألفَ وستمئةَ واحدٍ وأربعين ترجمةً لجهابذة العلماءِ الأندلسيين في الفقه والحديث ، والقراءة ، والفتوى يأتي على رأسِ هذه المعاجم جميعاً ، مكانةً علميةً ومرجعاً .

سببقى ابنُ الفرضي العالمُ ، الثقةُ ، الحجةُ في تاريخِ الأندلس الفكري أولَ مؤلفٍ لمعاجمِ الرجال ، وسببقى معجمُه تاريخُ العلماءِ في الأندلس مصدرًا موثوقًا يُعتمد عليه ، ويرجع إليه .



ابن هانيء الاندلسي

متنبي الغرب

٣٢٦هـ / ٩٣٧م - ؟

منذ ان عرفَ الأندلسُ العربي في القرنِ الثالث للهجرة ، اوجهاً للخصومة الأدبية بينه وبين المشرق العربي يوم أثار هذه المشكلة ابنُ عبد ربه في مُقدِّمة كتاب العقد بقوله : « وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظرُ في كتابنا هذا ان لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه حفظاً من المنظوم والمشور » ، وهو يحاولُ تكوينَ شخصيةٍ أدبيةٍ مستقلةٍ تميز عن أدبِ المشرق وثقافته . فقدّر له ذلك مع اطلالةِ القرنِ الرابع للهجرة بعد ان هضمَ ثقافاتِ العالم القديم ولقّحَ بها امكاناتِهِ الفكرية .

هذا ، وبالرغم من الاستقلالِ الفكري الذي حققه الأندلسُ ظل يعاني مركبَ نقصٍ امامَ المشرق العربي ومداربيهِ المختلفة وقد كان ذلك واضحاً في كثيرٍ من مظاهرِ حياته الاجتماعية والثقافية .

يؤكد نكلسون الناقدُ الانكليزي « ان تقديس الاندلسيين لكل ما هو شرقي يكادُ يحسُّه كُلُّ مُطلعٍ على تاريخهم في شتى المواضيع ، فلقد تغالوا في ذلك حتى كانوا ينظرون الى الشرق نظرة اجلال وتقدير » .

فلقبوا نوابغَ شعرائهم وكتابهم وكبارَ المغنين عندهم بالقابِ واسماءٍ نوابغِ المشرق العربي فابنُ هانيء متنبي المغرب ، وابنُ زيدون البحتري ،

فلقد كان اقصى ما يطمح اليه نايّة عندهم ان يلقب باسم شرقي عظيم .

لقد تبوأ محمد بن هانيء عرش الشعر العربي في المغرب لفخامة
ديباجته ، ودقة وصفه ، وقوة تراكيبه ، وجمال معانيه ، وتلقب بالمتني تيمناً
بشاعرنا الخالد ابي الطيب .

من الثابت عند بعض النقاد ان ابن هانيء ولد سنة ثلاثمائة وعشرين
للهجرة ، تسعمائة واثنين وثلاثين للميلاد بينما يرى آخرون انه ولد سنة
ثلاثمائة وست وعشرين للهجرة ، تسعمائة وسبع وثلاثين للميلاد . هذا وكما
اختلف النقاد في تحديد مولده اختلفوا ايضاً في تحديد موضع ولادته وان اخذ
بعضهم بالرأي القائل انه ولد في اشبيلية مدينة الغناء واللهو والمجون .

يرجع بعض الدارسين لترجمة ابن هانيء نسبته إلى يزيد بن حاتم بن
ابي صُفرة الأزدي بينما يرى آخرون ايضاً أنه من ولد روح بن حاتم الأزدي وأن
والده سعدون نشأ في إحدى قرى المهديّة في شمال افريقيا وعُرف بدعوته
للاسماعيليين ، ثم انتقل الى الأندلس لنشر الدعوة وتعليم العقيدة .

نهض ابن هانيء في الأندلس على مذهب ابيه فأخذ عنه اسرار وتعاليم
الاسماعيلية وهو بالرغم من اتصاله بصاحب اشبيلية الذي اكرم وفادته ،
واحسن له وقرب منزلته اضطر إلى مغادرة البلاد الى المغرب بعد ان حقد
سكان المدينة على الأمير ، ونقموا عليه لتأثره بمذهب الشاعر ودعوته الى امامة
الفاطميين وهم من المالكية المتشددة .

ما ان استقر الشاعر في المغرب ، وكان ارضاً خصبة للاسماعيلية حتى
بزغ نجمه ، وعلا كعبه ، وقدر له ان يتصل بجوهر الصقلي قائد المعز ، ثم
وفق الى ان يتصل بالمعز نفسه ، فمدحه وتقرب منه ، فعلت عند الخليفة
الفاطمي منزلته ولم يلبث ان اضحى شاعره الأول .

كانت سيرة الشاعر وما عرف من عقيدته الاسماعيلية ودعوته للفاطميين
سبباً في وضع حد لحياته على يد خصومه الأمويين في ما يؤكد الرواة .

لقد وُجِدَ الشاعرُ قتيلاً في مدينة برقة من بلاد طرابلس غداةَ عودته إليها
ليهيء نفسه وعائلته ، ليلحق بركب ملكه المعز الذي سار الى مصر وقد
خضعت لدولته .

يحدث ابنُ خلكانٍ في كتابه (وفيات الأعيان) فيشير إلى ان رجلاً من
اهل برقة استضاف الشاعر فأقام عنده في مجلس أنس ، ويقال إن جماعة
المجلس عربدو عليه وقتلوه . بينما يؤكد ابنُ الأثير ، وابو القداء وابنُ خلدون
انه مات مخنوقاً على يد اعدائه الأمويين ، في ما يرى ابنُ الخطيب وابنُ الأبار
انه قتل في برقة على صورة غامضة دون ان يذكر شيئاً عن خصومه الأمويين .

لقد ساء مقتلُ ابن هانيء الخليفة المعز ، فحزن عليه لأنه كان يأمل ان
يفخر به شعراء المشرق في ما تؤكد الرواية العربية .

قضى ابنُ هانيء غيلة على يد خصومه فانطفأت تلك الشعلة المتوقدة
من النبوغ والعبقريّة ، والشاعرُ لا يزال ربيعاً ، وكما شاء الشاعرُ ان يقلد ابا
الطيب في بعض مظاهر شعره وان يتلقب بلقبه قلده مكرهاً بالنهاية المؤلمة
وعلى يد عدو من خصومه والحاقدين عليه .

ان من الصعوبة بمكان ان يفهم الدارسُ حقيقة شعر ابن هانيء في
الخليفة المعز وفي بعض الموضوعات الأخرى التي تمت إلى عقيدته بصلة قبل
ان يدرس جوهرَ المذهب الاسماعيلي والمرامي البعيدة التي اذاعها في
المغرب ، وكنه الأهداف السياسية والاجتماعية التي نادى بها الشاعرُ وهو
يمدحُ الخليفة ويدعو لمذهبه .

كان ابنُ هانيء طلعةً بين شعراء الاندلس فصطح نوره في المغرب
العربي وقد بهر شعره النقاد والأدباء فاجمعوا على مكانته الأدبية يوم انشد في
كل فنون الشعر المعروفة في عصره ولم يحبس نفسه للأمراء كما فعل سميء ابو
الطيب .

في ضوء هذه الحقيقة الأدبية نفخر بابن هانيء متنبئ الغرب وننوه

بجمال غزله ودقة وصفه ، خاصة لشاعريته الخصبية المتدفقة ولاحساسه
الغريب المتفاعل مع نفسيته المُلهمَة وشخصيته الفذة ونردد معه .

أَلْوَلُّوْ دَمْعُ هَذَا الْغَيْثِ أَمْ نَقَطُ	مَا كَانَ أَحْسَنَهُ لَوْ كَانَ يُلْتَقَطُ
بَيْنَ السَّحَابِ وَبَيْنَ الرِّيحِ مِلْحَمَةٌ	فَقَاقِيعُ وَطِيٍّ فِي الْجَوِّ تَخْتَرِطُ
غَمَائِمٌ فِي نَوَاحِي الْجَوِّ عَاكِفَةٌ	جُعْدٌ تَحْدَرُ مِنْهَا وَابِلٌ سَبِطُ
كَأَنَّ تَهْتَانَهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ	مَدُّ مِنَ الْبَحْرِ يعلو ثم يَنْهَبُ

بلى هو ذا الشاب الشاعر يودع الدنيا في صخب وفي معجون ، وتودعه
الحياة في حزن وفي أسى لأنه ذوى في مستقبل عطاء خير قبل ان يسمو به إلى
ذؤابة الأعلام ، وهو ان تبوأ في الحياة وفي نظر الأندلسيين خاصة مرتبة كمرتبة
ابي الطيب فلقد خلد ذكره مع الخالدين من الاعلام .



المعتضد

الشاعر الملك

١٠٤٢هـ - ٤٣٤هـ - ١٠٤٢م

مع اطلالة القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد اخذت الدولة الأموية في الأندلس التي قدر لطارق بن زياد عامل الدولة العربية في طنجة ان يخضعها للتفوذ العربي سنة اثنتين وتسعين للهجرة ، سبعمائة وعشرة للميلاد ، كما قدر لعبد الرحمن بن هشام صقر قرطبة ان يقيم على جنان الأرض المزهوة الضاحكة للشمس الامارة الأموية سنة مائة وثمان وثلاثين للهجرة ، سبعمائة وخمس وخمسين للميلاد ، وان يعلن عبد الرحمن الناصر الخلافة الأموية في قرطبة وينشيء حضارة زاهية سنة ثلاثمائة وست عشرة للهجرة ، تسعمائة وثمان وعشرين للميلاد .

قلت مع اطلالة القرن الخامس للهجرة تناثرت اجزاء الدولة الأموية في اندلسيا العرب ، وخفت الضوء الذي بهر الغرب خلال قرنين من الزمن بعد ان اقام فيها اعلام الدولة ، قصر اشبيلية ، وجامع قرطبة ، وحمراء غرناطة ، والزهاء ، آيات الفن العربي ، ومثلاً اعلى للحضارة والترف الانساني .

كانت الدولة الزيرية نسبة الى مؤسسها زاوي بن زيري اول دولة بربرية قامت في الأندلس سنة اربعمائة وثلاث للهجرة ، الف واثنتا عشرة للميلاد واتخذت مدينة غرناطة القمة المحاطة بنهر شنيل والمطلّة على جبال سيرا نقادا قاعدة لها .

هذا ، وكما كانت غرناطة اول كرسي لحكم مستقل عن الدولة الأموية

كانت ايضاً آخر دولة عربية سقطت في ايدي الروم سنة ثمانمائة وسبع وتسعين للميلاد ، وخرج منها ابو عبد الله بن الأحمر وقد اغرورقت عيناه بدموع حرى .

في هذه الفترة بالذات بين قيام اول دولة مستقلة في الأندلس وسقوط آخر معقل عربي فيها قامت في اشبيلية مدينة الفن والغناء في الأندلس دولة بني عبّاد اقوى ملوك الطوائف .

عرفت الدولة العبّادية رجالاً عظاماً في الحكم والادارة والدهاء السياسي يعتبر عبّاد بن محمد ابو عمرو الذي لقب بالمعتضد من اعظمهم مرونة وحزماً ، حتى خافه الناس لكثرة بطشه وظلمه .

كان المعتضد ذا مزاج غريب متناقض ولعل اوضاع بلاده والحالة التي آل إليها الأندلس العربي جمعاً فرض على الأمير الحاكم ان ينهج في سياسته نهجاً متقلّباً بعيداً عن سياسة القادة المرسومة المتزنة .

من هنا كان المعتضد يجمع بين الدهاء والقسوة ، وبين الاحساس المترف والعلم الواسع ، وبين الذوق الرفيع النفاذ وبين الظلم ، الى جانب ذاكرة واعية ، واخيلة شاعرية طيبة ، وبطش اسطوري رهيب لا يتوافق ورقة شعوره ، ومزاجه الشعري الملهم .

يؤكد النقاد وفي طليعتهم المستشرق الاسباني انخل كونثالت بالشيّا ان المعتضد عبّاد بن محمد كان نظير سميّه المعتضد العبّاسي استبداداً وظلماً ، ويذكر ابو عبد الله بن الأبار في كتابه الموسوم « بالحلة السراء » ان المعتضد بلغ في فتكه وظلمه مبلغاً عظيماً فقد قتل اول من قتل وزير ابيه حبيب طعنة ، وانه اقام في قصره خزانة اودعها هام الملوك الذين قتلهم ، ويروي غير واحد ان المعتضد اتخذ من جماجم اعدائه أصصاً زرع فيها الزهور والرياحين .

إلى جانب ما عرف عن المعتضد من الظلم والقسوة فلقد كان مسرفاً في

لهوه وعبه ، محافظاً في مجالسه على مركزه كملك مهيب ، وهرمع ذلك لم
يرعو في بعض خمرياته التي كانت الغاية في رقة الذوق ، وجمال الأسلوب ان
يأتي فيها على بعض المعاني التي تمس العقيدة ومن شعره :

اشرب على وجه الصباح وانظر الى نور الاقحاح
واعلم بأنك جاهل ان لم تقل بالاصطباح

الواقع ان عباد بن محمد كان طموحاً ولم يأل جهداً في محاربة كثير من
الدول التي قامت على اطراف بلاده وضم بعضها الى ملكه ، ونراه بالرغم من
حكمه المتناقض ، ومن بطشه الاسطوري يرى نفسه خير ملوك الأرض قاطبة اذ
يقول :

هذي السعادة قد قامت على قدم . وقد جلست لها في مجلس الكرم
فإن اردت الهي بالورى حسناً فملكني زمام العرب والعجم
فإنني لا عدلتُ الدهر عن حسن ولا عدلتُ بهم عن اكرم الشيم
اقارعُ الدهر عنهم كُلُّ ذي طلبٍ واطرد الدهر عنهم كُلُّ ما عرم

ليس من شك في ان المعتضد الذي تسلم عرش اشبيلية سنة اربعمائة
وثلاث وثلاثين للهجرة ، الف واحدى واربعين للميلاد كان بدعاً يسن
حكام الأندلس فلقد اتخذ كثيراً من النساء وخلط بين اجناسهن حتى كان له
سبعون جارية وكان كما يؤكد ابن حبان اكبر مؤرخي الأندلس في عصره :

«إن سياسة القوة والبطش التي نهجها المعتضد في حكم مملكته الى
جانب مجونه واسرافه في اللهو ، وانغماسه في الملذات ، والابتعاد عن حكم
اشبيلية حكماً مرسوماً عادلاً افسد عليه تربية ولي عهده محمد بن عباد المعتمد
وافسح له أن يدفع بالدولة الى نهايتها المؤلمة » .

الدارس لحياة المعتمد وعلاقته مع ابن عمار يوم ولّاه ابوه على شلب
يدرك المصير الذي دفع المعتمد إلى الأندلس نتيجة لحياة الترف واللهو

المتفشية في البلاد ، الى جانب طموح العباديين الى توسيع رقعة دولتهم على حساب جيرانهم من ملوك الطوائف ، واقحام البلاد في معارك جانبية كانت بغنى عنها في تلك الظروف العصيبة .

نحن لا ننكر ان طبيعة الأندلس واطباع العرب في شبه الجزيرة جعلت من المعتضد شخصية غريبة افسدت عليه تهية ولي عهده لحكم البلاد ، وإنما ننكر على الدولة العبادية اسرافها في التوسع على حساب العرب انفسهم وتسخير الدولة لمآرب حكامها ونزواتهم ، وللأسراف في تبذير اموال الدولة حتى عجزت في عهد المعتضد عن دفع الإتاوة لادفونش بن فرديناند ملك قشتالة .

مع كل هذا فلقد جمع المعتضد بين كل هذه المتناقضات وبين شاعرية متدفقة حلوة المعاني ، قوية السبك ، جميلة الألفاظ امدتها طبيعة الأندلس بالمفاتيح والصور البديعة والأوصاف الحلوة ، والتشابة الرقيقة فجعلتها في ذؤابة المخيلات الأندلسية قوة عطاء ، وجمال صور .

ان ظروف الأندلس العصبية دفعت بالمعتضد ان يسلك طريقاً وعرة للحفاظ على ملك مخوف بالمخاطر مهدد بالسقوط ، وهو وان اقام ملكه على اطراف الأسنة كما يقول ابن الأثير فلم يقو ان يحافظ عليه طويلاً لأنه لم يهيء له ملكاً مديراً حاكماً ، فلقد سقطت الدولة العبادية في عهد ولده المعتضد يوم بكى الاندلسيون شاعرهم وقائدهم وهو مسوق بين ثلة من رجال يوسف بن تاشفين الى اغمات اسيراً .

لقد سيج المعتضد الدولة بالظلم والقوة ولكن سرعان ما سقطت على اطراف نهر الوادي الكبير نتيجة حتمية للظلم والقوة ، وان ظل المعتضد كشاعر في طليعة شعراء عصره ، روعة وصف ، وابداع صور ، وتدقيق خيال ، محباً للشعراء ، حتى كان بلاطه موثقاً لعدد كبير منهم في مقدمتهم ابو الوليد بن

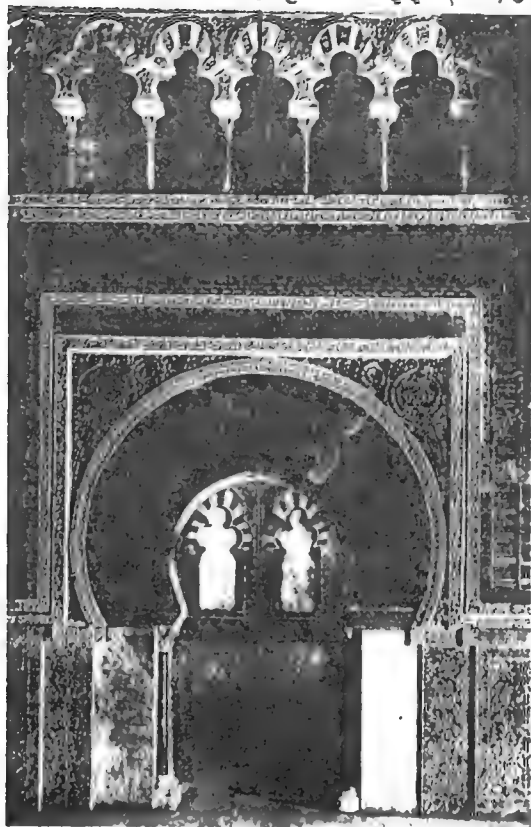
حبيب وزيره وكاتم اسراره ، وابوبكر بن القوطية الذي اضحى في ما بعد نديم
ابنه المعتمد ، وعلي بن حصن الذي يعتبره المستشرق الاسباني انخل كونثال
بالشيا في قمة شعراء الوصف ابداعاً ، ورقة ، ومن شعره في وصف « فرخ
الحمام » .

وما هاجني إلا بن ورقاء هاتف	على فتن بين الجزيرة والنهر
مُفستق طوقٍ لازوردي كلكل	موشى الطلى أحوى القوادم والظهير
أدار على الياقوت أجفان لؤلؤ	وصاغ من العقيان طوقاً على الثغر
حديث شبا المنقار داج كأنه	شبا قلم من فضة مد في جبر
توسد من فرع الأراك أريكة	ونام على طي الجناح مع النحر
ولما رأى دمعي مُراقاً أرابه	بكائي فاستولى على الغصن النضر
وحت جناحيه ، وصفق طائراً	وطار بقلبي ، حيث طار ، ولا ادري

وبعد كيف لا يجتمع هؤلاء واضربهم حول المعتضد ، الملك الشاعر
الذي ترك لولي عهده مجدين ، الحكم والسلطة ، ودولة الشعر ، فخانه الحظ
في المعجد الأول ، في حين رافقه وحتى القبر المعجد الآخر !



محراب الحكم الثاني في المسجد الجامع بقروطة



ابن حزم القرطبي أعظم مصنف أنجبه الاسلام في الأندلس

٣٨٣هـ / ٩٩٣م - ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م

لم يعرف الأندلسُ الاسلامي في أواخر عهد الدولة الأموية في قرطبة، كابن حزم العالم والفيلسوف والمؤرخ والوزير علماً ثقةً مُثَمِّرَ الدِراسَةِ والجدل، ومؤلفاً في مختلف نواحي الفكر البشري من الفقه والحديث والأصول الى المنطقي والفلسفة والكلام، الى تاريخ الديانات في عقائدها وبيدها، الى الدروس النفسية، الى التاريخ والأدب والشعر والخطابة والأنساب في أسلوب بليغ رصين.

ولد ابن حزم في اليوم الأخير من رمضان سنة ثلاثمائة وثلاث وثمانين للهجرة وقد أطلق عليه أبوه عمر بن أحمد بن سعيد اسم «علي».

أحب ابن حزم، وهو لا يزال يافعاً فتاةً تمنعت عليه فطوى نفسه على ألم الحب والشوق والرجاء مما دفع دوزي المستشرق الهولندي الى أن يعلن موقف ابن حزم هذا الى طبع متأصل في جنسه ليؤكد أنه ينحدر من أصل نصراني إسباني بينما نقض هذا الرأي المستشرق الإسباني بلاثيوس بعد أن استعرض أمثلة كثيرة من الحب العذري والعفة الزوجية عند عرب الأندلس مشبهاً أن هذه الظاهرة عند ابن حزم ترجع الى ما في الاسلام من نوازع زهدية.

هذه الحقيقة في أصل نسب ابن حزم تدفعنا الى الأخذ بما أورده العلماء وفي طليعتهم ياقوت الحموي الذي يؤكد في كتابه «معجم الأدباء» أن

ابن حزم يرجع في نسبه إلى يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان وأنه نشأ وعائلته في قرطبة واصله من اقليم الزاوية في غرب الأندلس .

درس ابن حزم الحديث على ابي عمر احمد بن الجصور فتهياً له بذلك ادراك طيب لتاريخ البشر والأديان كما تعلم المنطق على يد الشيخ الكتاني ، واخذ الأدب والشعر عن ابي القاسم عبد الرحمن بن يزيد الأزدي وكان قد درس الفقه على يد المتشرع الأندلسي النابيه عبد الله بن يحيى بن دحون وكلهم من جهابذة علماء عصره .

مال ابن حزم منذ مطلع الشباب وبعد ان قرأ مؤطاً الامام مالك على يد أستاذه ابن دحون الى مذهب الامام محمد بن ادریس الشافعي غير أنه لم يظل شافعيّاً الا حقبة قصيرة من الزمن اذ استحسن المذهب الظاهري الذي أنشاه داود الأصبهاني والذي كان يأخذ بالنصر الحرفي لأي الذكر الحكيم وينفي القياس العقلي .

أنكر فقهاء المالكية في الأندلس على ابن حزم مذهبه ومنعوه واستأذنه أبا الخيار مسعوداً بن سليمان من التدريس في جامع قرطبة ، فكان لموقف الفقهاء منه وتبئهم اياه أثر عميق في خلقه ونفسه .

كان ابن حزم يؤمن بأن سلامة العقيدة والشرف فوق الحياة نفسها ، ومن هنا كان مخلصاً لأصدقائه يتفانى في سبيلهم ، لدوداً في خصومته ، ولوعاً بالسخرية من مناهضيه ، شديد الاعتداد بما أوتي من علم ، فضلاً عن أنه كان في ايمانه أقرب إلى العقلين منه الى العاطفيين .

يعلم العالم الاسباني آسين بلاثيوس كل ذلك في شخصية ابن حزم . يقول « إن الرجل قد عاين من ألوان الظلم ما أنضب معه معين الرقة واللين في نفسه ، كما شاهد من مساات الفوضى السياسية التي ضربت الأندلس ما نفر نفسه ، وقد أودى في شخصه وكرامته بما لقي من الاضطهاد ورأى الناس يُنكرون قدره ، ويتهمون عليه ويقاطعون مذهبه الديني ، ويحرمونه فاستقر رأيه

على أن يعتزل الدنيا وينزوي في موطن أسرته «ست ليشم» التي ودعت العالم، والوزير، والفقيه، والأديب والشاعر يوم وفاته في شعبان سنة أربعمائة وست وخمسين للهجرة وهو يردد :

نقر لي العرائق ومن يليها وأهل الأرض إلا أهل داري

ألف ابن حزم في الفقه والمنطق، والتاريخ واللغة والأدب، وكان صاحب علم في كل فن حتى قيل أن كتبه بلغت أربعمائة مجلد في نحو ثمانين ألف ورقة أهمها كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» الذي يعتبر بحق تاريخاً نقدياً للأديان والفرق والمذاهب، وقد نقله إلى الإسبانية العالم الأسباني بلاثيوس .

حاول ابن حزم في دراساته هذه أن يوفق بين العقل والعقيدة سابقاً في هذا المنحى الفيلسوف ابن رشد، كما اجتهد أن يطبق على الالهيّات أصول المذهب الظاهري الذي اعتقده متبعاً قواعد عامة هي الأخذ بالمعنى الحرفي للقرآن الكريم، والاجتهاد في تفسير آيه تفسيراً عقلياً معتمداً على اللغة ومعاني مفرداتها المقررة في المعاجم، وعدم تقليد مذهب سنده عن الصحابة، أو ما قرره اجماع المسلمين .

إلى جانب أهمية كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» يأتي كتابه في الدروس النفسية والأدب «طوق الحمامة في الألفة والآلاف» وهو رسالة في الحب والمحبين مؤلفة من ثلاثين فصلاً يدور كل منها حول موضوع واحد من موضوعات الحب .

ويعتبر هذا الكتاب وهو أول تصانيف ابن حزم أدق ما كتب العرب في دراسة الحب وتعدد أسبابه، وتنوع مظاهره وتطوراتيه .

استمد أكثر مواد الكتاب من اختياراته الخاصة واختبارات معاصره فقدم تفاصيل عظيمة عن حياة الأندلسيين في بيوتهم خلال القرن الحادي عشر، ولقي الكتاب في رأي النقاد المعاصرين استحساناً كبيراً لأهميته العلمية وقيمه

موضوعه الانساني وكان آخر من اهتم به ونقله الى الاسبانية وقدم له باسهاب
المستشرق الاسباني اميليو غرسيا كومس .

لقد عرفت اسبانيا الحديثة ، قدر الفيلسوف النابغ فأقامت له تمثالاً
عظيماً تخليداً له في مدخل مدينة قرطبة عندما احتفلت مع العالم العربي
بذكرى مرور ألف سنة على مولده .

أن ابن حزم سيظل سيداً من سادات الرأي والعلم والتاريخ لا يدانيه
في العظمة سوى مصنف الاسلام الأول أبو جعفر الطبري .

يرى آسبن بلاثيوس في ما اورده عنه بالثيا في كتابه تاريخ الأدب العربي
الاسباني : « ان ابن حزم يقسم الناس من حيث موقفهم من أمر العقيدة .. الى
سنة أقسام يرتبها بحسب بعدها او قربها من الاسلام ، وهي :

أولاً : « شك السوفسطائية ، الذين يطلون الحقائق .

ثانياً : الحاد الفلاسفة ، الذين ينكرون وجود إله خالق ويقولون : « ان
العالم قديم ، وليس له مدبر » .

ثالثاً : كفر الفلاسفة ، الذين يقولون : « ان العالم لم يزل ، وله مع
ذلك فاعل » . اي ينكرون وجود إله خالق للعالم الأزلي .

رابعاً : ثنائية الإله التي يقول بها الزردتشتيون والمانويون وتعدد الآلهة
الذي يقول به النصاري المؤمنون بالثالوث .

خامساً : توحيد البراهمة والعقليين ، الذين يؤمنون بوجود إله واحد
ولكنهم ينكرون النبوة والملائكة .

سادساً : توحيد اليهود ومن انكر التثليث من النصاري ، ومذهب الصابئة
ومن أقر بنبوة زردشت من المجوس وانكر ما سواه » .



ابن رشيق القيرواني

اول ناقد انجبه الشمال الافريقي

٣٩٠هـ / ١٠٠٠م - ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م

لم يعرف الشمال الافريقي علماً ثقة ، وشاعراً ملهماً ، واديباً فذاً وناقداً
بذ اقرانه في المشرق والمغرب العربيين ، دقيق الملاحظة ، واسع النظرة
النقدية ، متضلعا باللغة ، عارفاً بأسرارها ، متقناً لدقائقها كما عرف الشاعر
والناقد ابا علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي صاحب التصانيف الغربية ،
والرسائل البديعة والكتب الفريدة النادرة .

ولد ابن رشيق سنة ثلاثمائة وتسعين للهجرة ، الف للميلاد في مدينة
المسيلة او المحمدية من مقاطعة الزاب في الجنوب من الجزائر حيث تُطل
بلدته المتحضرة على اكتاف الصحراء من الجنوب وعلى الحدائق في الشمال
وكانها الحدود الفاصلة بين البداوة والحضارة في الجزائر ، او الجسر الذي يربط
واحات الصحراء الشاسعة بالمروج الخضراء والجنات الضاحكة المبعثرة في
شمال الأرض الطيبة .

هذا ولعل البيئة التي وعت مناغاة الطفل وحضنته وليداً يتنقل في
ارجائها ، ويتعلم على بعض رجالاتها ، ويلتقي ببعض الشعراء الكبار
الوافدين عليها جعلته بين بين في شخصيته واخلاقه وديانته وعلمه وادبه
وتصرفاته جميعاً فلم يطب له المقام في مدينته بعد ان تعلم على ابيه صناعة
الصياغة وما يتصل بها يومئذ من علوم ادبية ودينية وقد اتقن القرآن الكريم على
قاضي البلدة وعالمها طاهر بن عبد الله الذي ظلت صلات من الود الخالص

والحب المتبادل تربط بين الاستاذ العالم الفقيه والتلميذ الشاعر الأديب حتى
بعد ان غادر مسقط رأسه فبكاه يوم وفاته .

أما لئن صَحَّ ما جاء البريدُ به ليكثُرَنَّ من الباكين اشيعاي
ما زِلْتُ افزعُ من يأسٍ ومن طمعٍ حتَّى ترفعَ يأسِي فوق اطماعي
فالـيوم انفقَ كنزُ العمر اجمعه لَمَّا مضى واحدُ الدنيا بإجماع
توفي الطاهرُ القاضي فواسفاً ان لم يوفَّ تباريحي وأوجاعي

وفي القيروان قاعدة الحكم العربي في الشمال الافريقي والأندلس ابان
الحكم الأموي ادرك ابن رشيقي وهو بعد فتى غَضُ الایهاب وفاة ناصر الدولة
ابي مناد باديس المنصور سنة اربعمائه وست للهجرة، الف وثمانين عشرة للميلاد
كما حضر بيعة ولده المعز بن باديس الملقب بشرف الدولة فرثا الشاعر على
غرار ابي تمام الأمير الراحل ومدح الأمير الجديد موطداً صلاته بدؤابة البيت
الحاكم ، محب العلم ، ومكرم الشعراء :

لَسَدُنُ الرِّمَاحَ لَمَّا يَسْتَهَيَّ اسْتَهَا من مهجة القليل أو من ثغرة البطل
لو أَثْمَرَتْ من دمِ الاعداءِ سُمْرُ قَنَا لأورقت عنده سُمْرُ القنا الذُّبُلِ
إذا تَوَجَّهَ فِي أَوَّلَى كِتَابِيهِ لم تَفْرِقِ العَيْنُ بين السهل والجبلِ
فالجيشُ يَنْفُضُ حَوَالِيهِ اسْتَهَا نَفْضَ الْعُقَابِ جَنَاحِيهِ مِنَ الْبَلِّ
يَأْتِي الْأُمُورَ عَلَى رَفِيٍّ وَفِي دَعَا عَجَلَانِ كَالْفَلَكَ الدَّوَارِ فِي مَهَلِ

الحقيقة ان اقامة ابن رشيقي في القيروان وهي المدينة الزاخرة بالحياة
اتاحت له ان يتلمذ على النخبة من علماء العصر وادبائه وفي طليعتهم عبد
الكريم النهشلي الذي تأثر ابن رشيقي بأرائه النقدية واثبت كثيراً منها في كتبه ،
كما تتلمذ على أبي عبد الله عبد العزيز الخشني الذي عرّف به في كتابه
النموذج ذاكراً سعة اطلاعه في النحو واللغة مؤكداً : « ان لا غنى لأحد من
الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه اخذاً للعلم واقتباساً
للفائدة » .

الدارس لابن رشيق القيرواني يدرك ان الرجل كان متعدد جوانب الثقافة فهو شاعرٌ وناقِدٌ وفقيهٌ ويبدو له انه اخذ عن جماعة من فقهاء العصر امثال ابي الطيب عبد المنعم بن خلدون ، وابي حفص عمر بن العطار ، وابي اسحق ابراهيم المعافري التونسي صاحب التعليقة على المدونة الذي حضر جنازته يوم وفاته والمعز وابن رشيق بالنظر لأحكام ذات اهمية له في القضاء .

هذا ويحدث غير واحد عن الحصري صاحب زهر الآداب انه اراد في عهد ابن رشيق ان يؤلف كتاباً في طبقات الشعراء يرتب فيه اسماءهم على حسب سنهم وكان ابن رشيق اصغر هؤلاء الشعراء سناً فخاف ان يضع اسمه في آخر الاسماء فهدده بقوله :

رفقاً ابا اسحاق بالعالم حصلت في اضيق من خاتم
لو كان فضلُ سبق منلوحه فضل ابليس على آدم

ولابن رشيق شعر جيد كان موضع اهتمام النقاد والدارسين ويبدو انه قال في الغزل والهجاء والدعابة والملح والمديح الذي كان في المعز ومنه قوله :

دُمْتُ لَعِينِكَ أَعَيْنُ الْغِزْلَانِ قَمراً أَقْرَأُ لِحُسْنِهِ الْقِمْرَانِ
وَتَنْ الْمَلَاخَةِ غَيْرَ ان دِيَانَتِي تَأْبَى عَلَيَّ عِبَادَةُ الْاَوْثَانِ

الى ان يقول :

يابن الأعزّة من أكابرِ حَمِيرٍ وَسَلَالَةِ الْأَمْلَكِ من قحطانِ
من كُلِّ أَتْلَجٍ واضحٍ بلسانِهِ يضعُ السِوْفَ مواضعَ التَّيْجَانِ

اما غزله فهو الى النسيب اقرب منه الى هذا الفن كما حدّده الزجاجي ويغلب عليه الوصف والتأنيق وتنعكسُ فيه صورةُ الحياة المترفة التي كان يعيشها في القيروان في ظل أميره المعز ، وفيه يصور ليلة لقاء :

ومن حسناتِ الدَّهرِ عِنْدِي لَيْلَةٌ من العمر لم تتركْ لِأَيَّامِها ذَنْباً
خَلَوْنَا بها نَفْيَ الْقَذَا عن عُيُونِنا بلؤلؤةٍ مملوءةٍ ذهباً سَكْباً
وملنا لتقبيلِ الثُّغُورِ وَلِثَمِها كميلِ جَنَاحِ الطَّيْرِ يلتقط الحَبّاً

غير ان هذه الليلة على ما يبدو كانت حداً لأيام مشرقة ضاحكة مع الأمير المعز بعد ان وقع بينهما الجفاء عندما دخل على الأمير وكان قد انتقل الى المهديّة والأديب ابنُ رشيق قد انحسر في زمرته المحروبة وتحيز الى فتنه المكتوبة كما يقول ابن بسام في الذخيرة وقد غشي المهديّة في ما بعد اسطول الروم فأصبح البحر ثنايا تطلع المنايا فدخل الشاعر على الأمير وقد وضع الفجر وقام ينشده قصيدته التي مطلعها :

تثبت لا يخامرك اضطرابُ فقد خضعت لعزتكَ الرقاب

فغضب المعز وقال له متى عهدتني لا اثبت ثم امر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة فأحرقت وخرج ابن رشيق يومئذ من حضرة الأمير على غير هدى وكانت وجهته صقلية إلا انه لم يركب البحر اليها وبقي متخفياً بالمهديّة حتى رضي الأمير عنه فجاء اليه وانشده قصيدة مطلعها :

اليك يخاضُ البحرُ فعماً كأنه بأماوجه جيشُ الى البحر زاحف

ومن ليلتها عادت الى ابن رشيق ايامهُ الضاحكة ، ولياليه الجميلة وانطلاقة ثغره الباسمة .

بعد هذه الحادثة توجه ابن رشيق الى صقلية واتصل بأمرها ابن ملكود الذي احسن وفادته وقرب مجلسه وقرأ عليه كتبه وفي بلاطه عاد فاتصل بزميله ومنافسه القديم ابن شرف وبينهما جفوة ، ويعود الأديبان الى المودة والصفاء وقد تناهى كلُّ منهما ما جاء في رسالة ابن رشيق « مساجور الكلب في نقد ابن شرف » غير ان ابن شرف لم يستقر به المقام في صقلية حتى عزم على الارتحال إلى الأندلس وأبى ابن رشيق ان يرافقه .

ويبقى ابن رشيق في صقلية حتى يوافيه الأجل سنة اربعمائة وست وخمسين للهجرة، الف واربع وستين للميلاد ويموت ابن رشيق ينطفيء النبراس الذي حول ظلام الفكر في الشمال الأفريقي ضياءً بهر به عيون النقدة في الأدب والبلاغة ودفع عدداً كبيراً من العلماء إلى دراسة انتاجه الفكري وتعليل معطياته الأدبية .

ترك ابن رشيقي نيفاً وثلاثين مؤلفاً ما بين كتاب ورسالة أهمها « العمدة »
في صناعة الشعر ونقده وهو الكتاب الذي جعله في مصاف اعلام النقد وفيه
يقول ابن خلدون : « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة ولم يكتب فيها
احد قبله ولا بعده مثله » .

وكتاب العمدة يقع في جزئين لا فاصل موضوعي بينهما وإنما يتتابع
الكلام فيهما متسلسلاً من مئة وسبعة ابواب على غير تصميم سابق ولا تقسيم
ضابط على غرار النقد واصول الأدب وقواعد الانشاء كما يقول الدكتور فؤاد
البستاني في دائرة المعارف . والكتاب يتناول اصول الشعر وقواعده وانواعه
نظرياً وعملياً وهو من المؤلفات الاساسية في نظرة ادبائنا الى الفن الشعري
والانشائي .

قد يكون البحث في قضية اللفظ والمعنى من اهم الابحاث التي يتناولها
كتاب العمدة حيث ترك فيه ابن رشيقي آراء صائبة على جانب كبير من الأهمية
النقدية .

ومن الكتب التي تركها ابن رشيقي قراضة الذهب في نقض اشعار العرب
وهو رسالة كثيرة الفائلة بالغة المنفعة في الشعر وتاريخه الى جانب عدد من
مؤلفات اخرى امثال : انموذج الزمان في شعراء القيروان ، الشذوذ في اللغة ،
نسخ الملح وفسخ الملح ، ومر السرور ، شرح موطأ مالك ، والمساويء في
كشف السرقات الشعرية . وغيرها .

سيظل ابن رشيقي حيث هو وحيث كان في نقد الأدب شجراً ونثراً ومن
الشعر والنثر شاعراً واديباً مرموقاً وسيظل كتابه العمدة مرجع الباحثين والنقاد
يرجعون اليه ويعتمدون عليه كلما شاقهم الدرس والبحث في صناعة الشعر
ونقده .



ابن زيدون الشاعر والوزير

٣٩٤هـ/ ١٠٠٣ - ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م

في منتصف رجب سنة اربعمائة وثلاث وستين للهجرة ، الثامن عشر من نيسان سنة الف وسبعين للميلاد ومع الغسق المطبق على اشبيلية ، قاعدة دولة بني عبّاد قضى الطائر الغرد ابو الوليد احمد بن زيدون .

بزغ نجم الشاعر في قرطبة مع انهيار الحكم الأموي ، بعد ان اقتسم قواد البربر في ما بينهم جنوب شبه الجزيرة ، فحكم الصقالبة الشرق ، وصار ما تبقى بعد ذلك من اندلسيا نهياً بين الطائرين المتوثبين على الحكم ، وآخرين من بقايا الأسر العريقة التي جابهت الضربات القوية التي وجهت للارستوقراطية العربية في البلاد .

مع موات الدولة الأموية تكوّن في المدينتين الكبيرتين ، قرطبة قاعدة العلم ، واشبيلية مدينة الفن والغناء حكومتان شورتان كتب لهما في ما بعد ان تتحدا وتلعبا دوراً عظيم الخطورة في حياة الأندلس السياسي والفكري ، كما كتب لهما ان تبكيا معاً التاريخ العربي الضاحك في تلك البقعة من العالم ، يوم قضى امير المرابطين يوسف بن تاشفين على دولة بني عبّاد ، والقى بالمعتمد اسيراً مكبلاً في اغمات .

في هذه الفترة بالذات ومع قيام اول حكومة شوروية في الأندلس ، وقد استولى الوزير ابو الحزم بن جهور على اعنة الحكم اطل الرجل العبقرى ابن

زيدون على مجتمع قرطبة ، بعد ان هياته الثورة ودفعت به إلى موكب القيادة ، وعاش ايام المحنة ، وآلام الشعب ، واشترك في صفوف المؤيدين للوزير ابي الحزم بن جهور .

لم تكن العشرون ربيعاً التي حملها ابن زيدون في اطلالته على الشعب القرطبي لتحول بينه وبين الوزارة التي دعي اليها وتبوأ فيها المركز الرفيع الى جانب الوزير ابن حزم الذي اضحى سيد الدولة الجديدة .

ما كاد الشاعر السياسي يؤدي بعض الواجب في حقل الخدمة العامة حتى استجاب لنداء عميق كان يلح عليه بعد ان وجه اليه ضربات قوية ان يجعل من المنصب الكبير مركزاً لنفوذه .

احب ابن زيدون ولادة ، ابنة الخليفة المستكفي « التي كانت في نساء اهل زمانها واحدة اقرانها ، حضور شاهد وحرارة اوابد ، وحسن منظر ومخير ، وحلاوة مورد ومصدر » كما يقول ابن بسام ، وعاش شاعرنا الوزير في الدولة الفتية نغم شعرها ، ولحاظ اهدابها ، وقد تكسر قلبه الرقيق يوم نادته من اعماق ذاتها .

وفي أجواء مشبعة بالاريج والشذى وبالرغم من الليل الذي كان يلف هذا الحب الجارف ، تتألب قوى الحسد ، والحقد على القلبين الشديدين ، والنغم بعد ما يزال طرياً يتعالى من القيثاراة البرعم ، ويفلح الوشاة مع الرئيس الحاكم فيلقي بصديقه الشاعر في السجن .

ويينما يتوقع الوشاة موأناً للنغم في محبسه يصبلر ابن زيدون عن شعر يجاري فيه شعراء الحكمة في المشرق العربي .

ان قسا الدهر فللما	ء من الصخر انبجاس
ولئن امسيت محبو	ساً فللفيئ احتباس
فتأمل كيف ينشئ	مقلة المعجد النعاس
وفت المسك في التمر	ب فيوطا ويداس
واغتتم صفو الليالي	انما العيش اختلاس

وتسلو ولادة حب الوزير الشاعر ، وكانت قد أحسّت فتوراً في القلب الذي وعى ، يوم ترك غصناً مثمراً بجماله وجنح كما يقول ابن بسام الى غصن لم يثمر ، وقد علق بجارية لها .

وتحول السبل بالرغم من صداقات الوزير مع الرئيس الحاكم وابنه ابي الوليد دون العفو عنه ، فلا يجد الطائر الغرد بدأً من الفرار ، وينطلق ليغني من بعيد مرابع المدينة التي شهدت تألق سعده ، والاماكن التي وعت نشيد حبه ، والانسان الذي كفر بآماله .

ويتيه الشاعر بعد هربه في احواز قرطبة شريداً مؤملاً ان يلقي ولادة ، المرأة التي احب عليها تشفع له عند الوزير ابن عيدون الذي خاصمه على قلبها فهجاء شاعرنا هجاءً مقذعاً ادى به الى غياهب السجن .

ويقف القدر بينه وبين ولادة ، وتتفجر عبقرية الشاعر عن اقوى قصيدة خزية غناها المبدعون من شعراء الأندلس التي قال فيها المستشرق الاسباني اميليوغراسيا كومس : « انها اجمل قصيدة حب نظمها الاندلسيون المسلمون ، وغرة من ابدع غرر الأدب العربي كله عارضها شعراء كثيرون ولا زالوا يعارضونها الى اليوم » . وفيها يقول :

حالت لفقدكم ايامنا ، فغدت سوداً وكانت - بكم - ييضاً ليالينا
ان الزمان - الذي ما زال يضحكننا انساً بقربكم - قد عاد ييكينا
لا تحسبوا نايكم عنا يغيرنا ان طالما غير النأي المحينا

وكأن قرطبة التي سمعت نشيد الشاعر الحزين حنت لطاثرها الغرد فعفى الحاكم عنه ، بينما راح يقرض المدائح في ابي الحزم ابن جهور ، ويستضيء بنور من احب ليل المدينة البهيم .

ويعود شاعرنا الوزير الى خدمة الحاكم ابي الوليد بن جهور الذي خلف اياه في حكومة قرطبة الشورية ، وقد « اوسع راتبه وجلّله كرامة لم تقنعه في ما زعموا » ثم بعثه رسولاً الى ادريس امير مالقة « فاطال الثواء هنالك ، واقترب

من الأمير ، وخف على نفسه ، واحضره مجالس انسه ، فعتب عليه ابو الوليد
وصرفه عن ذلك التصرف قبل قفوله ، ثم عاد الى جميل رأيه فيه وصرفه في
السفارة بينه وبين رؤساء الأندلس .

ذهب ابن زيدون سفيراً الى بلنسية ، ويظليوس ثم استقر به المقام في
اشبيلية حيث اطمأن الى المعتضد صاحب دولة بني عبّاد ، واعتلى في الدولة
منصب الوزارة ، وقد اشاد الشاعر بالاعمال الجليلة التي قام بها المعتضد
ونظم فيه قصيدة من روائع شعره .

قدّر لابن زيدون بعد وفاة المعتضد ان يحتل من دولة ابنه المعتمد نفس
المكانة التي احتلها من دولة والده حتى اصبح من خواصه وصحابته يجالسه في
خلواته ، وكان ذهابه الى ابن عبّاد سنة ٤٤٢هـ (١٠٥٠ م) ، والمعتمد قد
انتقل الى قرطبة بعد ان استولى عليها ، فاصطحب شاعرنا ابن زيدون معه الى
البلد الذي اطل عليه في مطلع شبابه .

ما ضرّ لو انك لي راحم	وعلّتي انت بها عالم
يهنيك يا سؤلي ويا بغيتي	انك مما اشتكي سالم
تضحك في الحب ، وابكي انا	الله - فيما بيننا - حاكم
يا نائماً ابقظني حبّه	هب لي رقاداً ايها النائم

وتضح نفس الشاعر الملهم ، ويضيع بين الجمال المنسكب في ارض
الاندلس الذي آل إليه سلطانه ، ويضيع بين الجمال المتكبر الذي اخذ يصغر
بين يديه فيستجيب للنداء العميق ، وقد رابه تواضع الكبرياء .

تَهْ أَحْتَمِلْ، وَاسْتَظِلْ أَصْبِرْ، وَعَزَّاهِنْ وَوَلَّ أَقْبِلْ، وَقَلْ أَسْمَعْ، وَمُرَّ أَطْعَمْ

وكان تجاوبٌ مع سيدة قرطبة يوم مات ابوها فتزعت عن الحريم في ما
يقول المستشرق الاسباني انخل كونثالت بالنشيا ، وخرجت الى مجامع الادباء
والعلماء في شيء من تحفظ وخفر ، ونادت شاعرها الذي كان قبلة الدولة ،
وذؤابة الشعراء في عصره :

تَرْقُبْ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي فَلِإِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ اكْتَمَ لِلسَّرِّ
وَبِي مِنْكَ مَا لَوْ كَانَ بِالشَّمْسِ لَمْ تَلْحَ وَبِالْبَدْرِ لَمْ يَطْلُعْ وَبِالنَّجْمِ لَمْ يَسِرْ

لم يلبث الشاعر في البلد الذي احب حقبة في خيال يعاوده ، وظلال
تراوده ، واحلام تطالعه ، وانغام تشجيه وتحزنه حتى دفع به المعتمد الى
اشبيلية ليهديء ناراً شبت ، واحداثاً تفاقمت « فيخرج على بقية وعك كان
متألماً منه » وهناك يستقر به وجعه ويتلاشى على ضفاف نهر الوادي الكبير قرب
مرج الفضة الصوت الذي ملأ الأندلس غناء وصلاة ونشيداً ، وقد خنقه
الأجل .

ان ابن زيدون الشاعر ، والوزير ، والعالم ، والأديب كان عطاء خيراً في
ارض عربية خيرة لا زالت تردد مع الزمان بقايا الاصداء الحلوة :

لسنا نسيمك ، اجلاً وتكرمة	فقدرك المعتلى عن ذاك يغنيننا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا	والسعد قد غص من اجفان/واشيننا
سران في خاطر الظلماء يكتننا	حتى يكاد لسان الصبح يغشيننا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها	والكوثر العذب زقوماً وغسلنا
إنّا قرأنا الأمس يوم النوى سوراً	مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا



المعتمد بن عبّاد الشاعر الملك

٤٣٢هـ/١٠٤٠م - ٤٨٨هـ/١٠٩٥م.

لم يكتب التاريخ في الاندلس العربي صفحة زاهية قائمة ، ومشقة حزينة ، فيها كلّ مقومات المجد والسؤدد ، والخلود ، وكلّ مظاهر الحزن والذل والاسى كصفحة بني عبّاد ، زعماء ملوك الطوائف الذين لعبوا دوراً حاسماً في مصير اسبانيا الاسلامية .

اقام بنو عبّاد دولتهم في اشيلية ، المدينة المترامية على ضفاف نهر الوادي الكبير عندما قدّر للقاضي ابي القاسم محمد بن عبّاد ان يتسلم زمام الأمور فيها بعد انهيار الحكم الأموي في قرطبة .

كان المعتمد على الله محمد بن عبّاد الذي وليّ الملك بعد ابيه المعتمد سنة اربعمائة واحدى وستين للهجرة - الف وثمان وستين للميلاد زعيم هذه الدوحة التي التقت عندها كلّ الاماني العربية ، وقدّر لها ان تتحدى القدر والمصير في هسبانيا على حد تسمية القوط ، يوم اطل المجد مع بزوغ نجمها ، ثم بكى يوم خرت الدولة امام جيوش ابن تاشفين .

يؤكد ابن الأبار في كتابه الموسوم بالحلة السراء ان جدّ هذه العائلة دخل الاندلس في طليعة بلج القشيري ، وانه لخمى النسب واصل عائلته في حصص العريش بين مصر والشام ، بينما يمدحهم ابن اللبانة شاعرهم مؤكداً انهم من نسب النعمان بن المنذر بن ماء السماء :

من بني المنذرين وهو انتساب زاد في فخره بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولاد

بدأ المعتمد حياته السياسية عاملاً لأبيه على « ولة » ، وقد عرف بدماثة
اخلاقه ، وحلو حديثه فكان على نقيض والده في بطشه وجبروته غير أنه كان
مولعاً بالشراب ، منغمساً في الملذات ، محباً للراحة ، عاكفاً على البطالة .

بالرغم من هذه الصفات التي يجمع النقاد على انها اصل بلائه وشقائه
فقد قدر له بما أوتي من حنكة ودراية في الأمور السياسية ان يستولي سنة
اربعمائة واربع واربعين للهجرة ، الف واثنين وخمسين للميلاد على مدينة
شلب Silves بعد حصار لم يدم طويلاً .

في المدينة التي غزاها تعرّف الأمير الاندلسي على ابي بكر بن عمار
وكان شاباً جميل الطلعة ، شاعراً وتشاء الظروف ان تتوطد الصداقة بينهما ،
ومن هنا ضمت المدينة ذكريات شبّاب الأمير ومرحه الصاحب فأكثر من ذكرها
في شعره .

لم تلبث الصداقة بين المعتمد وابن عمار ان تقوضت لما كان يخالط
نفس الصديق من خوف ، بينما كان المعتمد الأمير الملك يتغاضى عن هفوات
الشاعر الذي احب :

سأوليك مني ما عهدت من الرضا واصفح عما كان ، ان كان من ذنب
فما اشعر الرحمن قلبي قسوة ولا صار نسيان الأذنة من شعبي

مع هذا الحب الذي كان يعلنه المعتمد لصديقه ابن عمار بعد ان رفعه
الى مرتبة الأمراء ، لجأ الشاعر الصديق الى جليقية لاحقاً بادفونش ابن فرديناند
مستجيراً به على سيد نعمته ، غير ان القدر لم يمهله طويلاً عندما القى به
ضاعراً بين يدي المعتمد الذي سجنه ثم قتله بيده . ويؤكد ذلك عبد الجليل
ابن وهبون صديق ابن عمار وشاعر المعتمد بقوله :

عجياً لمن ابكيه ملء مدامعي واقول لا شئت يمين القاتل

ان الدارس لحياة المعتمد الأمير والشاعر والملك يدرك ان حياة ابن
عمّار كانت تعكس جانباً مهماً من تاريخ الأندلس السياسي والاجتماعي خلال
حكم بني عبّاد في اشبيليا ذلك ان الرواية العربية تجمع على القول : « ان ابن
عمّار اعان المعتمد على ما كان بسبيله من توسيع رقعة الدولة ، وخاصة في
الاستيلاء على مرسية وانتزاعها من يد صاحبها ابن الطاهر ، وقد تم لابن عمّار
الوصول الى ذلك بالاتفاق مع كند برشلونة رمون بيرر نجوير الثاني لما كان من
دهائه وذكائه » .

الحقيقة ان ابن عمّار كان على جانب عظيم من الحنق السياسي
والمرونة ، والخبرة وانه استطاع كما تقول الرواية العربية ان يفك الحصار
الذي ضربه ملك قشتالة ادفونس على دولة بني عبّاد بعد ان ربح عليه بلعبة
شطرنج ، وفرض عليه حكمه .

كلّ هذا الذكاء ، وكلّ هذه الخدمات التي اداها ابن عمّار لم تشفع له
عند المعتمد يوم لجأ إلى عدوه ، فلقد كان الأمر يدعو الأمير الأندلسي الى ان
يحطم ما في قلبه من حب ، وان يقضي بيده عليه ، يوم قتل ابن عمّار الذي كان
محور دولة بني عبّاد في حياة المعتمد على الله .

لقد سحر المعتمد بالأندلس ارضه الخضراء الممتدة الى اللانهاية على
اطراف الانهار التي تشق السهول الفيحاء في شيء من بطء ، وكثير من تؤدة وما
لبث ان تجاوب مع حب عنيد جارف رفعه الى مصاف كبار شعراء الأندلس كما
يقول المستشرق الاسباني اميليو غراسيا كومس ، وانه كان في طليعة الخالدين
من امرائه وملوكه العظام .

احب المعتمد جارية اجازته في عجز من بيت ، ويحكي الرواة ان الأمير
كان مع صديقه ابن عمّار ينتزهان قرب مرج الفضة على شاطئ نهر الوادي
الكبير فاعجب بمنظر الماء المتموج فقال :

صنع الريح على الماء زرد

ثم طلب الى ابن عمّار ان يجيزه فأبطأ وكان على الشاطئ جوار يملأن

جرارهن فردت احداهن :

أيّ درع لقتال لوجمد

فردد المعتمد البيت الذي كان فاتحة حبه :

صنع الريح على الماء زرد أيّ درع لقتال لوجمد

كانت الجارية التي اجازت الأمير اعتماد الرميكية التي تزوجها الأمير في ما بعد واحبها ، والتي كان حديثها على حدّ قول الرواة يفيض عذوبة وطلاوة كما كانت طلعتها مسعدة ، حاضرة الجواب ، بارعة الرد الى جانب رقة طبيعية غالبية ، ومرح لطيف تشوبه سذاجة الطفولة ، غير انها كانت تسرف في دلالتها ونزواتها الى حد يضيق عنه صبر المعتمد .

امام هذه الحقيقة نجد ان الأمير المحب المدعو في تلك الحقبة الفاصلة من تاريخ الاندلس الى المحافظة على الدولة المهددة بالانهيار يسعده ان يتخذ من اسم المرأة التي احب لقباً رسمياً لنفسه في تاريخ دولة بني عبّاد ، فكان المعتمد على الله نسبة الى اعتماد بعد ان عرف بالظافر ، او المؤيد وفي ذلك يقول :

دست اسمك الحلو في طيه والفت منه حروف « اعتماد »

لقد كان الاندلس العربي في عهد ملوك الطوائف محفوفاً بالمخاطر ومهدداً بغزو صاعق من قبل سكان البلاد الاصليين ، وكان المعتمد متخوفاً من ناحية المرابطين ، الدولة الفتية في المغرب الاقصى ، ويشاء القدر وقد اشتد ضغط الاسبان على العرب ان يستنجد المعتمد محمد بن عبّاد بزعيم افريقيا يوسف بن تاشفين فيهب لنجدة عرب الاندلس ويدحر جيوش الاسبان في معركة الزلاقة ، ويجمد الوضع العربي الي حين ، وفي المعركة هذه يقول ابن جهور :

لم تعلم العجم اذ جاءت مصممة يوم العروبة ، أن اليوم للعرب

لم يلبث المعتمد بعد حقبة من الزمن ان يُخلع عن العرش بعد ان فشل

في سياسة الدولة وإدارتها ويودع اشبيليا مدينة طفولته ، ومركز دولته ويساق
مكبلاً الى سجنه في اغمات جنوبي مراكش ، وفي الحبس لم يعد الطير
يصدح بالغناء .

ويظل الشاعر الامير رheimin محبسه وقد ضاع ملكه ، وتشردت عائلته وقسا
الدهر دونما رحمة ، ويستفيق ذات مرة مع العيد ليستعيد ذكريات كانت حلماً
ضاحكاً سرعان ما خبا .

فيما مضى كنت بالاعبياد مسروراً فساءك العيدُ في اغمات مأسورا
بعد اربعة اعوام من سقوط اشبيليا وفي شوال سنة اربعمائة وثمان
وثمانين للهجرة ، يناير الف وخمس وتسعين للميلاد قضى المعتمد على الله
ابو القاسم محمد بن المعتضد عبّاد بن القاضي محمد بن اسماعيل اللخمي
الاندلسي .

لقد اختلف النقاد في تحديد منزلة الملك الجليل ، والعالم الذكي
والشاعر المحسن الذي مثل ذؤابة الأرومة العربية في الاندلس وكان علم ثقافة
فكرية وقومية قدر لها ان تنطوي قبل ان تؤدي دورها الحاسم في مصير شبه
جزيرة ايبيريا .

الحقيقة ان المعتمد لم ينطو تحت ظل المرابطين كما يقول دوزي ، بل
كان انهيار ملكه نتيجة حتمية لشعب افسد الترف طبعه ، ولسوء الوضع
السياسي والاداري في البلاد التي كتبت صفحة خالدة في التاريخ العربي .

ولننشد مع الوزير الوفي لسان الدين بن الخطيب وقد وقف على قبر
المعتمد :

قد زرت قبرك عن طوع باغمات	رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا ازورك يا أندى الملوك يداً	ويا سراج الليالي المدهلمات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علئ	فأنت سلطان احياء واموات

ابن حمديس الصقلي شاعر الدموغ

٩ - ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م -

لم تعد عيناه تُقدِّر الجمال أو تُجسِّه ، بعد أن انطفأ فيهما الضوء ، وسودَّ
الظلام أمامهما كُلَّ شيء ، فاستحالت أرض صقلية الجميلة القشبية ،
وبساتينها الخضراء اليانعة ، وحداثئ اشيلية ومرابعتها ، وجنات المغرب وديناه
حيث قضى الشاعر طفولته وشبابه ورجولته اطيافاً تراوذه ، وتزيّن له الماضي
البعيد ، وقد انتهت به الأيام الى ميورقة احدى جزر البليار .

لقد كَلَّ ابنُ حمديس الحياة في الجزيرة أو كاد ، ولم يُعُدْ يعبأ لصوت
النهر يندفع قوياً أو ضعيفاً ، ولزققة الطير يشدو مغنياً ، ولأريج الزهر ينفوخ
عبيراً فقد أضحى كلفاً بهذه الثمانين يحملها برماً بها ، متعباً منها ، حتى إذا
أحس أنه أخذ يذوي كزهرة ذابلة ، وتنطفئ في الحياة وتلاشى ، أدرك أنه
غريب في الأرض ، ولربما استعاد بيتاً قاله في موطن له غريب .

هو ابنُ بلادي ، كاسترابي اغترابه كلانا عن الأوطان ازعجه الدهرُ

ويموت ابن حمديس في ميورقة ، ويستكين جسداً لا حراك فيه ، ويشاء
القدر أن يجمعه ميتاً بصديقه وزميله الشاعر ابن اللبانة علّه يجد في لقائه عزاءً
وسلوى ، بعد أن جمعه به حياً فعاشا معاً في بلاط المعتمد بن عباد شاعرين
مقربين ، وتلازما في الأمر صديقين مخلصين .

هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس ولد في مدينة سرقوسة الثغر الضاحك على الساحل الشرقي لجزيرة صقلية سنة أربعمائة وسبع وأربعين للهجرة ، ألف وخمسين وخمسين للميلاد من أصل عربي ازدي ، وإن كان الشاعر منذُ حداثة يُفتخرُ بانتسابه الى « بني الثغر » اعتزازاً منه بوطنه ، وافتخاراً ببلده .

نشأ شاعراً ابنُ حمديس في عائلةٍ محافظةٍ جمعت بين التدين ، وبين الثقافة الدينية والحكمية ، ونحن اذ لم نجد في المصادر شيئاً عن اساتذته الاوائل فمن المؤكد أن الشاعر اتم ثقافته الأولى ، وسرع في الأدب ، وقال الشعر قبل أن يغادر بلده سرقوسة الى الأندلس .

لعل هجرة الشاعر المبكرة من موطنه الأول بعد أن سقطت الجزيرة في يد النورمانيين جرحت نفسه في عمق ، وصقلت طبعه وهذبت شعره ، فأصبح شاعر المعاني البديعة ، والخيال الخصب ، والنفس الحزينة المتألمة المعذبة ، التي كانت تجرُّ أبداً الى الوطن الذي غادر ، والى الأهل الذي بكى ، والى البيت الذي ابتنى في تونس .

ذكرت صقلية ، والأسى يُجدد للنفس تذكرها
فإن كنتُ أُخرجت من جنة فإني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا حَسِبْتُ دموعي أنهارها

ولا يفتأ ابنُ حمديس بالرغم من الجاه العريض ، والمكانة المرموقة والتوفيق الذي حاله في بلاط المعتمد بن عباد في اشبيلية ، يَجُنُّ الى صقلية ويسترجع ذكرياتها ، وينشد ربوعها الضاحكة ، وملاعب ظفولته الحالمة ، ويكيي أبداً الوطن الذي ضاع ، وكأنه يبكي كُلَّ شيءٍ من حوله :

ولله أرضٌ إن عديتم هواءها فأهاؤكم في الأرضِ متثورة النظم
وعزكم يُفضي الى الدلِّ والنوى من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي
فإن بلادَ الناسِ ليست ببلادكم ولا جارها والجلم كالجار والخلم

أَعَنْ أَرْضَكُمْ يُغْنِيَكُمْ أَرْضُ غَيْرِكُمْ وَكَمْ خَالَةٍ جَدَاءَ لَمْ تُغْنِ عَنْ أُمٍّ
تَقْبِذُ مِنَ الْقِطْرِ الْعَزِيزِ بِمَوْطِنٍ وَمَتَّعَتْ عِنْدَ رُبْعٍ مِنْ رِبْعِكَ أَوْ رَسَمَ
وَأَيَّاكَ يَوْمًا أَنْ تَجْرَبَ غَرِيبَةً فَلَنْ يَسْتَجِزَ الْعَقْلُ تَجْرِبَةَ السَّمِ

فاذا تغنى ابنُ حمديس بالوطنِ شاقَّةَ الحبِّ إلى أهله ، وتراءى له والده
فاستعادَ صورته يومَ الوداع ، وهو يشدُّ من عَزْمِهِ - وَيَمَحِضُهُ النُّصْحُ ، وَيُرْشِدُهُ
سِوَاءَ السَّبِيلِ ، وَكَيْفَ بِالشَّاعِرِ أَنْ يَلْقَى أَبَاهُ بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَقَدْ جَاءَهُ نَعِيهِ ، فَلَيْسَ
لَهُ إِلَّا الدَّمُوعُ سَبِيلًا إِلَى مَاضِيهِ عَلَّهَا تَشُدُّهُ إِلَيْهِ مِنْ جَدِيدٍ ، وَتَدْفَعُهُ أَنْ يَلَامِسَ
قَلْبَهُ الْمَحِبِّ مِنْ قَرِيبٍ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى رَجَاءً وَذَكَرَى .

وَمَا أُنْسَ لَا أُنْسَ يَوْمَ الْفِرَاقِ وَأَسْرَارُ أَعْيُنِنَا فَاشِيَةً
وَمَرَّتْ لَتَوْدِيعِنَا سَاعَةً بِلَوْلُؤِ أَذْمُعِنَا خَالِيَةً
وَرَحَتْ إِلَى غُرْبَةٍ مُرَّةٍ وَرَاحَ إِلَى غُرْبَةٍ سَاجِيَةٍ
وَقَدْ أَوْذَعَنِي آرَاؤُهُ نَجُومًا طَوَالِهَا هَادِيَةً
وَأَنِي لَنُوحَزَنٍ بَعْدَهُ شُؤْنُ الدَّمْعِ لَهُ دَامِيَةً
وَمَا خَمَدَتْ لَوْعَةٌ تَلْتَظِي وَلَا جَمَدَتْ عُبْرَةٌ جَارِيَةً

ولربما برح الشوق مرة بالشاعر ، وقد الح عليه الأهل في زيارتهم ،
ويلبي الشاعر النداءَ البعيدَ ، وَيَنْزِلُ عِنْدَ رَغْبَةِ الْأَهْلِ وَرَجَائِهِمْ وَيَشُدُّ مِنْ عَزِيمَتِهِ
إِيمَانَهُ بِاللَّهِ وَحُبَّهُ لَهُمْ ، وَيَرْكَبُ ابْنُ حَمْدِيسِ الْبَحْرَ بَعْدَ أَنْ تَمَرَّدَ عَلَيْهِ فِي
عَنْفَوَانِ شِبَابِهِ ، وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ وَقَدْ تَفَرَّقَ الْأَهْلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ
ضَاعَتْ بِلَادُهُمْ وَمُلَكَتْ عَلَيْهِمُ الْأَوْطَانُ ، أَثْلَى صَقْلِيَّةً ، أَمْ صَفَافِسَ ، أَوْ إِلَى
بِجَايَةِ ؟ .

لست أدري ، ولكن الذي أدريه أن الشاعر يؤكدُ أن المركبَ الذي أقلَّه
لم يَقْوَأْ أَنْ يَقِفَ فِي وَجْهِ الْعَاصِفَةِ فَتَلَاشَى ، وَغَرَقَتْ جَارِيَتُهُ جَوْهَرَةً ، وَلَوْلَا
الْأَجَلَ لَكَانَ ابْنُ حَمْدِيسَ مِنَ الْمَوْتَى ... ؟ .

وَسَابِحٍ لَاعِبٍ فِي بَحْرِهِ مَرَحًا تُشِيرُ كَفَّاهُ تَعْوِيزًا مِنَ الْغَرَقِ

يدعو ولم يكْ مضطراً : خذوا بيدي وعنده الفرق بين الأمن والفرق
فان بكيت فاني قد ذكّرتُ به من جرّعت منه كأس الموت بالشرق
رَدّت على البحر من كفيّ جوهرة ثم انقلبتُ بقلبٍ دائم الحرق
ولا يلبث الشاعر أن يرزأ بزوجه أم ولديه أبي بكر وعمر ، وهو الشاعر
الذي تذوّب نفسه حشرات ، فيكي الوفاء والإخلاص ، ويستعيد الماضي
الجميل ، ويتأمل المصائب الجلل ، والرّزء القادح فيذرّف الدمع على الزوج
بلسانٍ ولده عمر ليأتي تفجعه أقوى في النفس ، وابعث على الحزن .

بدر الموت كلّ طائر جَوّ في مَفازٍ وكلّ سابع بِسَم
لو بكي ناظري بِصُوبِ دِمَاءٍ ما ولى في الأسى بِحُشْرَةِ أُمي
كنتُ أخشى عليك ما أنت فيه لو تخيلت في مصايك همي
دوحة المجد بالفخار جناها يافعُ فهي في البلى تحت رَدَم
فسقى التربة التي هي فيها عارض منه رحمة الله تهمي
ولذا بكى ابن حمديس زوجه ، وقد خبا بعدها ضوءه كشاعر فلزم بيته
في الغربة حزينا ، وانقطع عن الدنيا وحتى عن كريمته البعيدة عنه ، وكان قد
أزجف أنه مات ، ويبلغ الخبر ابنته فأقامت عليه ماتماً وبكته بحزن عميق ،
ولكن تشاء الأقدار أن تموت هي لتجرح قلبه بعمق وتقضي على بقية الرّجاء في
النفس الملهمة الشاعرة .

أزاني غريباً قد بكيت غريبة كلانا مشوق للمواطن والأهل
بكثني وظننت أنني ميت قبلهما فعشت ، وماتت وهي محزونة قبلي
ويكي ابن حمديس الشباب ، واللهو ، والحياة بعد أن بكى الوطن ،
والوالد ، والزوج والولد وتعتل قيسارته ويموت لحنه الحزين المقجع قبل
موته ، بعد أن ضاعت شاعريته ، فراح يعتمد الأساليب الصناعية ، والحنين
الى صقلية مورد الشاعرية الخصبة في الأسس القريب .

ضحكتُ ابنَ عشرين من صبوة بكيتُ ابنَ ستين اوزارها
فلا تعظمنُ لديك الذنوب فما زال ربيك غفّارها

ابن قزمان ومدرسته الزجلية

١١٦٠هـ/١٠٦٨م - ١١٦٠هـ/١٠٦٨م

عرف الاندلس الاسلامي ، الارض الطيبة المترامية في جنوب شبه جزيرة ايبيريا ، سهولاً فيحاء تعبق بالشذى والاريج ، وتضجع بالسنايل الذهبية ، وتفتق أنهاراً تشق اعماق الحقول ، وتتهادى هضبات متكئات في رجاء ودعة على اقدام الجبال الشامخة المتعالية ، او الى اطراف الاودية السحيقة التي تجرح احشاء الأرض .

قلت عرف الاندلس الاسلامي نوعاً من الشعر كان جديداً بالنسبة للادب العربي عامة ولمظهر القصيدة الكلاسيكية التي نشأت في الجزيرة واتاح لها الاسلام ان تصبح ابرز مظهر لادب الامة الحاكمة ، وتقوى على مجابهة خصومة الشعراء المولدين في العصر العباسي .

بالرغم من هذه الحقيقة فالقصيدة العربية لم تقو امام عطاء الاندلس الفكري وواقع اهل البلاد الذين كانوا يستعملون العربية الفصحى كلغة رسمية ولهجة من اللاتينية المعجمة في شؤونهم اليومية واحاديثهم ان تجابه هذه الخصومة الجديدة ، فلانت وخضعت لطراز شعري مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية سرعان ما شاع في اواسط العامة واتخذ من الادب الشعبي صورتين هما « الزجل » و « الموشح » .

الواقع ان الزجل والموشح فن شعري واحد ، يطلق الأول على الشعر

السوقي الدارج بيد ان الموشح لا يكون الا في العربية الفصحى . ويرى المستشرق الاسباني انخل كونثال بالثيا انه يصح ان نطلق لفظة الموشح على المذهب من الزجل الذي تستعمل فيه الفصحى ، او ينظم في اسلوب ارفع من اسلوب الازجال .

الدارس لجوهر هذا الطراز الشعري الجديد يجد ان الزجل يصاغ في فقرات تسمى ابياتاً وان المقطوعة الزجلية تبدأ بيت يعرف بالسمط او بالمركز، ثم تليه اغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد ، والغصن عادة يتكون من ثلاثة اشطار او اكثر ، ثم يعقب كل ذلك بيت في نفس وزن المركز وقافيته وهكذا الى ان تتم القصيدة جميعاً .

هذا ، ويرى المستشرق منذ بدال ان الطابع العربي الرومسي للزجل دليل على امتزاج الثقافتين وان الزجل في اصل نشأته عربي بلغته، وان كانت هذه اللغة سوقية وحشية كثيرة الاخطاء ، وهو عربي بالتزامه قافية واحدة تراعى في ابيات الزجل الواحد كلها ، وعربي ايضاً بالنسبة الى موضوعية العامين وهما الغزل والمديح .

مع عروبة هذه الأصول في الازجال نستطيع ان نؤكد بأن الزجل ليس عربياً في نظمه على طريقة الفقرات التي هي ولا شك طريقة غربية تخالف القصيدة العربية الكلاسيكية من حيث الوزن الواحد والقافية الواحدة فضلاً عن ان الزجل لا يبدو عربياً في استعماله « الخرجة » وهي لفظة على وزن واحد وقافية واحدة عند نهاية كل فقرة .

هذا ، واذا التزم الزجل موضوعين من موضوعات الشعر العربي فليس معنى هذا انه عربي بالنسبة الى الموضوعات المختلفة التي حفل بها الادب العربي . وفي ضوء هذه الحقيقة يرى منلحد بدال ان الزجل اسباني الموطن لانه يتحدث عن اعياد ومواسم لا توجد الا في التقويم اللاتيني ، وبالتالي فهو يستعمل الفاظاً وعبارات من اعجمية الاندلس مختلطة بلغته العربية الدارجة ، والزجل عامة حافل بصور الحياة اليومية المختلفة لمسلمي الاندلس ، وهو

صورة لعادات المستعربين وتقاليدهم ..

من الثابت ان هذا الطراز الجديد من الاتجاه الشعبي في الشعر لم يحفل باهتمام الدارسين والمؤرخين وهم المتعصبون للفصحى وآدابها غير ان المستشرق خوليان ريبيرا وفق بفضل ابحاثه الى العثور على ثروة غنية من الازجال، هي صورة للمستوى الحياتي في الاندلس الاسلامي قبل افول نجمه .

لقد اضحى من المؤكد ان سعيد بن عبد ربه وهو ابن عم صاحب « العقد » كان في طليعة ناظمي الزجل بالاندلس وان نفرا من بعده بذلوا جهداً عظيماً في تجويله وترقيته حتى قدّر لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان ان يرفع سماكه ويقيم بنيانه ، ويضيء مناره .

لم يكن ابن قزمان شاعراً زجلياً وحسب وإنما كان ناقداً فنياً لهذا الاتجاه الجديد في الأدب الشعبي فلقد اكد في مقدمة ديوانه انه وجد في الاندلس ضربان من الزجل « ضرب شعبي خالص جاف سمح يستعمل الزجالون، فيه اللغة الدارجة وعجمية اهل الاندلس ، وكان يجد تجاوزاً من العامة واقبالاً ، وضرب مصقول مهذب فيه صناعة وزخرفة وتكلف يستعمل الناس فيه حركات الاعراب التي تجري على السنتهم عفواً ، وان الضرب الأول لم يبق له من اثر لان مصنفي الكتب ابتذلوه وضربوا عنه صفحاً ، بينا من الثاني اطراف تخلوا من الجاذبية وسهولة الطبع التي امتاز بها النوع الأول » .

الحقيقة ان ابن قزمان لم يصل الى هذه الناحية النقدية في دراسة ازجال الاندلس الا بعد ان درس من سبقه من شعراء هذا الاتجاه ثم شق لنفسه طريقاً وسطاً بين ضربيّ الأزجال وعرف كيف يحتفظ باحسن خصائصهما « فرأى انه من فساد الذوق والتكلف ان تستعمل حركات الاعراب في شعريّتهما » فرأى انه ومن ثمة فلا مفر من استعمال لغة الكلام الدارجة حتى يقرب من افهام الناس على ان يكون ذلك في اسلوب متخير رشيق ، فضلاً عما يراه من ضرورة تخير الموضوعات المحافلة بالفكاهة والحيوية مما يستأثر بعواطف الناس واهتمامهم .

على الرغم من ان ديوان شاعرنا ضم مائة وتسع واربعين مقطوعة زجلية تنهج على الموضوعية والقالب الفني الذي اشرنا اليه ، وعلى اساس مقرر موضوع او مصقول فالطابع الشعبي الذي تميزت به هذه الأزجال وزجل الاندلس عامة يدل على انها انما نظمت ليتغنى بها المنشدون في الاسواق، او الجائلون المتسولون في المرباع والحانات .

هذه الاسس الفنية التي اقامها ابن قزمان لهذا الطراز الجديد من الشعر اضحى لها في الاندلس الاسلامي اتباع ومريدون انصرفوا الى صناعة الزجل حتى عرفوا بهذا الطابع وكأنهم تلامذة خالص في مدرسة ابن قزمان التي قدّر لبعض اعلامها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ان يتوجهوا الى المشرق العربي وان يحملوا معهم هذه الصناعة الجديدة المبتكرة التي غزت القصيدة العربية الجاهلية في عقر موطنها وكادت ان تسيطر الى حين على موسيقى وإيقاع شعر الصحراء .

ويكتب للاندلس ، الدنيا الضاحكة ، الغارقة في الضياء الضائعة في الجنة الوارفة ان تطل على المشرق العربي وان تسبقه الى الزجل والموشح ، انشودتين عذبتين في الحب والطبيعة والجمال ، وكان المشرق قبل يمد الاندلس بالعطاء الكفري .

ان ادباً يعيش في جنبات الأرض فكراً ولحناً وموشحاً وغناءً لهو صلاة قدسية ترفعها الأرض العربية للسماء شكراً .



القاضي عياض

وازهار الرياض

١٠٨٣هـ - ١٤٧٦هـ

لم يدافع المستشرقون الاسبان عن حِقبة من تاريخ العرب في بلادهم دَفَاعَهُمْ عن العهد المرابطي أمام الحملة المركزة المشعورة التي شنّها على المرابطين وحُكْمِهِمْ في الأندلس المستشرق رَافِئِهَارْت دوزي شيخُ المستشرقين الهولنديين وأستاذُ العربية وآدابها في جامعة ليدن خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

يؤكد المستشرق الاسباني انخل كوثالت بالتشبا في كتابه «تاريخ الأدب العربي - الاسباني» أن مبالغتِ دوزي ومواقفه العنيفة من تاريخ الفكر الأندلسي خلال هذه الفترة دفعت بأستاذ المستعربين الاسبان، فرنسيسكو كوديرا الى أن يردّ عليه ويستخرج بدقته المعهودة العدد الضخم من العلماء، واعلام الأدب الذين برزت أسماؤهم خلال العهد المرابطي مؤكداً من وراء ذلك خطأ وصفِ دوزي لهذه الحِقبة بفترة الركود الفكري في الأندلس العربي .

إلى جانب المستشرق قوديرا يقف تلميذه خليان ريبيرا فيحاول أن يؤرخ لعلماء العصر المرابطي، فيسمي أبا الفتح ابن خاقان، وأبا الحسن بن بسام كأبرز مَنْ ظهَر من علماء النقد الأدبي، في ما يذكر ابن قُزَّمان معتبراً ديوانه مظهراً للشعر الشعبي الدارج وصورةً لانتاج جميع الزُجَّالين الأندلسيين الذين لا يحصيهم العدد .

أما في ميدان التاريخ ، وتواريخ النواحي فيؤكد ربييرا على اسمي ابن بشكوال والضبي ، وفي حقل كتاب التراجم فيذكر ابن خير ، وفي الجغرافية وقد اتسعت الدراسات فيها وكثرت المؤلفات في موضوعها فيبرز اسمي ابن حامد القرناطي والأدرسي ، وفي مجال الفلسفة فيذكر ابن باجة وفي الرياضيات ابن مسعود وابن سهل الضرير ، وجبر بن أفلح الاشيلي ، وفي الطب نراه يختار أبا الصلت الداني ، وابن باجة ومعارنه سفيان الأندلسي كما يؤكد على أن نجم أبي مروان ، وأبي العلا ابني زهر بدأ يبرز ويتلقى فيه .

هذا ولا يتوانى خوان ربييرا أن يسمي في علم الفقه كابرز رجاله ، وأئبه فقهايه ، وأكثر أعلامه القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي قاضي الأئمة ، وعلم الأعلام ، وعمدة أرباب المحابر والأقلام الشهير الصيت في كل قطر ، والذي قال فيه المقرئ في كتابه «أزهار الرياض في أخبار عياض» الذي صنعه فيه :

فهو الامام الذي سارت مآثره في الشرق والغرب سير الشمس والقمر .
وكم له من تأليف قد اشتهرت بكل قطر فسل تنبيك عن خبر

قلت أن المستشرق خوان ربييرا لم يتوان عن ذكر اسم القاضي عياض ابن موسى اليحصبي السبتي في عداد عظماء رجالات الأندلس الذين أطلعهم العهد المرابطي تأكيداً على ازدهار النتاج الفكري في كل ميادينها في مجتمع كان مدركاً لنفسه ، فخوراً بثقافته الأدبية المهذبة ، رغم تفرق أمره وضباع وحدته .

ولد عياض في مدينة سبتة ، الثغر الرابض على ساحل المغرب الأقصى قرب برزخ جبل طارق وذلك في شهر شعبان سنة أربعمائة وست وسبعين للهجرة ، كانون الثاني ألف وثلاث وثمانين للميلاد وكانه في مولده في سبتة ، وفي بيت عريق من بسطة ، المدينة الأندلسية المتطلعة على وادي آش قرب غرناطة أحب أن يوفق بين كلام الأديب أبي الحسن البسطي : «لو طبع على الزهد لحملني حسن بلادي على المجون والتعشيق والراحات» . وبين تاريخ

سبته ومجدها التاريخي من عهد الفينيقيين الى عهد طارق بن زياد فاختار عالمنا الزهد وعظمة التاريخ .

كان القاضي عياض اليحصبي حافظاً عَصْرِهِ في علوم الدين وقاضي المغرب الأجل، ومرجعته الأكبر صاحب كتب : «الشفاء، ومشارق الأنوار، والالمام في أصول علم الحديث ومبادئه، وترتيب المدارك لمعرفة أصحاب مالك» الكتاب الذي جمع فيه أخباراً عن الكثيرين من فقهاء المغرب والأندلس وعلمائهما .

يقول شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني خاتمة أدباء المغرب إن الذي حدا به إلى وضع كتابه «أزهار الرياض في أخبار عياض» رغبة أهالي بلّده تليّسان في التعريف بالقاضي عياض عالم المغرب الأوسط وقاضيه الأشهر .

يعتبر كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض كصنوه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب في أخبار لسان الدين بن الخطيب» لأن كلا من الكتابين قد تضمن ترجمةً وافيةً شاملةً مانعةً لَعَلَّم فَدُّ من أعلام رجالات المغرب والأندلس حيث وفق المقرئ في كتابيه كليهما إلى أن يجعل كلا من صاحبي الترجمة مركزاً لدائرة معارف تاريخية وأدبية تحوي أخبار عصره ومصره ، الى جانب أخبار الأجيال التي تعاقبت في الأندلس والمغرب الى زمانه هو . ومن هنا كان الكتابان جديرين بأن يُعدّا من أعظم الأركان التي يقوم عليها تاريخ تلك البلاد إن لم يكونا المرجعين الأساسيين لدراسة الأندلس والمغرب العربيين .

ألف المقرئ كتابه في مدينة فاس بعد أن نزح عن وطنه لأسباب سياسية وذلك خلال سنتي ألف وثلاث عشرة، وألف وسبع وعشرين ١٠١٣ - ١٠٢٧ للهجرة - ألف وستمائة وأربع ، ألف وستمائة وسبع عشرة ١٦٠٤ - ١٦١٧ للميلاد متأثراً وتأثراً واضحاً بمنهج لسان الدين بن الخطيب في كتابه : «الاحاطة بتاريخ غرناطة» . خاصة من حيث العناصر الرئيسة التي تتألف منها الترجمة ومن حيث الأسلوب الانشائي أيضاً وإن كان لسان الدين في كتابه أبعد

عن الاستطرد الذي فشا في أزهار الرياض وفي جميع تواليف المقرّي .

يمتاز أزهار الرياض فوق اشتماله على ترجمة القاضي عياض بطائفة كبيرة من الأخبار والنصوص المغربيّة والأندلسية التي لم تردّ في نفح الطيب ولا في غيره من الكتب المطبوعة حتى الآن وقد بادت أصولها أولاً زالت سرّاً مَطْوياً في خزائن الكتب، لذلك يعتبر كتاب أزهار الرياض من أجل الكتب التي يُرَكَّنُ إليها بالنسبة الى هذه النصوص النادرة .

قسم المقرّي كتابه في دراسة القاضي عياض الى ثمانى روضات تتفق مع تسميته للكتاب، خصّ الأولى منها، وهي روضة الورد في أولية هذا العالم الفرد، في ماذكر في روضة الأفحوان الثانية حال القاضي في المنشأ والمنشأ، أما روضة البهار فذكر فيها جملة من شيوخه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار .

في ضوء هذه الخطة الواضحة للترجمة رتب المقرّي عناصر البحث ترتيباً حسناً ثم راح يتغلغل ويتعمق ويتبع أخبار القاضي الأعظم فعرض في روضات المنشور، والنسرين، والأس، والشقيق، والتيلوفر عن بعض ما للقاضي من منظوم ومنثور، وعن تصانيفه التي لا يعادلها نظير ولا قرين، وبالتالي عن وفاته وما قبله من الدهر الذي ليس لجرحه من آس، ثم يختم في ثناء الناس عليه، وذكر بعض مناقبه التي هي أعطر من المسك وأطيب .

الدارس لكتاب أزهار الرياض في أخبار عياض يدرك مدى اعتزاز وأعجاب المقرّي بشخصية القاضي ومكانته ليس في نفسه وحسب، وإنما في نفوس كل الذين عرفوا فضله ووقفوا على مآثره وتوابعه، فضلاً عن اعتزاز المؤلف بكتابه الذي خصه بترجمة عياض حيث يقول :

« دونك أيها الناظر روضات أزهار، وجنات تجري من تحتها الأنهار؟
أبوأبها ثمانية، وقطوفها دانية تَعَطَّر منها نسيم الصبا بزهر الآداب، وسما إلى محاسنها من تعلق من التاريخ بأهداب؛ لم أسبق الى مثلها في ما رأيت، وإن

بَعُدْتُ فِيهَا عَنِ الْمَطْرُوقِ وَتَأَيُّتُ، وَالْإِنْسَانُ مُغْرَمٌ بَيْنَيَاتِ أَفْكَارِهِ، وَإِنْ قُوبِلَ مَا
صَدَرَ مِنْهُ بِإِنْكَارِهِ؛ وَقَدْ أَنْشَدْتَ بِلِسَانِ حَالِهَا:

سَرَّحَ جُفُونَكَ فِي الْحَدَا	ثِقَ وَاجِنِ أَزْهَارَ الرِّيَاضِ
مَنْ وَرِدَ أَحْمَرَ أَوْ شَقَا	ثِقَ أَوْ بَهَارِ ذِي بَيَاضِ
وَأَشْرَبَ بِكَاسَاتِ الرِّقَا	ثِقَ مِنْ عَيُونِ أَوْ حَيَاضِ
وَانْظُرْ مَنَاقِبَ ذِي الْحَقَا	ثِقَ عَالِمَ السَّنِيَا عِيَاضِ

الفتح بن خاقان أديب الأندلس

١٠٨٧هـ / ١٠٨٧م ؟

وتعالى صوت لم يلبث أن مات على ذاته في ما كان نداء المؤذن يرتفع
قوياً رخيماً في منارة جامع الكتبية ليبلغ اسماع المؤمنين في أرجاء مراكش
التي أخذت تستيقظ مستجيبة للنداء مع خيوط نحيلة من الفجر تطل من وراء
جبال الأطلس ليعم عاصمة المرابطين، وقاعدة حكمهم، ومركز سلطانهم.

مع الضوء الذي أخذ يشتد ويقوى كلما راحب الشمس تتخطى قمم الأطلس
بدا لتزلاء فندق الحاضرة في المدينة دفق من دم يصبغ أدرج الفندق وصحته
بلون الأرجوان، عندئذ لم يشكوا البتة في أن جماعة السلطان يوسف بن
تاشفين قد تمكنوا من أبي نصر الفتح بن خاقان، الأديب الأندلسي لما عرفوا
من أموره ومواقفه من رجالات المغرب والأندلس.

هذا وفي ما كان الناس يستجلون حقيقة موت الشاعر الكاتب المؤرخ القي
على أسباب مصرعه وخلافه مع سيد المرابطين، ومؤسس دولتهم غطاء ولكنه
كان كفيفاً بحيث لم تتسرب منه حتى ولا كلمات مبهمة عن جوهر العداوة بين
الحاكم المستبد بأمر الدولة بتشجيع من زوجته زينب بنت اسحق، وبين
الكاتب الفاسد الأخلاق، البذيء اللسان في هجاء الناس، والنيل منهم.

مات أبو نصر الفتح بن عبيد الله بن خاقان القيسي الاشيلي عن ثلاث
وخمسين سنة نبواً فيها عرش النقد الأدبي في عصر من أشد العصور الأدبية في

الأندلس غموضاً وتكهناً وتضارباً بين المستشرقين على تباعد ميولهم، واختلاف أهوائهم.

يؤكد المستشرق الإسباني انخل كونثالت بالتيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي دعماً لرأي أستاذه خوليان ريبيرا بأن شعراء العصر المرابطي في الأندلس وإن لم يتفوقوا على غيرهم غير أن فنوناً أدبية كبرى وصلت إلى أرفع درجات التطور خلاله حتى قُدِّرَ للفتح بن خاقان وابن بسام مَنَ نبغاً في النقد أن يدرسا شعر عصرهما وشعر القرن الذي سبقه.

أمام هذا الواقع الذي يقرُّه أكبر مستشرقين في إسبانيا يرى دوزي «أن أشد ما يصدُّمنا في العصر المرابطي الشعر وما يسوِّفه من روح الاستسلام الديني مع ما كان عليه الشعر الأندلسي من القوة والحيوية قبل ذلك حين كان دنيوياً خالصاً، يوم كان الشاعر فخوراً بموهبة يستثير حرارة الخصال التي كان العرب يرون فيها نبلاً وجمالاً».

في هذا العصر بالذات حيث تضاربت الآراء واختلفت حول العصر ومزنته الأدبية برز الفتح بن خاقان سيِّداً من سادة الشعر حيث أوجدته ظروفٌ سائدة يومئذٍ، ومن هنا كان كاتباً يميل مع الهوى، تارة يلتزم طابع الجِدِّ، والاتزان، وتارة أخرى يطلق لميوله العنان رغبة في عطية أو منال.

ولّد أبو نصر الفتح بن خاقان في ما يؤكد ابن خلكان في كتابه وفیات الأعيان حوالي سنة أربع مائة وثمانين للهجرة، ألف وسبع وثمانين للميلاد، وأصله من صحرة الولد على مقرية من قلعة يحصَّب من أعمال غرناطة أخير معقل عربي في الأندلس.

خرج الفتح إلى الحياة فقيراً مُعْدِماً لا يملك من حُطايها شيئاً فكانت حياته اضطراباً متصلاً، وجوعاً وتشرداً، وكان مع ذلك مُقبلاً على الخمر مُسرفاً في ملذاته وقد طاف بنواحي الأندلس متردداً على من يتعاطون الراح من أولي الأمر يسألهم العطاء.

في ضوء سيرة ابن خاقان ومسلكه الشخصي في حياته وما قُدِّرَ لَهُ أَنْ يُبْلَغَ في الأدب الأندلسي ويجدّد قال ابن دحية في كتابه «المطرب في أشعار أهل المغرب» أنه كان خليع العذار في دنياه لكنّ كلامه في تأليفه كالسحر الحلال ، والماء الزلال . الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن الأديب الأندلسي كان مُسَجِّع الأسلوب رفيعة وإن الدارس لنمادج من أدبه يدرك سعة علمه وإطلاعه ووفرة مفرداته ، ومقدرته اللغوية الفائقة على قُوّة السبك ورصف العبارة بانسجام ودقّة دون تكلّف أو صنّاعة .

مِنْ هُنَا كَانَ الْفَتْحُ بن خاقان في أسلوبه وشيئة أسره لا يخرج عن المحيط العام للكتّاب العرب منذ عهد المقامات التي كانت مظهرًا للترف اللغوي والأدبي في حِقْبَةٍ سادَها الرخاء المادي ، وترف الحَضارة ، ومباهج المدينة المستوردة .

أمامَ هذا الواقع فالنقاد الغربيون لا يعدلون بأدب ابن خاقان في عصره أدب غيرهِ ، حتى أنهم مع تقديرهم لأسلوب ابن الخطيب واعترافهم بأنه أسلوب مرصّع فخم فهو في نظريهم لا يصل في هذا الباب إلى شأو أسلوب ابن خاقان .

شُهِرَ الْفَتْحُ بكتابين في التراجم والمنتخبات الأدبية : « قلائد العقيان في محاسن الاعيان » وجمع فيه من شعراء المغرب طائفة كثيرة وتكلم على ترجمة كل واحد منهم مع شيء من مُتَخَبِ شِعْرِهِ ، وكان قد ألفه للأمير أبي اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين أخي أبي الحسن الذي أمر بذهبه ، وطُبِعَ الْقَلَائِدُ سنة ١٨٦٠ في مرسيليا ومن ثمة في بولاق سنة الف ومائتين وثلاث وثمانين للهجرة .

أما الكتاب الثاني : « مطمح الأنفس ، ومسرح التأنس في ملجأ أهل الأندلس » . وهو على غرار وطريقة كتاب القلائد وتكملة له قال فيه ابن خلكان هو ثلاث نسخ كبرى ، وصغرى ، ووسطى فضلاً عن أنه كثير الفائدة .

لَمَّا عَزَمَ الْفَتْحُ على تصنيف كتاب «قلائد العقيان» جعل يُرْسِلُ الى كل واحد يعرفه من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر

والبلاغة عزمه ويسأله أنفاذ شيء من نظمهم ونثره ليدكره في كتابه، وكانوا يعرفون شره وتلبه، فكانوا يخافونه ويُفقدون اليه ذلك وصُرر الذنانير، فكل من أرضته صِلته أحسن في كتابه وصفه وصِفته، وكل من تغافل عن يرّه هجاه وتلبه.

لقد بلغ ابن خاقان في كتابيه الغاية والنهاية في التبويب، وحسن العرض، وروعة الأسلوب مؤكداً قُدْرته على صياغة الكلام حتى أنه عندما تعرّض لابن باجة في القلائد نال منه بلسانه الحادّ كل منال ثم ألم بذكره في المطمح، بعد أن وصله ابن باجة وأكرمه بعباراتٍ مديح جوفاء تطوي في ثنائياها من الهجو اللاذع ما يربو على الهجاء الذي قاله فيه قبلاً.

كان هدف ابن خاقان من تواليفه إيراد ما قاله من يلم بسيرهم من النثر الرصين، والشعر البديع دون أن يقصد إلى إيراد سير حياتهم بالذات، ولهذا فتراجمه ناقصة لأنه لا يذكر من تواريخ الناس إلا ما يتصل بما يورد من نظيمهم ونثرهم، وقد خلط في بعض ما أورده من الحوادث، وتبعه في الخطأ نفر ممن أخذ عنه ممن أتى بعده.

إن كانت القيمة التاريخية لكتابي ابن خاقان قليلة كما يرى بعض المستشرقين فالواقع أن قيمتها الأدبية عظيمة للغاية لأن هذين الكتابين إلى جانب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام في ما يؤكد بالثبوت أحسن ما ألفه الأندلسيون من النثر المسجوع.

أنه بالرغم من منزلة الفتح ابن خاقان الأدبية التي تميز بها بين سائر كتّاب وأدباء الأندلس العربي فالأديب والمؤرخ لا زال يشكو سوء المصير الذي آل إليه لأنهم أرادوا خنق حرية القول فيه قبل ذبحه والقضاء عليه.



ابن بسام

الأديب والناقد

٩ - ٥٤٢هـ / ١١٤٧م

في ليلٍ مدلهم حالك الظلام ، وقد اطبق العدو على البلدة ، واقتحم على اهلها الدروب والمسالك ، وسد امامهم منافذ النجاة ، حمل ابن بسام نفسه واهله ، وهو بعد في مَيعة الصبا ، ونضارة الشباب ، وانحدر من شترين البلدة القائمة على اعلى قمة في البرتغال شمالي لشبونة الى الرّيف الفسيح المنبسط على طول امتداد النهر هناك ، بعد ان تعرج في منحدراتها المخيفة ، وتجاوز حافاتها الخطرة ومنزلقاتها الوعرة .

هذا وقد وصف صاحب «الدخيرة في محاسن اهل الجزيرة» خروجه من بلديه مقهوراً بقوله في مقدمة الكتاب : « وعلم الله تعالى ان هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الأخناء ، وفكر خاليد الذكاء بين دهر متلون تلون الجرباء لانتياذي من شترين قاصية الغرب مروع السرب بعد ان استنفذ الطريف والتلاد ، واتى على الظاهر والباطن النقاد » .

من الثابت ان ابا الحسن علي بن بسام الشتريني ، الأديب والناقد الاندلسي ما ان خرج من بلديته مروع السرب ، حتى قديم الى قرطبة ، والفجر بعد ما زال غافياً وراء الأفق البعيد .

ست مراحل في ستة ايام قطعها الرجل الأديب وعائلته مشياً على الاقدام بين ريف شترين في اقصى الغرب من شبه الجزيرة وبين قرطبة أم المدائن

في الأندلس ، وهم لا يحملون على دأبتهم الوحيدة المفردة التي تندفع امامهم ببطء إلا قليلاً من متاع انتزعه من بين يدي عدو لا يرحم .

في قرطبة حيث خط ابن بسام رحاله في المدينة العظيمة راح ينفق فيها ما حمل معه من مال ، وهو يتلمس عملاً يسد به رمق عياله او رزقاً يأمن به شر العوز ، لأن سوق الأدب في العاصمة الكبيرة كانت باثرة خاملة .

يصور ابن بسام واقعة المؤلم هذا فيقول : « فوصلت قرطبة بنفس قد تقطعت شجاعاً وذهب أكثرها التياحاً ، ولتيني عشت منها بالذي فضلاً ، فتغربت بها سنوات اتبوا منها ظل الغمامة ، وأعبا بالتحول عنها عي الحمامة ، ولا أنس إلا الأنفرد ، ولا تبلغ إلا بفضل الزاد ، والأدب بها أقل من الوفاء ، حامله اضيق من قمر الشتاء وقيمة كل أحد ماله ، وأسوة كل بلد جهاله » .

الواقع ان ناقد الاندلس الكبير ابا الحسن بن بسام لم يقو على الإقامة في قرطبة ، عاصمة السياسة ، والتجارة ، والمال فتحول عنها الى اشبيلية حيث استقر بها ، وعاش فيها يدبج التراجم ويكيل المدائح لمن يجزيه عنه بالمال ، وكانت هذه المهنة صناعة رائجة السوق شائعة ، طرق بابها من قبل ابن خاقان وغيره من افذاذ الاندلس الاعلام .

لقد اضحى من المؤكد ان ابن بسام ألف كتابه المشهور « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » في اشبيلية وفي حدود سنة خمسمائة واثنين للهجرة ، الف وعائة وتسع للميلاد وقد قسمه اربعة اقسام .

خص ابن بسام القسم الأول في كتابه لاهل حاضرة قرطبة وما يصادفها من بلاد متوسطة الاندلس ، اما القسم الثاني فحصر فيه تراجم اهل الجانب الغربي ، وذكر حاضرة اشبيلية ، وما اتصل بها من بلاد البحر المحيط الرومي ، في ما افرد القسم الثالث لاهل الجانب الشرقي من الأندلس ومن نجح من كواكب العصر في افق ذلك الثغر الأعلى الى منتهى كلمة العرب هنالك .

هذا ويبدو ابن بسام ثاقب النظر ، واعى القلب عندما افرد القسم الرابع

من كتابه لمن طرأ على شبه الجزيرة في المدة الأخيرة من اديب شاعر ، وأوى الى ظلها من كاتب ماهر واتسع فيها مجاله ، وحفظت في ملوكها اقواله ، ووصل لهم ذكر طائفة من مشهوري اهل تلك الافاق ، ممن نجم في عصره بأفريقية والشام والعراق .

الدارس لكتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة يدرك ان ابن بسام لم يرتب تراجمه وفقاً للسنين إلا في الجزء الخاص ببطلوس وما يصايفها ، اما بقية التراجم فقد رتبها وفقاً لمكانة المترجم في رأيه ، مما يدفع الناقد الى ان يؤكد ان ابن بسام ومن عاصره من نقدة الأندلس النابيين لم يعرفوا بعد اصول النقد الحديث ، وأنهم كانوا يقومون النص ومكانته من الأدب بالاعتماد على ميولهم الخاصة واذواقهم الشخصية .

لقد كان ابن بسام يبدأ دراسته بترجمة العلم المراد بشر بديع مسجوع ، ثم يحاول ان يذكر مؤلفاته ويطري مواهبه الأدبية ، ويورد في خاتمة دراسته مقتطفات من شعره ونثره . غير أنه في دراسته هذه لم يحاول ان يبين مكانة المترجم له بين الأدباء ولا قيمة أدبه في ضوء انتاج امثاله ، ويقرر بالاضافة الى كل ذلك رأيه فيه كناقذ ثاقب النظر ، ضليع ، بعيد عن الهوى .

لعل حاجة ابن بسام الى استرضاء هؤلاء السروات من الأغنياء والوجهاء هو ما يبرر سلوكه لهذا الأسلوب الشخصي في دراسة شعراء الأندلس وكتابها ، وهو بالتالي ما دفع دوزي الى تقدير هذه الظروف بالذات عندما اكد « بأن ما كان يصيئه ابن بسام من المال من اولئك السروات يشبه الاتعاب التي يتقاضاها المؤلفون اليوم من الناشرين » .

إنه مع كل ما يقال في كتاب « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » ، فالكتاب يعتبر من ابرز كتب النقد الأدبي في الأندلس فضلاً عن ابن بسام ، وايا الفتح بن خاقان كانا ابرز من نبغ في فن النقد خلال عصر المرابطين ، فقد درسا شعر عصرهما وشعر القرن الذي سبقه ، دون ان يعرضا للتيار الشعبي الدارج الذي كان يمثل ابن قزمان وجميع الزجالين الآخرين الذين لا يحصيهم العدد . مما يؤكد النهج القديم الذي سار عليه علماء النقد في تقويم الفصحح

والبليغ من النثر والشعر .

الحقيقة ان كتاب «الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة» هو ثمرة اعجاب اهل الأندلس بالمشرق ، وبالتالي مظهر من مظاهر الخصومة الأدبية بين المشرق والمغرب العربيين ، تلك الخصومة التي ظهرت بوادرها في مقدمة كتاب العقد لابن عبد ربه ، والتي دفعت ابن بسام الى تأليف كتابه هذا .

كان ابن بسام حريصاً في مقدّمة الذخيرة على ان يؤكد « انه ما زال في افقنا هذا الأندلسي القصبي الى وقتنا هذا من فرسان الفنين وائمة النوعين ، قوم هم ما هم طيب مكابر وصفاء جواهر صبوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم ، نثر لو رآه البديع لنسي اسمه ، او اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه ، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح » .

مع كل هذه الخصومة التي كان يحسها الاندلسيون نحو اعلام المشرق كان ابن بسام مع ذلك معجباً بطريقة الثعالي في يتيمة الدهر فالف كتابه على منواله مصطنعاً منهجه ، مقسماً كتابه باعتبار الأقاليم ، وإن كان ابن بسام ادق من الثعالي ملاحظة ، وابعد منه نظراً ، وانفذ منه بصيرة ، واعمق منه تفكيراً كما يقول طه حسين .

وبعد ومهما يكن من امر ابن بسام والخصومة الأدبية بين المشرق والمغرب العربيين فإن الشعور السائد بين الطبقة الواعية الموجهة في الاندلس جعل نفراً من اعلام الفكر وفي طليعتهم ابن حزم كما يذكر هنري بريس « انه كان حكيماً عندما رأى من العبث ان يندفع نحو ادب المشرق لأن هذا الأدب لم يكن كافياً ليقدم معرفة تامة عن ماهية الانسان » .

بالرغم من هذه الحقيقة التي اعلنها ابن حزم فلقد ظل الأندلسيون يتطلعون بشيء من إيمان ، وكثير من خشوع واعجاب الى المشرق العربي موثلاً الحضارة الأندلسية ومنتهى القدسية في نظرهم .

ابن زُهر

الشاعر، والوزير، والطبيب

٨٥٠٧/١١١٣م - ٨٥٩٥/١١٩٨م

لم يبق من دنياه وقد تلاشى سمعُه او كاد ، وَوُثِنَ قَلْبُه ، واضطربت
خفقاتُه ، وَشَحِبَ لَوْنُه إِلَّا ان يَصُوِّرَ نِهَايَةَ حَيَاتِه بِشعرٍ فيه من رقةِ شُعوْرِهِ ، ودَقِيقَةِ
وصْفِهِ ، وروعةِ بَنائه ما جعله كبيراً بين الشعراء ، عَظِيماً في الاطباء ، انساناً
فذاً في حَيَاتِهِ وَقَبِيلَ مَوْتِهِ :

تَأْمَلْ ، بِحَقِّكَ ، يا واقفاً ولاحظ مكاناً دُفِعنا إِلَيْهِ
تَرَابَ الضَّرِيعِ على وَجَّتِي كأني لم أَمُشْ يوماً عَلَيهِ
أداوي الأَنَامَ حَذَارَ المَنُونِ وها أنا كُنتُ صرْتُ دهنًا لِدُنْيِهِ

ويموتُ الشاعر ، والأديب ، والطبيب والوزير أبو بكر محمد بن أبي
مروان محمد بن زهر الحفيد فيكيه الملك أبو يوسف يعقوب الموحدي ،
ويرثيه لعلجِه وأديه وذَكَائِهِ ، ويأمرُ بدفنه تكريماً له ، وتقديراً لمنزلته في قلبه ،
في حديقَةِ الأمراء بِمَرَاكِش .

وتطوي المَنُونُ بموت شاعرنا أبي بكر بن زهر واحداً من اعلام هذه
العائلةِ العريقةِ من أَسَرِ الأندلس النابغةِ في الطبِّ والأدبِ ، والشعرِ ،
والسياسةِ ، والتي يتصلُ نسبُها بإياد بن معد بن عدنان في الجزيرة العربية ،
منبَتِ الاحساب ، ومَعْلَدِ الانساب .

ولد شاعرنا أبو بكر سنة خمس مائة وسبع للهجرة ، الف ومائة وثلاث عشرة

للميلاد ، في اشبيلية ، وعلى نهر الوادي الكبير ، وشاطئ نهر الفضة ، وملاعبها الغناء ، وأشجارها الوارفة ، وديناها الضاحكة تفتحت عيناه ، وفيها وعى طفولته وفي معاهدها اكتسب ثقافته وجرى على سنن آبائه من التثقف بالطب والأدب ، حتى إذا برز عظيماً بين الرجال ، وطبيعياً لا يُلغ شأوه ولا تُرتجى منافسته تمرس بخدمة الملوك والأمراء في عصره .

لقد كان شاعرنا منذ حداثته طلعةً ، قوي البنية ، ذكي الفؤاد حاضراً البديهة ، بارعاً في لعب الشطرنج غير أنه لم يحفل بالرغم من ذلك إلا بالطب وبخاصة الناحية العلمية منه متبعاً خطأ وإلده الذي كان قد أضاف فيه على قول « كولن » Colin اضافات لم يعرفها الطب حتى في عهد جالينوس ، فاكشف الأورام الحيزومية وخراج التامور ، فضلاً عن انه كان أول طبيب عربي اشار بعملية شق الحُجَب ، وشرح طريقة التغذية القسرية او الاصطناعية بطريق الحُلُقوم ، وترك كتاب : « التيسير في المداواة والتدبير » .

من هنا نشأ شاعرنا على سيرة ابيه بارعاً في الطب ، حاذقاً في المعالجة ، حكيماً جيد التدبير ، فائقاً في التشخيص ، مبرزاً في معالجة امراض العيون ، مؤلفاً في ذلك رسائل كثيرة . ولعل حدود اختصاصاته واهتمامه بأهله ومحيطه مع انصرافه الى الأدب والفقه لم تتيح له الشهرة في أوروبا كما أتيحت لوالده من قبله .

عاش شاعرنا في رعاية مليكه محاطاً بعطفه تغشاه منه هبات سخية مع ما انعم الله عليه من عرض الجاه ، وسامي الحساب وسعة العيش ، ووفرة الكرامة ، الأمر الذي أثار عليه حسد الوزير ابي زيد عبد الرحمن فعمل حتى دس السم له ولابنة اخت له ، كان قد علمها الطب فمهرت في فن التوليد وامراض النساء ، فتوفيا معاً في سنة خمسمائة وخمس وتسعين للهجرة ، الف ومائة وثمان وتسعين للميلاد .

الحقيقة أن شهرة ابي بكر بن زهر لا تقوم على نجاحه كطبيب بقدر ما تنهض على ابداعه كشاعر ، وخاصة في موشحاته المبتكرة التي يعتبرها النقاد

مثلاً يحتذى في صناعة التوشيح ، ولعل ثقافة ابن زهر الفقهية ، واللغوية ، والأدبية ، المتينة العميقة ، الى جانب ثقافته الطبية التي كشفت له ابعاداً جديدة في فهم الحياة الانسانية ، ومن ثمة معاناته في معالجة المرضى وادوائهم كل هذا اكسبه عمقاً في النظرة الانسانية ، ورقة في العاطفة ورهافة في الإحساس ، وتوفيقاً في التعبير اللطيف والصورة المستساغة على حد قول النقاد المحدثين في دراسة شعره .

لقد خلّد شاعرنا ابو بكر بن زهر بموشحه المشهور « ايها الساقى اليك المشتكى » حتى ان بعض المشاركة نحله ابن المعتز فظهر في طبعات ديوانه ، وكان نقدة الأدب المشرقي ساءهم ان يكون للاندلسيين مثل هذا التخیل والابداع ، والخلق في الوزن والموسيقى ، وفي الصورة الواضحة المشرقة ، وفي العاطفة الصادقة المتألّمة التي تعكس حياة الدعة والأنس والهناء ، والطبيعة الضاحكة الأسيرة بالوانها ، واصباغها ، وطيورها ، وجداولها حتى أنها في هذا التصوير إنما تبدع حب الاندلسي لوطنه ، واختلاط الطبيعة بروحه .

قلت لعل بعض النقاد قد ساءهم ان يكون للاندلسيين مثل هذا الشعر الضاحك الحزين ، الفرح ، صورة الأندلس العربي في كل أفراده ، وكل احزانه :

قد يكون موشح ابن زهر :

ايها الساقى اليك المشتكى ! قد دعوناك وان لم تسمع

ونديم همت به في غمرته

ويشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه ، واتكى ا وسقاني اربعاً في اربع

قلت قد يكون موشح ابن زهر « ايها الساقى » هو المثل الأعلى على

الموشح المفرد المؤتلف ، وهو وان كان يدخل في باب المخمسات من الشعر لأن البيت يتألف من خمسة اسماء ، ثلاثة منها الدور وهي على روي واحد :

غَصْنُ بَانِ مالٍ من حيث استوى
بات من يهواه ، من فرط الجوى
خَفِيقُ الاحشاء ، موهون القوى

ومن ثمة تُختم الموشحة المفردة المؤتلفة هذه بقفل يتألف من سمطين :

كلما فكر في البين بكى ؛ ويحه ! يكي لما لم يقع

هذه الاسماء الخمسة التي يتألف منها البيت جميعاً ، إلا ان هذه الموشحة المخمسة تخرج عن المخمسات التي عرفت بضغيف البناء عند نقدة الشعر ، لأن شاعرنا قد بدل في قوافي اسماء الأدوار جميعاً ، مازجاً بين الصورة الشعرية والشعور المتدفق ، وبين الحب والشوق مبدداً كل الظلام الجائئ على صدر الحبيب .

قد يبدو جلياً اتجاه شاعرنا في بيت آخر من موشحه هذا ، الذي يتألف من غصن وقفل :

ما لعيني عَشيت بالنظرا
أنكرت ، بعدك ، ضوء القمر
واذا ما شئت ، فاسمع خبري :

عَشيت عيناى من طول البكا ، وبكى بعضى على بعضى ، معى
لم يقو شاعرنا ابن زهر ، طبيب العيون ان يعالج ما ألم بعينه ، فلقد انكرنا بعد الحب ضوء القمر وتقرحتا من شدة البكا ، وهو الذي كان إلى الأمس القريب ، الطبيب الخبير ، وشاعر الحب الذي يعترف بينه وبين نفسه بالذنب ، ولا يُقرُّ به امام الحبيب ، وان صور له ذوب قلبه ، وهيام نفسه .

كبدُ حرى ، ودمع يكف ؛

يعرف الذنب، ولا يعترف
أيها المعرض عما أصف

قد نما جُبك عندي، وزكا؛ لا تخل، في الحب اني مدعي!

قد يكون ابنُ زهر بالرغم من المركز العلمي المرموق الذي اشتهر به
اشد شعراء الاندلس رقة قلب، وقوة عاطفة ليس بالنسبة الى من احب
وحسب، بل بالنسبة الى الأندلس الوطن الذي نشأ فيه واحب ثم دفعه القدر
إلى ان يغادره ليكون في معية الملك الموحدى، فيودع اشبيلية لتظل ابد حياته
في قلبه وخياله صورة لكل شبه الجزيرة التي احبها وغناها بشعرا اجمل ولا احلى ؟

ما للموئل من سُكره لا يُفيق يا له سكران
من غير خمرٍ ما للكثير المشوق يندب الأوطان
هل تستعاد أيامنا بالخليج وليالينا
او يستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا
او هل يكاذ حسن المكان البهيج ان يُحيينا

لئن لم يكتب لشاعرنا ان يستعيد ايامه في الخليج، وان يستنشق اريج
المسك الذي كان يرد إلى دارينا، البلدة الساحلية في البحرين، فإن الذين
شغفوا بشعره، واعجبوا بموشحاته يستعيدون كلما ذكروا ابن زهر اللحن
الأزلي، الذي غنى به الحب والحبيب، واشبيلية والخليج، الوطن الباقي في
نفسه وقلبه وخياله جميعاً .



ابو بكر محمد بن باجه اول مفكر فلسفي انجبه الاندلس الاسلامي

٢ - ٥٢٢ او ٥٣٢ هـ - ١١٢٨ م او ١١٣٨ م

حينما نهضت اوربا نهضتها الكبرى في الفلسفة والعلم والفن والأدب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، كان الأندلس الاسلامي من اكبر الركائز فيها تعمقاً في الفلسفة والفلك والطب والقصص وشعر الملاحم ، ولم تزل آثاره العميقة التي خلفها ، الا حينما ترددت في جوانب اوربا هتافات النهضة الاغريقية .

ذلك ان اسبانيا الإسلامية منذ فجر التاريخ كانت بلد ثقافة وموطن علم وضع الفينيقيون اساسه وزاد عليه اليونان والرومان مظاهر خضارتهم وبحوثهم في شتى مجالات الفكر الانساني .

هذه الحقيقة التاريخية تفسر لنا سراً من اسرار الازدهار الحضاري السريع الذي حققه الفاتحون العرب في البلاد على حداثة اتصالهم بمنابع الثقافة القديمة والوسيلة في العالمين الإسلامي والمسيحي آنذاك .

لقد عرفت اسبانيا مظاهر للحياة الفلسفية في دراسات اكبر شخصيات ذلك العصر مكاناً وابقاها اثرأ هو القديس ايزادور الاشبيلي الذي يعتبر اعظم مصنف موسوعي حاول ان يجمع في كتاب كل ما انتهى اليه من علوم اليونان والرومان معدلة تعديلاً يتفق ومذهبه الديني ، فهو من هذه الناحية من كبار الكتاب والمفكرين المسيحيين وقد خص كتاباته بأصول الكلمات اذ وضع فيها

كتاباً هو بحق موسوعة اخلاقية تضم ثروة عظيمة من الأفكار اليونانية والرومانية وفلسفة المسيحية الأولى ، وفي الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب عالِج الفنون السبعة وهي النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك عين العلوم التي قامت عليها الفلسفة في القرون الوسطى والتي عرفت بالعلم الطبيعي .

فإسبانيا من هنا كانت على صلة وثيقة بالفلسفة وعلومها قبل الفتح العربي للبلاد فضلاً عن ان حظ الاندلسيين من العلوم في بدء نشاطهم كان يقوم على الدراسات الفقهية واللغوية، غير انه قضى بعنف على كل الحركات الأولى التي رمت الى التجديد والتشريع في ميدان الفقه خاصة لأن هذه الحركات كانت تتسم في اغلب الظروف بطابع سياسي قومي، فضلاً عن ان فقهاء الأندلس من المالكية كانوا اشد الناس خصومة لكل حركة ترمي الى التجديد بفضل تأييد الدولة لهم التي حرمت على مواطنيها كتب غير المذهب المالكي وقضت بذلك على كل محاولة مؤدية الى الفلسفة .

بالنظر لهذا الواقع كاد الفكر الفلسفي ان يقضى عليه في شبه جزيرة ايبيريا بالرغم من ضعف الدولة الأموية عندما تظاهر المنصور ابن ابي عامر بالحمية للدين فأخرج كتب الفلسفة وعلوم اليونان من مكتبة الحكم المستنصر واحرقها امام مشهد من الفقهاء المتزمطين ، فأوقف تطور الدراسات الفلسفية في الأندلس الى حين .

غير ان سقوط الخلافة وانتشار امر الجماعة وقيام ممالك الطوائف اتاحت للتفكير الفلسفي ان يفلت من عقاله ويسير في الطريق التي رسمت له .

لقد ساد نواحي البلاد كلها خلال عصر ملوك الطوائف تسامح عظيم فتكلم اصحاب كل الآراء بما ارادوا دون ان يخشوا شيئاً، ويعزو صاعد الطلب في كتاب طبقات الأمم هذا التجدد في كيان الدراسات الفلسفية الى اسباب سياسية سادت الأندلس في هذه الحقبة فاشتغل ملوك الحاضرة العظمى قرطبة

بهؤلاء الخصوم الذين سيطروا على اطراف الدولة ، عن امتحان الناس والتعقب عليهم .

الحقيقة ان الأندلس الاسلامي كان قد عرف بعض اتجاهات المذهب الافلاطوني الحديث منذ عهد محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي اول مفكر اصيل اطلعه الأندلس في القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد ، كما عرف آراء اخوان الصفا بعد ان قام الطبيب الفيلسوف الكرمانى بنشر رسائلهم التي اتى بها الى البلاد مسلمة المجريطي ودخلت معها الافلاطونية الحديثة بالاضافة الى ما تكلم منها ابن مسرة من قبل .

الى جانب هذا الاتجاه الافلاطوني الحديث الذي بدأ بابن مسرة وانتهى بمحي الدين بن عربي ؛ من مفكري القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد والذي يمثل اعلى صورة وصل اليها التفكير الافلاطوني الحديث عند مسلمي الاندلس قامت في البلاد مذاهب الفلسفة المشائية وذاعت ذيوهاً واسعاً عندما بشر بها ابو بكر محمد بن يحيى ابن الصائغ الملقب بابن باجة السرقسطي .

عرف ابن باجة المتوفي سنة خمس مائة واثنين وعشرين او خمس مائة واثنين وثلاثين للهجرة، الف ومائة وثمان وعشرين ، او الف ومائة وثمان وثلاثين للميلاد عند فلاسفة الاسكولاستيين باسم « افيمائة » وهو تحريف لاسمه وقد عاش في ايام احمد بن يوسف بن هود الملقب بالمستعين آخر امراء هذه العائلة في سرقسطة . ولا يبعد ان يكون ابن باجة قد مارس الصياغة التي كانت صناعة أسرته ، ومن الفضة على اغلب الظن قد اكتسب لقبه (باجة) كما يقول ابن خلكان .

لقد اغفلت المصادر القديمة حياة ونشأة فيلسوف المذهب المشائي فلم تحدثنا بشيء عن ايامه الاولى وتعليمه وان اكدت ان ابن باجة نال ثقة المرابطين عند دخولهم الى سرقسطة واتخذوه عاملهم كاتباً له وقد اشتهر امره في ذلك الحين بأنه اول مشاهير الفلاسفة العرب في الأندلس وانه انصرف الى

السياسة والعلوم الطبيعية والفلك والرياضيات والموسيقى والشعر والفلسفة والطب الذي برز فيه خاصة حتى اثار حفيظة زملائه فلدسوا له السم فتوفي في فاس بعد ان كان قد غادر سرقسطة ونزح الى جنوب الاندلس وسكن المرية ثم غرناطة حيث كانت له ندوات ادبية تحدثنا عنها الكتب مبتعداً عن السياسة جملة ، منصرفاً الى التدريس والتأليف .

كان ابن باجة كغيره من مفكري العصور الوسطى ملماً بجميع علوم اليونان وهو اقدم مؤلف اندلسي تعرف عن يقين انه درس فلسفة المشائية ورجع إلى كتب الفارابي وابن سينا والغزالي فهو من هذا القبيل القاعدة التي سهلت من بعد لابن طفيل ولاين رشد الذي تتلمذ عليه ان يأخذاً عنه بعض بنود فلسفتيهما، فضلاً عن ابن طفيل في مطلع قصة حي بن يقظان يشهد له بالتقدم والفضل عندما يؤكد بقوله « ثم خلف بعدهم خلف آخر احذق منهم نظراً واقرب الى الحقيقة . ولم يكن فيهم اثقب ذهناً ولا اصح نظراً ولا اصدق روية من ابي بكر ابن الصائغ غير ان الدنيا شغلته حتى اختارته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبت خفايا حكمته » .

لقد تمتع ابن باجة بمنزلة رفيعة عند اصحاب كتب التراجم الذين اتوا على ذكره فابن خلكان والقفطي وابن ابي اصيبعة يكادون يجمعون على الاعتراف بفضله وتقدمه في الطب والفلسفة حتى ان الفتح ابن خاقان الذي حمل عليه في كتابه قلائد العقيان لخلاف وقع بينهما كان قد اشاد بعلمه وبمنزلته في موضع آخر .

هذا ويسرد ابن ابي اصيبعة في طبقات الاطباء اسماء ثمانية وعشرين مؤلفاً ينسبها الى ابن باجة تقع في ثلاث فئات مختلفة شروح على ارسطوطاليس ، فتأليف اشراقية ، فمصنفات طبية .

قام ابن باجة بشرح كتاب السماع الطبيعي الذي يسمى ايضاً بسمع الكيان لأرسطو كما شرح جزء من كتاب الكون والفساد وتاريخ الحيوان والنبات الى جانب الشرح الذي وضعه لمنطق الفارابي الذي لا يزال مخطوطاً في مكتبة

الاسكوريال كما شرح كتاب الأدوية المفردة لجالينوس .

ولعل من الكتب المهمة التي ألفها فيلسوف الاندلس رسالة بعنوان اتصال الانسان بالعقل الفعال كما اورد عنوانها ابن ابي اصيبعة في كتابه والتي يذكرها الدكتور احمد فؤاد الأهواني في تلخيصه لكتاب النفس لابن رشد بعنوان اتصال العقل بالانسان ليحاول ان يصل الى عنوان يتفق وموضوع الرسالة فيؤكد ان التسميتين مختلفتان ومتعاكستان والحقيقة ليس للرسالة عنوان من وضع المؤلف .

لقد كانت هذه الرسالة موضع اهتمام المستشرقين والعلماء فلقد نشرها المستشرق الأسباني ميكل آسين بلاثيوس مع ترجمتها الى الأسبانية في مجلة الاندلس سنة ١٩٤٢ وذلك عن مخطوط مكتبة برلين رقم ٥٠٦٠ ، ومخطوط مكتبة بودلين باكسفورد رقم ٢٠٦ الى جانب اهتمام تلميذه ابن رشد بها اذ لخصها في مخطوط القاهرة لكتاب النفس .

هذا وليس من شك في ان رسالة الوداع لابن باجة التي ترمي الى اعادة العلم الى مكانه الحقيقي به وبيان فضل العلم والمعرفة والتأمل الفلسفي وكيف يؤديان وحدهما بالانسان الى معرفة الطبيعة، وكيف يعينانه بفضل من الله على ان يعرف نفسه وكيف يؤديان به الى الاتصال بالعقل الفعال ، قد وضعت ابا بكر محمد ابن باجة السرقسطي في طليعة مفكري الاندلس الاسلامي مكانة ووعياً وادراكاً للحقيقة العلمية .



ابن الأثير

وكتابه الموسوم

بالحلة السيرة

١٢٦٠م / ٨٦٥٨ - ١١٩٩م / ٨٥٩٥

في شهر ربيع الثاني سنة خمس مائة وخمسة وتسعين للهجرة، فبرابر ألف ومائة وتسع وتسعين للميلاد، تفتحت في بلنسية المدينة العربية على المتوسط عينان كانتا تتاملان كل ما حولهما دون أن تجسا بعد الجمال الأسر المختبيء في أرض تلك المدينة وعلى امتداد شاطئها اللازوردي .

إن الطفل الذي أخذ يناغي الفجر بصوته المتقطع كان أبا عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، الذي لعب في إبان رجولته دوراً هاماً في تاريخ بلاده، وترك في تاريخ الفكر الانساني عامّة، وفي تاريخ عرب الأندلس خاصة أثراً بارزاً، يرجع اليه النقاد والباحثون .

كان أبو عبد الله محمد بن عبد الله الذي عُرف في ما بعد بابن الأثير شاعراً يمزج العلم بالموسيقى والقافية، وكان أديباً يهتم بالفكرة قبل أن يهتم بصياغة الكلمة، وكان مؤرخاً ينظر في السبب قبل أن يسجل الخبر، وكان فقيهاً وقاضياً يفهم جوهر الدين، ولا يتشدد الآ في الاصوليات .

درس ابن الأثير على جملة نابهة من رجالات عصره حتى قفز الى موكب الطليعة، أرخ للأفذاذ من رجالات الأندلس والمغرب في ضوء معرفته لتاريخ المشرق ودراسة أعلامه العظام في الحكم، والقيادة، والسياسة، والأدب والتاريخ فكان في ثقافته انعكاساً لنبوغهم ومظهراً لمجالات إبداعهم .

لقد كرس ابن الأثير حياته العلمية الأولى للتمعق في فهم كتب الأولين، وتقدير قيمتها العلمية، ومن هنا كان في كتبه مرجعاً لهذه الكتب جميعاً لم يختص بلون واحد من ألوان العلم، وإنما اختص بلون واحد من ألوان التاريخ، فأرخ الأعلام وكتب تراجمهم فجمع في ذلك بين مظاهر النبوغ المختلفة، وكأني به قد ألف في جميع أبواب العلم، ودرس كل مظاهر النبوغ.

على هذا المنوال عاش ابن الأثير حياته الأدبية، التي تبرز واضحة في مؤلفه القيم «الحلة السيرة» الذي يعالج فيه جانباً مهماً من جوانب الحياة العربية في الأندلس والشمال الأفريقي، المنطقة التي كانت مجالاً لأحداث سياسية وعسكرية خطيرة، كان لها أبرز الأثر في التاريخ العربي، فضلاً عن الاتجاهات الأدبية والعلمية التي طبعت بها الأدب، ومناهج البحث العلمي.

كان أول من نبّه إلى مخطوط الحلة السيرة مخائيل غزيري العالم اللبناني في القرن الثامن عشر، وذلك عندما استدعي إلى إسبانيا حيث وضع باللاتينية فهرست المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الاسكوريال، وقد أسماها باللاتينية Vestis Serica، أي الرداء الحريري، وهي عين التسمية التي أطلقها المستشرق ليفي برونفسال على الكتاب إذ أسماه بالفرنسية Le Manteau bordé d'or.

إن حقيقة اللفظة العربية مشتقة من سير الثوب أو السهم، أي جعل فيه خطوطاً كالسيور وهي من سير قلة من الجلد مستطيلة، السيرة بروء مخططة، أو بروء يخالطها حرير، ولعل ابن الأثير أسمى كتابه كذلك لأنه جمع فيه بين النثر والشعر.

الحلة السيرة هي في الواقع مجموعة لتراجم الشعراء الأمراء الذين حكموا الأندلس والشمال الأفريقي، وهي صورة لتاريخ العرب منذ بدء الفتوح في المشرق حتى سقوط بعض مناطق الأندلس في أيدي الروم، وقيام الدويلات الإسلامية في الشمال الأفريقي.

من هذه الخاصة تتطوي الحلقة السيرة على تاريخ الأمة العربية، وعلى ما كان يتم في « الجزيرة، وبلاد الشام، والعراق، وخراسان » مناطق التفاعل العربي، من أحداث سياسية، وحركات فكرية، وتيارات فلسفية، ومدارس فقهية، ومذاهب كلامية تعكس كل ذلك على أرض هؤلاء الأمراء الشعراء حيث كان مجال نفوذهم، ودولة سلطانهم.

وهكذا فالحلة السيرة كما يبدو ليست تأريخاً للشعراء الأعلام فحسب، وليست تأريخاً للمشرق العربي، كما أنها ليست مظهراً للحكم الأموي الذي اعترف بالارستوقراطية العربية ودفع الى انشاء الأحزاب السياسية، فضلاً عن أنها لا تجسد واقع الخلافة العباسية .

فإذا لم تكن الحلقة السيرة مظهراً لكل هذا، فهي ولا ريب حقيقة التاريخ العربي في المشرق ندرس في ضوءه واقع الحكم العربي في المغرب جميعاً، الذي كان مسرحاً لحركات سياسية ودينية، واجتماعية، ساعدت بغداداً على نشأتها في الأندلس والمغرب، وكان من نتائجها قيام الدولة الأموية في شبه جزيرة ايبيريا، وانتشار التشيع في أفريقيا .

لقد بلغ العلامة ابن الأثير، بعد أن ألف الحلقة السيرة، ومجموعة كبيرة من الكتب المصادر . منزلة رفيعة بين العلماء والمؤرخين، واعتبر واضع المدمالك الأول في فلسفة علم التأريخ فسبق بذلك ابن خلدون .

هذا ومن الثابت ان ابن الأثير، العالم المؤرخ، والأديب النابه والشاعر، والناقد قد ألف الحلقة السيرة آخر كتبه في تونس الأرض التي شهدت موته قصصاً بالسلح يوم العشرين من محرم سنة ستمائة وثمان وخمسين للهجرة، يناير ألف ومائتين وستين للميلاد، بأمر من السلطان المستنصر بالله الحفصي .

إن موت العلامة ابن الأثير على النحو الذي ذكرته الكتب المصادر يعتبر خسارة أدبية وتاريخية لا تعوّض .

بلى لقد مات ابنُ الأَبار في تونس بعدَ عقودِ ستة من مولده في بلنسية
غنى فيها قصيدته الخالدة التي رددتها اسبانيا الاسلامية فيما يقولُ المستشرقُ
الاسباني بونز بويكز ، تلك التي ألقاها بين يدي السلطان يحيى أبي زكريا
الحفصي لنجدة بلده ، وهي في ساعات الحصار ومطلعها :

أدرك بخيلك خيلَ الله أندلسا	إن السيلَ الى منجاتها دَرَسا
وَهَبْ لها من عزيز النصر ما التمت	فلم يزلُ منك عزُّ النصر مُلْتَمَسا
وحاشَ ما تعانیه حُشاشَتها	فطالما ذاقَت البلوى صباحَ مَسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً	للحادثات وامسى جدُّها نَعَسا
كانت حدائقُ للأحداقِ مونيقةً	فصوَحَ النصر من ادواحها وَعَسا
وحال ما حولها من منظر عجب	يستجلسُ الركبُ أو يتركبُ الجُلُسا
سرعان ما عاث جيش الكفر وأخرى	عيثَ الدُّبّا في مغانيها كَبَسا
فأين عيش جنيناه بها خضيرا	وأين غصن جنيناه بها سِلِسا
الى ان يختتما بقوله :	
يا ايها الملك المنصور انت لها	علياء توسعُ اعداء الهدى نَعسا

وتدمع عين يحيى ابي زكريا الحفصي ويأمر بالعون والمدد لانقاذ بلنسية
إلا ان القدر كان اسبق إليها فتقع بيد السيد الكمييطور مع وصول الاسطول
الحفصي .

ويحزن ابن الأَبار ويجبر على ان يغادر الاندلس وخدمة جميل ابن زيان
ابن مدافع صاحب بلنسية ويلجأ إلى بجاية ليموت من بعد في تونس وعلى نحو
ما تؤكد المصادر .



الصوفي الزاهد

عبد الله الششتري

٦١٠هـ/١٢٠٣م - ٦٨٦/١٢٦٩م .

ما إن اتجه التصوف في الإسلام الى تفسير التقى تفسيراً عقلياً، في
اواخر العصر الأموي، وقد أضحى نظاماً شديداً في العبادة، ثم ابتعد مع مطلع
العصر العباسي عن منابعه الأصلية في الزهد، واتسم بالرمز والشطح، حتى
حمل لوائه في الأندلس أعلام كبار كان في مقدمتهم عبد الله النميري
الششتري .

ولد قطب الرحي شاعرنا في قرية ششتر المطلة على وادي آش بالأندلس
والمنسكبة حدائق وجنات، سنة ٦١٠ هـ (١٢١٢ م) في أسرة غنية موسرة
يجمع النقاد على أنهم كانوا من حكام الأقاليم، حسن سمعة، وموئل عدل
وإدارة .

بعد ثمان وخمسين عاماً، وفي السابع عشر من صفر سنة ٦٨٦ هـ ، الحادي
عشر من تشرين الأول (اكتوبر) سنة (١٢٦٩ م) توفي الششتري فقيراً معلماً
في «الطينة» قرب دمياط بمصر، وقد تجلّد هذه الناحية عندما أحس بدنو الأجل
فقال « حَتَّ الطَّيْنَةُ إِلَى الطَّيْنَةِ » .

وفي الدرب البعيد بين مسكنه ومقره الأخير حمله اتباعه ومريدوه من
الأتقياء والفقراء وقد أخذ منهم الإعياء وتهللت مع ذلك نفوسهم ، وترنحت
أعطافهم في ما كان نفر منهم يردد في دعاء خافت نشيد الشيخ ودوره المختار
« ألف قبل لامين وهاء قُرة عين » فيجيب الحشد الضائع من الصوفية الذاهلة

الواعية ، وقد غمره نور سماوي : الله الله !

كان الدعاء طويلاً واللحن عذباً رقيقاً يعزف على الششترية، الآلة
الموسيقية التي ابتدعها العلم الأكبر يوم كان يطوف في الأسواق مترنماً ،
متعبداً ، ضائعاً مع الله .

شَيْخٌ مِنْ أَرْضِ مِكنَاسٍ وَسَطَ الْأَسْوَاقِ يُغَنِّي
أَيْشٌ عَلَيْنَا مِنَ النَّاسِ وَأَيْشٌ عَلَى النَّاسِ مِنْي

بدأ الششترية حياته تاجراً متجولاً في الأندلس، وزار مراكش (المغرب)
قبل أن يعتنق المذهب . في بجاية التقى بعبد الحق بن سبعين، أحد أعلام
التصوف الاسلامي واعتنق مذهب وحدة الوجود في صورته العارضة مجاوزاً ابن
عربي علواً ، متجهاً بكلية نحو التصوف الفلسفي .

صاح ابن سبعين بالشاعر ذات مرة: إن كنت تريد الجنة فاذهب إلى أبي
مدين^(١) ، وإن كنت تريد ربّ الجنة فهلم اليّ ، فانجذب الششترية إلى
« اكسير الدّوات » و« مغناطيس النفوس » كما يقول ابن عجيبة ، وقد تبع
الشيخ وفني فيه الفناء الكامل .

بعد أن تخرج الششترية على ابن سبعين، وأعطاه علماً، طلب إليه أن
يتجول في الأسواق منشداً :

بديت بذكر الحبيب وعيشي يطيب
لم يستطع الششترية، وبعد أن طوّف في الأسواق يغني زجل أستاذه أن
يضيف عليه شيئاً حتى فُتح عليه وأكمل الزجل :

لما دار الكاس ما بين الجلاس
عنهم زال لباس
سقامهم يكاس الرضا عفا الله عما مضى

(١) صوفي شهير قبره لا زال في تلمسان بالجزائر ، وإلى اسمه يتسبب كثير من الرجال تبركاً .

عندها تاه بمذهبه الفلسفي الجديد، وراح يترسم خطى أستاذه، يجول في الأسواق، ينظم الموشحات والأزجال، يعزف على الششترية آتسه الموسيقية، يشطح، يدور ويتحول من بعد الى كتلة من اللاوعي وقد تصيب عرقه، وغاب نظره، وعلق البؤبؤ في أفق العين ساجداً.

جال الششتری مع شبيحه ابن سبعين في كثير من المدن، ثم رحل وحيداً
الآ من السر الأزلي الذي يحمل، والنور الالهي الذي يؤمن، وقد أدهش أهل عصره بعلمه الواسع ومعرفته العميقة بالفقه والسنة، وكثيراً ما كان يردد وقد استبدت به النشوة الالهية .

رضي المقيم في الهوى بجنونه خلوه يفني عمره بفنونه
بعد هذه الحقبة من تاريخه قصد الششتری مصر ونزل القاهرة معتكفاً
بالأزهر وقد اتخذ لنفسه المريدين الذين كانوا يلقونه تارة بالمسجد ، وتارة أخرى بباب « زويلة » .

لم يمكث الششتری طويلاً بمصر حتى شد الرحال الى مكة المكرمة
ليؤدي فريضة الحج ، وليحتمي بقبر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ،
وليلقى من جديد استاذ ابن سبعين .

كان قطب الرحي خلال تجواله في صحاري مصر والشام يتردد على
الأديرة ويصادق الرهبان، ويقف على كثير من طقوسهم، وعاداتهم، وتمتزع
روحه الخالصة لله بأرواحهم المتبتلة للذات العلية، الأمر الذي أثار عليه
حفيظة بعض الفقهاء ، والذي دفع المتصوف الكبير عبد الغني النابلسي
إلى الدفاع عنه في رسالته : « رد المفتری عن الطعن في الششتری » .

بعد وفاة ابن سبعين متتحراً كما جاء في المصادر خلفه تلميذه في امامة
الفقراء والزهاد ، والضعفاء والضائعین بالله ، وكان عدد كبير منهم يصحبه في
أسفاره الطويلة وهم يرددون معه : ألف قبل لأمين وهاء قره عين ... الله ...
الله ... !

الحقيقة أن الششتری كان رأس مذهب في النظم، قصيداً، كان، أم

موشحاً ، أوزجلاً ، حتى أن عبد الله بن الخطيب كان ينشد الزجل على طريقته
وقد صاغه بمعنى عميق بذكر الله والفناء في ذاته العلية ، تودداً ، وتقرباً .

سبقي الصوفية مسلماً روحياً معبراً عن اعتناق الذات الإنسانية في ظل
الاسلام ، الدين الحنيف من أحكام قد تجدد نفسها غير ملزمة بها ، وسبقي
أعلامها الكبار وشعراؤها في المشرق والمغرب العربيين مصابيح تضيء الطريق
الى السماء ... الى الله ... !

ولئن ظلت الصوفية مسلماً روحياً معبراً عن الاعتناق من الحياة الدنيا ،
الى السماء ... الى الله فلکم عبر عن هذا الاعتناق شاعرنا الششتري عندما
غادر موطنه الأول في قرية شستر المطلة من عل على وادي آش ، المدينة
المخملية قرب غرناطة ، والتي ينصب فيها نهرها المتدفق الهارب من جبل
شليسر ، القائم الى الشرق منها وهي على ضفته ، حيث كان يؤمها أبناء
وصيبة ، وبنات وصبايا شستر كأبناء القرى جميعاً الذين يحجون دائماً إلى
قاعدة الاقليم ، او قصبة البلدة ، او ساحة القرية ، حيث كل المعالم ، وكل
الحياة ... !

غير ان شاعرنا الممجّد لاسم الله بعد ان زار وادي آش مع أبناء قريته
للمرة الأخيرة لم يعاود الزيارة من بعد فلقد خرج من الأندلس مزوداً من
المعارف لينشرها بعيداً بعيداً ... ولينام معها من بعد في الطينة ، وقد حنت
اليها الطينة .

إنه عبد الله الششتري صاحب النشيد الأزلي الباقي : « الف قبل لأمين
وهاء » ! اليس أزلياً الله ... ؟



ابن عربي

شيخ الصوفية الأكبر

١٢٤٠هـ / ١١٦٥م - ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م

في طرف دمشق، الغرة الخضراء المسبلة في شيء من دعة وكثير من رفق على هضاب الأرض التي استحالت الى غوطة فيحاء طوقت المدينة العربية الخالدة، وطرزت جنباتها بالحقول النضرة، ورسمت في ماحولها شبه دائرة زمردية تتسع كلما انطلقت من محيطها حتى تضيق على جنبات الأرض حيث لا يقوى بردى نهرها اللجيني أن يمدّها بدفق من سخائه بعد أن قهرته يد الانسان ومزقه جداول قبيل أرض الغوطة الفيحاء .

قلت في طرف دمشق الغرة الخضراء ينهض مقام الشيخ الأكبر، والبحر الزاخر في المعارف الالهية، ومحي الدين، أبي بكر محمد بن علي بن أحمد ابن عبد الله الطائي الحاتمي المشهور بابن عربي .

تُعرف المحلة التي ينهض بها مقام شيخ الصوفية القطب بمحلة الشيخ محي الدين، حيث تقوم في قلب دمشق حياة زاخرة بالحب الالهي والصلاح . مع غروب شمس كل خميس يلتقي المتبتلون، والنازحون حول مقام الشيخ الأكبر في حلقات ذكر تمتد الى الليل، بعد طواف متتال حول المقام الأقدس، في شبه حركة ولا حركة وعلى صوت واحد عميق متفجر من أعماق النفس التي استكانت واستجابت في كثير من فهم ورجاء إلى هذه الأدعية المتعالية المطيبة بذكر الله .

لقد أحب الشيخ الأكبر الله وعشق ذاته الالهية عشقاً انتهى دون سائر الصوفية الفلاسفة الى تقرير وحدة الوجود واخراجها في مذهب فلسفي استمدته من القرآن الكريم، والحديث وعلم الكلام، ومن مذاهب فلسفية مختلفة، كفلسفة المشائين، والأفلاطونية الحديثة، والعلوم الباطنية والرواقية، ومذهب الإشراق وغيرها، وطبع كل ذلك بما كان ينبع في أعماقه من حب وإيمان وقد امتزجا بعلم خالص أبدعه ابن عربي وجعله مثله الأعلى في حياته المتبتلة.

كأنني بالمؤمنين الذين يطوفون بالمقام يذكرون الله ويذرفون الدمع، يبتهلون في أدعية حُرَى، كأنني بهم وقد أساء أسلافهم الى العلم الاسلامي الشامخ يوم قتله نفر منهم، بعد شطحة من صوفيته المتدفقة وأنتم وما تعبدون تحت قدمي هذه. ولم يفهموا عنه ما يريد، كأنني بهم في أدعيتهم وطوافهم وخشوعهم وتقواهم يكفرون عن الخطيئة التي ارتكبوها وهماً منهم وجهلاً. ليلتذ في الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة ستمائة وثمان وثلاثين للهجرة، الف ومائتين وأربعين للميلاد أطبقت عينا الامام الأكبر وقد بدت على البؤيؤ من خلال انفراج يسير في الحفن المسبل صورة حزينة ضاحكة من هؤلاء الذين لم يفهموا بعد منهج القطب، شيخ الاسلام أبي بكر محمد بن علي الحاتمي.

ولد ابن عربي في مرسية مدينة في شرق الأندلس على ضفاف نهر خير، ونشأ في أسرة غنية موسرة، وفي بيت حسب وتقى وذهب به أهله وهو بعد طفل الى أشبيلية وهناك قضى سنوات طفولته وصباه ولا بد أنه درس علوم الدين والأدب دراسة شاملة كما يؤكد المستشرق الاسباني كوثالث بالثيا، وفي أشبيلية أيضاً قرأ القرآن، والحديث، ودرس الفقه على يد أحد تلامذة ابن حزم صاحب المذهب الظاهري في الأندلس.

لم يعرف عنه وهو في شرح الشباب أنه كان ميالاً الى الزهد والصلاح ويبدو أنه كان على غرار أبناء الأعيان والملوك، مترفاً في حياته، مقبلاً على الحياة حتى سمع صوتاً يهز أعماقه وقد أمسك بكأس من راح «يا محمداً ما لهذا خلقت». عندها يرمي القدح، ويخرج مدهوشاً وقد كتبت له حياة جديدة

بعد أن قضى أياماً أربعة في قبر مخسوف، قرب نهر جبار، لا يخرج منه الا للصلاة.

يؤكد النقاد وفي طليعتهم المستشرق الاسباني آسين بلاثيوس أن ابن عربي منذ أن تزوج بمريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن الباجي تغير مجرى حياته الشخصي لأن امرأته ضربت له المثل الصالح في التقوى والورع.

من المؤكد أن ابن عربي عندما استكمل عدته بعد أن لازم نفراً من الصالحين، ومارس حياة التصوف مع شيخ كثيرين، وأخذ عنهم من رياضات الصوفية وعلى الأخص من عجوز تدعى نونه فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية ولازمها خادماً ومريداً مدة عامين وشاهد بنفسه ما كان يجري على يدها من ظواهر التنبؤ الغريبة، طوف في بلاد الأندلس والمغرب وتونس وأقام في بجاية وهناك تزوج زوجاً صوفياً بكل نجوم السماء والحروف كلها، وفي تونس ألف كتابه «انشاء الدوائر الاحاطية على مضاهاة الانسان للمخالق وللخلائق». وفيه شرح تصوره المعقد الملتوي للكون بواسطة اشكال هندسية.

في سنة خمسمائة وثمان وتسعين للهجرة الف ومائتين للميلاد توجه ابن عربي الى مكة وجاور فيها وأسر بحب النظام ابنة أبي خاشه، أمام مقام ابراهيم، الحب الذي أوحى اليه موضوع كتابه «ترجمان الأشواق».

ألف ابن عربي كتباً كثيرة منها : «مشاهد الأسرار» ، و «رسالة الأنوار» و «السياسة الالهية» و «ذخائر الأعلاق» وهو شرح على كتابه ترجمان الأشواق الذي يعتبر من أشهر كتبه فضلاً عن كتاب «الحكمة الالهامية» الذي رد فيه على الفلاسفة ونقض آراءهم على طريقة الغزالي في كتاب «التهافت» الى جانب نصوص الحكم ، والفتوحات المكية الذي ضمنه كل آرائه ومذهبه وقدم فيه فلسفته في الفقه والشريعة الاسلامية .

في دمشق، البلد الذي انتهى اليه ابن عربي قدر له فيه أن يرى الذات الالهية وفيها قدر للعالم الاسلامي الشامخ، أن ينتقل الى الملأ الأعلى، الى السماء.

لسان الدين بن الخطيب

نابغة عصره

٧١٣هـ/١٣١٣م - ٧٧٦هـ/١٣٧٤م .

لم يعرف الأدب الأندلسي قبيل انهيار مملكة غرناطة شخصية أدبية مرموقة تركت آثاراً متميزة في الأدب والتاريخ ، وبرزت في الحياة السياسية ، ولعبت دوراً عظيماً الخطورة في الادارة والحكم كما عرف لسان الدين بن الخطيب .

ينتمي الوزير لسان الدين في الأصل الى أسرة السُّلماني التي اشتهرت في أول أمرها ببني الوزير، وكانت من أهل قرطبة ، ثم انتقلت الى طليطلة بعد هياج الربض في عهد الحكم الأول سنة مائتين واثنين للهجرة ، ثمانمائة وثمانين عشرة للميلاد ، غير أن جدّه الأعلى سعيد السلماني عاد إلى لُوشة Lojé على مرحلة من غرناطة واستقر فيها ، وخطب بها وكان من أهل العلم والدين والفضيلة فلُقّب بالخطيب ، الكنية التي لازمت عائلته من بعد .

من المؤكد أن جدّه لسان الدين بن الخطيب لايه كانت تمتّ إلى زوج سلطان بني الأحمر ببنوة الخؤولة ، سبب نباهة قدر والده عبد الله الذي نشأ في كنف الترف والنعيم ، واختص بلقب الوزارة بالرغم من ضالة حظه في العلم والاجتهاد .

عاش والد لسان الدين في رعاية السلطان أبي الوليد اسماعيل النصري من بني الأحمر ورافقه الى غرناطة ولازمه فيها عندما بنى عرشه بها بعد أن انهزم

عنها خصمه أبو الجيوش نصر بن الأحمر وذلك سنة سبعمائة وثلاث عشرة للهجرة ألف وثلاثمائة وأربع عشرة للميلاد كما لازم من بعده ابنه السلطان أبا عبد الله محمداً ، ثم أخاه السلطان أبا الحجاج يوسف ، مشرفاً بلقب الوزارة حتى قتل بظاهر طريف في المعركة الكبرى بين العرب والاسبان سنة سبعمائة وأحدى وأربعين للهجرة ، ألف ومائتي وأربعين للميلاد ، في ما كان لسان الدين ابن ثمان وعشرين سنة .

من هنا نشأ أدبيّاً في محيط الدولة والحكم ، غير أنه بخلاف والده قد انكب منذ حداثته على طلب العلم ، فدرس القرآن الكريم تكتيماً وحفظاً وتجويداً على المقرئ عبد الله بن عبد المولى العوّاد ، ثم جلس الى أبي الحسن علي الكتاني فكان بشهادة لسان الدين في كتابه « الاحاطة بتاريخ غرناطة » أول استاذ انتفع به ، بعد أن درس عليه القرآن والعربية وآدابها ، كما درس على شيخ النحاة في الأندلس أبي عبد الله بن البيري ، وتأدّب بالشيوخ الرئيس أبي الحسن الجيّاب .

ينقل المقرئ في نفع الطيب أسماء عدد كبير من أساتذة ابن الخطيب ثم يقول : « ونكتفي بهؤلاء من مشايخ لسان الدين دون أن يذكر ما جاء في « الاحاطة » « والتاج المحلي » وغيرهما من أن عالمنا درس الطب ، والتعاليم ، والمنطق ، وصناعة التعديل على علامة عصره أبي زكريا يحيى بن هذيل النجيب .

لقد قدر لسان الدين ، الشاعر ، والأديب والمؤرخ وهو ينهض بمثل هذه الثقافة الواسعة أن يتولى بعد وفاة أستاذه ابن الجيّاب كتابة السيرة مضافة الى الوزارة وهو لا يزال شاباً يافعاً مما أدخل الى نفسه شيئاً من الزهو والاعتزاز فكتب عن نفسه في الاحاطة : « قللني السلطان سره ، ولما يستكمل الشباب ويجتمع السن معززة بالقيادة ورسم الوزارة ، واستعملني في السفارة الى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ، ورمي اليّ بخاتمته وسيفه ، واتممني على صنوان حضيرته وبيت ماله ، وسجوف حرمة ، ومقيل امتناعه » .

يبدو من سيرة ابن الخطيب أنه بالرغم من مقتل سلطانه أبي الحجاج بن الأحمر فقد ظل نجمه صاعداً مع خليفته من بعده الغني بالله محمد الذي ضاعف خطوته، وأعلى مجلسه، وقصر المشورة على نصحه الى أن كانت عليه الكاثنة فسجنه أخوه اسماعيل واستبد بالملك فأخذ نجم لسان الدين بالأفول، وسعده بالفتور، ومجده بالخمول فسجنه بعد أن آمنه وقربه، فكبت عندئذ دوره وخيم على أغلاقها وانتهب ما فيها من كتب وثياب وآنية، وبيع كل ذلك بأبخس الأثمان.

الواقع أن كاتبنا لم يمكث في السجن طويلاً فقد أوفد سلطان المغرب أبو سالم المريني وفداً إلى غرناطة يشفع بالسلطان المخلوع الغني بالله محمد وبوزيره لسان الدين بن الخطيب ويسمح لهما بالوفادة عليه.

كان دخول السلطان المخلوع مع وزيره ابن الخطيب الى المغرب يوماً مشهوداً فقد خرج سلطان المغرب وحاشيته للقاء ضيفه الذي أدخله مجلس ملكه وأغدق عليه الهبات، وأوسع له في منزله تكريماً له على منة سابقة، ورعاية لود قديم كان سلطان المغرب قد حفظه لسلطان غرناطة يوم كان لاجئاً في الأندلس.

تُجمِعُ كُتُبُ التاريخ على اعجاب ابن خلدون بلسان الدين وبخاصة عندما وقف في مجلس السلطان المريني وانشده قصيدته الرائية يستعطف بها لسلطانه حتى أبكى من كان في المجلس جميعاً وفيها يقول :

وهذا ابنُ نصرٍ قد أتى، وجناحه كسير؛ ومنَ عليّك، يُلتمسُ النصرُ
غريبٌ يَرجى منك ما أنتَ أهله فإن كنت تبغي الفخر، قد جاءك الفخرُ
فقد، يا أميرَ المؤمنين، ليبيعة موثقة قد حلَّ عقدتها الغدرُ
وخذ يا إمامَ الحق، للحق ثأرة ففي ضمير ما تأتي العز والنصرُ

من الثابت أن أبيات لسان الدين قد ألهمت مشاعر السلطان المغربي وحركت فيه كوابين المروءة، أو كأنها قد أعادت اليه صورة من حياته يوم غادر وطنه، وخلّف عرشه بعد أن تغلب عليه أخوه أبو عنان المريني وبخاصة في

قول ابن الخطيب :

وَأَنْتَ لَهَا يَا نَاصِرَ الْحَقِّ ، فَلْتَقُمْ بِحَقِّ فَمَا زَيْدٌ يُرَجَّى وَلَا عَمْرُو
أَعِيذُهُ إِلَى أَوْطَانِهِ عَنْكَ ثَانِيًا وَقَلِّدْهُ نَعْمَاكَ الَّتِي مَالَهَا حَصْرُ

كان من العسير على السلطان المريني أن يعيد ضيفه الى وطنه عزيزاً
مكرماً ، وإن استجاب للشاعر فأكرم مثنى سلطانِه ، وأفسح له في مدينة
فاس ، محفوفاً بالعز .

عندما استدعى ملك ارغون دون بطرة الى غرناطة ، حليف الأمس
السلطان الغني بالله محمد وذلك بعد أن قتل بيده السلطان اسماعيل الذي لجأ
اليه دون عهدٍ منه إثر معركة وادي اش بينه وبين خصومه المحليين سنة سبعمئة
وثلاث وستين للهجرة ، ألف وثلاثمئة واحدٍ وستين للميلاد عاد ابن الخطيب
الى منزله ومكانته في غرناطة .

في هذه الحقبة بالذات وقد ساءت الأوضاع وكثرت السعيات بين
رجال الدولتين في الأندلس والمغرب رأى ابن الخطيب أن من الخير له أن
يمهد لعودته الى المغرب ثانية بعد أن تداخلته الظنون من موقف سلطانه منه ،
الذي كان قد قرب اليه العلامة ابن خلدون اللاجيء الى غرناطة وجعله سفيراً
له الى ممالك الغرب .

لم يمض زمنٌ قصير على وجود ابن الخطيب في المغرب حتى تولى
السلطان أبو العباس الحكم في البلاد وكان حليفاً للغني بالله سلطان غرناطة
فأمر باعتقال ابن الخطيب وسجنه ، ولم يلبث أن حضر ابن زمرك الوزير
الغرناطي وتلميذ ابن الخطيب من قبل ليشهد على أستاذِه بالزندقة ويتأكد من
مصرعه .

لئن فشل ابن زمرك وأعوانه في إثبات تهمَةِ الزندقة على ابن الخطيب لما
جاء في كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف » فقد تمكن التلميذ أرضاء
لسلطانه وتكرراً لأستاذه من تحريض بعض الفقهاء على العالم الكبير فأفتوا

فيه ، ودخل سجنه ليلاً نفرٌ من الحاشية الحاكمة مع لفيّ من الخدم وسفراء السلطان الغني بالله بن الأحمر وقتلوه خنقاً في أواخر سنة سبعمئة وست وسبعين للهجرة ، ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين للميلاد .

في ما كانت النار تأكل شعر ابن الخطيب وتسود بشرته كان صوت الوزير الخطير يردد من بعيد ومن داخل محبسه :

بَعْدُنَا وَإِنْ جَاوَزْنَا الْبُيُوتَ وَجِئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ
وَانْفَاسُنَا سَكَنْتَ دَفْعَةً كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تَلَاهُ الْقُنُوتُ
فَمَنْ كَانَ يَفْرُحُ مِنْكُمْ لَهُ فَقُلْ : يَفْرُحُ الْيَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتُ

ويموت ابن الخطيب بسعاية تلميذه ابن زُمرَك ، ليظل علماً شامخاً وبراساً يضيء حتى الزوايا القاتمة الحاقدة من نفس التلميذ الجاحد .



المسجد الجامع في تلمنسة

لسان الدين بن الخطيب

الشاعر

«٢»

عندما قُدرَ للمقتلة أن يَخِنُوا فيه النفسَ الأخيرَ الذي كان يتعالى ببطءٍ
وثقل ، وقد سقط الوزيرُ متلاشياً في مَحْبِسِهِ ، لم يَقْطِنُوا أَنَّهُمْ أَذِنُوا لَصَوْتِهِ أَنْ
لا يموت ، ولأدبه أَنْ يخلد ، ولشعره أَنْ يبقى ليردده الناسُ في كثير من
جلال :

جاذك الغيثُ إذا الغيثُ همى يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكن وصلُك إلا حُلماً في الكرى أو خلسةً المختلسِ

وهكذا لم يكتبَ للسان الدين بن الخطيب ولو من بعيد أن يرى الأندلسَ
الذي كان يحلمُ به ، ويحن إليه ، ولم يتأملَ سُبُحُ الأرضِ وزَوَارَ الحمراء وهم
يقفون أمامَ شعره وقد سُبِكَ في الجِصِّ على جدرانِ القصر ، أو كفت في
النحاس على أبوابه يقرأون في رمز ، ويحللون عباراته في صبر ، ويستجلون
معانيه في أناة فيدركون أن شاعرَ السلطان شاءَ تمجيدَ سيِّده ، بعد أن عاد إلى
العرش الذي خُلع عنه ، لتكون عودته تصديقاً للمثل ، وعبرةً في الحياة .

وظَعِنَتْ عن أوطانٍ مُلِكِكَ راكباً مَتَنَ العُبابِ ، فإني صَبِرُ يَجْمَلُ
والبحرُ قد حِينَتْ عليك ضُلوعُه والريحُ تُقَطِّعُ للزفيرِ وترِيسِلُ

ترى لو كُتِبَ لابن الخطيب وهو يطبِّقُ جفنيه قَصْراً ، ويصعدُ النفسَ

الأخير قهراً أن يدرك أن سلطانه الغني بالله الذي أخلص في خدمته ، وتلميذه ابن زُمرَك الذي أعطاه شيئاً من ذاته ، وكثيراً من صفات رجولته ، وهبات من شاعريته ، وصديقه أبا الحسن النباهي قاضي غرناطة الذي منحه وده ، ومُحَضِّه نُصَحِّه وأعانه على مواجهة الحياة قد تألبوا عليه جميعاً ، وتأمروا مع خصيه اللدود سليمان بن داود وزير ابن الأحمر .

قلت لو أذكرُ ابنُ الخطيب كُلَّ هذا عندما كان سيِّداً مهيباً هل كان يَسْمَحُ لِشِعْرِهِ أَنْ يَنْقَشَ على جدران الحمراء تمجيداً لسلطان جائر ، وهل كان يأذن لقلمه أن يقول في ابن زُمرَك في كتابه « الاحاطة في تاريخ غرناطة » : « أنه شعلة من شعل الذكاء ، خفيف الروح ، حاضر الجواب ، كثير الرقة ، فكهُ ، غَزَلٌ مع حشمة وحياء » .

حسبي بالاديب الشاعر أنه كان قد بدَّل من رأيه في سُلْطَانِهِ وتلميذه وصديقه ، وإن عاش ابنُ الخطيب قَدَرَهُ وزيراً مقرباً من السلطان وتَمَرَّسَ بالحكم قادراً غَيْرَ جَبَانَ ، وعاش رسالته استاذاً نابهاً بين الاعلام يؤدي رسالة العلم برسالة المعلم وقلبه ، ولكن أنى له يومئذ أن يُدْرِكَ حقيقة هؤلاء ، وكُلُّ يَسْعَى اليه محتاجاً لشخصيته في الحكم ، ولعلمه في الدرس ، ولعطفه في الصداقة .

فلا بأس اذن وهو لم يدرك حقيقة هؤلاء جميعاً ، وقبيل أن يُقَدِّمَ الجناة على خنقه في مَحْسَبِهِ أن يموتَ جَسَدُهُ ليبقى شِعْرُهُ ، وأن يَتَّعَدَّ عن رَبِّهِ وإن ظَلَّ أسيراً في سِجْنِهِ ، وأن يَعْظَ قبل أن يَضُمَّتْ ويحزنَ مع كل ذلك مُدْرِكاً مقامه في الادارة والرياسة ، مودعاً الحياة على غير ما يرجو .

بعُدْنَا وإن جاورتنا البيوت	وجئنا بوعظٍ ونحن صموت
وانفاسُنَا سَكَنَتْ دفعةً	كجهر الصلاة تلاء القنوت
وكنا عظاماً ، فَصَرْنَا عظاماً	وكنا نُقُوت ، فها نحن قوت
وكنا شمسَ سماءِ العلى	غَرَبْنَ ، فناحت علينا البيوت

فقل للعدي : ذَهَبَ ابْنُ الخطيِّ
فمن كان يَفْرَحُ مِنْكُمْ له
سِب وفات من لا يَفُوت؟
فقل : يفرح اليوم من لا يموت

وكانني بالشاعر الوزير الذي كان يقضي النهار في الحكم والادارة ،
والليل في الدرس والقراءة والتأريخ ، لم يحمل يوماً رسالةً سلطانيه محمد
الغني بالله الى أبي عَينان سلطان بني مَرين مدافعاً عن بلده ، مستصرخاً لانقاذ
وطنه من الخطر المُحْتَلِق ، فيلقى في وفادته العون الذي يسعى لنباهة قُدره
وبلاغه منطقه :

خليفة الله ، ساعد القدرُ
ودافعت عنك كف قُدرته
عُلاك ، ما لاح في الدجى قمرُ
ما ليس يستطيع دفعه البشرُ
وجْهك في الثابتات بدر دجى
لنا ، وفي الممحل كُفك المَطَرُ
والناس طراً بأرض أندلس
لولاك ما أوطنوا ولا عَمَروا

وعلام يحزن ذو العُمرين ، وبالأمر القريب كان يقف على قبر المعتمد
ابن عباد الشاعر والملك الذي اُتْرِغَ عن عرشه ، واقتيد الى مَحْبَسِه بعيداً عن
ملكه ليكي بنائه الشقيات فيرى فيه شاعرنا أكرم حيٍّ ، وأعظم ميت مُتَأَيِّفاً لأنه
لم يُدِرْكه لِيَفْخَرْ به ملكاً وسيداً عظيماً ، وان اتعظ بحياته وموته .

قد زرتُ قَبْرَكَ عن طوع باغماتٍ
لِم لا أزوْرُك يا أندى الملوْكِ بدأ
رأيتُ ذلك من أولى المهماتِ
ويا سراج الليالي المذلْهَماتِ
وانت من لو تَخْطِي الدهرُ مصرَعه
الى حياتي لجادت فيه أَيْتاتي
أنافَ قَبْرُك في هَضْبٍ يُمَيِّزه
فتتنحيه حَفِيَّاتُ التحياتِ
كرمست حَيًّا وميتاً واشتهرت على
فأنت سلطان أحياء وأمواتِ

بلى لا بأس أن تكون نهاية العظيم فاجعةً لأنها أبقي في الدهر ، وأخلدَ
في حادِثاتِ الزمان ليظلَّ الناسُ جميعاً يرددون كلما ذكروا الأندلسَ الضائع ،
والمجدَّ الغابر ، والتراثَ المرجع مع ابن الخطيب موشحته المشاة التي بزَّ بها

كُلُّ الموشحات الأندلسية لأنها الصورة الصادقة للأرض الخضراء ، والسماء
الضاحكة ، والدنيا التي عُرِبَتْ في رَيَّان حضارتها المثلى وشاعرنا الشاب لا
زال يذكر خطاه مع من يحب في ما كان الربيع يملأ الأرض البكر .

اذ يقود الدهرُ اشتاتَ المنى تتقلُّ الخطو على ما نرسمُ
وُمرّاً بيمينِ فرادى وُثْنَا مثلما يدعو الحجيجَ الموسمُ
والحيا قد جَلَّلَ الروضَ سَنَا فشفورُ الزهر فيه تبسُّمُ

حتى إذا ضاع شاعرنا في هذا السَّمَط الجميل الأسر عاد ليقلل الغصن .

وروى النعمانُ عن ماء السماء كيف يروي مالهك عن أنسٍ
فكساه الحسنُ ثوباً مغلماً يزدهي منه بأبسهى ملبسٍ

وعندما يذكر ابنُ الخطيب كُلَّ هذا الجمالِ ويصورُ الحقيقةَ التي كانت
تختلجُ في أعماقِ ذاته نغمًا خالدًا وحنيناً دائماً يعودُ لمصور حيةً في بيت آخر
باعثاً ذكريات عذاباً على نفسه إن لم تقو أن تطفىءَ لهيبَ شوقه فقد كانت قادرةً
على اضرامِ شوقِ الحبِّ في كُلِّ النفوسِ .

ويقلبي منكم مُفْتَرِبُ بأحاديثِ المنى وهو بعيدُ
قمرٌ أطلعَ منه المَغْرِبُ شِقْوَةُ الْمُضْنَى به وهو سعيدُ
قد تساوى مُحِينٌ أو مَذْنُبُ في هواه بين وَعْدٍ ووعيدُ

وعلام لا يتساوى في نظره كُلُّ الناسِ وابنُ الخطيبِ يصورُ لنا هذا
الحبيبَ في قفل البيت آيةً في الحسن ، أحورَ العين ، كرزِي الثغر .

أحورُ المقلة معسولُ اللَّمَى جال في النفسِ مجالَ النَّفسِ
سُدَّةَ السَّهْمِ فأصمى إذ رَمَى بغواذي نَبْلةَ الْمُفْتَسِرِ

سيظلُّ الناسُ في مشرقِ الأرضِ ومغربها وكلما تطلَّعوا الى الأندلسِ

الخالد الغافي بين أشجار الزيتون في قرطبة وجيان ، وبين أشجار الليمون
وأزهار النرجس والنسرين في شاطبة ودانية وبلنسية والجزيرة الخضراء ، سيظل
يرددون مطلع موشحة ابن الخطيب .

بلى سيبقى لسان الدين بن الخطيب الذي كانت تكمن مأساته في بخله
وطموحه ، والذي عرف بذى العمرين لأنه اضاف بسهر الليل الى عمره عمراً
ثانياً ، علماً بارزاً وإديباً فذاً خالداً ، ومؤرخاً محققاً ، وشاعراً فخماً مبدعاً ،
تدل كتبه السبعة والثلاثون التي اتي على ذكرها والتعريف بها ، والتي تتميز
باسلوبه الفخم المرصع ، الدليل على عظمة هذه الشخصية لا سيما منها كتابه
(الاحاطة بتاريخ غرناطة) ، والذي جمع فيه سير العظماء والناهبين من اهل
مملكة غرناطة ومن وفد عليها وسكنها .



أبراج القصر الأحمر



ابن زمرك الوزير الوشاح

٧٣٤هـ / ١٣٣٣م - ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م

امام قنديل خافت الضوء شاحب النور تتلاعب به بقايا الريح الهاربة من
نوافذ القصر ، والليل مدلهم جائم على غرناطة المدينة العربية الشامخة ،
جلس محمد بن يوسف بن محمد ابي عبد الله بن زمرك منقبض النفس وقد
هدته العقود الستة فبدا تحت وطأتها خائتر القوى ، ضعيف العزيمة خائفاً
مضطرباً .

كأنني بالشاعر ابن زمرك في ليلة من ليالي سنة سبعمائة وسبع وتسعين
للهجرة ، الف وثلاثمائة وخمس وتسعين للميلاد ، والهواء يعصف مجنوناً ،
والثلج يتساقط كثيفاً لم يجلس من قبل وفي عنفوان شبابه ومنتهى صولته ،
وغاية قوته وزيراً مهاباً الى هذا القنديل بالذات ييشه النجوى ويقضي معه الليل
نائهاً في من احب وقد اشعلت قلبه هياماً ، واذابت نفسه حسرات :

لقد زادني وجداً واغرى بي الجوى	ذبال بأذيال الظلام قد التفتا
قطعت به ليلاً بطارحني الهوى	فأونة يبدو وأونة يخفى
الى ان افاق الصبح من غمرة الدجى	واهدي نسيم الروض من طيبه عرفا
لك الله يا اصباح ، اشبهت مهجتي	وقد شفاها من لوعة الحب ما شفا

قلت وكأنني بالشاعر ابن زمرك لم يجلس الى هذا القنديل من قبل شاباً
طلق المحيا ، عريض الجاه ، نافذ الكلمة ، فقد بدا في هذه الليلة بعد ان

خبت ملامح رجولته خائفاً يتلو ما أذن له من القرآن الكريم امام ضوء المصباح الخافت ، وبصوت متقطع حزين لا يكاد يبلغ السماء .

وتشتد العاصفة ويهبط البرد ويدلهم القدر ، ويعلو الصراخ ، ويفزع من في القصر من ولد وخدم على صوت الوزير المستغيث ، ويلقى ابن زمرك جثة هامدة لا حياة فيها امام القنديل الذي وعى بالأمس البعيد حبه ، والى لحظات دعاه وتلاوته وقد مثل به ويمن حاول انقاذه من اهل وخدم .

ويتهيئ ابن زمرك اشلاء مبعثرة ، وإن ظلت عينه جاحظة من وراء الجفن المنفتح قليلاً ومن خلال السنين الماضيات ، في جثة لسان الدين بن الخطيب ، الوزير والمعلم الذي ادب ابن زمرك فجعل منه شاعراً ، واتاح له بجاهه منصب الوزير والمكانة المرموقة .

حتى اذا كلت العين عن التطلع الى جثة الاستاذ الذي لقي حتفه بسعاية التلميذ العاق انحسرت على نفسها مؤمنة بالقدر الذي يلهو ، مدركة المعنى العميق في بيت ابي البقاء الرندي ، وإن افقدت القدرة على الانتفاع به :

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش انسان
ويموت ابن زمرك اكبر شاعر فعل انجبه الاندلس في عصره كما يصفه المستشرق الاسباني اميليو غراسيا كومس ، بعد ان وصم نفسه بالعقوق والجحود ، وادى دوره على مسرح الأحداث في اخر مملكة عربية في الاندلس .

يجمع الرواة وفي طليعتهم علي بن لسان الدين بن الخطيب في الحاشية التي علق بها على ترجمة والده لابن زمرك في كتابه « الاحاطة بتاريخ غرناطة » بأنه ابن حداد باليازين احد احياء غرناطة الشعبية ، وإن كان اصل عائلته من شرق الاندلس .

هذا ومن المؤكد ان الشاعر درس في غرناطة وفاس على عدد من النابهين وفي طليعتهم الوزير ذو العمرين لسان الدين بن الخطيب الذي وصفه في كتابه « الاحاطة » فبالغ في الثناء عليه ، وانه شعلة من شعل الذكاء ،

خفيف الروح ، حاضر الجواب ، كثير الرقة ، فكه غزل مع حشمة وحياء وقد عرف بالعبقة والطهارة ومشاركة الاخوان في ما نملك يده ، وان شعره مترام الى هدف الاجادة ، خفاجي النزعة ، كلف بالمعاني البديعة ، والالفاظ الصقيلة .

اتصل ابن زمرك وانقطع الى السلطان الغني بالله عندما خلع هذا عن عرشه ونفي الى المغرب ، ثم قدر له ان يعود برفقته الى غرناطة بعد ان استرد ملكه ، فولاه عندئذ كتابة السر في كتف ورعاية لسان الدين بن الخطيب ، الا انه منذ ذلك الحين كان ضالعا مع خصوم ابن الخطيب ، حتى اذا انقضت العاصفة على الأستاذ الوزير واصابته المحنة كان في طليعة اعدائه الساعين الى هلاكه ، وكان قد خلفه في الوزارة بعد ان فر لسان الدين فتولى مهمة السعي به لدى بلاط فاس ونجح في القضاء عليه في محبسه .

واقبلت الدنيا على ابن زمرك فعلا كعبه ، وقويت حظوته ، واشتد نفوذه فدفعه سوء الطالع لطغيانه وغطرسته وحدة لسانه ، وما اثار حول نفسه من البغض والخصومة الى نقمة سلطانه الغني بالله الذي اعتقله ونفاه ، غير انه لم يلبث ان عاد الى غرناطة في بداية عهد السلطان محمد بن يوسف الثاني الذي قلده الوزارة فأساء السيرة ، واشتد عبثه وطغيانه الى ان قتل غيلة على يد خصومه .

يعتبر ابن زمرك واحد من أكبر الوشاحين الذين انجبههم الاندلس في عصر الموحدين فقد مال الى الموشح المنظوم على الأوزان الشعرية المألوفة حتى ان جل ما عرفه المقرئ من موشحاته لينخرط في سلك المعرب وان اكثره من مخلع البسيط ، فضلاً عن انه تناول في موشحاته اغراضاً مختلفة وابرزها صبحياته التي يؤكد بعض النقاد انه برز بها موشحات استاذ لسان الدين .

لابن زمرك كثير من الشعر الذي كتبت في الجص ونقش على جدر الحمراء وكوّن جزءاً لا يتفصل عن زخارف قصور بني نصر، ومنه الابيات التي نقشت على جدر بهو الأختين وهي من قصيدته التي قالها في وصف دار الملك التي ابتناها محمد الغني بالله ومطلعها :

سل الافق بالزهر الكواكب حالياً
وحملت معتل النسيم امانة
فأني قد اودعته شرح حالياً
قطعت بها عمر الزمان امانيا
إلى ان يقول :

ولله مبناك الجميل فإنه
فكم فيه للابصار من متنزه
وتهوى النجوم الزهر لو ثبت به
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا
سواري قد جاءت بكل غريبة
به المرمر المجلو قد شفت نوره
إذا ما اضاءت بالشعاع تخالها
به البحر دفاع العباب تخاله
يفوق على حكم السعود المبانيا
تجدد به نفس الحليم الامانيا
ولم تك في افق السماء جواريا
به القصر آفاق السماء مبانيا
فطارت بها الأمثال تجري سواري
فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
على عظم الاجرام منها لآليا
إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا

اما ان يكون ابن زمرك خفاجي النزعة على حد قول استاذة فلان الشاعر
كشاعر الأندلس الاول في وصف الازهار والأنهار ابن خفاجة مال إلى وصف
الرياض والطبيعة ، هذا اللون الذي كان يصدر عن طبع فني اصيل ، وعن
خيال متدفق رقيق ، صورة لنفسيته الشاعرة المرفهة والحساسة .

نواسم البستان	تشر سلك الزهر
والطل في الأغصان	ينظمه بالجواهر
وراحة الأصباح	اضاء منها المشرق
تنشرها الأرواح	فلا تزال تخفق
والزهر زهر فاح	من عيون ترمق
فأيقظ الندمان	يصرن ما لم يصر
جواهر البستان	قد عرضت للمشتري

ولكن انى لابن زمرك ان يغني اليوم الرياض ، وقد اضحى اليوم بعيداً
عن الروض الذي احب ، والأرض التي غنى تفتersh قبره الضائع ازهار
ورياحين غرناطة الناعمة قبالة سيرانافادا جبلها الحارس .

غزيري لبناني في خدمة التراث الأندلسي

١٧١٠م-٢

يلذكر الدارسون لتاريخ الفكر العربي في الأندلس من بين الاسماء الاعلام المشرفة التي قدر لها ان تحفظ التراث الأندلسي وتصونه وتساعده على خدمة الحضارة الانسانية اسم العالم اللبناني الأب ميخائيل غزيري .

في يوم ضاحك مزهو من ايام لبنان الحلوة البهيجة وصيف الف وسبعمئة وعشرة يطل على ارضنا المعشوشبة المتدلّية من اعلى القمم الى اقدام الساحل الذهبي تفتحت في بلدة غزير عينان صغيرتان على الدنيا وراحتا تتطلعان في ارجاء الغرفة المتواضعة وكأنهما تحاولان ان تنفذا الى كل شيء ، الى الارض البكر الثائرة مع الصيف ، الى البحر النائم قبالة غزير ، الى السماء الزرقاء الصافية التي تتوج ارض كسروان .

بلى ان الطفل الذي اخذ يناغي الصباح مع طيور الحقل وشوشات الفراش في غزير كان ابن القرية التي خلدها في ما بعد ، وكان الكاهن والعالم والمؤرخ والمكتبي الكبير الذي اختلف النقاد في تحديد مكان ولادته فأكد الدكتور فيليب حتي في كتابه «لبنان في التاريخ» نقلاً عن De la Roque انه ولد في طرابلس الفحاح بينما اثبت نقلاً عن ترجمته الخاصة وعن اسمه الذي عرف فيه بين العلماء انه ولد في غزير .

لقد عرفت مؤسسات الاستشراق في اوربا وفي ايطاليا وفرنسا وهولندا واسبانيا خاصة كما عرف العلماء من الباحثين والدارسين لاثار العرب مكانة

العالم اللبناني ميخائيل غزيري وذلك بما أدى من خدمات جلّى للتراث الحضاري الاندلسي فقدروه ، ورجعوا الى تصانيفه في بحوثهم ودراساتهم .

اكمل ميخائيل غزيري دروسه في لبنان ثم رحل في بعثة اكاديمية الى روما وهناك اكب على الدراسات اللاهوتية ، ونحن ان لم نستطع تحديد تاريخ سفره الى روما لفقدان الوثائق التي بين ايدينا حول هذا الموضوع فمن المؤكد ان العالم اللبناني قدّر له ان يمثّل مطران طرابلس في المجمع الكنسي اللبناني الذي عقد في اللوزة سنة الف وسبعمائة وست وثلاثين .

الحقيقة ان نجم عالمنا لم يتألق إلا في مكتبة الفاتيكان اذ عُرف كتلميذ نجيب للعالم اللبناني يوسف سمعان السمعاني ، ابرز شخصية انجبتها مدرسة اللاهوت المارونية في روما .

عُهد إلى الأب يوسف السمعاني نظارة وإدارة مكتبة الفاتيكان فجعل منها اغنى مكتبة في العالم بالمخطوطات الشرقية وله يعود الفضل في وضع فهرست في اربعة مجلدات لمخطوطاتها السريانية والعربية والعبرية والفارسية والتركية والحبشية بعنوان « المكتبة الشرقية » وقد تم وضع هذا الفهرست خلال تسع سنوات فانتهى منه سنة الف وسبعمائة وثمان وعشرين .

لقد تدرب العالم ميخائيل غزيري في الأعمام المكتبية على يد الاب يوسف السمعاني وفي مكتبة الفاتيكان فكان نجيباً من كبار مكتبيها ثم اضمح في ما بعد مديراً لقسم المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريال في اسبانيا، والاسكوريال في الواقع دير شهير على بعد ثلاثين ميلاً الى الشمال من مدريد العاصمة وقد بناه الملك فيليب الثاني سنة الف وخمسمائة وتسع وخمسين ليقتفي فيه أثر والده في التنسك والاعتزال ، كما قام في هذا الدير خزانة كتب عظيمة طولها اثنتي وخمسين متراً .

تضم مكتبة الاسكوريال من الكتب والآثار، النادر والنفيس، فتضم كتب الصلاة التي كان يقرأ فيها شارلكان وفيليب الثاني ، ومخطوطاً اسبانياً يتضمن نصيدة فيرجيل الشاعر الروماني ، وقرآناً كريماً بخط مغربي مذهب كبير

الحجم حازته الدولة الاسبانية سنة الف وخمسمائة واربع وتسعين الى جانب عدد كبير من نفائس المخطوطات العربية .

هذا ويؤكد الناصري في تاريخ الاستيلاء بأن احد المؤرخين الاسبان اثبت « ان قَرَأَصَتَهُمْ غَنِمَتْ في بعض الأيام مركباً للسلطان زيدان صاحب المغرب فيه اثاث نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سيف من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك » .

هذه المجموعة النادرة من المخطوطات هي التي اكب عالمنا اللباني ميخائيل غزيري على دراستها ونقدها ووضع بها فهرساً باللاتينية بعنوان « المكتبة العربية الاسبانية الاسكوريالية » وذلك في مجلدين وقد صدر المجلد الثاني سنة الف وسبعمائة وسبعين .

درس غزيري في هذا الفهرست الف وثمانمائة مخطوط في مكتبة دير الأسكوريال وذلك بدعوة من ملك اسبانيا آنذاك فحفظ عن حب وإخلاص وتقان، تراث امة اسهمت في بناء الحضارة الإنسانية . الحقيقة ان فهرست غزيري يعتبر اجلاً مرجعاً لدراسة وتقييم المخطوطات العربية في الاسكوريال فضلاً عن انه أول تصنيف علمي دقيق لها .

هذا وبالرغم من المحاولات الجدية التي قام بها بعض المستشرقين امثال ليثي برونسفال لدراسة هذه المخطوطات وتقييمها فعمله لا يتعدى ان يكون تصوراً او ترجمة للمخطوط العريضة الرئيسة لعمل عالمنا ميخائيل غزيري .

ان المكتبيين الفنين الدارسين لهذا الفهرست يجدون فيه المدماك الأول لعلم دراسة المخطوطات وتقييمها فقد يبدو لهم جلياً ان الأصول الحديثة للفهرسة لم تكن معروفة يومئذ ، فالمعلم المكتبي لم يعط الباحث الإيضاحات الكافية عن حجم المخطوط ، وعدد الاسطر المكتوبة طولاً فيه ، أو عن عدد الكلمات المكتوبة عرضاً ، فضلاً عن انه لم يذكر شيئاً بالنسبة لجدة المخطوط او قديمه ، ولا يثبت اسم ناسخه ان لم يكن المخطوط الأم بخط مؤلفه .

ليس من شك في ان العلماء المهتمين بمثل هذه البحوث يجدون اهميةً كبرى في تحديد مظاهر هذه الأصول اذ ان المخطوط يختلف عن الكتاب ، وتقييمه يقوم اليوم في ضوء اصول حديثه .

إذا كان العالم اللبناني قد اغفل ذكر مثل هذه القواعد الفنية التي لم تكن معروفة في عصره فلقد قدم في فهرسته ترجمات واسعة لمؤلفي هذه المخطوطات وموضوعاتها فأغنى بذلك المكتبة العربية وخدّم الفكر الأندلسي إذ قدم للمستشرقين دراسات وافية عن الأعلام والمفكرين الأندلسيين وعن مؤلفاتهم واهدافهم، فنقل بذلك خلاصة الفكر الاسلامي الى اوربوا المعاصرة ومستشرقها .

عن هذه الطريق التي مهدها السمعاني أولاً في فهرست المخطوطات الشرقية في مكتبة الفاتيكان وذلكها غزيري في فهرست المخطوطات العربية خاصة في مكتبة الاسكوريال حُفِظَ تراث المشرق والمغرب العربيين في اكبر مكتبتين في اوربوا .

وفي هذه الطريق التي خطها غزيري وسلكها دوزي واماري ونلسون وبروفنسال ، وكويانكوس وبالثيا وكومس وغيرهم من اعلام الاستشراق عرفت اوربوا الوجه الحقيقي للثقافة الشرقية ولروح الحضارة الاسلامية في الأندلس العربي .

لقد اضحى الفهرست الذي وضعه عالمنا اللبناني نادراً ومفقوداً وان الدولة الاسبانية تعتبر النسخ القليلة التي تحتفظ بها في مؤسساتها الثقافية الكبرى ائمن من اي مخطوط آخر لأنه أم المخطوطات جميعاً ومرجع البحث والدرس والاستقصاء .

ان عالماً من لبنان في عشر سنوات من البحث العلمي الرصين حفظ تراث امة منتجة ما كان لتراثها ان يحفظ على الزمن لولا مثل هذا الجهد العظيم ، وهذا لمجري الغاية من البحث العلمي والدراسات المكتبية .

ميكل آسين بلاثيوس أكبر مستشرق انجبهته اسبانيا الحديثة لمرور مئة سنة على مولده

١٨٧١م-١٩٠٤م

لم يعرف الاستيثاراق الاسباني ، خلال العصر الحديث علماً ثقة فذا أصيل الثقافة العربية والاسلامية ، واعى النظرة النقدية العلمية ، باحثاً متضلّعاً بالفلسفة كاشفاً عن جوهرها محدداً لأصولها ، مدركاً لأسرار العربية وعمقها دارساً للعقائد الدينية مقارناً بينها ، عبقرى الرأي في كثير من الأبحاث المرجع كما عرف العالم والمحقق المستشرق القمة ميكل آسين بلاثيوس .

مع فجر ضاحك من صيف سنة ألف وثمانمائة وواحد وسبعين والطبيعة ساجية في الأرض البكر المترامية حدائق مزيجاً من الألوان على ضفتي نهر أبرو المنسكب لجيناً من جنوب فرنسا ومن الروافد المتدفقة من جبل قلعة ايوب سُمع صوت طفل يناغي الحياة بلغة الحب ، لم يلبث أن عرف باسم ميكل .

وأطل الفتى على مسقط رأسه ، يافعاً والمدينة البيضاء ذات الأسوار الرخامية القديمة ، والأبواب الأربعة النادرة : باب إذا طلعت الشمس من أقصى المطالع في القيظ قابلته عند بزوغها ، فإذا غربت قابلت الباب الذي بازائه من الجانب الغربي ، وباب إذا طلعت الشمس من أقصى مطالعها في الشتاء قابلته عند بزوغها وهو الباب القبلي ، وإذا غربت قابلت الباب الذي بازائه من الجانب الغربي ، والمدينة العظيمة في بنائها وعمرانها منسكبة تاء اعجمية كالصليب فوق سهلها الأفيح .

وكم حاول ميكل وهو لا يزال فتى أن يجتاز دروب المدينة حيث تلاقت الأشجار فوقها ليطل من نهاية الطريق على بقايا الباب الذي قابله الشمس عند بزوغها يوم مولده، وأن يتأمل التلال المترامية في خشوع حول الدارسات من السور الرخامي الشامخ، آية الصنعة والبناء الهندسي، وأن يكحل ناظره بالندى اللؤلؤي وقد انفرجت عنه الأزهار، وأن يستمع الى زقزقة الطير الحالم في أعشاشه، أو إلى سقسقة الجدول الهارب من أعماق نهر أبرو، وأن يتطلع إلى الأشجار المثقلة بالثمار، أو إلى هذه المصانع التي كانت على عهد العرب تحيك الثياب السرقسطية.

وقدر للفتى وهو الطلعة أن يجتاز الدروب كل الدروب تحت فيء الأشجار الباسقة وأن يتأمل كل شيء في المدينة البيضاء التي وعت مناغاته للحياة حتى راح يتأمل السماء، ويمدروحه وقلبه الى من أبدع الجبل والنهر والوادي بعد أن أحس أن ذاته، كل ذاته تتجاوب مع قدرة خفية تملي عليه أن ينعق لها .

واكب ميكل على الحياة مستجيباً للنداء البعيد الذي هز كيانه ذات مرة وهو يتأمل الجبل والنهر والوادي، ويمدروحه وقلبه إلى من أبدع الأرض والسماء وانخرط مع المتعبدين المنصرفين لله، وفي اكليريكية مدينته البيضاء تعمق في دراسة اللاهوت والفلسفة منكباً على التصوف والفلسفة الاسلامية وجوهرها، متعمقاً في فهم صوفية كثير من أعلام الأندلس الاسلامي واجداً في جوهر هذه الصوفية تضافر بعض العناصر التي أسهمت في تكوين هذه الحركة وقد استقرت في الفكر العربي اتجاهاً نفسياً وعقلياً، بعيداً عن أهدافه الأولى التي قام عليها وعن مفهوم الورع في الاسلام.

الحقيقة أن هذه العناصر هي حصيلة الفكر اليوناني، والمذهب الأيوبي واره فيثاغوراس وتفكير أرسطو والمذهب الاسكندراني ومعتقدات لاوتسه الفيلسوف الصيني ومظاهر التبتل، وتعذيب النفس، وترك السعي في الدنيا في الدين المسيحي، هذه العناصر جميعاً التي التقى عندها المتبتلون والمنصرفون الى الذات العلية كل وفق عصره ومعتقده منذ عرف الانسان الزهد والعبادة والتقوى .

ليس من شك في أن اعجاب القس ميكل اسين بلاثيوس بدعوة الفلاسفة المسلمين ومحاولتهم التوفيق بين العقيدة والفلسفة دفعه الى التعمق في دراسة الفكر العربي ونشأته فاتخذ أبا حامد الغزالي موضوعاً لرسالته الجامعية التي فاز على أثر مناقشتها بلقب دكتور وكانت منطلقاً الى بحوثه العربية والاسلامية المرجع .

كان ميكل اسين عالماً ليس كالاعلام فكان عالماً صادقاً مخلصاً قوياً، ذا ديانة يؤمن بأن سلامة العقيدة والشرف فوق الحياة نفسها، وكان متواضعاً في غير ضعة، عبقري النظرة النقدية متشدداً لا يقول إلا حكم العقل، لأن مزاجه الذي جمع بين الهدوء والرزانة والنفاز والصلابة والقدرة على قبول الحقائق الجافة جعله ينأى عن الاستغراق في فيوض الحياة الروحية وحدها ودفعه الى أن يعلن اراء صريحة سليمة بالرغم مما في آرائه وهو القس من جرأة على دحض الاسلام واعلامه، كثير من الراء الزائفة التي أملاها التعصب، لا الدرس التي كانت تسيطر على الفكر العربي، ان بالنسبة الى الاسلام واعلامه في الثقافة العربية والاسلامية لتفاعلهما على الأرض الأوروبية لاقامة حضارة انسانية .

تتلمذ ميكل اسين بلاثيوس في العربية وأدابها والاسلام ومعتقداته على يد المستشرق الاسباني الكبير خليان ريبيرا وراح يكتب أبحاثه، وموضوعاته عن الفكر الاسلامي في مجلة جامعة سرقسطة حتى إذا تخلى له العلامة الاسباني المستشرق كوديرا عن كرسي اللغات السامية في جامعة مدريد المركزية بزغ نجمه، وعلا كعبه كأعظم مستشرق اسباني عرفته اسبانيا الحديثة، وعلى يديه تخرج عدد كبير من علماء الاستشراق ، ليس في اسبانيا وحسب ، وإنما في كثير من دول أوروبا .

الواقع أن بلاثيوس لم يدع البحوث الاسلامية ضمن حدود الحرم الجامعي وفي اطار الطلاب المتخصصين ، بل انطلق بها بعيداً عندما أسس معهد الدراسات العربية في مدريد وجعل له فرعاً في غرناطة ضم كل منهما أكبر مكتبة متخصصة في التاريخ الاسلامي وانشأ مجلة الأندلس التي حملت

أفكاره وارهه في الموضوعات التي أوقف لها نيفاً وخمسين عاماً من عمره حتى أصبحت مدار البحوث العربية والاسلامية فانتخب رئيساً للأكاديمية الملكية للغة، كما انتخب عضواً في أكاديمية التاريخ الملكية ، والمجلس الأعلى للبحوث العلمية وعضواً في الأكاديمية الملكية للعلوم الأدبية والسياسية .

بلغ ميكل اسين بلاثيوس بفضل عبقرته ونظراته النقدية الرصينة شأواً بعيداً حتى أضحى مثلاً لكبار المستشرقين الغربيين ، ومرجعاً في البحوث العربية والاسلامية خاصة، فانتخبه المجمع العلمي العربي بدمشق عضواً تقديراً لعبقريته الفذة وحياد ارائه النزيهة في كل الموضوعات، التي عالجها والتي بلغت نحواً من مائتي وخمسة وأربعين ، بين كتاب ضخمة ، ودراسة متخصصة وترجمة للتوايح من الأعلام .

عالم بلاثيوس وهو المعجب بروح الزهد عند أعلام الصوفية الاسلامية في الأندلس خاصة اراء كثير من هؤلاء الأعلام، كما ترجم الى الاسبانية مع مقدمات ودراسات موضوعية، العديد من اثار متصوفي وفلاسفة الأندلس الاسلامي ليطلع مثقفي اسبانيا على التراث الانساني الضخم الذي خلفته اسبانيا الاسلامية للمفكرين، وليؤكد بالتالي أن كثيراً من مظاهر الحضارة الانسانية اليوم انما قامت على هذه البذور الخيرة التي خلفها مفكرو الاسلام .

لعل أهم دراسة دل فيها بلاثيوس على هذه الاراء مؤلفه الضخم ، الأصول الاسلامية للكوميديا الالهية ، الذي نشره سنة ١٩١٩، مؤكداً أننا نجد في الأدب الاسلامي مفتاح جانب كبير مما استطاع الناس، وما لم يستطيعوا تفسيره من المسائل المتعلقة بالكوميديا الالهية لدانتي الجيري، أي أننا نجد في هذه الآداب الاسلامية أصول بعض ما ذهب الدانتيون الى أنه أخذه عن مفكري النصاري السابقين عليه في الزمن، وبعض ما لم يجدوا له أصلاً فنسبوه إلى عبقرية دانتي وخياله المبدع .

لقد أكد اسين الى أن الأصل الاسلامي الذي يمكن أن يكون قد أوحى بفكرة الكوميديا الالهية، هو، أسراء الله برسوله ﷺ الى المسجد الأقصى،

وعروجه به الى السماء .

الدارس لأراء اسين في هذا الكتاب الضخم يدرك عبقرية النظرة النقدية عند المستشرق الاسباني الكبير الذي اعتمد على الأسلوب المقارن بين قصة الاسراء ، وأنشيد الكوميديا مرجعاً بالجدل المنطقي ، والبحث العلمي الى خيال مفكري الاسلام عبقرية الخيال عند الشاعر الايطالي القمة .

في مثل هذا الصيف قبل خمسة وعشرين عاماً وعلى التحديد في شهر آب سنة ألف وتسعمائة واربع واربعين انطلقاً السراج المتقد ومات ميكل اسين بلاثيوس أعظم مستشرق اسباني عرفته نهضة الاستشراق في اسبانيا الحديثة .

بلى لقد مات العالم الكبير والقس المؤمن ، والناقد الثقة وغيب في الأرض التي درس أدبها وتاريخها وتفاعل مع حضارتها نيفاً وخمسين عاماً ، وهو ثابت الجنان ، واعى الفكر ، وأن من حق العالم الاسباني على أدباء العرب المعاصرين لا سيما الذين وعوا أدبه وعلمه أن يشيدوا بفضلله .

مات ميكل اسين بلاثيوس ، قبل خمسة وعشرين عاماً بعد أن أغنى الخزانة العربية ، فأين هذا الحديث المقتضب من ترجمته وتاريخه ، وأين هو من فكره وعلمه ، أين هو من فلسفته وآرائه ، أين هو من دراسته لابن السيد البطلموسي ولاين باجه وابن مسرة وابن حزم ، أين هو من دراسته لابن عربي والغزالي ، أين هو من دانتى والاسلام .

بلى هذا الحديث هو عنوان لعالم انساني ، ومفكر عبقري للنظرة النقدية هو المستشرق ميكل اسين بلاثيوس .



القِسْمُ الثَّالِثُ
أَحْضَارَةُ وَالثَّقَافَةُ
الْإِسْلَامِيَّةُ فِي الْأَنْدَلُسِ

يومان في طليطلة

لم يستطع الليلُ ذاتَ يومٍ من ربيعِ الف وتسعمائة وسبع وخمسين ان
يطمئنَ الى وجودِهِ طويلاً وقد احس على غير عادةٍ منه ان الفجرَ يكرّ في اقتحامِ
اطرافِ مملكته المهيمنة على جزءٍ كبير من الأرض ، في ما كانت الريحُ الشماليةُ
تضربُ نهايته بعنف ، وتقفُ سداً منيعاً في وجه الأمطار بينما كان القطارُ
يندفعُ في اعماقِ السهل الأخضر .

وانبلج الفجرُ عندَ الأفق البعيد عن سماءِ زرقاءٍ صافيةٍ غسلها المطرُ
المنهمرُ وجفّف ثوبها الهوائ ، وزُيّنت بقوس قزحٍ معلناً نهايةَ الشتاءِ وقيامَ
الربيع ، ولم تلبث الشمسُ ان اطلت تَفكُ ثغورَ الازهار وقد ربطها الطلُ ،
وتفجّر اريجُ الأرض ممتزجاً بعبقِ الورد ، وابتسمت الدنيا تصغي الى زقزقةِ
الطير الحالمِ في اعشاشه ، المتأهب للسعي ، المرتجفِ من زمجرة القطار
وحشَرَجَتِه .

وكان انفلاتُ النهار من قبضة الليل ، واطلالةُ الربيع من يد الشتاء
وصفاءُ السماء من قيد الغيوم ، وكان انبلاجه بمثابة الأمل الذي كان يراودُ زمرةً
من الشباب وقد بكَروا في الخروج من المدينة الكبيرة ، وتجمعوا في مركبة من
الدرجة الثانية في القطارِ السريعِ الذاهبِ الى طليطلة ليكحلوا العينَ ويسعدوا
القلب ، ويثقفوا العقل بزيارة المدينة العربية النائمة في نهاية السهل الأفيح
الذي يحيطُ بمجرىط ويمدّها بالبقول والخضار ويسوّرها بالجنان ويلفّها بالحنان .

وما ان اطلَّ القطارُ على كتفِ الهضبةِ الشامخةِ المحصنة بنهر تاجه حتى اخذت الأرض تقص لهؤلاء الشبان العرب قصتها . فها هم على ارض المحطة ذاتِ النقوشِ العربيةِ والزخرفةِ الأموية التي صُبَّت في الجِص ، فبدت تحكي قصةَ الحضارةِ الاندلسيةِ في شبه جزيرة ايبيريا .

وانطلق الرفاقُ سيراً على الاقدام وصُعداً في الهضبةِ العاليةِ ليفقوا امامَ بابِ الشمسِ بفنه المدجن ، المتغلِّدِ الجنوبي للمدينة ويتأملوا دُقَّةَ صُنعه ، وإحكامِ بنائه وقوسها المرتفعةِ والمشرَّب نحو السماء لتدخلَ منه اشعةُ الشمسِ الى المدينة ، او لتدخلَ منه الشمسُ كُلُّها الى اعماقِ الظلامِ الذي كان قائماً فيها .

من بعيد اطلت الجسورُ المعلقةُ فوقَ النهرِ بين احياء طليطلةَ وبين منحدراتِ الهضبةِ واجرافِ الأرضِ الغائرةِ من جهاتها الثلاثِ والمتلاقيةِ من بعدُ مع سبلِ السيارات وطرقِ المشاة ، وابتسمت الأرضُ عن طرفِ حصنِ المدينةِ القائمِ من جهةِ الشمالِ ، وعن حصنها الأزلي الطبيعي الملتفِ حولها من جهاتِ ثلاث ، وقد تربعت طليطلة على عرشها لؤلؤة في التاريخ ، ومجدداً لادواره الكثيرة التي عرفتْها منذ عهدِها القديم حين ازدهرت في العصر الروماني ، وصمدت في حصنها الطبيعي المنيع يومَ غزاها البربر واجتاحتها قبائلُ الجرمان الى ان اصبحت قاعدةَ البلادِ ، وحاضرتها العظمى في العهد القوطي قبل ان تطأها جحافلُ الجيش العربي بقيادة طارق بن زياد ، ومن ثمة تقطعها القبائلُ العربيةُ بزعامة موسى بن نصير كما يؤكد الرازي في كتابه الرِّايات .

قد يبدو الانسانُ العربي في طليطلة غريبَ الوجهِ واليدِ واللسانِ ولكن سرعان ما يَحسُ وجوده وتاريخه ومجده امام بقايا الآثار العربية وفي زقاقِ المدينة الضيقة وفي انعكاسِ الوجوه الجميلة التي تحدثه خطفاً بالعين ، او وشوشةً بالرمز ، او خفقةً بالقلب عن تاريخِ ضاحكٍ حزين ، تحدثه عن طاولة سليمان التي اخفى طارق بن زياد احدى ارجلها الأربعة ليؤكد للخليفة الوليد بن

عبد الملك عند عودته الى دمشق انه قهر المدينة قبل وصول قائده وامير افريقيا موسى بن نصير .

ليس غريباً ان تُحدث طليطلة زائرها ايضاً عن تاريخها الحافل بالثورات ضد العرب حتى قُدر للحكم الرضوي سنة ١٨١هـ - ٧٩٧م ان يقهر اهلها بعد ان استخفوا بأمهه ، ولربما حدثت عن الأمير محمد بن عبد الرحمن الاوسط وكيف قاتل اهلها قتالاً عنيفاً ، على وادي سليط بعد ان كُمن لهم ، ولملكي جليقية والبشكنس ، ومع ذلك فطليطلة لا تخجل ان تؤكد انها انضوت تحت لواء عبد الرحمن الناصر سيد الاندلس ، ومسحت وجهها بزخارف قرطبة ، وازدهرت في عهد الخلافة ، واضحت الثغر الشمالي الضاحك للمدينة العربية قبالة اوروبا كلها .

ويقف الشبان والزائرون ذاهلين عما خولهم يمدون نظرهم في بقايا مسجد باب مردوم الذي بناه موسى بن علي سنة ٣٩٠هـ - ١٠٠٠م بعد ان تبرع ببنائه أحد اعيان المدينة احمد بن حديدي ، والذي وهبه الفونسو الثامن بعد استرداد المدينة الى احدى الجمعيات الاسبانية الدينية ، فاذا عَرَفَ الشبان كُلُّ ذلك ادركوا عظمة الفتح وفداحة التراجع ، كما عرفوا شيئاً عن تاريخ المدينة في عهد ملوك الطوائف بزعامه أسرة ذي النون البربرية .

الحقيقة ان هذه الزمرة من الشبان كانت تبحث ايضاً عن القصر الذي بناه المأمون يحيى ، أحد احفاد هذه الاسرة في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد وقد ابدع في بنائه واقام فيه بحيرة ، وبني في وسطه قبة من الزجاج البلوري واجرى له فيها المهندسون بِحَلَقٍ بارعِ المائة الى اعلى القبة فكان يسيل ، والملك جالس بداخلها لا يَمَسُّه شيء منه .

فاذا حدثج الشبان في الأرض ليروا القصر لم يَفْتَهُم ان يبحثوا فيه عن قاعة المجلس المكرم التي كسيت جدرانها بأزْر من المرمر الأبيض ونُقشت جميعها بالتوريقات المحضورة حفرأ عميقاً . ولربما بحثوا ايضاً عن قصر

المأمون الآخر الذي كان يُعرف بقصر الناعورة ، والذي بناه لقضاء فصل الصيف فيه ، واجرى الماء حول قاعاته من بُركة نصبت عليها تماثيل السباع تمر المياه من افواهها فتلطفُ جَوَ القصر قبل ان تهتم المدينة الحديثة بتكييف الهواء .

فاذا قدر لهذا الشباب ان يرى ملامح القصر في بقايا قصر آخر عُرف في ما بعد بقصر « جاليانا » اندفعوا الى وسط المدينة العريقة ليمدوا النظر بالمسجد الجامع الذي كان آية في البناء ، وفناً في العمارة تطل مثذنته من خلال الآثار التي ضربت حولها وقضت على كثير من ملامحها العربية على الأرض كلها ، الأودية والجروف السحيقة ، النهر العظيم ، معالم سُبل المدن والقرى حول طليطلة .

بعد هذه الزيارات الخاطفة للمعالم العربية في طليطلة الاثرية تبين الشباب عظمة الحضارة ، وجلال التاريخ ، ومبلغ الغنى ، وعظمة الرفاه والاتقان ، ونهاية الاسراف ، وغلواء التفرقة ، إلّا انهم مع كل ذلك اتجهوا شمالاً بشرق ليلتقوا بالسباح عند باب القنطرة والذي تمتد الى الغرب منه ساحة المدينة الرحبة التي لا تزال تحتفظ الى اليوم باسمها العربي «Zocodover» سوق الدواب القائمة داخل عقيد من البناء كبير على شكل حذوة فرس ، العقيد الذي هو في الأصل من عقود اربعة كانت تحيط بالسوق المربع ، حيث كان يفتح في هذا السور بابان : باب القنطرة المودي الى وادي تاجة ، وباب شقرة ، والى جانبهما في الجهة الجنوبية من السور كان يفتح بابان آخران يشرفان على نهر تاجة احدهما باب الحديد ، والاخر باب الدباغين الذي لا يزال الى اليوم يحتفظ باسمه العربي ايضاً Puerta adabaquin .

في هذه الساحة الكبيرة رقة طليطلة الحديثة يلتقي سياح الأرض من كل سنن وجنس في مقاهيها الرصيفية ، وعلى مقربة من حدائقها الانيقة ، ومطاعمها الكثيرة لياخذوا لأنفسهم قسطاً من راحة ، او ليتذكروا اوطانهم وقد شاقهم في هذه القسحة من الأرض اصوات رقيقة على نفوسهم ، حبيبة الى

قلوبهم فأحبوا ان يعيشوا لها صوراً عن طليطة ذات التاج الأزلي ، والصولجان
الخالد ، وقد امسكت بيدها اطراف الأرض تشدُّ اهلها الى دنيها .

فلإذا انهى الشباب تجوالهم في اليوم الأول ، وقد ترنحت نفوسهم
وتعطلت الستهم وانسوا في طليطة الى مجدهم عزموا على ان يقضوا بها يوماً
آخر او دهرأ .



مع التاريخ في غرناطة

واطلت غرناطة ، من جنوبي الاندلس ، والقطار بعد ما زال في طريقه الى المدينة العربية الشامخة ، الغافية وسط الطبيعة الساحرة ، والمتكئة قبالة جبل الثلج الذاهب في السماء .

اطلت غرناطة وكأنها صورة انعكاس المدينة الخالدة التي اقامها العرب ، ومثل اعلى للحضارة الانسانية ، تحكي تاريخ امة واسطورة شعب .

ومع الفجر الغارق بلون الشفق ، وقد حرق اطراف السماء ، بدت هضبات غرناطة وسهلها الافيح الممتد امامها كالأمل ، العابق باريج الزهر ، واطل القصر الأحمر ، الرابض على هضبة مطلة على المدينة ، وكأنه يقصص سيرة بني الأحمر الذين نزحوا الى غرناطة من ارجونة قرب قرطبة ، والذين كانوا يتنسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، ويعرفون ببني نصر .

القصر الأحمر آية في البناء العربي ، مزيج مما عرفت اسبانيا خلال ادوارها السياسية والتاريخية ، من هندسة ونقوش ، وزخرف ، مع فارق واحد ، هو ان البناء الاسباني الذي مر في ادوار البناء الروماني ، والقوطي ، والعربي ، قد اتجه في اواخر ايامه الى منع النور ما امكن عن المعابد ، وابقاء داخلها مظلماً ما سمح البناء بذلك ، وهي ظاهرة متفشية في اكثر بيج اوربا .

بيد ان طراز البناء العربي كان يكره الظلام ، ويسعى الى الاشرقة

السمحة في الطبيعة الضاحكة ، في ارضه المزهوة ، في بنائه الشامخ ، في ابوابه العريضة ، ونوافذه الكثيرة .

وصعدنا الى جنة العريف التي تكاد تطوق القصر ، المشربب البناء وقد بدت عليه مسحة حزينة من بقايا المعركة الفاصلة بين العرب ، واهل البلاد بالرغم من ان القصر اصبح قبلة للسياح ومحجاً لرجال العلم ، وغاية للبحث التاريخي .

وبعد صمت عميق مطبق كانت بقايا الالبسة الصفراء هي الفكرة الوحيدة المعبرة عن الشعور بالعظمة بالرغم من النكبة ، سرنا في طريق ذهبت الاشجار عن جانبيه بعيدة في السماء ، وانتشرت الحداثق وكأنها تستمع الى سقسقة الجدول الهارب من اعماق شنيل ، نهرها المنسكب من دموع سيرانفادا جبلها الحارس . وعلى هدى الطير ، وعبق الزهر ، وخيرير الجدول . دخلنا الى مشارف القصر من باب الرمانتين ، الذي اقامه كارلوس الخامس ، وكأنه كان يريد بهذه التسمية ان يؤكد اسم المدينة « كرانادا » مرتين كما عرف منذ عهد القوط ، وينفي عنها اسمها العربي المحرف غرناطة ، أو أغرناطة الذي عرفت به يوم احتلتها العرب سنة سبعمائة واحدى عشرة للميلاد .

وجزنا باب العدل تحت برج ساحق ، واذا نحن امام التاريخ ، نطل على الفحص الغرناطي ، السهل المفسح الخصب ، واذا نحن امام القصر ، امام القصة وامام برج الشمعة الذي ارتفع عليه علم قشتالة يوم خسر العرب المعركة .

وعلى مقربة من القصة يقع القصر الملكي ، حمراء غرناطة الذي اقامه محمد ابو الاحمر بن نصر الملقب بالغالب بالله ، ثاني ملوك غرناطة ، والذي اغرم خلفاؤه بزخرفته وازدانة بعض الاجنحة اليه ، ولا سيما محمد الثاني ، وحفيده محمد الثالث الذي انشأ مسجد الحمراء ، اما الامير الذي اتم القصر

فهو يوسف بن اسماعيل بن فرج ، وكان آخر ما انشأه البرج المربع ، وهو الآن المدخل الأكبر للقلعة ، وتدل النقوش على انه انشئ سنة الف وثلاثمائة وثمان واربعين للميلاد .

القصر الأحمر آية البناء العربي ، قوضت بعض اركانه التي تواجه القلعة ، او اتخمت بمبان حديثة ، كقصر كارلوس الخامس الذي اقامه ليحاكي به عظمة البناء العربي فما افلح ، اما القصر الداخلي فهو على حالة جيدة وقد خطت قاعاته على ان تكون سلسلة متناسقة البناء .

فالردهات والقاعات والسقائف ، والعمد ، والفسيفساء ، والحدائق ، ويرك الماء والازهار المختلفة الأشكال والاسماء كل ذلك يبرز من خلال سديم رشاش النافورات التي افتن العرب بصناعتها ، حتى كان لهم زمام الأمر يصعدون بالماء او يهبطون به ، حيناً يجلوونه للعيون ، وحيناً يخفونه ، وحياناً يفجرونه في الهواء ليبدد ونخيم الابخرة السابحة في الفضاء وليحيل جفاف الطقس رخاء . وفي كل جناح يجري تياران من الهواء في غير انقطاع ، فهناك كوات قرية من السقف يخرج منها الهواء الساخن الفاسد الذي يطرده الهواء النقي اسفل منه الى اعلى .

والقصر صورة ليست هي الفن ، وليست هي الابداع ، وليست الجمال ، انما هي صورة على الفن والابداع والجمال ، اخرجها العقل العربي بعد ان تفاعل مع عقول الرومان والفندين والقوط رمزاً للتلف ، ومشعلاً للحياة .

فقاعة البركة التي رصفت ارضها بالمرمر الأبيض ، والتي انفرجت في وسطها عن حوض للسماك ، وبرج قمارش احد الابرجة الذي سمي باسم مهندسه العربي ، آيتان من آيات الزخرف والهندسة .

هذا إلى جانب قاعة الاسود حيث يربض فيها الاثنا عشر اسداً ترسل من افواها الماء لجينياً لؤلؤياً ، وقاعة بني سراج التي سميت باسم ذلك النفر من الفرسان الأبطال ، وقاعة السفراء ، وقاعة المشورة ، وجناح الحرير ، ومدخل

القرنة المذهبة التي تطل نوافذها على المدينة الهادئة الساكنة المنكشة الى
اعتاب القصر الأحمر .

هذه الأجنحة طليت بالزخرف ، ورسوم هندسية ، ومصوغات مشبكة
نزلت بالجص الملون ، وزينت بآيات قرآنية وشعار الملك المؤسس « لا غالب
إلا الله » .

كل هذا يدفع بالعين ان تتأمل ملياً ، وتحاول ان تخترق البناء الخالد
لتقرأ حقيقة التاريخ العربي الضاحك الحزين في تلك الأرض في ذاك القصر ،
قصر الحمراء صورة المدينة ، ورسالة الحضارة .



قصر ودير الاسكوريال



المسجد الجامع في قرطبة

على الأفق البعيد بقايا من ليلٍ طويلٍ مُتعبٍ أخذت تنحسرُ في ببطءٍ كلما حاولَ الفجرُ المشربُ بلونِ الشفق أن يُطلَّ جاهداً من وراء الجبالِ المتراصةِ هناك على طولِ ساحلِ النهرِ المتدفقِ لجيناً، وكأنني بالفجرِ في يومِ ربيعٍ من سنة ألفٍ وتسعمائةٍ وثمانٍ وخمسين، أحب أن يوقظَ الشمسُ باكراً لتتهادى في سماءِ قرطبة الزرقاء، وقد غشيها وشاحٌ أبيضٌ أو كاد .

كانت السيارةُ وهي تشرف على قرطبة قد اجتازت الأرض بين العاصمةِ معجِطٍ على حدِ تسجِيةِ العربِ وبين المدينةِ العربيةِ التي طوقها النعاسُ بعد أقولٍ مجدِ الأمويين، واندثارِ سلطانهم .

قلت كانت السيارةُ قد اجتازت الأرض بين العاصمةِ، وقاعدةِ الحكمِ العربي في الأندلس، ولو كنت يومئذ في بلادي لظننتُ أن السيارةُ قد اجتازت الدنيا وكادت أن تطلَّ على الآخرة .

وهولُ الرفاقِ إلى المدينةِ العربيةِ الخالدةِ وكأنهم في انطلاقتهم إلى زنقاتها الضيقةِ كانوا يحاولون أن يتلمسوا النسماتِ البليلةَ المشبعةَ بالندى الطري، بعد ساعاتٍ عشرٍ، قضوها في الطريق، ثم لم يلبثوا أن أسرعوا إلى المسجدِ الجامعِ، أبقي أثرَ عربيٍّ قائمٍ في قرطبة .

وما ان أطلَّ الرفاق على ساحةِ المسجدِ حتى هبَّ الريحُ يتفجّرُ من

أعماقها عبق زهر، وأريج عطر، وشذى يطوق المسجد ويفوح من جنباتها، وقد غرست أفناؤها بأشجار الليمون.

من صحن الجامع يطالعك المسجد الذي بناه عبد الرحمن الداخل، فانفق في بنائه في ما يقول المؤرخون ثمانين ألف دينار حتى غدا فدا في نوعه .

لقد احتوى المسجد ثلاثمائة وستون طاقاً على عدد مدار أيام السنة حيث تدخل الشمس في كل يوم من طاق فتكشف عن ألف ومائتين وثلاث وتسعين سارية نصبت بشكل عجيب يأخذ بالآلآباب .

من أين تطلعت في المسجد طالعك المحراب الذي جوف في وسطه بشكل فني بحيث يتوزع صوت الامام في جميع أرجاء المسجد، وقد أجري فيه الذهب المطعم وبالقرب منه يظهر باب المقصورة الذي صُنع من الفضة، كما يؤكد علماء الآثار أن تفاحات الباب كانت من الذهب والفضة أيضاً .

الى جانب المحراب يقوم المنبر الذي صُنع من العاج ونفيس الخشب وهو مؤلف من ست وثلاثين ألف قطعة منفصلة كل واحدة عن الأخرى، وقد رُبِطت جميعاً في ما بينها بصنعة متناهية في الدقة ، بعد أن رُصع أكثرها بالأحجار الكريمة ، وسُمر بمسامير من الذهب الخالص .

لقد كان عدد بواكي المسجد تسع عشرة من الشرق الى الغرب ، وإحدى وثلاثين من الشمال الى الجنوب وفيه واحد وعشرون باباً كفتت بالنحاس وحفرت ورصعت بالآيات .

وأما الأعمدة والسقف فقد صنعت من المرمر، وخشب الصندل المنقوش بالزخارف الملونة والمذهبة .

هذا ويحكى المؤرخون أن خلال ساعات العبادة كانت تضاء في المسجد أربعة آلاف مصباح كلها مصنوعة من الفضة والنحاس البراق، كما يؤكد المؤرخون أن مصحف الخليفة عثمان بن عفان المحلاة أجزاؤه الخارجية بالأحجار الكريمة ، والعقيق، واللؤلؤ، كان محفوظاً في المحراب .

يحيطُ بالمسجد الجامع سورٌ على جانبٍ عظيمٍ من الاتقان والهندسة المعمارية، وما زالت كثيرٌ من الآياتِ الكريمة، والأحاديثِ النبوية الشريفة تقرأ على طولِ السورِ وهي مخطوطةٌ بعمقٍ ويلون أحمر.

إن السائحَ ليقفَ أمامَ هذه الغاية من السواري القائمة، والآثارِ الباقية والآياتِ الكريمةِ المرصعة، والزجاجِ الفاخرِ الذي لا يزالُ يلمعُ لمعانَ الجواهر، والمحاربِ بقبابه الداخلية المتلاقية، والمقصورة يملأ العينَ من كل هذا، والتاريخُ العربي يعاودُه بالمجدِ الغابر، ويعيدُ أمامه صوراً ليست هي من التاريخ، وإن كانت الصفحاتُ المشرقة فيه.

خمسةُ أيام قضيناها في المدينة العربية ما عرفنا خلالها النومَ إلا خطفاً، ساعاتٌ طوالٍ نقضيها على الجسرِ، وأمام القنّاةِ العظيمة التي بناها الناصرُ لدين الله لري المدينة وهواحيها بدعةً في أساليبِ السقاية وطرقها، ساعاتٌ طوالٍ نقضيها في ملاهي المدينة الأصيلة نسترجعُ مع المغنين والمغنيات اللحنَ العربي، وتجاوبُ الغناء اللذين نشرهما في تلك الأرضِ قبل قرون عشرة زريابُ علي بن نافع، الطائرُ الأسود الغرد.

بلى أيام في قرطبة قضيناها نمد العينَ في أبوابها العربية السبعة وفي بقايا السورِ العربي، وما أكثرَ ما كانت تَعْلُقُ العينُ ببابِ الجزيرة الخضراء، تطالعك منه أعلام المشرق ومواكبُ الرجال، وجحافلُ الأبطال، وتغادره تواءً، وقد نكست الرايات، وخرجت خائفةً تحت جناحِ الظلام، وكان تلك القرونُ الثمانية ليست من الزمانِ في شيء.

إن الإنسان العربي في الأندلس جميعاً لا يَمَلُ التطلعَ إلى الأزقة الضيقة، وإلى الزنقاتِ الملتوية، والنوافذِ العريضة المكلفة بالورد والياسمين، وفي تلك الوجوه الحلوة التي أضحت صورةً للوجه العربي، البؤيُّ الأسودُ الحالِكُ، والوجنةُ الكرزيةُ السمراء، والابتسامةُ الصافيةُ التي تلقاك على كُلِّ الوجوه المليحة. غير أن الإنسانَ هناك قد أضحي أعجمياً على حدِّ قول البلغاء.

بلى لقد أضحى الانسان أعجمياً، إنما هناك يستطيعُ الانسانُ العربي أن يفهم بلحظ العين وسهاياها أنها لحاظٌ وسهامٌ عربية، فيها مزيج غريبٌ من سحر الأرض الطيبة وروائها. يفهمُ عن هذه اللحاظِ الجميلة الرشيقة الناقية ما يكنه القلبُ وما يختلجُ في أعماق الفؤاد من اعجاب وتقدير لهذه الأمة العربية العريقة التي بنت المجد الأندلسي الخالد .

لقد أضحت قرطبة في عهدها الذهبي قبلة العالم المتحضر يومذاك وكانت بجامعة الكبيرة التي أقامها عبد الرحمن الناصر محجة رجال الدين وطلاب العلم من أوروبا بأسرها حتى أن التاريخ يحكي قصة البابا الذي هجر روما وجاء الى قرطبة ليتلقى العلم على القالي وعلى أعلام الأندلس العربي الكبار.

إن التاريخ وإن يغفل في كثير من الظروف عن صفحات مشرقة من تاريخ أمة فلن يغفل عن العبقرية العربية في الأندلس قاطبةً وفي قرطبة عاصمة الدولة ومركز الخلافة خاصة، فالمدينة الاسلامية الباقية آثارها الى اليوم تحكي حكاية التاريخ الضاحك الحزين في جيان ومالقة وأشبيلية وغرناطة بعد أن تجعل قرطبة عنواناً بارزاً لهذه الأسطورة الفذة التي وعها العالم بأسره عن تقدير واعجاب واحترام.

ستظل قرطبة في مسجدها الجامع وفي القنطرة وفي الزهراء العنوان الخالد لمجد العرب الأفل في شبه جزيرة ايبيريا .



في رحاب المسجد الجامع بقرطبة وحمراء غرناطة

كأنني بالفجر مع كل مرة أطوّف بها في «قرطبة» قاعدة الحكم العربي بالأندلس، كان يحاول أن يوقظ الشمس بعدما يطل ضوءاً مشرباً بلون الشفق أحمر، وقد ترك من خلفه باب السماء مشرعاً مضرجاً باللهب، لتنهض باكراً، وتتهادى في سماء المدينة الزرقاء، وقد أحاط بها وشاح أبيض أو كاد، فالغمام لم يهرب منها بعد، وكأنها كانت تريد به أن ترحب بالقادمين إليها من كل ناحية وكل مكان وأن تلفهم به رمز إلفة، واخوة، وسلام...؟؟

المسافر من «مجريط» على حدّ تسمية العرب، إلى قرطبة، أم المدائن في الأندلس والتي طوّقها النعاس بعد أفول مجد الأمويين واندثار سلطانهم، لا بُدّ له من أن يجتاز الأرض، وإذا كان عربياً، ومن المشرق لخيّل إليه أنه يجتاز الدنيا ليطل منها على الآخرة... على الجنة، فالطريق طويلة... طويلة، مستقيمة حيناً، ومتعرجة في صعود حيناً آخر، أو مستقيمة في تلوٍ قصير وانخفاض قوي تارة، أو منبسطة مع السهل، الأخضر، الأزرق البترولي، الأصفر، الأحمر، البنفسجي الذي جنّ فيه النبات زهراً، ونرجساً، وورداً، وشقائق، ونامت فيه البقول والخضار، وهَبّ فيه ورق الشمندر، والتف فيه الخس بغلالة ذات طبقات، وانتصبت فيه الشجرة المباركة التي يكاد زيتها يضيء لو لم تمسسه نار، تارة أخرى .

وتقول الجميلة التي رهنّت لها الحياة، وعقدت لها، وبالإيماء،
والكلمة، والرجاء، على ذاتي، بعدما مالت نحوي وتسمرت عينها «الكتاب»
في عيني ودون أن تسأل، وإن قرأتُ، وفي «العنوان»، البؤبؤ الأخضر الذي
اختلست لونه من عشب البحيرات، والقابع في فلك العين، وانطبعت فيه
لشفافة نادرة، وصفاء غريب فيه: «إن الشوق برح بها، ليس لي، فأنا معها
ولها، بل إلى قرطبة... إلى النهر اللجيني... إلى القنطرة بدعة الفن
المعماري... إلى المسجد الجامع، قبله مساجد المسلمين في
الأرض...!!».

ويهرول الرفاق إلى المدينة العربية الخالدة، كرسى الخلافة الأموية في
شبه جزيرة إيبيريا، وملقتى أعلام البلاد، وأعيان الرجال الذين اشتهروا بصحة
الدين، وطيب المكسب، وحسن الزي، إلى زنقاتها الضيقة، وإلى دروبها
الضائعة، وحدثتها الفواحة الثائرة بالريحان، والصارخة بالعبق، يحاولون أن
يتلمسوا النسمات العلية البليلة المشبعة بالندى الطري، وشذى الطيب الذي
صبّه على رأسه الحكم الأول يوم ثار الريح^(١)، ليميزوه من بين جماجم
القتلى؛ بعد ساعات عشر، قضوها في الطريق، أو يللموا شيئاً أمواً عن
أرضها، أو يلمحوا واحداً من رجالها العظام، صقر قرش، عبد الرحمن
الناصر، محمد بن أبي عامر المعافري، الذي جُنت به، وشغفت صبح
البشكنسية، جارية الحكم الثاني، ووالدة الخليفة المستنصر، أجمل نساء القصر
وأروعهن، أو ينصتوا وبشغف إلى زرياب، علي بن نافع، الطائر الأسود الغرد،
مبدع الغناء المتقن «الأوبرا» في الموسيقى العالمية، أو يدرسوا على القالي،
أبي علي، أول سفير ثقافي مشرقي، وأول محاضر جامعي في الغرب،
وبخاصة في كتابه «الأمالي».

وندخل من باب العفر إلى صحن البرتقال، فيطالعنا المسجد الذي بناه

(١) معركة هياج الريح معروفة في تاريخ قرطبة: انظر كتاب انتحار الأندلس لابن القوطية القرطبي
تحقيق د. طبع دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٥٧ ص ١٥.

« صقر قريش » عبد الرحمن الداخل، على القسم الآخر من كنيسة القديس فانسان، أو « بسنت بنجنت » والذي ابتاعه من أصحابه بمبلغ مئة ألف دينار، وأذن لهم ببناء كنيسة، تماماً كما فعل أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عندما أخذوا برأي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من مشاطرة الروم في كنائسهم ، وبخاصة في كنيسة دمشق العظمى توطيداً وتطبيعاً لتفاهم أصحاب الديانتين السماويتين .

حرص الداخل في بناء المسجد على تقليد مسجد جدّه الوليد بن عبد الملك بدمشق، فخماً متسماً، بسيطاً، إلا أنه والفن الأندلسي وليد مدينت الفرس، والأغريق، والعالم القديم، والمدرسة السورية التي أقامها الأمويون في بلاد الشام بعدما ورثوا حضارتها، والمدرسة المصرية والمغربية اللتين تأثرا بهما، قد ظهر في دوره الأول في الجامع الأعظم، في ما ظهر عبر دور الانتقال في قصرَي الزهراء واشبيلية، حتى تجلّى بروقه بعد أن استكمل مقوماته في القصر الأحمر بغرناطة، آخر معقل عربي في شبه الجزيرة .

عندما نزل العرب بعد الفتح الأول في الأندلس، ودخلت القبائل من بُعد مع موسى بن نصير، أطلقت كل منها على المدينة التي حطت الرحال فيها اسم مدينتها، فأهل الشام سموا غرناطة دمشق، وأهل حمص اعتبروا اشبيلية مدينتهم، وكذلك فعل أهل فلسطين بشريش، وأهل قنسرين بجيآن .

حرص « الداخل » ، عبد الرحمن بعدما وطد دعائم الامارة على جمع هذه القبائل كلها وصهرها في بوتقة الايمان فبنى المسجد الجامع في قرطبة ليصرف المسلمين عن التناحر القبلي في ما بينهم، وعن التفكير في العودة إلى مواطنهم الأولى، فكان البناء وفقاً للغاية، آية في الفن المعماري المتطور، إتساعاً وبساطة فالقناطر التي ترفع البناء العظيم - وكما يصفها المرحوم مصطفى فروخ في كتابه : « رحلة إلى بلاد المجد المفقود » - « أدواح حملت من النقوش الرقيقة المشجرة ما هو أشهى من الأثمار، أو كأنها غابة من النخيل الظليل في واحة غناء وارفة الأغصان » .

كُلُّ هذا يبدو للعين من باب النخيل، وقبل أن يدخل الزائر إلى الجانب الذي أقامه «الداخل» على أنقاض كنيسة القديس «فانبيان» أو في موضعها، حتى إذا اجتاز المدخل تملكه العجب فعلى الجدران «رسم» وحفر، ونقش، وترصيع، ووشم غاية في الفن والابداع تحلت بالذهب، ووشيت بالألوان الزمردية، والقرمزية والسماوية .

٣٦٠ نافذة في الجامع

أما أبواب المسجد فهي بدعة في النحت، والصقل، والتلوين، تعلوها أقواس منحنية في ما تحوط بها أطر مستطيلة، يتنظم على كل منها، وبعد الناحية الدنيا إطاران أبرز ما فيهما الأقواس المترابطة النائمة بخشوع على أعمدة دقيقة من المرمر، في حين تستهونا وعلى جانبيّ الواجهة الوسطى زخارف تطل في نوافذ مغلقة ذات عقود مضاعفة في الطابق الأسفل، ومفصصة مزركشة في الطابق الأعلى يهيمن عليها جميعاً لونان، الأبيض الناصع، والأحمر الداكن، في ما تلفها النقوش والزخارف الهندسية الأنيقة والبسيطة، والترصيع المتقن المحاكي للطبيعة وعناصرها .

ويقتحم المؤمن باب النخيل ليعبر إلى قلب المسجد فإذا هو في قاعة فسيحة متباعدة الأطراف متسعة الأبعاد تقوم في وسطها غابة كثيفة من عمد المرمر ذات الأقواس المترابطة المعلقة الأخذ بعضها في عناق بعض بحب، وشوق، وتلاق.

مَرْمَرٌ تَسْبِيحُ النَّوَاطِرُ فِيهِ	ويطول المدى عليها قُرْصِي
وَبِسَوَارٍ كَأَنَّهَا فِي اسْتَوَاءِ	الغاة الوَزِيرُ فِي عَرْضِ طَرَسِ
فَتَرَةُ الدَّهْرِ قَدْ كَسَتْ سَطْرِيهَا	ما اكتسى المذهب من فتور ونعسِ

لقد احتوى المسجد الجامع ثلاثمائة وستين طاقاً على عدد مدار أيام العام جميعاً حيث تدخل الشمس في كل يوم من طاق فتحمل الضوء والاشراق إلى عمق القاعة الفسيحة «بيت العبادة» وتكشف عن ألف ومائتين وثلاث

وتسعين سارية نصبت بشكل عجيب يأخذ بالألباب، منها عدد غير قليل أخذ من الأشكال العتيقة التي تتميز بالتيجان، والوسائد، والتي أعيد استعماله في العمارة الإسلامية بحيث توضع الوسادة المزركشة بالزخارف والرسوم « القوطية » فوق التاج الروماني ذي السقف القصير، مما يؤكد على أن الأندلسيين قد تأثروا بالمواد التي وصلت إليهم من الحضارات القديمة، وتمكنوا بفضل حذقهم أن يتعاملوا معها بكفاءة بعدما حاولوا تقليدها، بخاصة التيجان الرومانية « الكورنثية » والمركبة مكتفين برسم ملامح الزخرف العام دون الاهتمام بالتفاصيل .

يبدو هذا التقليد وقد تطوّر أمثّل للعيان، وأبين، في السواري الأخرى المتراكبة، وفي الجزء الذي بناه الحكم الثاني، حيث تبدو فيها الزخارف وقد جنت، والتي يعجز الوصف عن رسم معالمها لأنها في الواقع أقرب إلى الخيال، غير أن التائه فيها، والدارس لروعتها لا يشك في أنها بدعة الفن المعماري الأندلسي، للقدرة الفائقة التي تميز بها اختصاصي النقش، والكفت، والوشم، على استعمال المواد المسخرة لهذه الزخارف (وهي الجص) وقد أضحت بين يديه أكثر ليونة وطواعية، وكأنها معادن ثمينة، ومن هنا يعاملها بمهارة وحذر ورفعة، ويسمو بها في عمله حتى تصبح وكأنها قد جُرّدت من ماهيتها الأصلية، وعندئذ يقوى على صياغتها كيف يشاء، وعلى المثال الذي يشاء.

عبادة الملك

وتنتقل إلى بيت المحراب فلا نلمح عابداً يصلي، أو مؤمناً يتضرع، وليس من يقيم الصلاة، أو يرفع الأذان، وتقع المفاجأة في مرة من زياراتي للمسجد، عندما يقيم الملك سعود بن عبد العزيز الصلاة بصوت جهوري، ثم يلقي عباة مذهبة أرضاً ويحيي المسجد بركعتين، فيخر في أثره العابدون المتضرعون المؤمنون، أمام دهشة القساوسة والرهبان.

... ووبعدُ يتطلع لعل عينه تقع على مصحف الخليفة عثمان بن عفان،

المحلة أجزاءه الخارجية بالأحجار الكريمة، والعقيق، واللؤلؤ... فلا تقع على شيء، فقد ضاع مع ما ضاع من تراث الأمة ومجدها الغابر.

إلى جانب المحراب يقوم المنبر الذي صنع من العاج ونفيس الخشب وهو مؤلف من ست وثلاثين ألف قطعة منفصلة في الأصل، كل واحدة عن الأخرى وقد ربطت جميعاً في ما بينها بصنعة متناهية في الدقة والابداع، بعد أن رصع أكثرها بالأحجار الكريمة، وسمر بمسامير من الذهب الخالص.

يحكي المؤرخون أن خلال ساعات العبادة كانت تضاء في المسجد أربعة آلاف مصباح مصنوعة من الفضة والنحاس البراق تنير كل بواكي المسجد البالغة تسع عشرة من الشرق إلى الغرب، وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب، فضلاً عن الضوء الذي يطل من النوافذ العالية فيكشف عن واحد وعشرين باباً، علامات مميزة الصناعة والبراعة الفنية الخارقة، وقد كتبت بالنحاس، وحفرت ورصعت بالآيات البينات.

وينقضي اليوم، أو يؤذن له بالإنقضاء، ونحن معاً نصلي لذات الله، ليس في المسجد ورحابه، بل في قرطبة كلها، في كل الوجوه الجميلة المخملية السمراء، وفي كل العيون الناعسة الدعجاء، وفي كل القدود البانية الهيفاء.

خمسة أيام في المدينة العربية ما عرفنا خلالها النوم إلا خطفاً، ساعات طوال نقضيها على الجسر وأمام القناة العظيمة التي بناها الناصر لدين الله لري المدينة وضواحيها بدعة في أساليب السقاية وطرائقها، ساعات نتزّه بها، ونحن نسير الهوينى في دروب المدينة وقد شبكت الجميلة الحلوة يدها بيدي، بعد أن شبكت روعي، وعلقت بالقلب الذي أحبها، تنجه إلى إقدام جبل العروس لنطل على بقايا الزهراء وقصرها الذي بناه عبد الرحمن الناصر إرضاء لإحدى جواريه التي شغف بها.

ونغادر ويحزن مشوب بالرجاء إلى غرناطة قبله المجد والحضارة والفن، والذوق، والأناقة في كل الأندلس الاسلامي.

وتطل غرناطة ، من جنوبي الأندلس ، والقطار بعد ما زال في طريقه إلى المدينة الشامخة، الغافية وسط الطبيعة الساحرة ، والمتكئة قبالة جبل الثلج الذاهب في السماء .

وتبدو هضبات غرناطة وسهلها الأفيح الممتد أمامها كالأمل، العابق بأريج الزهر، ويطل القصر الأحمر، الرابض على هضبة مطلّة على المدينة، وكأنه يقص سيرة بني الأحمر الذين نزحوا إلى غرناطة من أرجونة قرب قرطبة، والذين كانوا ينتسبون إلى سعد بن عباد سيد الخزرج، ويعرفون ببني نصر .

القصر الأحمر آية في البناء العربي، الذي كان يكره الظلام ، ويسعى إلى الاشراف الساحة في الطبيعة الضاحكة ، في أرضه المزهوة، في بنائه الشامخ، في أبوابه العريضة ، ونوافذه الكثيرة .

وصعدنا إلى جنة العريف التي تكاد تطوق القصر، المشرّب البناء وقد بدت عليه مسحة حزينة من بقايا المعركة الفاصلة بين العرب، وأهل البلاد بالرغم من أن القصر أصبح قبلة للسياح ومحجاً لرجال العلم، وغاية للبحث التاريخي .

دخلنا إلى مشارف القصر من باب الرمانتين، الذي أقامه كارلوس الخامس، وكأنه كان يريد بهذه التسمية أن يؤكد إسم المدينة « كرانادا » مرتين كما عرف منذ عهد القوط ، وينفي عنها إسمها العربي المحرف غرناطة، أوغرناطة الذي عرفت به يوم احتلتها العرب سنة سبعمائة وإحدى عشرة للميلاد .

وجزنا باب العدل تحت برج ساحق، وإذا نحن أمام التاريخ، نطل على الفحص الغرناطي، السهل الفسيح الخصب، وإذا نحن أمام القصر، أمام القصة، وأمام برج الشمعة الذي ارتفع عليه علم قشتالة يوم خسر العرب المعركة .

وعلى مقربة من القصة يقع القصر الملكي، حمراء غرناطة الذي أقامه محمد أبو الأحمر بن نصر الملقب بالغالب بالله، ثاني ملوك غرناطة ، والذي

أغرم خلفاؤه بزخرفته وإضافة بعض الأجنحة إليه ، ولا سيما محمد الثاني ، وحفيده محمد الثالث الذي أنشأ مسجد الحمراء . أما الأمير الذي أتم القصر فهو يوسف بن إسماعيل بن فرج ، وكان آخر ما أنشأه البرج المربع ، وهو الآن المدخل الأكبر للقلعة ، وتدل النقوش على أنه أنشيء سنة ألف وثلاثمائة وثمان وأربعين للميلاد .

لقد قوضت بعض أركان القصر الأحمر التي تواجه القلعة ، أو أتخمت بمبان حديثة ، كقصر كارلوس الخامس الذي أقامه ليحاكي به عظمة البناء العربي فما أفلح ، أما القصر الداخلي فهو على حالة جيدة وقد خطت قاعاته على أن تكون سلسلة متناسقة البناء .

والقصر صورة ليست هي الفن ، وليست هي الإبداع وليست الجمال ، إنما هي صورة على الفن والإبداع والجمال ، أخرجها العقل العربي بعد أن تفاعل مع عقول الرومان والفننديين والقوط رمزاً للترف ، ومشعلاً للحياة .

فقاعة البركة التي رصعت أرضها بالمرمر الأبيض ، والتي انفرجت في وسطها عن حوض للسماك ، ويرج قمارش أحد الأبراج الذي سمي باسم مهندس العرب ، آيتان من آيات الزخرف والهندسة .

هذا إلى جانب قاعة الأسود حيث يربض فيها الاثنا عشر أسداً ترسل من أفواهها الماء لجينياً لؤلؤياً ، وقاعة بني سراج التي سميت باسم ذلك النفر من الفرسان الأبطال ، وقاعة السفراء وقاعة المشورة وجناح الحريم ومدخل القرنة المذهبة التي تطل نوافذها على المدينة الهادئة الساكنة المتكئة إلى أعتاب القصر الأحمر .

هذه الأجنحة طليت بالزخرف ، ورسوم هندسية ، ومصوغات ، مشبكة نزلت بالنحس الملون ، وزينت بآيات قرآنية وشعار الملك المؤسس ولا غالب إلا الله .

كل هذا يدفع بالعين أن تتأمل ملياً وتحاول أن تخترق البناء الخالد لتقرأ

حقيقة التاريخ العربي الضاحك الحزين في تلك الأرض، ليس في غرناطة آخر معقل عربي سقط بيد الاسبان ، بل في اشبيليا وفي قصرها ، وفي قاعة السفراء منه بخاصة ، في منارة مسجده الجامع آية الفن والعمارة ، ومنتهى الذوق والدقة والابداع ، في جيان ، في شريش في طليطلة ، في كل ناحية في الأرض الأندلسية ، في الانسان العربي الأندلسي ، في الأزقة الضيقة ، في الزنقات الملتوية ، والنوافذ العريضة المكحلة بالورد والياسمين ، وفي تلك الوجوه الحلوة التي أضحت صورة لملامح الوجه العربي ، البؤبؤ الأسود الحالك ، والوجنة الكرزية السمراء ، والابتسامة الصافية، تحية العرب للعرب ولكل الذين يقدرّون رسالة العرب في الحضارة والانسانية .

ويهبط الليل على غرناطة ، ويهرع الرفاق كل الرفاق مع الحلوة التي عقدت عليها بالإيماء والكلمة ، والنشيد ، والصلاة ، في محراب العين ، بل بالشباب يومئذ وبكل التضارة ، والوسامة ، والرقّة ، والاشراق ، أليس الشباب كما قال أبو العتاهية :

إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب
ونهرع إلى (Calle de los jitanos) حي السمراوات البدويات وإلى السرداب ذي المدخل الضيق ، الملتوي ، المتعرج ، الهابط ليكتشف في أعماقه عن جوهره وماهيته ، أنه ركن الرقص « الفلامنكو » أنموذج الرقص الشعبي لسكان أقليم « فلانديس » العربي والذي أضحي طابع الرقص الاسباني المعاصر.

في السرداب يضيق الليل ، كل الليل ، والانسان الهائم يقظ ، يقطف الحب كيف شاء .

وتنطفئ الشموع والأضواء وكأنها بذلك تأذن لأنوار جديدة أن تسطع بعضها في كبت . وترتفع الستارة عن المسرح ، وتبرز عليه حلوة سمراء يحار الانسان في جوهرها وماهيته ، «تؤدي حركات في اتقان ونسق وهي تنقر بالصنوج وبأصابع يديها الرفيعة الطويلة الحريية الملمس ، وتغني بقهرها لحناً

عذباً رقيقاً لا ينقطع ما دامت الهيفاء في رشاقتها ، وفي زيتها الأندلسي البدعة
ذي الطبقات المتتاليات ترفل في حب ، وغنج ، ودل ، وتيه ، وترسم يديها بل
بأصابعها كلها وينقر صنوجها حركات كأنها تعبر بشعر ، وإن لم تكن من الشعر
في شيء عند الذين يعتقدون أن الشعر وزناً وقافية وحسب .

إنه ويصدق شعر ولكن على « رتم » من ابتكارات أندلسية حضارية تؤيد
(Al - Bailarina) « الراقصة » حركة في لحاظ معبرة ، ونقر ذي دلالات ، عرف
فيها كل التهاهين الضائعين لغة جديدة للحب ، وهم وإن لم يتقنوها من قبل ،
إلاً أنهم حذقوها ، بالقبلة الصامته الخرساء الطويلة ، وبالأيدي اللاهبة
المحمومة ، وبمقلة العين وهمسها .

إنها لغة العشق ، ومن حروف ، ومن كلمة وكلمة إلى جملة ، إلى
معنى ، إلى عبارة فقصيدة ، حتى إذا أتقنوا الشعر عن ظهر قلب بعد أن حذقوا
مقوماته ، راحت الحلوة السمراء تضرب بقدميها وجه الأرض « المسرح »
ضربات قوية على صوت فيثارة هادئة اللحن تارة وصاخبة تارة أخرى ، فإذا
اشتد غضبها وقويت ضرباتها على الأرض وقد ثارت خرج عليها « الحبيب » وقد
أخذتها النشوة ، وهو شاب أسمر نحيل ترب لها ، يعتمر قبعة سوداء ويرتدي
قميصاً ضيقاً متدلياً من أمام ، وسروالاً من قماش أسود يكاد جسده النحيل أن
يخرج منه ، وهو يضرب بالصنوج أيضاً وكأنه يرد على لغة الحبيبة السمراء التي
اشتاتت إليه .

« إذا أدى « الراقص » حركات يديه ، وضرب وجه الأرض بحذائه الثقيل
ضربات وعلى شكل ذي نسق جذاب اندفع يغني لحناً من شعر موريسكي ذي
المطلع والقفل آخر ما أبدعته مدرسة ابن قزمان من زجل وموشح بالأندلس .

كان الشاب الأسمر النحيل في حركاته وغنائه ورقصه مزيجاً من الفن
الايقاعي والرقص العربي ، وقد غلف كل ذلك بما أفاده الرقص الأندلسي من
الفنون الأوروبية الحديثة ، بلى كان يغني لحناً من شعر موريسكي ويرقص
« الفلامنكو » .

وفي ما كان يؤدي غناؤه ورقصه وهو يمد في اللحن صوته مدّاً طويلاً،
والحسنة تتجاوب بدورها في رقص رشيق وتخريه بالقبل ثم تنفر منه تعذبه،
وتحرق قلبه ، تطل من وراء الستارة حسنة أخرى لتقوم بدورها ، وربما
خرجت بثوب وإن كان ذا ذيل وطبقات أسطوانية فهو لا يخرج « موديلاً » عن
ثوب الأولى ، إلا باللون ، ثم تطل ثالثة فرابعة ، فخامسة ويعلو على المسرح
الغناء ، ويضطرب الرقص ، ويشند الايقاع حتى يتناسى الوجهاء والأغنياء
والأنرياء ، والعشاق ذواتهم ويندفعون بالنقر وقد انطلقوا على سجيّتهم
وطبيعتهم بعد أن أغفلوا ولوا إلى حين ، إنهم ذوو شأن في عالم الاقتصاد ، أو
ذو خطر في دنيا الجمال ، والحب والشباب .

بعد جولات طويلة ، أو قصيرة من الرقص الايقاعي ، لا تسأل عن
الفجر إن أشرق ، أو لم يشرق ، فالفجر ، والضوء ، والسحر في عينيّ الحبيبة
التي ألقت كل ذاتها بين يديك . . .



الشعر والأدب

في عهد الإمارة بالاندلس

كان واقع الحياة الفكرية في الأندلس مع بدء حياة الاستقرار والأمن والبناء عقب قيام الدولة الأموية كإمارة مستقلة ، كواقع العلم والأدب في المشرق العربي ، يوم كانت الجزيرة العربية مركز الحياة الفكرية ، وموطن الشعر والأدب . فمعاظ ، وذو المجنة ، وذو المجاز تلك الأسواق الأدبية القائمة بين كُتّاب الرمال المترامية في بطن وفي حياة ، تحت شجرات النخيل الباسقة الذاهبة في الفضاء ، وإمام عيون ماء متدفقة في كثير من جهد ، وقليل من عطاء ، شهدت مظاهر الحياة الأدبية التي مكنت العرب أن يبدعوا الحرف متناسقاً ، متجانساً موسيقياً ، عذباً ، فيه تجاوب عميق ، وفيه تفاعل مع الذات الملهمة التي كانت تستجيب لهذا الشعر ، والذي كان نواة الحياة الفكرية لهذه الأمة ، التي كان ادبها يُعيد الدعوة من أرقى آداب العالم القديم ، وكاد يوازي بقوة عناصره ، وقوة ابداعه وتفاعله مع الحياة ، ومع البيئة ، الأدب اليوناني ، والأدب الروماني ، وكان مع ذلك أرقى من الأدب اللاتيني والأدب الفارسي ، لأنه مع ضيق خيال مبدعيه ، كان يمثل كثيراً من خصائص الأدب الخالد ، فالأدب القصصي ، وأدب الحوار ، والابداع تلك الميزات التي كانت بعض عناصر الأدب اليوناني الخالد ، كانت ممثلة في الشعر العربي ، مع فارق البيئة والاستقرار والحضارة ، فالشعر الجاهلي ابن الصحراء كان مرآة لحياة الجماعة العربية بكل مظاهرها ، وكان يمثل إلى حد بعيد الحياة الاجتماعية ، وحياة الأبطال ، ولا غرو أن شعر اليشكري القصبة ، وقصص أبي زيد وعنترة هي

اصدق مثال لعناصر الأدب المميز ، ومظهر للجمال الفني . وإذا كان الشعر في الجزيرة قد سبق النثر الفني لأن الانسان بطبيعته عاطفة قبل ان يكون فكراً ، فالشعر في الأندلس ايضاً كان اسبق من النثر الفني في الأدب العربي ، هذا النثر الذي حمله في ما بعد اعلام كبار في العلم جميعاً ، مع فارق واحد ان الشعر والأدب كان في الأندلس اخصب فكرات واكثر موضوعات ، ذلك لأن الأندلس العربي كان مهداً لحياة ثقافية راقية ، وموطناً طيباً ، وبلداً للعلم والفن والأدب ، اسهم الفينيقيون في وضع ركائزه ، واقام عليه البناء شامخاً من بعد اليونانيون والرومانيون ، ثم اقبلت المسيحية فأنعشت ، ودفعت به في معارج الابداع والبقاء . « ولعل هذا ما يفسر لنا سراً من اسرار الازدهار الفكري السريع الذي حققه المسلمون في اسبانيا ، على قلة اتصالهم بمنايا الثقافة القديمة والوسيلة في العالمين الاسلامي والمسيحي » فلقد عرفت اسبانيا القوطية اعلاماً كباراً امثال ايزدور الاشيلي ، الذي كان يرجع في اصله الى الايبيريين الرومان ، والذي لم يكن كاتباً دينياً فحسب ، بل كان مصنفاً موسوعياً ، حاول ان يجمع في كتبه كل ما انتهى اليه من علوم اليونان والرومان .

وهكذا نجد ان الأندلس ، الامارة الأموية ارض العلم والأدب ، والفن الذي وصل اليها عبر الزمان من الفينيقيين واليونانيين والرومان كان مطلقاً ، متجاوياً متفاعلاً مع الشرق العربي ، كجزء من امبراطوريته الواسعة ، والذي انكمش على نفسه في ما بعد محاولاً تكوين دولة جديدة ، فيها ابداع ما في الغرب من مفاتن وآثار ، واجمل ما في الشرق من سحر ، وحضارة . وبالرغم من كل ذلك ، فلم يقو الشعر في الأندلس ان يستقل عن حقيقة الشعر الشرقي ، وان تفاعل في ما بعد وابدع ، فالنظرة الاندلسية إلى المشرق اكانت قدسية صادقة تحس بما لهذا الشرق العربي من سبق في ضروب الحياة جميعاً ، ولعل صاحب العقد الفريد قد عبر عن هذه الحقيقة في مقدمة كتابه قبل ان يقدم ابوابه الآلية في قوله : « وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا ، ان لمفربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم

والمشور . ويبدو جلياً في قول صاحب العقد ان هذا الأدب الأندلسي في مطلع حياة الامارة كان « حظاً » من الشعر والنثر ، وكان العقد جميعاً في نظر الصاحب بن عباد بضاعة مشرقية . وفي ضوء قول صاحب العقد يؤكد المستشرق الاسباني المعاصر اميليوغراسيا كومس « ان الشعر الاندلسي نبع من بحر الشعر المشرقي وان تاريخه يصور لنا التطورات التي المت بالشعر العربي الأصيل ، فلقد كان لشعراء الأندلس ولع بدراسة الشعر الجاهلي ، ولكنهم كانوا يرون فيه شيئاً اثيرياً قديماً ، وكذلك المحدثون من شعراء المشرق العربي ، لم يكن لهم عند شعراء الأندلس اثر بعيد ، في ما خلا بدوات نلمحها بين الحين والحين ، ونلاحظها في الناحية الجمالية التي ظهرت مع الشعر القديم المحدث Neoclésica . وعلة ذلك انه في الوقت الذي ظهر فيه شعر جديد بهذا الاسم في الاندلس كان الشعر القديم المحدث في اوجه في المشرق ، والحقيقة ان الشعر الأندلسي عامة فيما خلا بضع شواذ فقير جداً من الناحية الذهنية التفكيرية لأن شعراءه تأثروا بالشعراء الاعلام في المشرق بناحية البراعة لا بناحية التفكير فضلاً عن ان الشعر العربي كله في ذلك العصر كان في بدء نموه وتطوره واحتكاكه مع العالم المتحضر الذي خضع للدولة العربية بالفتح .

وليس من شك في ان هذا الشعر الأندلسي الذي كان بدائياً في اول عهده بالامارة تطور حتى بلغ اوج مجده في القرن العاشر الميلادي ، وفي عهد الخلافة الاموية بالذات ، واصبح صورة للذروة النضج الفكري يعمل فيه العقل والتفكير والابداع والابتكار ، كما كان انعكاساً للخيال والعاطفة والبيئة . وقد شملت موضوعاته الزهد ، والهجاء ، والحماسة ، والنسيب والمديح ، والرتاء ، والوصف بصفة خاصة ، وكان حل ابداعهم في وصف الطبيعة الأندلسية وما فيها من سحر وتألّق . غير انهم لم يظهروا براعة ذات بال في الشعر السياسي والحماسي ولم يوفقوا كثيراً في شعر الحكمة والتعذيب ، اما شعرهم الديني فتتقصه حرارة العاطفة ، وهم ينتقلون فيه من الوعظ المبثذل الى وجد الصوفية دون تدرج .

ان هذا الشعر الاندلسي الذي نبع من اعماق الشعر العربي على حد

قول المستشرق الاسباني اميليوغراسيا كومس عملت ناحيتان على ابرازه ، وعلى تطوره ، فعرب الأندلس قد انكروا الذات ، واحتملوا كل انواع التضحيات في سبيل الوصول الى منابر العلم والاساتذة المبرزين في العواصم الشرقية ، وكان عملهم هذا لما يبعث على الاعجاب الشديد ، اما الناحية الثانية فهي ان الصلة لم تكن قائمة بين الغرب العربي ، والشرق العربي فحسب بل كانت هناك صلة اخرى قائمة بين عنصرَي الثقافة في شبه الجزيرة ، اسلامية ، ومسيحية .

على هذه الاسس من عناصر الواقع الطبيعي للأرض الاسبانية وتاريخها ، وواقع البلاد السياسي نشأ الشعر العربي عامة ، وشعر الطبيعة والموشح الذي تميزت به تلك الأرض عن سائر الشعر في الدنيا العربية كلها . وكان نغماً خالداً متجاوباً مع جمال الأرض في سحرها وكبرياتها ، ومع الشعب هناك في فرحته وفي حسرتة ، تلك الحسرة حكاية شعب مجده التاويخ وبكاه . وعبر عنها ابن الأثير في بيتين من قصيدته الكبرى يستعطف فيها أبا زكريا الحفصي لنجدة بلنسيا .

ادرك بخيلك ، خيل الله اندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا
يا للجزيرة اضحى اهلها جزراً للحداثات وامسى جتدها تغسا



الخصومة الأدبية بين المشرق والمغرب العربيين

لا شك ان الأدب في الشمال الافريقي والأندلس كان امتداداً للأدب المشرقي في جميع مظاهره ، ذلك لأن تاريخ هذا الأدب الذي اخذ في العصر الأموي يعبر عن كثير من النتائج الفكرية يصور التطورات التي طرأت في الأصل على الشعر العربي في موطنه الأولى ، فشعراء الأندلس الذين كانوا في طليعة رجال الفكر هم كسائر شعراء المغرب اعجبوا بالشعر الجاهلي ، وان لم يترك هذا الشعر اثرأ واضحاً في ادبهم كما اعجبوا بشعر المولدين الذين ابتعدوا في وصفهم عن الصحراء وحياتها .

لقد اخذ هذا النفر من ادباء الأندلس والمغرب مع مطلع القرن الرابع للهجرة، العاشر للميلاد يَطْرُقُون مواضيع جديدة لم تكن ظاهرة الأثر ، او واضحة المعالم عند الجاهليين او الأمويين اطلاقاً .

في ضوء هذا الواقع يقرر المستشرق الاسباني الدكتور اميليوغراسيا كوس في كتابه « قصائد عربية أندلسية » ان هذه الطبقة من شعراء المشرق ايضاً لم تترك اثرأ بعيداً في الشعر الأندلسي إلا ما صبغت به الناحية الجمالية فيه .

يرجع الدكتور كوس في رأيه هذا إلى ان الأندلس عندما اصبح له شعر يصلح ان نسميه بالقديم المحدث Neoclasisa ، كان عين هذا الشعر قد بلغ

الأوج في المشرق العربي .

لا غرو في ان الواقع العلمي يثبت ان المولدين من شعراء العصر العباسي قد افلحوا في صرف القصيدة الجاهلية التي سادت في الأدب العربي كمظهر كلاسيكي لمبنى القصيدة العربية عن حقيقة موضوعاتها ، وتعدد اغراض الشاعر فيها ، الا انهم لم يفلحوا في تبديل واقعها العروضي ، لأن حقيقة شعر هذه الطبقة من المولدين كانت تواكب جوهر الشعر العربي وحسب .

الحقيقة ان القصيدة العربية الكلاسيكية قد سادت في الأندلس وفي الشمال الافريقي ايضاً ، وان الأدب في هذه المنطقة من العالم العربي يومئذ لا يتميز بميزة ليست في الأدب العربي عامة ، ولا غرو ان نقرأ من شعراء الأندلس والمغرب العربي قد اعجبوا ببعض شعراء المشرق ، ويرى الدكتور كومس ان المتنبي قد ترك أثراً بارزاً في حقيقة القصيدة العربية الأندلسية ، وان اثر المتنبي ظل في الشعر الأندلسي حتى موات الشعر العربي في اسبانيا الاسلامية .

إلى جانب هذا الرأي نجد الأديب الفرنسي هنري بريس يؤكد « ان اسبانيا الاسلامية في القرن الحادي عشر لم تتوقف عند حد اعجابها بالمتنبي ، فهناك شعراء آخرون اثاروا انتباهها فابن خفاجة الذي يعتبر اكبر مصوري الطبيعة ، والذي ليس هو اكثر من مقلد ماهر يعترف انه استقى اكثر مُخَيَّلَتِهِ الشعرية من شعراء المشرق كالشريف الرضي ، ومهيار الديلمي .

مع هذين الرأيين نجد رأياً آخر للمستشرق الاسباني الدكتور الياس سديا يؤكد فيه ان شعراء الأندلس من المغرب العربي خاصة بالرغم من اعتمادهم على الشعر المشرقي كمعين لتطور شعرهم ، فإن بعضهم وفي مقدمتهم ابن عبد ربه قد اثبت في كتابه العقد مقاطع من شعره الغزلي ، وكأنه كان يحاول ان يؤكد ان شعره هذا يفوق الشعر المشرقي رقةً عبارة ، وجمال معنى .

من البديهي ان الرأي الذي توصل إليه المستشرق الاسباني سدبا يدل ولو بإشارة خفية الى الشعور الذي كان يحسه الاندلسيون نحو اعلام المشرق العربي ، وبالتالي يعبر عن حاجتهم الى تكوين شخصيتهم الادبية المميزة منذ مطلع القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد .

لقد كان الشعور السائد بين الطبقة الواعية الموجهة في شبه الجزيرة دافعاً لنفر من اعلام الفكر في المغرب العربي في ان يبحثوا عن خصائص مميزة للأدب في اسبانيا الاسلامية .

كان ابن حزم في طليعة هؤلاء المفكرين الذي يؤكد هنري بريس انه كان حكيماً عندما رأى من العبث ان يذهب بعيداً للبحث عن اشياء متوفرة لديه ، والاندفاع نحو ادب المشرق ، ذلك ان هذا الادب المشرقي لم يكن كافياً ليقدم معرفة تامة عن ماهية الانسان .

امام كل هذه الآراء ندرك ان مظاهر الخصومة الأدبية بدت في المغرب العربي منذ عهد الأديب ابن عبد ربه الذي اخذ يحاول مع الاتجاه الأدبي العام في البلاد الى تكوين شخصية ادبية مستقلة لها طابعها المميز ، وان هذه المحاولة اخذت في القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد في رسم الخطوط الكبرى لهذه الشخصية الأندلسية الفذة ، التي راحت تبتعد عن مواكبة ادب المشرق عامة وشعر المتنبي والشريف الرضي ، ومهيار الديلمي خاصة ، لأن هذا الشعر لم يعد بمقدوره ان يمد العبقريّة الاسلامية - الاسبانية بنتائج يتوافق وتفتح هذه العبقريّة على الأفاق الجديدة التي بهرت عرب الاندلس .

لقد كان التنافس شديداً بين قرطبة وبغداد ، بين المشرق والمغرب العربيين ، في السياسة ، والأدب ، والاجتماع ، خصومة في الحكم وفي الادارة ، ألا انها خصومة معتدلة لم تكن لتُحس بها بغداد كما تُحس بها قرطبة الا في عهد المنصور ابي جعفر ، اما في غير عهد القائد العباسي فما كان اشد احساس قرطبة لهذه الخصومة الخلافة التي بنت الشخصية الاندلسية المتكاملة ، ذؤابة الحضارة العربية في الأدب والعلم ، والفن ، ونيراس الهداية لا في شبه الجزيرة وحسب وإنما في

اوروپا كلها التي عاشت على اشعاع الفكر الاسلامي الاندلسي ، وعلى حصيلة نتاج مدرسة طليطلة في الترجمات الفلسفية والدينية التي كانت معيناً خصباً لبناء حضارة اوروبية مستقلة ، قدّر لها في القرنين التاسع عشر والعشرين على حكم العالم .

ان الخصومة الأدبية التي استمرت ردياً من الزمن بين المشرق والمغرب العربيين كانت المدماك الأول في بناء الحضارة الغربية الحديثة ، المدينة للفكر العربي وللتراث الشرقي . بخصائصها وشمولها .



الفن المدجن في مبنى البريد (مجرط)



العنصر الغربي

في الأدب الأندلسي

من المقرر الثبوت أن الأدب في الأندلس نبع من بحر الأدب المشرقي ، وتاريخه في هاتيك الأرض يصور لنا التطور الذي مرّ بالأدب العربي عامة ، فشعراء الأندلس اعجبوا بالشعر الجاهلي واقبلوا على دراسته ولكنهم كانوا يرون فيه شيئاً أثرياً قديماً كما يؤكد المستشرق الأسباني اميليو غرسيا كومس .

من هنا لم يكن لهذا الشعر الجاهلي ، وكذلك للأدب العربي المحدث الذي تزعمته بغداد وبرع فيه نخبة من اصحاب المعنى كأبي نواس ومسلم بن الوليد ، وامي تمام وابن الرومي وغيرهم من الشعراء اثر فعال في نفوس شعراء الأندلس ، في ما خلا تصاوير نلمحها بين الحين والآخر وعبارات نلاحظها في الناحية الجمالية التي ظهرت مع الشعر القديم المحدث .

لعل سبب ذلك يرجع في ما يؤكد النقاد ويقره البحث العلمي ان هذا الأدب القديم المحدث عندما اخذ يظهر في الأندلس على يد نخبة من شعرائه الأوائل كان في اوجه في المشرق العربي .

بالرغم من هذه الحقائق التي يثبتها التاريخ ويعترف بها الدارسون لحقيقة ادبنا في المشرق والمغرب العربيين فالأدب الأندلسي لم يستمر بعد القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد في مواكبة جوهر الأدب العربي في المشرق ذلك ان عوامل مختلفة اخذت تؤثر فيه وتتفاعل به حتى اضحى ادباً

مُمَيَّزاً في كثير من مظاهرِ الذهن ، والفن واللغة والموسيقى .

ليس من شك في ان للبيئة الأندلسية اثراً كبيراً في تكوين هذا الأدب الأندلسي الجديد ، وقد توفرت لها خصائص من الطبيعة والفكر لم تكن للأدب العربي عامةً، فتفاعل العربُ مع سكان البلاد على ارض هذه الدولة العربية الاسبانية التي التقى فيها المتناقضان، عربيّ اسمرٌ من اعماق الصحراء، وغربيّ اشقرٌ من اطراف اوربا ، ومسجدٌ قائم في أنفة وحرية الى جانب كنيسة قائمة في انفة وحرية، كما هو واقع معابدنا في لبنان ، ولغةٌ عربيةٌ تكتب من جانب ، ولغةٌ اعجمية تكتب من جانب آخر ، كل هذا اثر في الأندلس فصدر عن ادب جديد يمثل اديبُ اسبانيا الاسلامية الذي كان على حد قول الناقد الفرنسي هنري بريس مزيجاً غريباً من القديم والحديث، من الكلاسيكية والرومانطيقية، من المعجون والصوفية .

ان الناحية الأولى من هذين الاتجاهين في شخصية الأديب العربي الاسباني تُردُّ الى الثقافة العربية الأصيلة التي وجدت في الأندلس ارضاً طيبة والتي صرف لها الأديب الأندلسي جهده ، واما الناحية الثانية فكانت نتيجة حتمية لما توافر امام عينيه وتحت وخز ضميره من ردود الفعل الداخلية التي تبحث عن المشاهدة ، إن روح الأديب الأندلسي الحساسة لا تتمكن في ما يقول بريس من التخلص تماماً، لا من المشاهد التي لَمَحَهَا من خلال الشعراء القدامى ، ولا من الأحاسيس التي شعر بها عند قراءته لروائع الماضي ، ومع كل ذلك فلقد كان اديباً فذاً صاحب شخصية مستقلة .

هذه الحقائق تدفعنا إلى ان نقرر على اهمية البيئة ، لا في حياة الشعوب والأفراد وحسب وإنما في حياة الفكر ومظاهره المختلفة في العلم والثقافة والأدب .

العوامل الغربية كثيرة ايضاً تلك التي اثرت في ادبنا الأندلسي واهمها التعايش ، والطبيعة، واللغة، ومن هذه العوامل الاساسية صدر العربُ في الأندلس عن نوع جديد من الأدب حاوله أعلامُ الأدب في المشرق فلم يوفقوا

اليه وجاء فطرياً طبعاً في الاندلس نتيجةً لحتمية لواقع الحياة العربية الاسبانية .
ان الازدواج في اللغة هو الذي ساعد على نشأة طراز شعري مختلط
تمتج فيه مؤثرات غربية وشرقية فيما يؤكد المستشرق الاسباني خوليان ريبيرا .
الحقيقة ان اهل الأدب الفصيح ازدروا هذا الطراز الشعري الجديد ، الا
ان العامة اقبلت عليه ، وما زال امره يعظم حتى اصبح لونا من الأدب اتخذ من
الأدب الشعبي صورتين احدهما الزجل ، والثانية الموشح .

من الواضح ان الفرق جلي بين الزجل والموشح ، فالزجل شعر يصاغ
على وزن خاص في فقرات تعرف بالأبيات وتبدأ مقطوعته بيت يعرف بالمركز
تليه اغصان ذات قافية واحدة ، ويتكون الغصن عادة من ثلاثة مصاريح أو أكثر،
ثم يعقبها بيت في نفس وزن المركز وقافيته وهكذا ، وهو كلام عامي في
الغالب .

اما الموشح فهو في الاصل محاولة جدية لتوزيع جديد للعروض على
نحو لم يألوه شعراء المشرق وكثيراً ما استخدم الموشح اشطاراً الاشعار ذات
الاعاريض المهمة .

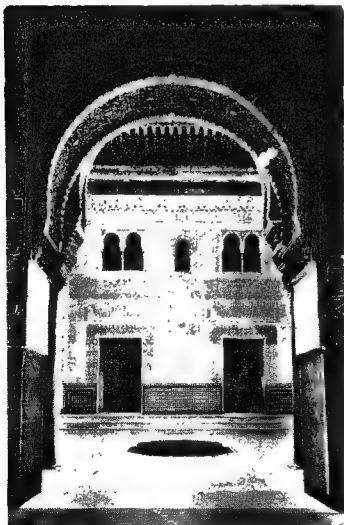
هذا ويذكر ابن خلدون بأن المتأخرين من شعراء الأندلس استخدموا فناً
من الشعر سموه بالموشح ينظمونه اسماطاً ، وأغصاناً أغصاناً يكثر منها ومن
اعاريضها المختلفة ويعرفون المتعددة منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك
الأغصان واوزانها نهجاً متتالياً في ما بعد إلى نهاية الموشحة .

ان هذا اللون من الشعر الذي عرف بالموشح أميل الى تسميته كذلك
نسبة الى الموشحة من الطير او الطباء لغرتين مسبلتين عن جانبيهما هما في
اعتقادي القافيتان المختلفتان في كل سطر من المطلع ، لا نسبة الى الوشاح
على حد قول بعض النقاد .

هذا العنصر الغربي في البيئة ، والتعاش ، واللغة والتقاليد واقبال
العرب على هضم حضارة القوط إلى جانب تأثيرهم في حياة الاسبان دفع

الأندلس العربي الى ان يصدر عن ادب جديد في معطياته ومقوماته ، الأدب الذي حاوله المشاركة فأنخطأوه وجاء لحناً متجاوياً مع سحر الأندلس وروائه الخير المتدفق صلاةً وشعراً وموسيقى ، على شفاه شعرائه المتأخرين وعلى ضربات نغم موسيقية خالدة .

بعد هذه الحقبة من عطاء العرب في شتى مظاهر الفكر، وبعد ان استقلت الشخصية الأندلسية منذ القرن السادس للهجرة ، الحادي العاشر للميلاد عن الشخصية المشرقية ، اصبحت المصدر الأول لتوجيه الفكر في العالم الغربي .



القصر الأحمر

شعر الطبيعة في الأدب الاندلسي

كان الاندلس العربي ارضاً خصبة للون جديد من ألوان الشعر ، اوجت به زرقة سمائه ، وخيلاء ارضه ، وجمال طبيعته ، وانسياب انهاره ، وتلاطم امواجه المتكسرة على اعتاب ارضه الخضراء .

هذا اللون من الشعر الذي تغنى به الشعراء المتفوقون في الاندلس ، على نحو جديد ، واطلقوا فيه نشيدهم تمجيداً لهذه الطبيعة الساحرة الاثرة ، وصلاة لتلك الأرض الزاهية الضاحكة ، ودعاء ، قلت ان هذا اللون من الشعر الذي تغنى به الشعراء كتب للاندلس العربي خاصة جديدة ، واكسب شعراءها تفوقاً على اقرانهم في المشرق ، فإذا هم شعراء الطبيعة يخلدون فيها في اوصافهم ، ويتغنون بها في صلاتهم ، ويتيهون في عوالمها ، وإذا هي حقيقة وجودهم ، وسر ابداعهم .

ان شعر الطبيعة لون جديد في تاريخ ادبنا العربي ، لم يكتب للشعر الجاهلي الذي كرس العصر الأموي حقيقته من حيث بناء القصيدة العروضي ، وبالتالي من حيث أكثر موضوعاته التي كانت نهجاً تقليدياً في الأدب حتى عصر أبي نواس . قلت لم يكتب للشعر الجاهلي ان يعنى العناية الكافية بجمال الطبيعة وسحرها ، لأن طبيعة الجزيرة العربية قاسية فقيرة الألواح الموحية ، فضلاً عن ان الشاعر الجاهلي في وصفه للرياض او للطبيعة لم يكن يقصد جمال الروض ، او بهاء الطبيعة لذاتيهما ، وانما كان يريد وصف من احب من

خلال وصفه للروض والطبيعة .

الواقع ان شعر الطبيعة كفن ادبي لم يعرفه النقاد العرب الا في العصر الحديث ، وان كان قد نشأ مع الحركة الابداعية في الآداب الغربية قبيل نهاية القرن الثامن عشر بعد ان وجد الشعراء المبدعون في الطبيعة ميداناً فسيحاً لخيالهم ، وتربة خصبة لنمو العواطف الانسانية ، وموضوعاً يلائم الاسلوب القوي الصريح .

ان شعراء الاندلس قد سبقوا شعراء الغرب في ابداع هذا اللون الجميل من الأدب الخالد ، حيث تركوا فيه صوراً لعواطفهم ، ومذاهب لاشواقهم ، وخلاصة لأفكارهم مزجوا فيه نبل مشاعرهم بعد ان وجدوا في طبيعة بلادهم انعكاسات لأمالهم ، ولما كانوا يحسون من شوق وهوى الى الأرض ، وإلى الطبيعة التي ألفوا فيها صداقة صوفية تجذبهم الى الساقية الهاربة من اعماق النهر ، وإلى الجبل الرابض ، وإلى الغابة الملتفة المنتشرة في اعماق بعض المنخفضات من الأرض هناك ، عندما تتلاقى الجبال فلا تقوى على ان تشد بعضها الى بعض .

هذا ، ولعل الشاعر الاندلسي ابن خفاجة قد صور طبيعة الاندلس صورة باقية على الدهر فيها حقيقة هذا الشعور ، وصدق تلك العاطفة .

يا أهل اندلس لـله دُرُكُم
ماءٌ وظِلٌّ وانهارٌ واشجار
ما جنةُ الخلد الا في دياركم
ولو تخيرت هذا ، كنت اختار
لا تختشوا بعدها ان تدخلوا صقراً
فليس تُدخل بعد الجنة النارُ

لم يكن هذا الشعر وليد الطبيعة الاندلسية وحدها ، فلقد ساعدت على نشأته وازدهاره ، الحياة المترفة اللامية ، والتمازج الذي تم على ارض تلك الدولة بين شرقي فاتن نحيل من اطراف الصحراء صهرته الشمس ، وغربي اشقر من اطراف اوربا امتزجت الألوان امام عينيه من زرقه في السماء ، وزرقه في البحر ، واخضرار في الأرض وثلج ناصع البياض على قمم الجبال ، حتى كادت هذه الألوان ان تنطبع في بؤبؤ عينيه .

عن كل هذا ، عن الطبيعة الساحرة ، والحياة الالهية ، والتمازج الغريب الذي تم على ارض الاندلس بين الشرق والغرب ، بين دنيا الاساطير ، وارض التاريخ القديم نشأ هذا اللون في الشعر الاندلسي حكاية ادب سبق الحركة الابداعية التي عرفتها اوربا في اواخر القرن الثامن عشر .

الحقيقة ان الاندلسيين قد استشعروا معاني ذلك الجمال في ايبيريا ، تلك الأرض التي تشدها الجبال من الشمال ان تغرق في البحر ، فاقبلوا على اللهو ، والمرح ، والاستمتاع بطبيعة بلادهم ، بعد ان تعلق الشعراء ببيتهم فصوروها وافاضوا في ذلك . وليس ادل من شعر ابن سفر المريني على وصف الاندلس روضة الدنيا .

في ارض اندلس تُلْتذُ نعيماء ولا يفارقُ فيها القلبُ مسراء
وليس في غيرها بالعيش متفُح ولا يقوم بحق الانس صهباء
واين يعدل عن ارض يحض بها على المدامة امواء وافياء
فيها خلعت عذارى ما بها عَوْضُ فهي الرياض ، وكلُّ الأرض صحراء

لقد اضحى من المقرر ان الشعر الاندلسي قد مرَّ في مراحل ثلاث ؛ فكان منذ بدء عصر الامويين حتى اواخر القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر للميلاد يمثل الشعر التقليدي لادب الشرق ، واعلام هذا اللون : ابن عبد ربه ، وابن هانئ ، وابن شهيد وغيرهم .

اما المرحلة الثانية وهي الحقبة التي امتدت خلال القرن الخامس فلقد اخذ الشعراء فيها يصيدون عن الحاضر ويمثلون النفس ومشاعرها ، والبيئة ومظاهرها مع الاحتفاظ بشيء من روعة الاسلوب التقليدي ، وفي نهاية هذه الحقبة تم انتصار الجديد ، واتسمت حركة الموشحات ، اما اعلام هذا اللون فابن زيدون ، وابن عمار ، والمعتمد بن عباد ومن اليهم من شعراء الطوائف . ويانتهاء القرن الخامس للهجرة اخذ الشعراء يمثلون البيئة المترفة والجلَّة ، واعلام هذه المرحلة ابن حمديس ، وابن عبدون ، وابن خفاجة وغيرهم .

ان قوى الابداع جميعاً في هذا الشعر الاندلسي خلال مراحل الثلاث قد

انسكبت في هذا اللون من شعر الطبيعة الذي هو عنوان كتاب الشعر في
الاندلس العربي :

لسه نهر سال في بطحاء اشهى وروداً من لجمى الحساء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتفه بحر السماء
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هُذَّب تحف بمقلة زرقاء

فاذا كان ابن خفاجة وهو من شعراء الطور الثالث قد غنى الطبيعة على
قيارته بهذا الابداع ، والاخراج ، والتألق ، فكيف ابدع صفوة شعراء الاندلس
هذا اللون من ادب الطبيعة ، وكلهم كان مرهف الحس ، موسيقي الجرس ،
وقد اوغلوا في هذا التشديد لا سيما في الطورين الاول والثاني .

ان شعر الطبيعة في الاندلس يصور لنا تعلق الشعراء ببيئتهم وتفضيلها
على بيئات الارض جميعاً ، بعد ان كان خيالهم متعلقاً بالشرق العربي ، وهو
يصف طبيعة بلادهم الطبيعية والصناعية التي اقامها الامراء والخلفاء ، فهم
يصفونها كما ابداعها الفن المعماري منعكسة في القصور ، والمساجد ،
والبرك والاحواض .

والخلاصة ان الطبيعة في الاندلس لعبت ، طروب ، وثوب تبعث
الاشراق في النفس ، والرجاء في القلب ، ووصفها في شعر الاندلسيين انما
يقوم على جوانبها الضاحكة الندية ، هذا الوصف الذي يتصل اتصالاً وثيقاً
بالغزل والخمرة ، اذ ان المرأة هي من اجمل الصور المعبرة عن محاسن
الطبيعة وجمالها .

ان الطبيعة في الاندلس تلك الاويرا الالهية ، هي اللوحة العالقة امام
الشعراء يتغنى بها كل على سجيته ، وعلى لحن واحد هو هذا اللون من
الشعر الابداعي ، الذي زها واشرق في اندلس العرب قبل ان يطل على العالم
نغمًا خالداً .

الحب والغزل في الأدب الاندلسي

بين الحب والغزل ، ما بين الشعور والتعبير من علاقة ، فإذا كان الحب فرحاً والمأ ، وصلاً وحرماناً لقاء وشوقاً الى اللقاء ، واقعاً نتحسسه او ذكرى نسرّنجها .. فالغزل هو التعبير عن بهجة المحب حين يفرح ، وعن اساء حين يتألم .

وإذا كان الحب ازاهر تتفتح ، او اشواكاً تنمو ، فالغزل هو عبق الزهور حين تتفتح ، ووخز الشوك حين يجرح .

وما دام الحب شعوراً ، والغزل تعبيراً فالذي تقتضيه طبيعة الحقائق ، ان يكون الشعور سابقاً على التعبير ، ليكون الغزل كفن متأخراً عن الحب كماطفة .

في ضوء هذا الواقع غنى الشعراء العرب يوم عرفوا النشيد ، هذا اللون من الشعر ، وما الابيات التي وطؤا بها لمعلقاتهم واغراضهم المختلفة في القصيدة الواحدة الأ منهج تقليدي وصفوا بها الحبيب والمنزل ، وهي في حقيقتها لا تخرج عن نطاق الصنعة الفنية ، كما انها لا تتصف بالغزل .

ان شعراء الجاهلية اصحاب هذا المذهب التقليدي في الأدب العربي قد احسنوا وصف الحبيب ولم يحسنوا تصوير الحب ومغازلة النساء ، لأن الغزل لم يعرف مفهومه اللغوي والأدبي إلا بعد الاسلام وبعد ان أثر في نهضته عوامل مختلفة متباينة من رقة الامزجة ، والانصراف الى الترف ، وعلاقة

الرجل بالمرأة من حيث موضوع هذا الشعر ، ولغة القرآن ، وجزالة الفاظه ،
واسلوبه القصصي من حيث مبناه .

لقد كان الشاعر الاسلامي حريصاً على ان يصور عاطفة حبه ، وشوقه
والعلاقة الروحية القائمة بينه وبين من احب ، بعيداً عن محاسن المرأة
وجمالها ، بينما كان الشاعر الجاهلي لا يخرج في شعره عن وصف المرأة التي
احب .

هذا ، وليس من شك في ان الأبيات الغزلية في آخر معلقة امرئ القيس
ليست له ، وإنما قد دست عليه .

لا غرو في ان هذا الغزل الذي ظهر في الجزيرة العربية بعد ان اسهمت
الدولة الاموية في نهضته ، قد ابدع عمر بن ابي ربيعة في عرضه عندما اطلقه
على اسس جديدة من التصوير ، والعاطفة ، والحوار ، والاخراج .

من هنا كان عمر بن ابي ربيعة زعيم هذه المدرسة الجديدة في الأدب
العربي ، واستاذ الاسلوب القصصي في فن الغزل حدّد خصائصه في رأيته ،
قبل ان يكتب للنقاد الامريكي اذكار النبو ان يضع اصول القصة الحديثة .

وهكذا رسم عمر ابن ابي ربيعة لشعراء الحب في الاندلس الطريق
الذي اندفعوا فيه يتغزلون على سجيّتهم ، ويضيفون الى الأدب العربي لحناً
جديداً وقد التقى فيه الشرق والغرب عند اعتاب الفردوس الاندلسي الخالد .

ان اوائل شعراء الحب في الاندلس ، كالرمادي ، وسعيد بن منذر
البلوطي ، وابن عبد ربه لم يخرجوا في ابياتهم عن وصف الانسان الذي
احبوا ، وهم في ذلك قد التقوا مع شعراء الجاهلية من حيث الموضوع
والاسلوب ، وان كانت طبيعة البيئة الاندلسية قد فرضت على شعرهم شيئاً من
الركة وجدالة اللفظ ، ولعلّ ابن عبد ربه يمثل في شعره انموذج هذه الباقية من
شعراء الطليعة في الاندلس .

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله درأ يعود من الحياء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه ابصرت وجهك في سناه غريقا

ان الابداع في ابتكار هذه الصورة المزهوة المشرقة في تصوير وجه
الحبيب وقد ترامت عليه كل الألوان الزاهية الساحرة الضاحكة في الاندلس
الجميل ، هو اجمل من شعر الصحراء ، وقد تتناول على شعر طرفة بن العبد
يوم وصف وجه الانسان الذي احب :

وجه كأن الشمس الفت رءاءها عليه نقي اللون لم يتخذ

ما ان اجتاز الغزل في الاندلس المرحلة الأولى في درب شعر الحب
العربي ، حتى اطل عليه شاعر كاتب مزج الشعر بالعلم ، والعاطفة بالنقد ،
قلت اطل على الغزل في الاندلس ابو محمد علي بن حزم القرطبي الذي هزأ
بالدموع الغزار التي ذرفها الشعراء على « ديار الحبيبة » ونهج سبيلاً قلل فيه من
بهجة الوصل ، ومن هنا كان شعره واقعياً واضحاً يصف احوال النفس على
فطرتها ، كما يصور احساسه العميق بأسلوب تغلب عليه الرقة والجدالة
والخيال :

وددت بأن القلب شق بمسدية وادخلت فيه ، ثم اطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحليلين غيره الى مقتضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت فان امت سكنت مشغاف القلب في ظلم القبر

كاد الاندلس يعيش غزله على انسانية ابن حزم في حبه لو لم يندفع مع
ابن زيدون في غزله ، وفي حبه لولادة ابنة المستكفي ، وقد سمحت البيئة
العربية للمرأة الشاعرة ان تنادي الحبيب وان تلتقي به وتتشفه ما تعاني من حب
وشوق :

ترقب اذا جنّ الظلام زيارتي فأني رأيت الليل اكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع ، وبالنجم لم يسر

ويلي الشاعر الاندلسي لأول مرة في حياة الغزل العربي نداء صريحاً ،
ويجد في هذا الانسان المحب ، اجمل ما يرجوه في كبريائه وعزته ، وتردده

وهو مع ذلك محب صادق العاطفة :

ته احتمل ، واستطل اصر ، وعزّاهن وول اقبل ، وقل اسمع ، ومزّاطع
ان هذا النوع الجديد من الغزل الاندلسي الذي لم يعرفه الشرق العربي
عند شاعر من شعراء الغزل ، حتى ولم يعرفه عند ابن ابي ربيعة ذاته ، قد دفع
بالغزل العربي وبالحب العربي الى ناحية الحرية او الاباحية في الحب ، وقد
سجل في تاريخ الفكر الانساني تقديم الحياة العربية الاندلسية ، وحرية
المرأة ، ورقّي المجتمع .

وهكذا غنى شعراء الاندلس مع الطبيعة هناك ، اجمل نشيد الاهي امام
الساقية الهاربة من النهر الكبير ، وعلى زقزقة الطير المختبئة في اعشاشها بين
اغصان الاشجار ، كان يتعالى مع ثورة الطبيعة في الربيع وكأنه ينشد اجمل
اوبرا سماوية للمرأة المخلوق الخالد ، التي يلتقي فيها كل الخير ، والحق
والجمال ، ملهمة الشعر ، ولحن الغزل .

واعتماد الرميكية الم تتجاوب مع المعتمد في حب عميق امام النهر وعند
شاطئ الفضة في اشبيليا ، فكانت بحق هذه المرأة التي التقى فيها كل الخير
وكل الجمال لولا ما عانى المعتمد من دلالها والغنج وهو وكما اشرنا تلقب بين
الملوك والعظماء باسمها :

اغائبه الشخص عن ناظري	وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون	ودمع الشؤون وقدر السهاد
تملكت مني صعب المزاج	وصادفت مني سهل القياد
مرادى اعيالك في كل حين	فيا ليت أني أعطى مرادي
دست اسمك الحلوفي طيه	والفت منه حروف اعتماد

كيف لا فمطالع هذه الأبيات هي : الألف ، والعين ، والتاء والميم
والدال فعند التقائها تشكل اسم « اعتماد » .
بلى كيف لا ... إنه الحب ... وإنه الغزل .

الغناء العربي

عرفت قصور الاندلس الاسلامي في قرطبة ام المدائن الحاملة عند اقدام جبل العروس ، وفي الزهراء الواحة الضاحكة للحياة ، وفي اشبيلية الجنة الناعسة على شاطئ نهر الفضة ، وفي غرناطة قبلة الأرض القائمة وسط سهلها الافيح ، وفي طليطلة القمة المسيجة بنهر التاج، وفي جيان ومالقة وبالنسيا ومرسيا وسرقسطة وبطليوس الاليء المبعثرة على ارض شبه الجزيرة .

قلت عرفت قصور الاندلس مظاهر من الحياة الوادعة الهائلة ، وضروباً من الترف الانيق ، وانواعاً من اللهو في مجالس الامراء والخلفاء والاعيان وفي ردهات وقاعات قصورهم المزدانة بالرياش وفاخر الاثاث ، وامام برك الماء في الحدائق الغناء ، وفي ظل سديم رشاش النافورات، كان الغناء العربي وما يرافقه من قينة رشيقة تغني، وغوان جميلات يهزجن، وعازفات يضربن، وساقيات يطفن متعة الانفس والارواح ، ومراد السمع ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، وصلاة الكتيب ، وانس الوحيد لعظم موقع الصوت الحسن من القلب واخذه بمجامع النفس .

والغناء في الأصل صناعة بارعة ترمي الى تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة ثم تؤلف تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب كما يقول ابن خلدون .

الحقيقة ان الغناء العربي كان في الأصل على ثلاثة اوجه ، النصب ،
والسناد ، والهزج فالنصب هو غناء الركبان والقيان ، والسناد فهو الثقل
الترجيع الكثير النغمات ، واما الهزج فالخفيف كله ، وهو الذي يثير القلوب
ويهيج الحكيم .

هذا ، ومن الثابت ان اصل الغناء العربي ومعدنه كان في امهات القرى من
بلاد العرب ظاهراً فاشياً في المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة
الجنندل واليمامة ثم قدر له بعد ان شاع فن الغزل في الحجاز وكثر الشعر فيه
استجابة للغناء ، وعمّ المجون ، وساد اللهو ، ان ينتقل الى العراق فيجد في
بغداد عاصمة الدولة العباسية في ما بعد ارضاً طيبة مع بذور الموسيقى والغناء
الفارسي ،

لم يتوان هذا الغناء ايضاً عن ركب الشعر والنثر العربيين عن الانتقال الى
الاندلس على ايدي الفاتحين ليتفاعل على ارضه مع ما ترك الجرمان والفندال
والقوط من بذور غنائية وموسيقية الا انه بالرغم من هذه الرحلة الشاقة والعسيرة
لم يقو ان يحمل في طياته فناً متكامل التوضيح ، محدد الاصول كما يؤكد ذلك
خوسه فورنس عميد الكونسرفتوار الموسيقي الملكي بمدريد في كتابه « تاريخ
الموسيقى » .

الحقيقة ان الغناء العربي - الاسباني لم ينهض في الاندلس الا على يد
الامير عبد الرحمن الداخل الذي قدر له سنة مائة وثمان وثلاثين للهجرة ،
سبعمائة وخمسة وخمسون للميلاد ان يقيم اماراً مستقلة عن نفوذ المشرق وان
يتخذ قرطبة عاصمة له .

ان حب المنافسة عند اموي الاندلس في ان تلعب عاصمتهم عظمة
دمشق وتنافس بغداد عاصمة العباسيين دفعت بامراء البيت الحاكم وخلفائه
الى دعوة نوابه الادباء والشعراء والموسيقين الذين كانوا ينتمون الى امهات
المدارس العلمية والأدبية والفنية في المشرق العربي ، والى ان يفسحوا لهم بين
كبار رجال البلاط .

الواقع ان قرطبة مدينة الاندلس الجميلة لم تتأخر كثيراً عن تأدية دور دمشق في الحياة السياسية والاجتماعية وعن اللحاق ببغداد فأصبحت في عهد عبد الرحمن الناصر من اكبر مراكز الازدهار الفكري والحضاري، لا في اوروىا وحسب ، بل في العالم جميعاً ، لها جامعتها ومدارسها الكبيرة ولها اعلامها العظام في العلم والفن والأدب والغناء والموسيقى .

في عهد عبد الرحمن الثاني وفي احدى ليالي سنة مائتين وست للهجرة، ثمانمائة واحد وعشرين للميلاد حط في قرطبة زرياب الطائر الغرد ، ابو الحسن علي بن نافع فقدر له بعد ان انشأ مدرسته الموسيقية ان يأتي على كل البذور الفنية والغنائية التي خلفها في الاندلس علون وزرقون والقيان الشهيرات فضل ، وعلم ، وقلم .

غنى زرياب هارون الرشيد بعد ان حط على ضفاف دجلة من بلاد فارس وحنق الغناء والموسيقى على يد اسحق بن ابراهيم الموصلي رائد الغناء العربي ، غناء عذباً مزيجاً من الغناء العربي جميعاً بعد ان ربط بين اللحان في دقة فتمازجت في فن وصنعة .

كان زرياب طلعة في اللحن والغناء والموسيقى اقام في الاندلس مدرسة فنية جعل لها قواعد ومناهج خاصة بها وكانت له اساليب يختبر بها هواة الفن والغناء وكثيراً ما اختبر المطبوع الصوت من غير المطبوع باساليب خاصة به لم تكن معروفة قبل عهده ، وعن هذه المدرسة تخرج اساطين الغناء العربي بالاندلس على يد معلمهم الاكبر علي بن نافع .

الى جانب هذه الاصول اضاف زرياب الى العود وترّاً خامساً وكان الى ايامه اربعة اوتار تقابل الطبائع البشرية الاربع عرف بالوتر الدموي الأحمر ، كما اخترع مضرباب العود من قوادم النسر معتاضاً به عن مرهف الخشب فابدى في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الاصابع .

هذا وبالرغم من تشدد رجال الدين ونظرتهم الى الموسيقى نظرة سخرية

واستهزاء ، وبينما كان الفقهاء يعتبرون الاشتغال بها امراً محطاً لا يليق إلا بالموالي والاماء ، ولم يكونوا يقبلون شهادة المغني او المغنية او الناذبة ، ولم يسمحوا ببيع كتب الموسيقى والانايد علناً ، فان سوق الفن نفقت في الاندلس بالرغم من ذلك كله .

هذا الازدهار الموسيقي والغناء في الاندلس يفسر لنا عوامل نشأة لون جديد من الشعر كان الاندلس السباق اليه دون سائر الدنيا العربية قاطبة .

فالزجل والموشحة هما في واقع الأمر فن شعري واحد ولكن الزجل يطلق على السوقي الدارج منهما ، اذ لا بد ان يكون في اللغة الدارجة ، اما الموشحة فلا تكون الا في العربية الفصحى وكلا الفنين كانا حاجة ماسة للغناء والموسيقى في الاندلس فبينما نجد ان الزجل كان يغنى به في الطرقات فالموشحات لا تغنى الا في اجواء خاصة وفي ظل القصور .

الثابت ان الغناء العربي في الاندلس لم يقتصر تأثيره من الناحية الأدبية على نشأة هذا الطراز الشعري الجديد فالمستشرق الاسباني خوليان ريبيرا : (يرجع الى الزجل والموشح السر في تكوين القوالب التي صبت فيها الطرز الشعرية في العالم المتحضر اثناء العصر الوسيط كما ثبت انتقال بحور الشعر الاندلسي الى جانب الموسيقى العربية الى اوروبا عن الطريق التي انتقل بها الكثير من علوم القدماء وفنونهم ، لا ندري كيف من بلاد الاغريق الى روما ومن روما الى بيزنطة ومن هذه الى فارس وبغداد والاندلس ومن ثم الى بقية اوروبا) .

المقرر انه لم تنتقل الى اوروبا انغام الموسيقى وحدها بل صاحبتهما الاغنيات التي تغنى بها وكان من الطبيعي ان يكون لها آثار من الطرز الشعرية التي وجدت هناك .

الواقع ان الغناء العربي والموسيقى الاندلسية استوطنت الشمال الافريقي بعد انهيار الاندلس الاسلامي بسقوط غرناطة سنة ثمانمائة وسبع وتسعين للهجرة ، الف واربعمائة واثنين وتسعين للميلاد . فمنذ القرن الرابع

للهجرة، العاشر للميلاد وبعد احتلال فرنندو الثالث لقرطبة هاجر خمسون ألفاً من عرب الاندلس الى تلمسان وعند سقوط اشبيلية وقعت هجرة اخرى الى غرناطة وتونس وعندما احتل دي اراغون بلنسية بلغ عدد المهاجرين الى غرناطة وفاس مائتي ألفاً .

هذه الهجرات الى الشمال الافريقي ادت الى نشوء بعض الاختلافات في الاسلوب الموسيقي، ونشأت عن ذلك مدارس مختلفة او طرق موسيقية ، فالمدرسة التونسية واصلها اشبيلي والمدرسة الجزائرية واصلها غرناطي ، والمدرسة المغربية وهي مزيج من المدرستين البلنسية والغرناطية .

ان تعاقب القرون على هذه الموسيقى ابعداها عن جوهرها الحقيقي ، ان في الموشحات ، او الازجال لأن اللهجة الاندلسية التي بها نظمت تلك المقطعات او القصائد لم تكن مفهومة الا بين المهاجرين الاندلسيين وبالاخص بين الاجيال الأولى منهم ولذلك اخذت ازجال وموشحات بلهجات مغربية تحتل في اللحن محل الازجال الاندلسية كما ان موسيقى هذه الالحان التي كانت تنقل بالسمع من جيل الى جيل فقدت اثرها مع الزمان ايضاً وترك الامر للموسيقين يتناقلونها بالسمع وهم في معظم الحالات يجهلون قواعد الفنية الاصلية .

وبعد ومهما يكن من امر هذا الغناء الاندلسي وموسيقاه فليس من شك في ان الغناء العربي في شبه جزيرة ايبيريا اثر في الشعر العربي وكان نقطة تحول في توزيع الوزن العربي واوزان الشعر الأوروبي اطلاقاً بعد ان كان بدءاً بين الغناء جميعاً شعراً ولحناً وموسيقى .



أوائل كتب الطبقات في الأندلس

كان الأندلس العربي حريصاً على وضع كتب الطبقات والمراجع لأصول البحث العلمي ، تلك الأصول وإن لم تعرف أساليب العلم الحديثة ، فهي ولا شك الركيزة الأولى التي قامت عليها دراسة الآداب ، والعلوم والتاريخ ، بل والحضارة في هاتيك الأرض ، التي جمعت إلى اعتدال اقليمها كل مقومات الحياة الفكرية ، وأصول بحثها المركزة وفق مراجع ومصادر مقررّة .

لقد كثرت عناية الأندلسيين بتصنيف معاجم الأعلام ، وفهارس الكتب . هذا التصنيف الذي لا يكون إلا بعد أن تستكمل الثقافة حقيقة وجودها وتصبح أمراً حتمياً ، ومنهجاً مقررّاً في حياة الأمم والشعوب .

في ضوء هذه الحقيقة كان الأندلس بحكم واقعه الحضاري ، ومركزه العلمي مدعواً لتنظيم أصول البحث والدراسات الفكرية فيه ، بعد أن عمت الثقافة أرجاءه ، وانتشرت المعارف بين أبنائه واتسعت آفاقها حتى مست الضرورة إلى وضع المعاجم لطوائف الرجال النواصب ، ولفروع العلم وأبوابه المختلفة .

إن البحث العلمي الحديث ، والدراسات الأدبية التي يقوم بها المستشرقون والأدباء تجد في كتب الطبقات خير معين على رسم الخطوط الكبرى لهاتيك النهضة الفكرية التي بهرت أوروبا والعالم ، والتي أخذت

تكون مدعاةً لاهتمام النقاد والعلماء في هذا العصر الحديث .

الدارس للحياة العربية في الأندلس يجد نفسه امام مجموعة كبرى من الفهارس ومعاجم الأعلام، ككتاب الفقهاء لابن عبد البر ، ومعجم اعلام القضاة للخشني ، هذه المعاجم التي صنف بعد حركة واسعة كانت ترمي الى وضع فهرس لكل لون ، وكل فن ، وكل طبقة من ألوان وفنون الحياة في الأندلس وطبقات الرجال فيه . ومن الخير قبل ان نقدم على دراسة هذا اللون الجديد من المصادر ان نشير الى ان الشرق العربي كان قد سبق الأندلس الى الاهتمام بهذا النوع من التأليف كما ان باستطاعة الباحث ان يقرر بدء تاريخ هذا التصنيف في الشرق العربي ، ومدى اهتمام الكتاب والمؤلفين به ، ذلك لأن أكثر الموضوعات التي عالجهَا كتاب الشرق وان كانت نتيجة حتمية لتطور الحياة الأدبية والفكرية فيه دون معرفة الحاجة الماسة اليه . فقد درست وقررت اصولها ومناهجها . فالتدوين والنثر الفني ، والنقد ، وعلم التاريخ وغيرها من الموضوعات التي مارسها المتفوقون بحكم تطور الحياة الفكرية دون تقدير النتائج التي يترتب عليها مثل هذه الابحاث بالنسبة الى مستقبل الثقافة العربية ، قد اصبحت من الموضوعات العلمية المنهجية .

ولعل من اهم المصادر العربية التي توضح سبل الكتاب والمؤلفين ، وتحدد غاياتهم واهدافهم ، والتي يمكن الرجوع اليها هي رسالة عبد الحميد الكاتب الى الكتاب التي يوصيهم فيها بطائفة من الوصايا الأخلاقية والمسلكية ، والتي تشير الى الغايات الكبرى التي تدفع بهذه النخبة من المفكرين الى تصنيف ابحاثهم وتشعب موضوعاتها فيقول لهم : « فتتأسوا يا معشر الكتاب صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فإنها ثقافت الستكم ، ثم أجدوا الخط فإنه حلية كتبتكم ، وأزروا الأشعار ، وأعرفوا غريبها ومعانيها وایام العرب والعجم ، واحاديثها وسیرها ، فإن ذلك معین لكم ما تسموا اليه هممكم » .

من هذه الوصية التي سجلها عبد الحميد الكاتب قبيل منتصف القرن

الثاني للهجرة، الثامن للميلاد تظهر حاجة الحياة الفكرية الماسة الى ضرورة تدوين ايام العرب والعجم والى تصنيف احاديثهم وبيير اعلامهم .

ولم يكد يُطلَّ القرنُ السادس للهجرة، الثاني عشر للميلاد حتى كان هذا النوع من كتب المراجع قد استكمل كثيراً من اصول البحث العلمي ، وكان نفرٌ كبير من الكتاب كالفتح بن خاقان صاحب « قلائد العقيان » و « المطمح » ، وابن بسام صاحب « النخيرة في محاسن اهل الجزيرة » والحظري البغدادي صاحب « الزينة » والعماد الكاتب الاصفهاني صاحب « خريدة القصر وجريدة اهل العصر » ، وآخرين من هذه الطبقة مشاركة ومغاربة ، عُنوا بتصنيف الكتب في طبقات شعراء عصورهم وما اليها ، وهو امر يدل على جسامه تلك النهضة الأدبية .

من الملاحظ ان اساليب المشاركة والمغاربة في معالجة هذه الموضوعات لم تكن واحدة ، فالمشاركة كالثعالبي ، والباخرزي ، والحظيري ، والعماد الاصبهاني كانوا الى الاحاطة والاستيعاب في مناهجهم ، فلم يَقْصُرُوا كتبهم على طبقة في اقليم معين ، فالثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » قد افرد باباً ذكر فيه جمهرة من مشاهير شعراء المغرب والاندلس وكتبها وهذا العماد الاصفهاني حذو الثعالبي او زاد عليه ، فافرد قسماً ضخماً لشعراء الأندلس وصقلية والقيروان والمغرب العربي .

هذا ، وإذا كان عبد الحميد الكاتب قد دعى الكتاب منذ مطلع القرن الثاني للهجرة ، الثامن للميلاد ان يتجهوا نحو هذا النوع من التأليف ، وان لم يكن يُعْنِيهِ على الشكل الذي عُرف فيه من بعد فلان أول من كتب في هذه الموضوعات بالاندلس ابو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النميري ، مولى بني امية المتوفى في القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر للميلاد، وكانت باكورة مؤلفاته كتاباً عن فقهاء قرطبة ، اعتمد عليه في ما بعد ابن الفرسي في وضع كتابه القيم « تاريخ علماء الاندلس » . الى جانب مؤلف ابن عبد البر يأتي كتاب « تاريخ قضاة قرطبة » لأبي عبد الله محمد بن الحارث بن اسد

الخشني ، الذي وضعه على اساس الحوليات ، وذكر فيه القضاة الذين
تمرسوا بقضاء قرطبة من لَدُن الفتح حتى سنة ثلاثمائة وسبع وخمسين
للهجرة ، تسعمائة وثمان وستين للميلاد .

ان تاريخ قضاة قرطبة للخشني والذي ترجمه الى الاسبانية ونشره في
مدريد سنة الف وتسعمائة واربع عشرة المستشرق الاسباني خوليان رييرا ،
قلت ان كتاب تاريخ قضاة قرطبة للخشني يضم من الفوائد ما يجعله من الزم
واهم ما يُرجع اليه لدراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس من اول الفتح حتى
عصر الحكم المستنصر .

هذا ويقول المستشرق رييرا : «بأن الخشني وضع كتابه وتحت يده وثائق
على جانب كبير من الأهمية العلمية والتاريخية» ، ويرجعُ بأنه وضع الكتاب
بإيحاء من الحكم نفسه ، الذي سهل له الاطلاع على المصادر المحفوظة في
ديوان الخلافة وسجلات القضاة والأوراق الخاصة لبعض الأفراد . كما يرجع
رييرا إلى ان الخشني قد اعتمد كتباً عفى عليها الزمن ، وقد استفاد الى حد
بعيد من الروايات والأخبار التي كان الناس يتناقلونها ، واهم هذه الروايات ما
كانت تحكى في قصر الخلافة وبيوت السروات الكبيرة الحاكمة .

أما قيمة هذا الكتاب العلمية فيرى رييرا بأن الخشني ليس بالمسرف في
الدقة ولا بالشديد التحفظ في نقده لما يورد من الأخبار ، والحقيقة ان هذا
المأخذ الذي يراه المستشرق رييرا انما يمسُ الكتاب بوجه خاص في قسمه
الأول لأنه يقص فيه احداثاً وقعت في العصور الأولى ، واخبارها يُحيط بها
الغموض .

من الطبيعي ان يقع ابو عبد الله الخشني في بعض الأخطاء بالنسبة إلى
اخبار القضاة الثلاثة الأول في قرطبة لأنه كان يعتمد الروايات المحلية ذات
الصبغة الاقليمية ، والرجل غريب عن البلاد الا ان الذي يحمده في كتاب
الخشني اننا لا نلمس فيه تدخلاً لقوى خارقة او لعوامل غير طبيعية في مجرى
الحوادث ، كما ان الرجل ابعُد ما يكون من ان تسيطر عليه نوازغ دينية ، او ان

يكون ذا عصبية سياسية، فلا تزلف ولا مداينة لأهل الدولة في الكتاب .
والخشني مع احترامه للحكم المستنصر لم يتورع من ان يذكر اخباراً تشينُ
البيتَ الأمويَ الحاكم .

ان اهميةَ هذا الكتاب من الناحية العلمية والتاريخية أنه يضعنا في قلب
قرطبة عاصمة الامارة وكرسي الخلافة في ما بعد كما يقول ريبيرا . اما اخباره
فموضوعة بقلب من الواقعية لا يبلغ تصويرها كتاب غيره . وهو ان يحدثنا عن
امور تافهة ويصور لنا مشاهد مبتذلة لا جلال فيها ولا رابط يربطها الى غيرها
فهي تطوي عنصراً فنياً مهماً يُعين على دراسة المظاهر الاجتماعية ، مما لا
يذكره او يُعنى به غير هذا الكتاب . الى جانب ذلك نجد في الكتاب مادة قيمة
لدراسة نظام القضاء في الأندلس فهو من هذه الناحية يلقي ضوءاً على المسائل التي
تتصل بتولية القضاة وعزلهم وعددهم وما كان يشترط فيهم من الصفات العقلية
والخلقية والكفاءات العلمية ، ويعرفنا بأجناس القضاة عرباً او مولدين او بربراً
ويحدثنا عن كفاياتهم وموازينهم في اصدار الأحكام ، ويقدم لنا مادة طيبة عن
اجراءات التقاضي ونظام المحكمة وجلال منصب القضاء . مع المقارنة بما
كان عليه في غير الأندلس من البلاد العربية .

وكتاب الخشني الذي يعتمد في سرد اخباره على الاسناد يُعْتَبَرُ في طليعة
كتب الطبقات في الأندلس العربي التي قامت عليها تلك الدراسات الواسعة
في تاريخ الآداب والعلوم ، وفي ضوءها قررت ميزات حضارة العرب في
أندلسهم ؛ التبراس الذي ما زال يضيء بالرغم من العاصفة التي أتت على
الذبالة فاطفات حرارتها وابتقت اشعاعها ابدياً سرمدياً بقاء الانسانية .



فن المقامة

في الأدب الأندلسي

من الثابت أن الثقافة العربية في الأندلس هي الامتداد الطبيعي للثقافة العربية عامة ، وإنها ليس فيها ما يتميز عن حقيقة الأدب العربي إلا في بعض الموضوعات التي أبدعها الأندلسيون .

في الواقع عرف الأندلس العربي أدباء كثاراً قبل أن يعرف أدباً تنطوي عليه البيئة الأندلسية ، والأدب في هذا المضمار كعلم لا كيان له إطلاقاً ، وإذا كان النتاج الأدبي في الأندلس هو الذي دفع النقاد إلى دراسته وتقدير قيمته العلمية فلا شك أن أعلام الأندلس بابداعهم للأدب الإنشائي هم الذين أغروا النقد بدراسة نتاج الفكر الأندلسي .

هذا ، وإذا كان نقاد الأدب العربي في المشرق لم يجدوا في القرآن الكريم واللغة العربية إطلاقاً ، أصلاً لكلمة أدب ، وذهب بهم الظن إلى أن هذه الكلمة قد دخلت اللغة العربية من إحدى اللغات الفصحانية المنقرضة ، واستدلوا بالحديث الشريف « أدبني ربي فأحسن تأديبي » دليلاً على ورود هذه الكلمة في المصادر الأولى ، وحددوا لها معان تتوافق ومسلولها بالنسبة إلى الأعصر الأدبية .

قلت إذا كان نقاد الأدب العربي في المشرق قد حددوا لكلمة أدب عدة معان ، فنقاد الأدب الأندلسي وافقوا المشاركة في تحديدهم لهذه الكلمة ويقول

المستشرق الاسباني انخل كونثال بالثيا أن العرب أطلقوا لفظة أدب على المعارف التي من شأنها أن ترفع مستوى الثقافة الذهنية ، وتؤدي إلى تحسين سلوك الناس في اجتماعهم بعضهم الى بعض .

الحقيقة أن النقاد العرب جعلوا المكان الأول بين هذه المعارف لفقه اللغة العربية ، والشعر وشروحه ، وتاريخ العرب وأيامهم ، ونراهم يدخلون في مفهوم الأدب في بعض الأحيان لطائف الذهن والألعاب ، وفنون التسلية ، وينظمون في سلوكه المعارف التجريبية = في أحيان أخرى = تمشياً مع ما ذهب إليه ارسططاليس في تصنيفه للعلوم .

في ضوء هذا الواقع لتطور مفهوم الأدب في شبه الجزيرة ، تأثر الأندلسيون المشاركة في النثر تماماً كما تأثروهم في الشعر، وكان ظهور النثر الفني في الأندلس متأخراً أيضاً بالنسبة لظهور الشعر، وهكذا كان نثر الأندلسيين على نهج أساليب الانشاء وألوان التعبير في المشرق العربي ، الى جانب ما سلكوا في تنظيم أداة الحكم من نظام الديوان، واستيزار الكتاب والشعراء .

كان النثر الفني في الأندلس واقعاً مستمداً من حقيقة النثر عامة في الأدب العربي ، فتبغ المغاربة بالترسل على أنواعه ، وأنشأوا الكتب المصنفة في المعارف والعلوم والآداب ، ويرعوا في الانشاء الخطابي على نحو يتلاءم وطبيعة البلاد ويُعدها عن مواطن الثقافة الأصيلة في دمشق وبغداد .

مر النثر الفني في الأندلس في مراحل ثلاث ، فكان إلى التعميق والتزيين في عصوره الأول يجري مرسلاً مطبوعاً (لا يُلتزم فيه سجع ولا يُتكلّف فيه توشية ، وإنما هي البلاغة تقضي بعض الأحيان بأن يسجعوا ويوشوا دون انتقاص في الطبع) ، ومن هنا كان النثر في الدور الأول اشبه شيء بنثر ابن المقفع والجاحظ وأمثالهما من بلغاء الكتاب المطبوعين .

ثم صار الترسل إلى تكلف السجع والتزيين ، وتقليب الجمل على المعنى الواحد وهو أشبه شيء بترسل العباسيين في العصر الثالث والرابع .

وما آذن القرن السادس للهجرة بالأفول ، حتى غلبت الصناعة على الفن ، واتسعت دائرة التكلف ، فإذا الانشاء في القرنين السابع والثامن عبارات مرصوفة ، وألفاظ مترادفة مملة ، وتلميحات تاريخية وبيانية لا حد لها ، وقد تناول الأدباء في ترسلهم ، الأخوانيات على أنواعها ، والمقامات بعد ظهورها في المشرق العربي .

عرف الأندلسيون مقامات أبي علي محمد قاسم بن الحريري من أدباء القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد كفن من فنون الأدب بعد أن انتشرت في العالم الاسلامي يومذاك ، وأعجبوا بها وقلدوها بالرغم من أن بديع الزمان الهمداني من أدباء القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد كان قد سبق الحريري الى تأليف المقامات .

يرجع العلماء والنقاد اطلاع الأندلسيين على مقامات الحريري الى الاتصال القوي القائم يومئذ بين منابر العلماء المبرزين في المشرق ورجال الفكر الأندلسيين ، الى جانب الشهرة الواسعة التي رافقت مقامات أبي علي محمد قاسم بن الحريري .

نحن لا نحاول أن ندرس هنا أصيل المقامات ونشأتها بقدر ما نحاول أن ندرس تاريخ من واكب الحريري في الأندلس العربي .

لقد وصلت مقامات الحريري إلى الأندلس ، وكان لها بين أدبائه جدى كبير فمضى نفر من أدباء البلاد بالنسج على منوالها ، فكان الفقيه ابن القصير ابو جعفر عبد الرحمن بن أحمد الأزدي من أدباء القرن السادس للهجرة ، الثاني عشر للميلاد يشيء في ما يقول المستشرق الاسباني انخل كوثالث بالثيا مقامات في ما كتب من رسائل أدبية وخطب ومواعظ ، كما ألف أبو طاهر محمد ابن يوسف السرقسطي الاشرقوني مجموعة مقامات لا زالت مخطوطة في مكتبة برلين .

إلى جانب هذين الأدبيين وضع أبو طالب عقيل بن عطية المراكشي ، تلميذ ابن بشكوال شرحاً على مقامات الحريري . فضلاً عن أن أكبر شراح

مقامات الحريري في العالم الاسلامي كان أندلسياً من شريش ، وهو أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي المتوفي سنة ستمائة وثمانية عشر للهجرة ، ألف ومائتين واثنين وعشرين للميلاد ، وكان رجلاً واسع العلم يعد من بين شيوخ الأندلس الذين نبغ على يديه عدد من العلماء والأدباء .

يحدث العالم البلنسي أبو عبد الله بن الأبار القضاعي صاحب الحلة السراء فيؤكد أنه قد لقي الشريشي في مدينة بلنسيا ، وقرأ عليه جزءً من شرحه على المقامات ، وأجاز له رواية بقيتها ، وقد قيل أن له ثلاثة شروح لمقامات الحريري ، ولم يترك في كتاب من شروحه فائدة الا استخراجها ، ولا خريدة الا استدرجها فصار شرحه يغني عن كل شرح تقدمه ، ولا يحتاج إلى سواء في لفظ من ألفاظها .

لقد كان لشرح الشريشي لمقامات الحريري أهمية علمية كبرى ، حتى أن المستشرق سلفستردى ساسي الذي عنى بدراسة مقامات الحريري وشرحها أفاد الى حد بعيد من الشعر الذي أورده الشريشي في شروحه ، مؤكداً أن العالم الأندلسي كان حريصاً على الدقة في كل ما أورده من نصوص .

لم يكتف الشريشي بما وضع على مقامات الحريري من شروح أدبية ، بل أضاف من علمه الواسع طائفة عظيمة من الموضوعات ذات الأهمية البالغة .

ان الدارس لأدب الأندلسيين في معناه المتطور يرى أن المشرق العربي كاد يطبع الأندلس في كل شيء ، في الشعر ، وفي الأدب ، وفي التاريخ ، وفي النقد كما طبع أعلامه الكبار بألقاب مشرقية فكانوا بما يصدر عنهم صورة لانعكاس الحضارة والفكر العربيين في المشرق على المغرب العربي والأندلس جميعاً ، وهكذا أطل الشرق بمفاتيحه وحضارته ، بسحره ورقبه ، بأدبه وفلسفته ، بتطوره وإشعاعه على مشارف أوروبا الغارقة يومئذ في دنياها ، والمتعطشة لتتاج الفكر العربي .

أصول الفلسفة

في الأندلس

عرف الشرق منذ عهد الاسكندر في القرن الثالث قبل الميلاد الثقافة اليونانية وما أن تقدم التاريخ حتى كانت بلاد مصر وسوريا والعراق تقبل على هذه الثقافة اليونانية وعلى مدارسها المنبثقة في أرجاء الشرق الأدنى جميعاً ، وتدرس الأدب والعلوم والفلسفة اليونانية . وعندما قدر للعرب كامة أن يفتحوا هذه الأمصار صادفوا في طريقهم هذه المدارس التي كان لها أثرها البارز في تلك الأقطار ، وكان لها إلى جانب ذلك طابعها المؤثر المميز عن طابع الثقافة الأصلية يومئذ في الشرق ، وهي الثقافة الفارسية التي كانت تستمد علومها وآدابها من ثقافات الشرق ومن آداب الهند وثقافته .

وبالرغم من كل هذا ، فالثقافة اليونانية قد وجدت أرضاً خصبة في بلاد فارس ذاتها يوم انتشرت المسيحية في عهد الإمبراطورية الرومانية وأصبحت الدين الرسمي ، وقدر لها أن تغلق المعابد الوثنية ، حتى أن العقل الفارسي قد تأثر إلى حد بعيد بهذه الثقافة اليونانية التي رحلت الى الشرق على حد تأكيد بعض العلماء ، ونشرت فيه بنور علومها الأصلية وطرق نقاشها العلمي وجدلها المنطقي الذي هو مظهر من مظاهر علوم الفلسفة التي أقامها اليونانيون كمدرسة متجددة من مدارس الفكر القديم .

هذا وإذا كانت الفلسفة وهي في الأصل كلمة يونانية مركبة من فيليا وتعني المحبة ، وصوفيا وتعني الحكمة ، وتأويلها محبة الحكمة ، وهي التأنيق

في المسائل العلمية والتفنن فيها ، وعلم الأشياء بمبادئها وعِلَلِها الأولى ، قد أخذت مدلولها من اللغة اليونانية فلا شك في أن الثقافة بمعناها المطلّي كانت تنوَكاً في جميع مظاهرها على العقل اليوناني ، وعلى مادته الغزيرة الخصبة التي قُدِّر لها أن تنتشر في الشرق وتظلّ خلال تسعة قرونٍ مدار الحياة العلمية والأدبية فيه . فالفلسفة في الماضي لم تكن مختلفّة عن العلم بل كانت هي العلم الكلي حتى ان كلمة فلسفة كانت تدلّ عند الأولين على العلم بصورة عامة ، فأرسطو نفسه كان يستعمل هذا اللفظ بصيغة الجمع للدلالة على العلوم الخاصة بالرياضيات وعلوم الطبيعة وغيرها ، ثم جاء شيشرون فعرف الفلسفة بقوله : « هي معرفة الأشياء الالهية والانسانية » أما في القرون الوسطى فقد كانت الفلسفة تشتمل على العلم الطبيعي وكانت الفنون السبعة وهي قواعد اللغة ، والبيان ، والجدل ، والموسيقى ، والحساب ، والهندسة ، والفلك ، تنفرد منها .

ولم تكن الفلسفة في فجر العصر الحاضر عند بيكون « وديكارت وغيرهما أقل شمولاً مما كانت عليه عند الأولين فديكارت في كتابه « مبادئ الفلسفة » يشبه الفلسفة بشجرة جذورها علم ما بعد الطبيعة وجذعها علم الطبيعة وأغصانها علم الميكانيك وعلم الطب ، وعلم الأخلاق . ولم يبق الأمر كذلك في تحديد الفلسفة خاصة بعد أن أخذت بعض العلوم عنها ، فالرياضيات كالهندسة علم الحيل كل منها قد استقل عن الفلسفة ، وبقيت العلوم الأخرى طوال القرون الوسطى خاضعة للفلسفة كما بقيت الفلسفة نفسها خاضعةً لللاهوت .

هذه الفلسفة عرفت بذورها في اسبانيا منذ فجر التاريخ يوم كانت بلد ثقافة وموطن علم وضع الفينيقيون أساسه وزاد عليه اليونان والرومان ، ولعل ذلك ما يفسر لنا سراً من أسرار الازدهار الفكري السريع الذي حققه العرب في اسبانيا ، على حدّثة اتصالهم بمنابع الثقافة القديمة والوسيطة في العالمين الاسلامي والمسيحي آنذاك . لقد عرفت اسبانيا مظاهراً للحياة الفلسفية في دراسات أكبر شخصيات ذاك العصر مكاناً وأبقاها أثراً وهو القديس ايزودور

الاشبيلي الذي لم يكن قوطياً ، ولم يكن كاتباً دينياً فحسب بل كان مصنفاً موسوعياً حاول أن يجمع في كتبه كل ما انتهى اليه من علوم اليونان والرومان مُعَدِّلَةً تعديلاً يتفق ومذهبه الديني ، وهو يعد من هذه الناحية من كبار الكتاب والمفكرين المسيحيين بل من آباء الكنيسة ، وقد خص كتابانه بأصول الكلمات اذ وضع فيها كتاباً يعتبر موسوعة أخلاقية تضم ثروة عظيمة من الأفكار اليونانية والرومانية وفلسفة المسيحية الأولى ولقد عالج في الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب الفنون السبعة وهي النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك ، عين العلوم التي قامت عليها الفلسفة في القرون الوسطى ، والتي كانت تعرف بالعلم الطبيعي كما سبق واشرنا من قبل .

فاسبانيا من هنا كانت على صلة وثيقة بالفلسفة وعلومها قبل الفتح العربي للبلاد ، غير أن المسألة الفلسفية في اسبانيا العربية تلك التي لم تقرر في زحمة المجالس والمجاميع ، والتي لم تكن أسطورة فكانت كواقع الأدب العربي الأندلسي ، وليد الأدب المشرقي بدليل أن العالم الاسباني اسين بلاثيوس يؤكد « أن تاريخ الفكر الفلسفي في اسبانيا العربية هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الاسلامية المشرقية دون أن تكون له بالتراث المحلي صلة حقيقية يقوم عليها الدليل » ويرجع بلاثيوس رأيه في ذلك الى ما ذكره صاعد الطليطلي وابن حزم القرطبي في كتبهما ، وأن أحداً منهما لم يكن على صلة بتاريخ الفكر اللاتيني في الأندلس قبل الفتح العربي ، حتى أن أحدهما لم يكن ليعرف مجرد اسمي سينيكا ، والقديس ايزودور الاشبيلي ، الأنف الذكر ومبدع الفلسفة المسيحية الأولى في تلك البلاد مع أنهما عرفا الشيء الطيب عن لاهوتي المشرق العربي .

لم يكن رأي المستشرق ميكل بلاثيوس في تحديد أصول الفلسفة الاسلامية في اسبانيا العربية عبثاً فلقد أغفل فلاسفة العرب المتأخرون في اسبانيا كل شيء عن الفلسفة في اسبانيا قبل الفتح ، ولعلهم أرجعوا ذلك الى ما هو معروف من أقفار العصر القوطي من التفكير الفلسفي أقفارا يكاد يكون تاماً ، فضلاً عن أن هبوط مستوى آداب المستعربين في الأندلس الى جانب

واقع الفاتحين من عربٍ وبربرٍ وانصرفهم الى حياتهم الاجتماعية والاقتصادية وعزوفهم عن أي تفكير فلسفي، إذ لم يُحسوا بحاجة إليه وقد اكتفوا بأن أخذوا عن أهل البلاد لغتهم وقانونهم الجاري بينهم وأطرافاً من أنظمتهم السياسية والادارية حال دون ظهور فيلسوف واحد في الأندلس قبل القرن الثالث للهجرة، العاشر للميلاد .

كان حفظ الأندلسيين من العلوم في بدء نشاطهم ، الدراسات الفقهية واللغوية ، ولقد قُضي في عنفٍ على كل الحركات الأولى التي رمت الى التجديد والتشريع في ميدان الفقه خاصة ذلك لأنه كان لها طابع سياسي قومي فضلاً عن أن فقهاء الأندلس من المذهب المالكي كانوا أشد الناس كراهة لكل حركة ترمي الى التجديد ومخالفة لما كانوا سائرين عليه ، وأيدتهم الدولة في ذلك فحرمت على الناس كتب الفقه غير المالكي وقضت بذلك على كل محاولة مؤدية الى الفلسفة .

والحقيقة أن اسبانيا العربية لم تعرف الجدل وبعض العلوم الفلسفية الا بفضل ذلك النفر من علمائها الذين أموا الشرق واتصلوا بمناجم الثقافة فيه بعد أن جلسوا الى حلقات كبار شيوخ المذاهب المشهورة ، واغروا علماء المشرق أن يفدوا الى الأندلس وأن يتكلموا بين أهله بآراء فرق الباطنية والخوارج والأباضية وغيرها . حتى إذا كان القرن الثالث للهجرة كانت علوم الرياضية والطب والفلك والتي هي من الفنون السبعة التي قامت عليها الفلسفة تتقدم في بطء شديد جداً حتى ان المستشرق بلاتيوس خلّص الى القول: إن الفلسفة لم تدخل الأندلس صريحة ظاهرة بوجه مسفر وإنما وفدت عليه في صُحبة العلوم التطبيقية ، أو تسربت اليه مستترة في ثنايا بدع الاعتزال وبعض مذاهب الباطنية ، كما اجتهد أصحاب هذه المذاهب في النجاة بأنفسهم من تعقب الفقهاء وأهل الدولة بالظهور في مظهر التدين والنسك .

لقد كان أمر هذا النسك والدعوة اليه بعد القرن الثاني للهجرة، الثامن للميلاد مدعاة لانطلاق أصحاب هذه الأفكار عن عزلتهم ودعوة الناس الى

سلوك طريقهم حتى أصبح لهم مريدون واتباع ، وأخذت حياة الزهد وحلقات النساك تظهر في الأندلس ، وفي هذه المواضع جرت عادة الناس بالخلط بين الفلسفة وعلوم الغيب الى جانب ما كانوا منصرفين اليه من تعبد وتدارس لشؤون الدين .

والواقع أن الأندلس العربي لم يعرف مفكراً أصيلاً الا بشخص محمد بن عبد الله بن مسرة الذي كان يستر آراءه وراء نسبه وزهادته ، وكان أبوه عبد الله يهوى آراء المعتزلة وكان صديقاً لخليل بن عبد الملك المعروف بخليل الغفلة الذي سار على نهج آراء ابراهيم النظام من كبار مؤسسي المعتزلة بعد أن حمل آراءه الى الأندلس طبيب قرطبي .

في ضوء هذه الحقائق العلمية نستطيع أن نؤكد بأن الأندلس العربي البلد الشامخ في كثير من مجالات الفكر لم يعرف الفلسفة « كمحبة للحكمة » الا في أواخر القرن العاشر للميلاد وعلى يد عالم جديد أقام مدرسة فكرية حديثة على غرار المدرسة الأفلاطونية الحديثة هو محمد بن عبد الله بن مسرة رائد الفلسفة الاسلامية في الأندلس العربي .

لقد مهد عبد الله بن مسرة رائد الفلسفة الاسلامية في الأندلس الذي لزم معتزله في جبل قرطبة حيث اتخذ لنفسه دويراً ، وأخذ يقرأ دروسه ويعرض للمسائل العويصة بطريقة بارعة وتعبير بليغ ، ويبدو لمن يتعمق في ذلك العلم كأن ابن مسرة يتكلم برأي أهل السنة في حين أنه كان يفتح بكلامه مغاليق الأسرار لطلبته ، وينتهي بأن يعلمهم كتبه التي ألفها .

لقد خلف ابن مسرة كثيراً من الكتب لم يصل اليها منها الا اسم اثنين هما : « كتاب التبصرة » و « كتاب الحروف » ، ويبدو أن الناس الذين عرفوا كتبه ثارت مشاعرهم ضدها ، وسرعان ما انتشرت هذه الكتب وانتقلت الى غير قرطبة من المواضع حتى أنها وصلت المشرق وأنكرها نفر من علماء الجماعة المتمسكين بالمأثور .

إن مذهب ابن مسرة العالم الأندلسي الذي توفي في قرطبة سنة ثلاثمائة

وتسع عشرة للهجرة، تسعمائة وواحدة وثلاثين للميلاد، وشيع إلى قبره باحترام من خصومه وإجلال من اتباعه قدّم لنا فيه الأستاذ ميكل بلايوس دراسة قيمة مستمدة من مذهبه الفلسفي والديني الذي نلمح أثراً له في الكتب الأندلسية أمثال كتب ابن حزم القرطبي، وصاعد الطليطلي، والشهرستاني، وابن أصيبعة والقفطلي .

سيظل ابنُ مسرة الأندلسي محورَ الفلسفة الإسلامية في الأندلس العربي ، ما دام الأندلس موطناً خصباً من مواطن الحضارة الإنسانية والثقافة العربية الأصلية .



العنصر الاسلامي في الكوميديا الالهية

تعتبر الكوميديا الالهية La Divina Comedia ، أو الالعوبة الالهية ، أعظم أثر أدبي خلفه شاعر ايطاليا الكبير دانتي اللجييري ، بعد رحلة ماورائية ممتعة قصد بها السماء والجحيم وما بينهما .

لقد كانت انطلاقة الشاعر الخلافة المبدعة بعد حلم عميق وبرفقة بياتريس المرأة التي أحب ، والتي طافت به في تلك الأجواء السماوية فعاد من عوالمه ، وهو ما زال على الأرض ليكتب للناس ملحمة التي خلقتها شاعراً وأديباً وفيلسوفاً خالداً .

إن فكرة الالعوبة الالهية لشاعر فلورنسا لم تكن جديدة بالنسبة الى الفكر العالمي يومئذ ، فمن المؤكد أن الأدب العربي قد حفل بمثل هذه الرحلة الماورائية التي أبدع حقيقتها الخيال العربي وبرز في تصويرها وعرضها وإخراجها حتى كانت حدثاً أدبياً عالمياً وصل به الأدب العربي الى مصاف الآداب العالمية الخالدة .

قلت ان فكرة الالعوبة الالهية لدانتي شاعر فلورنسا لم تكن ابداعية مطلقة في كل معطياتها ومقوماتها بالرغم مما ذهب اليه أنصار الشاعر وأتباعه .

في النصف الثاني للقرن الثالث عشر الميلادي أطل على الدنيا الشاعر الإيطالي بعد أن أفل عنها أبو عامر بن شهيد ، ومحي الدين بن عربي ، وأبو

العلاء المعري ، وكلهم كان قد ألقى عصاه في العالم الماورائي ، وحاول أن يقدم صورة لقوة خياله ، وسعة اطلاعه ودقة نقده .

لقد أضحي من الثابت أن فكرة هذه الرحلة الماورائية عند دانتي الايطالي ، وملتون الانكليزي ، وفي شطحات ابن عربي ، ورسالة التوايع والزوايع لابن شهيد ، ورسالة الغفران لأبي العلاء اتكتت على معجزة الاسراء التي حيكت حولها قصة معراج النبي ﷺ إلى السماء .

لا شك أن هذه هي الفكرة الأساسية التي دفعت ابن عربي الى شطحاته ، واعتمدها خيال ابن شهيد والمعري في رسالتهما .

الى جانب هذه الحقيقة تؤكد المصادر العلمية أن الفونسو العاشر العالم كان قد أمر بترجمة معراج النبي من العربية الى الاسبانية واللاتينية والفرنسية ، هذه الترجمة التي ظهرت من جديد في مدريد سنة ألف وتسعمائة وتسع وأربعين ، وقد عنى بها خوسه مونوس سندينو .

هذا ومهما يكن من أمر هذه الترجمة التي أمر بها ملك اسبانيا الفونسو العاشر ، الذي قدر له أن يرعى مدرسة الترجمة في طليطلة ويأمر بترجمة القرآن الكريم الى اللاتينية والاسبانية ، قلت مهما يكن من أمر هذه الترجمة فسياق اللعبة الالهية متناسقة منسجمة مع فكرات وعرض المعراج الاسلامي .

إن العالم الاسباني الدون ميكل أسين بلاثيوس يؤكد في كتابه : «الأصول الاسلامية للعبة الالهية » الذي نشره في مدريد سنة ألف وتسعمائة وتسع عشرة ، يؤكد أننا واجدون في الأدب الاسلامي مفتاح جانب كبير مما استطاع الناس ، وما لم يستطيعوا تفسيره من المسائل المتعلقة «بالكوميديا الالهية» .

لا غرو أن العالم الاسباني الدون ميكل أسين بلاثيوس ، يريد أن يثبت أن الأصل الاسلامي الذي يمكن أن يكون قد أوحى بفكرة الكوميديا الالهية هو اسراء الله برسوله ﷺ الى المسجد الأقصى وعروجه به الى السماء . « سبحان

الذي أسرى بعبد له ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا
حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير .

من هذه المعجزة بالذات صاغت أخيلة الكتاب والشعراء أساطير ذاعت
بين جماهير الناس ذيوياً واسعاً ابتداء من القرن التاسع للميلاد ، ثم زاد عليها
أهل الدين والتصوف والأدب من العرب ، وأضفوا عليها ثوباً شاعرياً في ما تلا
ذلك من العصور . فالنبي العربي الذي حكى قصة اسرائه ، هو الذي أوحى
لدانتي أن يبدع رحلته الماورائية ، فيقص بلفظه بعد أن يتوكل على العنصر
العربي ما وقع له وما رغب في تلوينه في رحلته الأسطورية .

إن الاسراء الاسلامي والألوهية مع الفارق بينهما تبدآن في
أعقاب حلم عميق .

والذي يقرأ أساطير المعراج الاسلامية يجد أن ذنباً وأسدأً يقطعان طريق
الخروج من النار على المسرى به الى السماء ، ويقابل ذلك ما يحكيه دانتي
من أنه وجد فهدة وذنباً وذئبة على مخرج جهنم تحول بينه وبين الدخول ، كما
نجد أن هذا المسرى به يلقي الخيتعور شاعر الجن في حديقة كثيفة الشجر بين
السماء والنار وتعرف هذه الحديقة بأنها مقام الجن ، تماماً كما يقود فرجيل
الشاعر القديم دانتي الى بستان الليمبو مقام الأبطال والمباقرة من أهل الأعصر
القديمة .

ليس من شك أن حديثاً مقتضباً كهذا لا يقوى أن يقارن بين هذه
الرحلات الماورائية التي أبدعها الشعراء أمثال ابن شهيد ، والمعري ، ودانتي
وملئون وبين العنصر الأساسي لها وهو المعراج .

إن المعري صاحب رسالة الغفران لا يتعد عن هذه الصورة فرسالته التي
لا تذكر بستاناً ملتحف الشجر بل « مدائن ليست كمدائن الجن ، ولا عليها النور
الشعشائي ، وهي ذات أحوال وغمايل ، فيقول لبعض الملائكة : ما هذه يا
عبد الله ؟ فيقول : هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، وذكروا في
سورة الاحقاف وهم عدد كثير . ثم يقول بعد قليل ما اسمك أيها الشيخ ؟

فيقول أنا الخيتعور أحد بني الشيطان ، ولسنا من ولد ابليس ، ولكننا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم عليه السلام .

هذه الفكرات الواحدة التي ترد في الكوميديا الالهية ، وفي رسالة الغفران ، ولها نص صريح في أساطير المعراج ليست هي مجرد أفكار عابرة تواردت عند هذه النخبة من أعلام الشعر والأدب .

قلت قد يعجز هذا الحديث أن يمر بكل الفكرات الأساسية ذات الموضوع الواحد في كل من الألعبوة الالهية ، والفردوس المفقود ورسالة الغفران وأساطير المعراج الاسلامية من جهة أخرى .

انا نجزم أن الأناشيد الجميلة ، كل الأناشيد الحلوة التي خلّدت شاعر فلورنسا كعقري ومزجت الشعر بصور ابداعية والتي لن تقوى الترجمة على تجسيد معانيها هي . . . هي المقاطع والتصاوير ، والحقائق في كل ما ورد في الأسطورة العربية التي استمدّت حياتها وحقيقتها والصور الرهيبة المخيفة تارة ، والهائلة المغرية تارة أخرى من سور الأعراف ، وق ، ومحمد وغيرها .

ليس من شك في أن الحقيقة العلمية تجزم أيضاً أن فكرة الانتقال الى ما وراء هذا العالم ليست هي من اختراع المعري ، أودانتي ، إنما هي في ضمير الانسانية منذ أعماق التاريخ . لقد كان هذا التطلع الماورائي في بقعة الحس ، ووعي الفكر نتيجة حتمية لنمو ضمير الانسان ، فشعوره بالقوة الالهية على النحو الذي اهتدى فيه الى معنى الألوهية هو الذي أوحى اليه أن هذا العالم الأرضي إنما هو قنطرة يعبر عليها الانسان الى العالم الآخر .

لقد كانت فكرة المصير بعد الموت . . . وفكرة الحساب على الخير والشر ينبوعين خصيين لتغذية خيال الفكر البشري منذ أقدم الأزمنة ، وهذا ما نراه في تاريخ مصر القديمة ، وتاريخ البابليين ، والكلدانين ، والديانة الزردشتية ، والبوذية الهندية ، والأساطير الاغريقية من تصوير للعالم الثاني .

هذا فضلاً عن أن الكتب السماوية في الأديان الثلاثة الكبرى اليهودية ،

والنصرانية والاسلامية لم تخل من ذكر العالم الآخر وتصويره .

لا غرو أن دانتي الجييري الذي أطلّ على العالم وقد سبق لشعراء العربية واعلامها أن رسموا له الطريق الى الجنة والنار وما بينهما وهم بدورهم قد أطلّوا من نافذة المعراج ، والكتب السماوية ، وفكرات العالم القديم على هذا العالم الماورائي ، قلت إن دانتي شاعر فلورنسا قد توكأ على العنصر العربي في رحلته يوم قرأ : La Escala de Mahoma

أي «معراج محمد» التي ترجمت قبل عهده ويأمر من الفونسو العاشر الى الاسبانية واللاتينية ، والفرنسية .

إن رحلة دانتي الماورائية كانت كما يقول أتباعه رحلة دينية اقتبس حقيقتها من بعض مفكري ديانتة السابقين عليه في الزمن ، أما في ما لم يجدوا له أصلاً عندهم فقد نسبوه الى عبقرية دانتي وخياله المبدع . غير أن الحقيقة تؤكد أن شاعر فلورنسا من هناك من بلاده كان يتلمس طريق الصحراء على كنان الرمال المترامية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، حيث على مدى عروج النبي محمد ﷺ الى السماء من بيت المقدس كما يقول كعب الأحبار أن باب السماء الذي يقال له مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس .

بلى من هناك استمدّ شاعر فلورنسا فكرة الكوميديا الالهية التي خلّدها كعبقري انساني خالد .



مدرسة طليطلة واثرها في خدمة الفكر الغربي

عرف الاسبان منذ القرن السابع للهجرة، الثالث عشر للميلاد بواذر خيرة
في نقل علوم العرب وآدابهم الى اللغتين الاسبانية واللاتينية، وقد اعان على
ذلك رغبة الفونسو العاشر الذي قدر له ان يرمى هذه الحركة ويشرف عليها.

فقد أذن للأمير الاسباني وقبل ان يتسلم عرش قشتالة أن يأمر بترجمة
كتاب كليلة ودمنة، وهو مجموعة من الحكايات الخرافية الهندية التي جمعها
برزويه طبيب انوشروان او كسرى الأول ملك فارس والذي نقله الى العربية
سنة ١٣٣هـ (٧٥٠ م)، عبد الله بن المقفع.

يجمع كل مؤرخي الأدب الاسباني وفي طليعتهم منذ أي بلايوان
ترجمة كتاب كليلة ودمنة وكتايب «السندباد» و«برلعام ويواصف» كان لها اكبر
الأثر في دخول عنصر القصص الشرقي الى اوروبا.

الحقيقة ان كتاب كليلة ودمنة شق طريقه بفضل مادته واسلوبه وموضوعاته
التي جاءت جديدة بالنسبة الى آداب الأمم، قلت إن «كتاب كليلة ودمنة نقل من
العربية الى السريانية واليونانية والعبرية والاسبانية، ثم نقل على يد يوحنا
دكايا من العبرية الى اللاتينية بعد ان اسماه «مرشد الحياة الانسانية» وهكذا
لعب الكتاب دوراً حاسماً في تصوير العقلية الشرقية واساطيرها ومبلغ حنكتها
ومرونتها، الى اوروبا التي وجدت فيه معيناً لا ينضب من الاسطورة، والعلم
والثقافة.

ان الثقافة الاسبانية خاصة والثقافة الأوروبية عامة مدينة للملك الاسباني العالم الفونسو العاشر الذي قدر مسؤوليته امام التاريخ وقد رأى على مقربة من مملكته وفي وسط شبه جزيرة ايبيريا النهضة الثقافية والفنية والعمرائية التي اقامها العرب في الأندلس المتحضر فأنشأ في مرسية معهداً للدراسات بإشراف الرقوطني الفيلسوف العربي ، وبالرغم من الجهود التي بذلها الملك الاسباني العالم لإنجاح المعهد فقد ظلت إمكانات انطلاقه محدودة الأثر في نقل آثار الفكر العربي الى اللغة الاسبانية .

مع كل هذه النتائج التي وصل إليها معهد مرسية فقد اصر الفونسو العاشر على نقل المعهد الى اشبيلية كما انشأ فيها مدرسة للبحوث والترجمات الى جانب مدرسة عامة لللاتينية والعربية جعل فيها اساتذة كباراً من العرب لتدريس الطب والعلوم والمعارف الانسانية ، بينما ظلت طليطلة المدينة الحاملة على قمة الجبل المسورة بنهر تاجه مركزاً للثقافة الاسبانية .

لا شك ان العالم الاسباني الملك وفق في كل الخطوات التي رسمها لتطعيم الفكر الاسباني بنتاج الفكر العربي خاصة والشرقي عامة عندما التف حوله عدد غير قليل من العلماء النصارى والمسلمين واليهود المتحقيقين بشتى العلوم ، وقد ادوا خدمات جليلة عندما اشرف الفونسو العاشر بنفسه على توجيه اعمال الترجمة ، والتحرير والتلخيص التي كان مساعدهو يقومون بها .

أمر الفونسو العاشر وفي مدرسة طليطلة بترجمة الانجيل المقدس الى اللغة الاسبانية كما امر بنقل القرآن الكريم اليها ، بعد ان قدر لبدرو الجليل في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد نقله الى اللاتينية .

لم تقف جهود العالم الاسباني الملك الفونسو العاشر عند نقل هذين الكتابين فقد امر بترجمة التلمود « والقبالة » وبأمره كما اشرت ونقل كتاب كليلة ودمنة .

هذا ويشير النقاد الاسبان وفي طليعتهم المستشرق انخل كونثال بالثيا الى ان ألفونسو العالم بدأ في ما أمر به أخوه الدوك فادريك من ترجمة قصة

السندباد ، الكتاب الهندي الأصل الى اللغة الاسبانية .

يبدو ان اوربا عرفت كتاب السندباد عن طريقين ، الأول غربية وهي :

انه قدر لأوروبا ان تعرف عن هذه الطريق جزءاً من اقاصيص السندباد وقد اسماها دومينيكو كومبارتي بالمجموعة الغربية ، ومن المرجح انها وصلت الى الغرب عن طريق ترجمة يونانية نقلت من السريانية ، وهذه في الأصل عن العربية وهي التي عرفت في اواخر القرن الحادي عشر الميلادي باسم . SINTIPAS

أما الطريق الثانية فهي شرقية الأصول اذ ترجمت مجموعة اخرى من حكايات الكتاب الى اللغات الأوروبية عن اصول فهلوية وفارسية وعربية واسبانية ، ومن المؤسف ان كل هذه الأصول قد فقدت ما عدا الأصل الاسباني ، ومن هنا يعتبر هذا الأخير اقرب الترجمات الى الأصل .

الواقع ان الدوق فادريك شقيق الملك الفونسو العالم وإيعاز منه نقلت هذه القصة من العربية الى الاسبانية وقد انجزت ترجمتها سنة ألف ومائتين وثلاث وخمسين للميلاد بعد ان أسماها « مكابد النساء وحيلهن » كما في الاسطورة الشرقية من دهاء المرأة وحنكتها .

مع كل هذه الكتب الدينية والأسطورية التي شهدت النور في اللغة الاسبانية فقد نقلت مدرسة طليطلة قصتي « بونيوم » و « سر الأسرار » كما عمل الفونسو العاشر على ادخال مادة عربية تاريخية واسطورية في ثنايا تاريخ الاسبان العام وفي مقدمتها قصة زليخة ويوسف .

لم يقتصر همّ العالم الاسباني على هذه الناحية من الموضوعات فقد امر بترجمة كتب في الالعب الشرقية ككتاب الشطرنج الذي نشره في زيورخ سنة ألف وتسعمائة واحد وأربعين أرنالد شتايجر هذه اللعبة التي تعتمد على العقل والتدبر والتي لها حتى اليوم أثر ملحوظ في المجتمع الاسباني .

ليس من شك في ان العقل الأوروبي المعاصر مدين للخدمات الثقافية

التي قدمها الفونسو العاشر عن طريق مدرسة طليطلة ، ان جهود العالم الاسباني لا تقف عند حد نقل هذه الكتب فقد تعدت ذلك الى تصنيف كتب في علم الفلك جمع لها نقرأ غير قليل من اهل العلم ، فقد قدر لهؤلاء العلماء ان ينهضوا بالدراسات الفلكية بفضل مشاهداتهم وما قاموا به من اعمال اخرى كان الملك كثيراً ما يشرف بنفسه عليها ، كما كان يأمر بترجمة ما يرى نقله من الكتب العربية خاصة « ويقوم بترتيبها وتنظيمها بنفسه وخاصة ما يقول فيها بنظريات جديدة تعدل مذهب بطليموس في الفلك والجغرافية » .

قد يضيق الحديث عن ذكر العمل الثقافي الذي اداه الفونسو العاشر للفكر الغربي معتمداً على اصول عربية وشرقية في الدين ، والتاريخ ، والاسطورة ، غير انه من المفيد ان نؤكد ان مدرسة طليطلة للترجمة التي افاد منها العالم الملك الفونسو العاشر بعد ان وعى النهضة الفكرية العربية في الأندلس الجميل الخالد كانت القاعدة العلمية لنهضة اوربية شاملة مدنية للفكر العربي الاسباني ولالفونسو العاشر ، بكل نهضاتها الحديثة التي مكنتها خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ان تتبوأ عرش الانسان الحديث ، قبل ان تنتقل منها الى الدولتين العظيمين .



الاتجاه القومي والوجدانية في شعر الحنين الى الأندلس

لم يعرف الأدب العالمي شعراً صُهرت فيه العاطفة ، واشتدّ فيه الألم ، ونبغ فيه الخيال ، وتآلق فيه الحب ، ورسخت فيه الاتجاهات القومية والأهداف السياسية ، ولزّمت فيه الشعراء نهجاً واضحاً معيناً محدّد الأغراض والميول كما عرف شعر الحنين الى الوطن .

هذا وإذا كان نقدة الأدب يؤكدون ان الوجدانية في الشعر اقوى ما تكون في فني الرثاء والغزل فمما لا شك فيه ان شعر الحنين الى الوطن وإن كان من صلب الوجدانية وموضوعاتها الرئيسية فهو اشدّ وجدانيةً ، واقوى عاطفةً ، والحبّ مشاعر من الغزل والرثاء لأنه في جوهر كيانه مزيج من الوجد الخالص ، والحزن القاتل ، معدن فني الرثاء والغزل .

ان الشاعر في هذين الفنين انما يُنشدّ شعره في حبيب واحد اويكي عزيزاً واحداً ، وقد تتفاوت عنده العاطفة في هذا الغزل وهذا الرثاء بقدر ما للحبيب وللحبيب والمرثي من اثر في نفسه ، بينا الشاعر الذي يندب الأوطان ويحن اليها إنما يُحبّ ذاته ، ويتفجّع عليها بعد ان اضحى غريباً في الأرض ، لا ملأ ولا وطن له . ومن كان هذا شأنه فحريّ به ان يأتي شعره اقوى وجدانيةً ، واعمق اثراً واشدّ حزناً والمأ من كلّ وجدانية لأنه في شعره تآلق للحبّ الأسمى ، ورثاء للأرض التي لا تموت في وجدانه .

لله ارضٌ إن عدمتُ هواءها فاهواؤكم في الأرض مشورة النظم

امام هذه الحقيقة فإن كلمات الوطن والأرض ، والهجرة والتشرد غير ذات مدلول حقيقي عند أكثر الذين يعيشون في بلادهم كادحين أو سعداء لأنهم بحكم اقامتهم على ارضهم لم يدركوا المعاني البعيدة لها ، ومن هنا كانت الصعوبة في فهمهم معنى المأساة التي يعيشها الغرباء ، أو أولئك الذين نزحوا عن اوطانهم ، فضلاً عن جهلهم لمفهوم السعادة المثلى التي ينعمون بها في ظل علم الوطن ومجده .

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه كلانا عن الاوطان أزعجه الدهر

من هنا كان شعر الحنين الى الوطن اشد الشعر وجداني المأ ورجاء وعبقريه خيال ، كما كان اوضح الشعر الاجتماعي اتجاهاً قومياً ، وهدفاً سياسياً ، وابعده أثراً ، واعمقه براعة في ضروب الوصف ، موضوعياً كان هذا الوصف ام وجدانياً ، تجريدياً أو إيحائياً ، اصيلاً ام استطرادياً لأن الشاعر في خضم معاناته الأدبية لا يجد مندوحة عن ذكر الوطن والتغزل به والحنين إليه ورسم معاليه الجامدة والمتحركة وتصوير طبيعته والتغني به ، بعد ان اضحي الملهم الخالد لعطائه :

فإن كنتُ اخرجتُ من جنة فلنني احدثُ اخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا حبيبتُ دموعي أنهارها

إن الدارس مع ذلك لهذا النوع من الشعر لا يستطيع ان يجزم أنه في مستوى واحد من الوجدانية والعطاء لأن النبوغ في هذا اللون انما يتوقف على المواهب الأصلية ، والكوامن الخفية في نفس الشاعر ووجدانه، فضلاً عن ان ما امتزج من هذا الشعر بعقيدة او فكرة وطنية ، او هدف عام قد يأتي غاية في الابداع ، وذروة في العطاء .

في ضوء ذلك قد يبدو شعر عبد الله بن فرج الحصري المشهور بابن العسال :

يا اهل اندلس حُشُوا مطيكمُ فما المُقامُ بها إلا من الفلُطِ
 الثوبُ يَنسِلُ من اطرافِهِ وأرى ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوَسَطِ
 ونحنُ بين عدوٍ لا يفارقنا كيف الحياةُ مع الحياتِ في سَفَطِ

قلت قد يبدو شعرُ اليحصبي وهو من اوائل شعراء الحنين في الأندلس
 أقرب إلى الشعر الحكمي منه الى الشعر الحماسي لأن سقوط طليطلة بيد
 الأذقونش سنة ٤٧٥هـ - ١٠٨٢م وهي اولى المدائن العربية التي تقع في يد
 الاسبان لم تحدث الاضطراب الحقيقي في البلاد ، فضلاً عن ان الشاعر لم
 يُشارك في الزواج الى جانب أَمَلِهِ ورجائه في مَنَعَةِ الأندلس الذي لا زال في يد
 العرب .

غير ان الدارس لشعر شهاب الدين احمد بن محمد المقرئ صاحب
 نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وكتاب ازهار الرياض في اخبار
 عياض ، وكان قد نزح عن وطنه لاسباب سياسية واتخذ مدينة فاس مقراً له ،
 يرى ان الوجدانية في شعره صورة لشعوره المتوقد ، واحساسه الغريب نحو
 فداخِ الرزء بالنسبة لواقعِهِ هومع ان أذى لم يصب وَطَنَهُ :

بَلَدٌ تُحَفُّ بِهِ الرِّياضُ كأنه وَجَّةٌ جميلٌ والرياضُ عِذارُهُ
 وَكَأَنَّما وَاِديه مِعْصَمٌ غادِقٌ ومن الجُصورِ المُحْكَماتِ سِوارُهُ

والمقرئ عندما يحدث عن نزوحه قد يبلغ شأواً في العاطفة الوطنية
 بخاصة ان فنه النثري ربما يعينه أكثر من الشعر على تصوير هذه العاطفة : « لانه
 لما سَبَقَ القضاء وَجَرَّتِ الأقدارُ بارتحالي عن الوطنِ المحبوبِ والقرار ، بعد ان
 شِئِمْتُ عَرازُهُ النُجْدِي ولا اشجان ولا اكدار في عَشِيَةٍ لم يكن بعدها من عرار
 وَنَزَحْتُ عن بلد ، به الوالد وما ولد ، مَحَلُّ قِطْعِ التمامِ ، وَفَتَحَ الكمايمِ .
 سقى الله عِهادَهُ صَوْبَ الغمايمِ .

بلادُ بها الحُصْباءُ تُرُوِّثُها عَيمِرٌ وانفاسُ الرِّياحِ شُمُولُ
 تسلسلُ منها مأوئها وهو مُطْلَقٌ وَصَحَّ نَسِيمُ الرُّوضِ وهو غَيلُ

ان شاعراً وكتائباً كالمقري يندفع في خياله وراء عاطفته الوطنية فيرى
حصباء بلاده ذراً ، وترابها عبيراً ليؤكد مبلغ قوة الوجدانية وانصهار العاطفة ،
وعبقريّة الخيال في هذا النشيد الوطني لبلد نزع عنه كارهاً غير راض .

والمقري إذ يتغنى بالوطن والتراب والهواء والماء لم يقف ان يتطلع اليه عن
بعد ليستعيد ذكريات عذاباً على نفسه :

يا مَنْ يُدَكِّرُنِي حَدِيثَ اجْتِي طابَ الحديثُ بذكرهم وَيَطِيبُ
أَعِدَ الحديثَ عَلَيَّ مِنْ جَنَابِهِ ان الحديثَ عن الحبيبِ حبيبُ

فإذا بلغ الحديث عن الحبيب هذه الوجدانية القوية الزاخرة بالعاطفة
الصادقة المتدفقة فما هو مبلغ الوجدانية في الحبيب ذاته ، في حديثه هو وفي
لقائه ، في تصوير هُذْب عينه ، او في التطلع بعمق الى وجهه الضاحك ذي
الانعكاسات والرؤى . وبعد اليست الوجدانية في مثل هذا الشعر المزيج من
الذكرى والالم اقوى منها في الرثاء والغزل ؟

ومن ثمة فأي شعر ادق ، وأي معنى ارق ، واي عاطفة اشجى ، وأي
خيال اوفى من قوله ايضاً :

سلام على تلك المعاهد انّها مراتعُ الأفي وعهدُ صحابي
ويا سرحةً الحيّ انعمي فلطالما سكبتُ على مثواكِ ماء شبابي

فشعر الحنين هذا يكشف عن حقيقة شعور المقري وقوة إيمانه بالوطن
بالرغم من المكانة العلمية والمنزلة الرفيعة التي تبوأها في فاس لأن لا شيء
يعدل الوطن والأرض والهواء والماء .

كأن اكفّ الريح تكتب أسطراً على النهرِ إلا ان اخرُفها زُرُقُ
فتحنيني عليهن الفصوصُ قدودها لتقرأها جهداً من الورقِ السُورُقُ

لإزاء هذه الوجدانية الزاخرة في هذا النمط من الشعر لا بد للناقد من
تقديم العاطفة الوطنية ومبلغ ابداعها في التعبير من جوارح الشاعر وخلجات

قلبه ، وحقيقة شعوره القومي نحو الوطن الذي احبُّ ، والأرض التي بكى ،
والروض الذي تطلع ، والحبيب الذي تغنى .

من هذه الحقيقة بالذات وشعر الحنين إلى الوطن لم يدرس بعد كصورة
للوجدانية المثلي حري به ان يتبوأ مكانه في الشعر الغنائي ، في الأنا ، التي
تكاد ان تكون كل الشعر العربي .



المراجع العربية

- ابن الأبار ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله
التكملة لكتاب الصلة ، نشر قطعة منه فرنسيكو كوديرا اي زيدبن
في المكتبة الاندلسية (ج ٥ - ٦ ، مدريد ١٨٨٧ - ١٨٩٠) . ونشر
القطعة الثانية منه الفريد بل ومحمد بن شنب عن مخطوط فارسي .
الجزائر ١٩٢٠ ، اما القطعة الثالثة فنشرها الاركون وكونثال بالنتيا في
Miscelanea de Estudios y Textos arabes Madrid 1915
اعتاب الكتاب : مخطوط مكتبة الاسكوريال رقم ١٧٣١ .
تحفة القادم : مجلة المشرق البيروتية .
درر السمط في خبر السبط ، نسخة مكتبة مدريد الوطنية رقم ٥١٢٧ .
كتاب الغصون البانعة في محاسن شعراء المئة السابعة مخطوط مكتبة
الاسكوريال رقم ١٧٢٨ .
ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي
الكامل في التاريخ ، طبعة نور نبرج ، لايدن ١٨٦٧ - ١٨٧٦ .
الادريسي ، ابو عبد الله محمد
وصف افريقيا واسبانيا ، نص عربي وترجمة فرنسية ، نشرهما دوزي
ودي خويه ، ليدن ١٨٦٦ .
الادريسي ، الشريف
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - القسم الخاص بالمغرب والسودان -
ليدن ١٨٦٦ .

- الاسكندري ، أحمد
ابن زيدون ، في مجلة المجمع العربي بدمشق سنة ١٩٣١ -
اشباخ ، يوسف
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة المحامي محمد
عبد الله عنان طبعة مصر ١٣٧٧ هـ .
ابن بسام ، ابو حزم علي
الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، القسم الأول والجزء الأول من القسم
الرابع وما نشر منه ، مصر ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .
البستاني ، بطرس
دائرة المعارف ، والأجزاء العشرة الجديدة تحقيق الدكتور فؤاد افرام
البستاني .
ابن بشكوال ، ابو القاسم خلف بن عبد الملك
الصلة - ط مدريد ١٨٨٢ .
الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي
كتاب الأغاني ، طبعة كوسيمارتن . جريفتالد سنة ١٨٤٠ .
ابن بطوطة : ابو محمد بن محمد اللواتي الطنجي .
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ط : مصر ١٣٢٢ .
البغادي ، عبد القادر بن طاهر
الفرق بين الفرق القاهرة ١٩١٠ .
البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر
كتاب فتوح البلدان تحقيق الدكتور عبد الله طبايع وعمر طبايع دار النشر
للجامعيين بيروت ١٩٥٨ .
انساب الاشراف ج - ٥ تحقيق س غويتين طبعة القدس ١٩٣٦ .
البكري ، ابو عبيد الله بن عبد العزيز
المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ، من كتابه المسالك والممالك
الجزائر ١٩١١ .

ابن البيطار ، ضياء الدين ابو محمد

جامع مفردات الادوية والاعذية . بولاق سنة ١٢٩١ / ١٨٧٤ .

بيل ، الفريد

برنامج المخطوطات العربية الموجودة بخزانة القرويين - ط فاس

. ١٩١٨

التفتزاني . . . ابو الوفا . . . سعيد الدين مسعود بن عمر

دراسات في الفلسفة الاسلامية : القاهرة ١٩٥٧ .

ابن تومرت ، المهدي

اعز ما يطلب وما معه . ط الجزائر ١٩٢١ .

ابن جبير ، ابو الحسن محمد

الرحلة طبعة ايطاليا ١٨٩٦ .

حاجي خليفة :

كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون : طبعة فلوجل لبيزج ولندن

. ١٨٣٥ - ١٨٥٨ .

الحافظ الذهبي

العبر في خبر من غير ، منشورات دائرة المطبوعات في حكومة الكويت

. ١٩٦٠

الحريري ، ابو محمد القاسم بن علي :

المقامات طبعة دي ساسي ، باريس ١٨٤٧ - ١٨٥٣ .

ابن حزم القرطبي ، ابو محمد علي

الاخلاق والسير في مداواة النفوس . القاهرة . ١٩٢١ .

طوق الحمامة في الالفه والالاف طبعة د. بتروق لايدن ١٩١٤ .

ترجمة اسبانية بقلم كرسيا كومس ملريد ١٩٥٣ .

الفصل في الملل والأهواء والنحل . القاهرة ١٣٢١هـ .

جمهرة انساب العرب طبعة ليفي بروفنسال القاهرة ١٩٤٨ .

حسن ابراهيم حسن . .

تاريخ الاسلام السياسي مصر ١٣٥٣ - ١٩٣٥ .

- الحسني ، هاشم معروف
تاريخ الفقه الجعفري بيروت دار النشر للجامعيين (بدون تاريخ) .
- الحميري ، عبد المنعم بن
صفة جزيرة الاندلس انتخبها من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار
ليقي بروفنسال دار المعارف مصر ١٩٣٧ .
- ابن حيان ، حيان بن خلف
المقتبس في تاريخ رجال الاندلس . طبعة انتونيا ، باريس ١٩٣٧ .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر
البيان والتبيين - تحقيق عبد السلام هارون مصر ١٩٣٨ .
- ابن خاقان ، ابو نصر الفتح
قلائد العقيان ومحاسن الاعيان طبعة بولاق ١٢٨٣هـ - ١٨٦٧م .
- مطمح الانفس ومسرح التانس في ملح أهل الاندلس ، القسطنطينية
١٣٠٢هـ .
- الخنتسي ، الحارث بن أسد
تاريخ قضاة قرطبة ترجمة ريبرا مدريد ١٩١٤ .
- ابن الخطيب ، لسان الدين
اعمال الاعلام فيمن بويق قبل الاحتلال من ملوك الاسلام وما يجر ذلك
من شجون الكلام نشره ليقي بروفنسال ، دار المكشوف . بيروت
الاحاطة في تاريخ غرناطة مخطوط مكتبة الاسكوريال رقم ١٦٧٣
(١٦٦٨ فهرست غزيري) ٢٧٣٣ المكتبة الأهلية في مدريد ، ورقم ٣٤
بالاكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد .
- خفاجة ، محمد عبد المنعم
قصة الأدب في الاندلس مصر ١٩٥٦ .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن
- المقدمة طبعة كاترمير باريس ١٨٥٨ .
- اخبار البربر ومواليهم من زناته وذكر اوليتهم واخيالهم ، وما كان بديار
المغرب خاصة من الملوك والدول ، وهو الكتاب الثالث من « العبر

وديوان المبتدأ والخبر ، وقد نشره دي سلان وطبعه في الجزائر
١٢٦٧ / ١٨٥١ بعنوان « تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب » ثم ترجمه
الى الفرنسية ، ونشر الترجمة باسم « تاريخ البربر » سنة ١٨٦٠ واعيد
نشره بأشراف كازانوف .

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر بولاق ١٢٨٤هـ - ١٨٦٧م .

الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ مسجد قرطبة
وقصر الحمراء .

ابن دحية ، ابو الخطاب

المطرب من اشعار اهل المغرب (نشره الاستاذ ابراهيم الاياري
والدكتور حامد عبد المجيد ، والدكتور احمد احمد بدوي ١٩٥٤) .

ابن رشد

- شروح مؤلفات ارسطو ١٢ اج البندقية ١٥٦٠ .
- ما وراء الطبيعة : نص عربي مع ترجمة اسبانية وتعليق بقلم كارلوس
كيروس مدريد ١٩١٩ .

- تهافت التهافت ، نشره الاب بويج بيروت ١٩٣٠ .

ابن رشيقي ، ابو علي الحسن بن رشيقي القيرواني
العمدة في محاسن الشعر وآدابه القاهرة ١٩٣٤ .

الزركشي

تاريخ الدولتين الحفصية والموحدية . تونس

زيدان ، جرجي

تاريخ آداب اللغة العربية ، الطبعة الثالثة القاهرة

ابن زيدون ابو الوليد احمد

الديوان ، تحقيق كامل كيلاني عبد الرحمن خليفة مصر ١٣٥١ -

١٩٣٢ .

السبكي : تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب تقي الدين

طبقات الشافعية القاهرة ١٣٢٤هـ - ١٩٠٦ - ١٩٠٧م .

ابن سعيد المغربي ، ابو الحسن علي
رايات المبرزين وشارات المميزين ، نشره مع ترجمة اسبانية كرسية
كومس في مدريد ١٩٤٢ .

السيوطي ، ابو الفضل عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد جلال الدين .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة طبعة مصب ١٣٢٦ هـ .

حسن المحاضرة في تاريخ مصر القاهرة طبعة (بدون تاريخ) .

لب اللباب في تحرير الانساب لايدن (بدون تاريخ) .

ابن شاکر الکتبي ، صلاح الدين محمد .

قوات الوفيات بولاق ١٢٩٩ هـ .

الشبيبي ، محمد رضا

ادب المغاربة والانديسين في اصوله المصرية ونصوصه العربية ، جامعة

الدول العربية ١٣٨١ - ١٩٦١ .

الشعراني

الادلة البينية النورانية عن مفاخرالدولة الحفصية - تونس (بدون

تاريخ) .

الشماع

تاريخ الدولة الحفصية طبعة تونس .

الشهرستاني ، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم

كتاب الملل والنحل ، طبعة و . كيورتون . لندن ١٨٤٢ ، القاهرة

١٣١٧ .

شکيب ارسلان

الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية ج ٣ مصر ١٣٥٥ هـ

١٣٥٨ .

ابن صاحب الصلاة البرجي ، عبد الملك

والمن بالامامة على المستضعفين ، بان جعلهم الله ائمة وجعلهم

الوارثين ، وظهر المهدي وتاريخ الموحدين» مصور خاص عن مخطوط

مكتبة اكسفورد . رقم ٤٣٣ .

صاعد الطليطي ، ابو القاسم

طبقات الامم . نشره الأب شيخو في بيروت سنة ١٩١٢ .

الضبي ، ابو جعفر احمد

بغية الملتبس ، انظر المكتبة الاندلسية .

الطبايع ، عبد الله انيس . . .

تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية القرطبي بيروت ١٩٥٨ .

فتوح البلدان للبلاذري بيروت ١٩٥٩ بالاشتراك مع عمر طبايع .

- حسان بن ثابت الانصاري بيروت ١٩٥٦ .

الحب والغزل بين الجاهلية والاسلام بيروت ١٩٥٥ .

- الحطيثة شاعر من عبقري بيروت ١٩٥٧ .

- الحلة السيرة لابن لأبار- بيروت ١٩٦٣ .

- الشعراء الاعلام بيروت ١٩٤٩ .

الطبايع ، عمر الفاروق انيس

عبقرية الخيال في رسالة الغفران بيروت ١٩٥٥ .

الطبري ، محمد بن جرير

تاريخ الأمم والملوك طبعة مصر ١٣٢٦هـ .

ابن طفيل ، ابو بكر

رسالة حي بن يقظان القاهرة ١٢٩٩هـ .

ابن عبد الحكم :

فتح مصر والاندلس ، طبعة ج هـ جونر ، لندن ١٨٥٨ .

فتوح افريقيا والاندلس ، طبعة الجزائر ١٩٤٢ ، طبعة تحقيق الدكتور

عبد الله انيس الطبايع دار الكتاب اللبناني ١٩٦٢ .

عبد الله بن عبد الواحد الفهري

كتاب الوثائق المستعملة مخطوط رقم ١١ بمكتبة الدراسات العربية بمديرية .

ابن عبد ربه

العقد الفريد ، القاهرة ١٣٢١ ، فهارس تحليلية لمحمد الشافعي جزءان

كلكتا ١٩٣٥ و ١٩٣٧ .

عبد العزيز ، عبد المجيد . .

ابن الآبار حياته وكتبه ، تطوان ١٩٥١ - ١٩٥٤ .

ابن عذارى المراكشي ، ابو العباس

البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب ، طبعة دوزي ١٨٤٨ -

١٨٥١ .

القالبي ، ابو علي .

كتاب الامالي ، بولاق ١٣٢٤ .

الغافقي ، ابو جعفر احمد بن محمد بن السيد

المرشد في الكحل ، ترجمة ماكس مايرهوف نشره في برشلونة سنة

١٩٣٣ .

الغبريني ، ابو عباس

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، نشره

محمد بن شنب الجزائر ١٣٢٨ .

الغزيري ، ميخائيل

فهرس المخطوطات العربية ، مكتبة الاسكوريال طبعة مدريد ١٧٦٠ -

١٧٧٠ .

الفاسي ، محمد

التعريف بالمغرب ، مقدمة لتاريخ الأدب العربي بالمغرب الاقصى ،

جامعة الدول العربية ١٩٦١ .

ابن فرحون ، برهان الدين ابراهيم العمري

الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب طبعة القاهرة

١٣٢٩ هـ .

ابن الفرضي ، عبد الله

تاريخ علماء الاندلس ، طبعة كوديرا مدريد ١٨٩٠ - ١٨٩٢ ، انظر :

المكتبة الاندلسية فهرس المخطوطات في مكتبة مدريد الوطنية .

فروخ ، عمر

وثبة المغرب بيروت ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ مكتبة المدرسة ودار الكتاب

اللبناني .

ابن قزمان :

ديوان شعر طبعة نيكل (بحروف لاتينية) مدريد ١٩٣٣ طبعة بيروت ١٩ .

ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم

الشعر والشعراء تحقيق احمد محمد شاكر طبعة مصر ١٩٦٤ هـ الامامة
والسياسة ، القاهرة ١٩٠٤ .

القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود .

آثار البلاد واخبار العباد . غوتنجن ١٨٥٠ .

ابن القفطي :

تاريخ الحكماء طبعة لبيروت ، لبيزج سنة ١٩٠٣ .

القلقشندي

صبح الاعشى طبعة مصر ١٩١٣ - ١٩١٨ .

ابن القوطية القرطبي

تاريخ افتتاح الاندلس ، نشره جيانجوس ١٨٦٨ ، واعاد نشره الدكتور

عبد الله انيس الطباع دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٥٨ .

كنون ، عبد الله

النبوغ المغربي في الأدب العربي

الطبعة الأولى تطوان بدون تاريخ - طبعة دار الكتاب اللبناني في بيروت

١٩٦١ .

ماكيب ، جوزف

مدينة العرب في الاندلس ، ترجمة الدكتور تقي الدين الهلالي طبعة

بغداد ١٣٦٩ .

ابن مخلوف التونسي

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية طبعة مصر ١٣٤٩ هـ .

المراكشي ، عبد الله

المعجب في تلخيص اخبار المغرب طبعة مصر ١٩٤٩ .

المعري ، أبو العلاء

رسالة الغفران ، تحقيق الدكتور بنت الشاطيء طبعة مصر .
المفري ، ابو العباس احمد

فتح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن
الخطيب ، طبعة دوزي ودوجا وكريل وراسيت جزءان ، لندن ١٨٥٥ -
١٩٦١ .

- ازهار الرياض في اخبار عياض مصر ١٣٥٢ .
المكتبة الاندلسية :

نشر كوديرا ورييرا في مدريد وسرقسطة من سنة ١٣٨٣ الى ١٨٩٥ ،
عشرة اجزاء هي ج ١ ، ٢ الصلة لابن بشكوال ٨٨٣ ، ج ٣ : بغية
الملتس في تاريخ رجال الاندلس للضيبي ، ج ٤ المعجم لابن الأبار
١٨٨٦ ، ج ٥ ، ٦ : التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ١٨٨٧ - ١٨٨٩ ج
٧ ، ٨ : تاريخ علماء الاندلس ١٨٩١ ، ج ٩ ، ١٠ فهرست ابي بكر بن
خير ١٨٩٥ .

مؤنس ، حسين

فتح العرب للمغرب القاهرة ١٩٤٧ .

فجر الاندلس القاهرة ١٩٥٩ .

الشرق الاسلامي في العصر الحديث ط : ٢ القاهرة ١٩٣٨ .

Essai sur la châte du califat umayyade de Courdoue, le Caire 1948.

تاريخ الفكر الاندلسي ، كونثالث بالثيا ترجمة مؤنس .

ابن التديم : ابو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق الوراق :

كتاب الفهرست ، طبعة فلوجل ، ليزج ١٨٧١ - ١٨٧٢ .

ياقوت الحموي :

معجم الادباء ، طبعة مارجوليوت ليزج - لندن ١٩٠٧ .

معجم البلدان ، طبعة دار بيروت - لبنان .

اليقوي :

كتاب البلدان طبعة دي خويه ، لندن ١٨٩٢ .

المراجع الأجنبية

Aguado Bleye, Pedro

Historia de España. Bilbao 1928. 2 vol.

Altamira y Crevea, Rafael

Historia de España y de la civilización Española. Curata edición. Barcelona 1900-1928 4 vol.

Amador de los Rios, José

Historia Social, política y religiosa de los judios en España y Portugal, Madrid 1875 3 vol.

Amari, Michele

Storia dei musulmani di Sicilia 2ème edizione pubblicata con note a cura di carlo Alfonso Nallino. Catania-Romeo Prampolini 1935-39.

Antuña, Melchor M.

La corte literaria de al-Hakam en cordoba en Religion y Cultura (S.I.) 1929.

Asin Palacios, Miguel

La escatologia musulmana en la Divinia Comedia. Madrid 1919.

Basset, René

La littérature populaire berbère et arabe dans le Meghreb et chez les Maures d'Espagne in «Melanges Africains et Orientaux» Paris 1915.

Bertrand, Luis

Histoire d'Espagne. Paris 1932.

Le poète arabe al-Mutanabbi et l'Occident Musulman in (R.E.I.) 1929.

Brockelmann, Carl

Geschichte der Arabischen litterature leyde 1937.

Casiri, Miguel

Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis Matriti 1760-1770 2 vol.

Codera y Zaidin, Francisco

Decadencia y desaparición de los almoravides en España Zaragoza-Madrid 1889.

Estudios críticos de historia árabe española - Zaragoza- Madrid 1917 3 vol.

Conde, Jose Antonio

Historia de la dominación de los árabes en España. Madrid 1820-21 3 vol.

Contreras, Rafael

Estudio descriptivo de los monumentos árabes en Granada Sevilla y Córdoba 2ª edición Madrid 1878.

Danvila y Collado, Manuel

La Germania de Valencia 1884.

Derenbourg, Harwig

Catalogue des Manuscrits arabes de L'Escorial revues et mises au jour par E. Levi Provençal. Paris 1928. Publications de l'Ecole Nationale des langues orientales vivantes, VI Serie 3 vol.

Documents inédits d'histoire almohade. Fragments manuscrits du «Legojo» 1919 du fonds arabe de l'Escorial, publié E. Levi Provençal Paris 1928.

Dozy, Reinhart Pieter

Notices sur quelques manuscrits arabes Leyde E. J. Brill 1847-51.

Encyclopedie de l'islam. Leyde E. J. Brill. 1913 Artículo Sobre ibn al-Abbar par Muhammad ibn Chanab.

Scriptorium Arabum Loci de Abbadidis 3vols 1846-1863 E.J. Brill-Leyde.

Garcia Gomez, Emilio

Cinco poetas musulmanes. Madrid 1944.

Poemas arabigo-Andaluces-Buenos Aires 1942.

Sobre el Sentimiento de la belleza física en la Poesía árabe «Cuadernos de Adan» vol I Madrid 1944

Gayangos, Pascual de

The History of the Mohammadan dynasties in Spain-London 1840 2 vols.

Gonzalez Palencia, Angel

Historia de la España Musulmana Barcelona 1929 (4ed. 1945)

Colecciones labor no. 164-165 2ª edicions Madrid 1945.

Guillem Robles, Francisco

Catálogo de los manuscritos árabes existentes en la Biblioteca Nacional de Madrid 1889.

Levi Provençal, Evariste

Histoire de l'Espagne musulmane Leyde E. J. Brill. 1950-53 3 vols.

Menendez Pidal, Ramón

Poesía Árabe y poesía europea 4^{ta} edición Madrid 1955.

Müller, Marcus Joseph

Beiträge zur Geschichte der Westlichen Araber. München C. Franz vol I 1866.

Nallino, Carlo Alfonso

La littérature arabe des origines à l'époque de la dynastie umayyad 1910-1911.

Nicholson, A.

Literary history of the Arabs Weimar 1898.

Ocaña, Jimenes, Manuel

Tablas de conversión de datas islamicas a cristianas y vivversa-Madrid-Granada 1946.

Peres, Henri

La poésie andalouse en arabe classique au XI^e Siècle. 2^eme édition 1953.

Pons Boiques, Francisco

Ensayo bibliográfico sobre los historiadores y geógrafos arabigo-Espaníoles Madrid 1898.

Piles, Andrés

Valencia Árabe. Valencia 1901.

Revue Africaine vol. Lix Alger 1918.

Shuonnet, Francisco Javier

Historia de los mozárabes de España- Madrid 1897-1903.

Stohes, F.G.

Moslems in Spain trad per F.G. Stohes Paris 1913.

Teres Sadaba, Elías

Algunos aspectos de «la emulación poética en al-Andalus apud. «Homenaje a Millás Vallicrosa» Barcelona 1956.

Linajes Árabes en Al-Andalus, apud «Al-Andalus» vol XXII 1957.

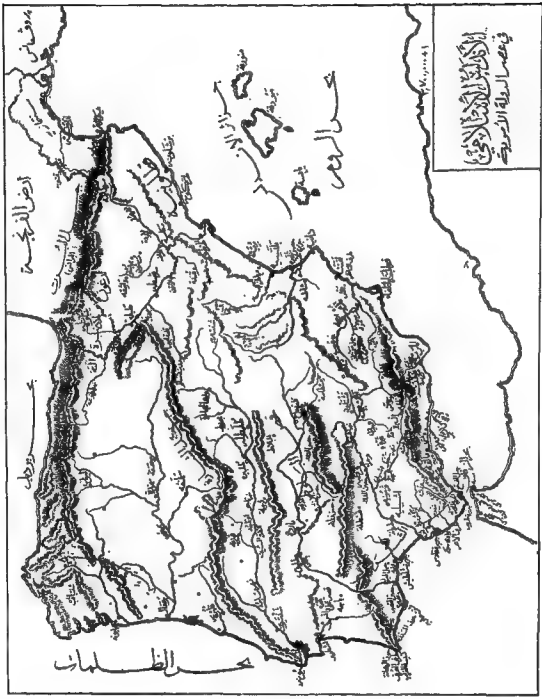
Terras, Henri

Islam d'Espagne une rencontre à l'Orient et l'Occident Paris plon 1958.

Torres Balbas, Leopoldo

Los edificios hispano-musulmanes (en Revista del Instituto Egipcio estudios Islamicos I 1953-1372 p. 92-121).

في عصر الدولة الأيوبية
 الأقاليم التابعة للإمارة



نفرست

مقدمة وإيضاح

في الفهرسة الوصفية ، بمعنى أنه يجد كلمة
اليمانية مثلاً في حرف الياء ويجدها حتماً بعد
كلمة اليمامة وفقاً لترتيب المعجم . واعتمد
على الشهرة . من هنا فأسماء :

الاعلام : أشهر اليها بنجمة تساعية *

الاماكن : أشهر اليها بدائرة سوداء ●

عناوين الكتب : أشهر اليها يربع اسود ■

المذاهب والفرق : أشهر اليها بشرطة صغيرة -
وبعد :

انجز هذا الفهرس القاموسي في :

المركز الثقافي اللبناني

للفهرسة العلمية

لجنة

من الببليوغرافيين المتعاونين

بيروت ص . ب : ٥٧٢٢ - ١٤

هاتف : ٢٥٦٥٠٩ ، ٣٦٨٥٩٤ ، ٣٠٨٧٠٦

٣٤٩٦١١ .

الفهرس هو عين الكتاب الباصرة والكوى
التي يطل منها الباحث على مطاوي السفر وما
فيه من المصرفة المتحللة وراء الحرف
والكلمة .

أما إذا كان الكتاب المرجع بخاصة خلّوا منه
فهو لا يعدل أن يكون في نظر النقد العلمي وعلم
الكتب كالأعمى الذي يقود مبصراً جاهلاً ، في
حين كان والواقع ، ومنذ كان «صبح
الأعشى» . |

ان فهرس هذا الكتاب بخاصة كندرة بعض
الفهارس التي حققت في الفهرسة الوصفية
وللكتاب العربي قفزة نوعية مبتكرة ومتطورة لأنه
جمع الفهارس المتعددة على نحو قاموسي
« Dictionnaire » وفقاً لترتيب المعجم .

في ضوء ذلك يجد الباحث ، والدارس ،
والمنتقب مبتغاه في ضوء المفهوم الهجائي اذا
حرّر مطلبه من « آل » التعريف التي لا يعتد بها

الهجرة

- الأخطل ، أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو بن بني تغلب ١٩ هـ / ٦٤٠ م - ٩٠ هـ / ٧٠٨ م : ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ .
- الأخصش الأصغر توفي (٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م) أحد النخبة المشهورين : ١٤١ .
- اخوان الصفا وخلان الوفا : ٢٢٦ .
- أخيللا « أحد أبناء الملك غيطشة القوطي » : ٧٢ .
- ادريس ، وأمير مالقة : ١٩٠ .
- الادريسي ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحسني الصليبي الصقلي المعروف بالشريف ٣٩٣ هـ / ١٠٩٩ - ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م : ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٠٧ .
- الأدوية المفردة « لجالينوس » : ٢٢٨ .
- اذفونش بن فرديناند الخامس ملك اراغون : ٦٣ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٧٦ ، ١٩٤ ، ٣٣٤ .
- أرجونة Aragon بلاد غرسية بن شانجة : ٦٣ ، ١١١ ، ١١٥ ، ٢٧٠ .
- ارسطوطاليس مؤدب الاسكندر فيلسوف يوناني ARISTOT (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) : ١ ، ٢٧٨ ، ٣٢٠ .
- الازدي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن يزيد : ١٨٠ .
- الازدي ، يزيد بن حاتم بن أبي صفرة : ١٧٠ .
- ازهار الرياض في أخبار القاضي عياض « للمقرئ » : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٣٤٠ .

- الأبار ، ابن أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن القضاعي البلسني المعروف بابن الأبار (٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م - ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م) : ٤٨ ، ٤١ ، ٢٩ ، ٤٩ ، ٧٤ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٩٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٢٣ .
- الأباضية ٣٢٦ .
- ابراهيم : جد الأنبياء : ● .
- ابراهيم : « مقام » ٢٣٩ .
- ابرو : « نهر » ٢٥٨ .
- اتصال الانسان بالعقل الفعال « رسالة لابن باجة » : ٢٢٨ .
- الاحاطة بتاريخ غرناطة « للسان الدين الخطيب » ٢٠٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
- أحد « جبل » : ١١٢ .
- أحسن التقاسيم : « للمقدسي » ٩٦ .
- أحمد بن أبي عبد الله « ملك غرناطة » : ٧٦ .
- أحمد بن بيطر : ١٤٥ .
- أحمد بن حديدي : ٢٦٧ .
- أحمد بن الطلائع : ١٠٩ .
- أحمد بن عبد الملك : انظر : ابن شهيد .
- احمد بن نصر : ١٤٧ .
- الأحمر ، ابن السلطان أبو الحجاج يوسف : ١٤١ .
- الأحمر ، أبو الجيوش نصر : ٢٤١ .
- الأحمر ، بنو : ٢١ ، ٢٤٠ ، ٢٧٠ .
- أخبار مجموعة « لمؤلف مجهول » : ١٠٤ ، ١٠٥ .

• الأزهري، ابن أبي : ١٤١ .
السرقسطي : ٣٢١ .

• الأصبهاني، العماد الكاتب : ٣١٦ .
• الأصمعي، عبد الملك «حافضة لغة
البلد» ١٢٣هـ / ٧٤٠م - ٢١٣هـ /
٨٢٨م : ٣٣ .

■ الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية «لميكل
آسين بلاتويوس» ٣٣٠ ، ٣٦٠ .

• أصيبعة، بن أبي، موفق الدين أبو العباس
أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس بن
أبي أصيبعة الخزرجي ٥٩٦هـ /
١١٩٩م - ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م : ٢٢٧ .

• اطرابلس، طرابلس الغرب : ٤٧ ، ٤٨ ،
٤٩ ، ٥٠ ، ٥٩ .

• الأطلس وجبال : ٢١١ .

■ اعتماد الرميكة «زوجة المعتمد بن عباد» :
٦٣ ، ١٠٩ ، ١٩٦ ، ٣٠٨ ،

■ اعلام القضاة «للخشي» : ٣١٥ .
- الاغريقية الاغريق : ٩١ ، ٣٣٢ .

• الاغلب، زيادة الله بن ابراهيم بن : ١٣٦ .

• اغمات «محبس المعتمد في مراكش» :
٢١ ، ١٧٦ ، ١٨٨ ، ١٩٧ .

• افريقيا : ١٣ ، ١٤ ، ١٨ ، ٤٨ ، ٦٧ ،
١٠٠ ، ١٠١ ، ٢١٧ ، ٢٦٧ .

✓ الافطس، بنو : ٢٠ .

- الافلاطونية «مذهب فلسفي» : ٣٢٧ .
• اكسفورد : ٢٢٨ .

• اكوتين «دوق برشلونة» : ٧٦ .

■ الألماع «في علم الحديث للقاضي
عياض» : ٢٠٨ .

• آلن يو، اداكار «ناقد امريكي» : ٢٠٦ .

• الأزهري، ابن أبي : ١٤١ .

• اسبانيا الإسلامية، الاسبان هيسانيا، الاسبانية
لغة : ١١ ، ٢٥ ، ٤٣ ، ٥٤ ، ٦٧ ، ٧٥ ،

٧٧ ، ٧٨ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ،
١١٨ ، ٢١٢ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ ،

٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ،
٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

• استجة «ناحية في الأندلس» : ٧٣ ،
١٦٧ .

• استرقة «ناحية في الأندلس» ٥٧ .

■ الاستقصاء «للناصري» ٢٥٦ .

• الاسكندر : ٣٢٣ .

- الاسكندري «مذهب فلسفي» : ٢٥٩ .

• الاسكوريال «دير ومكتبة على بعد ٥٠ كلم
الى الشمال من مدريد» ٢٣٠ ، ٢٥٥ ،

٢٥٦ ، ٢٥٧ .
• اسماعيل بن ابراهيم من هاجر جد العرب
المستعربة وهم بنو عدنان : ٥ .

- الاسماعيليون، الاسماعيلية : ١٧٠ .
- الاسلام في الشرق والغرب «لاوشت

مولر» : ٩٥ .

• آسيا : ٧٩ .

• اشبانيا ٥٣ .
• الاشيلي، ايزافورد : ٢٧ ، ٢٢٤ ، ٢٩٠ ،
٣٢٥ .

• الاشيلي، جبر بن أفلح : ٢٠٧ .

• اشيلية ١٧ ، ٢٠ ، ٦٣ ، ٩٢ ، ١٠٨ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١٢٤ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٣ ،
١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٨ ،

٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ،
٣٩٥ .

٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،
٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،
٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ،
٣٣٨ ، ٣٤٠ .

■ انشاء الدوائر الاحاطية على مضاهلة الانسان

للمخالق وللخالق ولاين عربي : ٢٣٩ .

● اورويا : ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٤١ ،

٥١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ،

٧٩ ، ١٠٣ ، ١٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٥٧ ،

٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٣١٢ ،

٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ .

● آي بلايو ، منذ : ٣٣٤ .

● الايبيريون : ٢٧ .

● ايزابيلا الكاثوليكية : ٢١ ، ١١٤ ، ١١٥ ،

١١٧ .

● ايطاليا : ٢٥٤ .

● الايوني : « ملعب فلسفي » : ٢٥٩ .

حرف ب

● باب البريد « بلمشق » : ١٢٨ .

● باب الرمانتين احد مداخل قصر الحمراء

بغرناطة : ٢٧١ .

● باب القنطرة « بطليطة » : ٢٦٨ .

● باب مردوم « مسجد » : ٢٦٧ .

● البابليون : ٣٣٢ .

● باجة ، ابن أبو بكر محمد بن يحيى بن

الصائغ السرقسطي المتوفي « ٥٢٢ »

أو ٥٣٢ هـ / ١١٢٨ أو ١١٣٨ م ، كاتب

عامل المرابطين في سرقسطة : ٢٠٧ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

● أساري ، ميخائيل AMARI و ١٨٠٦ .

١٨٩٩ م ، مستشرق ايطالي له تاريخ

المسلمين في صقلية دّرس في الجامعة

المصرية أستاذ طه حسين : ٢٥٧ .

■ الأمالي ، ولأي علي القالي : ٣٨٣ .

■ الامامة والسياسة ولاين قتيبة : ٦٧ .

● الأموي ، البيت : ٨١ .

● الأمويون : ٨٠ ، ٨٣ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ،

٢٨٠ .

● أمية بنو ، ٨ ، ٨٣ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ٣١٦ .

● الأتباري ، ابن : ١٤١ .

● انطلس : ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ،

٣٠ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٨ ،

٦٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،

٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٨ ،

٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،

١١٢ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ،

١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،

١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،

٢٠٥ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،

٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،

٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ،

٢٦٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،

٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،

٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،

٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،

٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،

- الباجي ، مريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن زوجة محي الدين بن عربي : ٢٣٩ .
- الباخريزي ، علي المتوفي حول ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م له تكملة على كتاب يتيمة الدهر للثعالبي : «دمية القصر وعصرة أهل العصر» : ٣١٦ .
- باريس : ٧٧ ، ١٠١ .
- باطقة : ٥٣ .
- بالثيا ، انخل كونثالت «مستشرق اسباني» : ٣٥ ، ٩١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٧ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ .
- ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢٣٨ ، ٢٥١ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ .
- بجاية : «ناحية في تونس» ٢٠٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ .
- بدال منلذ «مستشرق اسباني» .
- البداية والنهاية في التاريخ «لأبن كثير» : ٩٥ .
- بدر ، مولى عبد الرحمن الداخل : ١٢٩ .
- بدرو الجليل : ٣٣٥ .
- بديع الزمان الهمداني : انظر الهمداني .
- البرانس : ٩٤ .
- البرير : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٢٥ ، ١٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
- البرتغال : ١٦١ ، ٢١٥ .
- برج قمارش في القصر الحمراء بغرناطة : ٢٧٠ .
- بردى «نهر في دمشق» : ١٢٨ ، ١٣٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦ .
- برزويه الطيب : ٣٣٤ .
- برشلونة : ٩٤ ، ١٩٥ .
- برقة : ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ .
- برلنام ويواصف كتاب : ٣٣٤ .
- برلين : ٢٢٨ ، ٣٢١ .
- برمند الثاني ابن اردون ملك ليون : ١٥٧ .
- بروفس : ٧٦ .
- بروفسال ، ليثي : ٩٦ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ٢٣٠ ، ٢٥٧ .
- بريس ، هنري : ٤٠ ، ٦٢٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ .
- البريطانيون : ٧٨ .
- بسام ، ابن أبو الحسن على الشتريني «؟» ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ٣٥ ، ١٦٧ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٣١٦ .
- البستاني ، فؤاد افرام : ١٨٧ .
- بسطة «ناحية في الأندلس» : ٢٠٧ .
- البسطي ، أبو الحسن : ٢٠٧ .
- البسك ومقاطعة في شمال اسبانيا : ١٢ .
- بشار بن برد «شاعر عباسي» : ٣٣ .
- البشرات «ناحية في غرناطة» : ١١٤ .
- البشكنس : ١٥٥ ، ١٥٩ ، ٢٦٧ .
- بشكوال ، ابن أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الأنصاري الأندلسي .
- ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م : ١٤٩ ، ١٦٨ ، ٢٠٧ ، ٣٢١ .
- بطليوس «ناحية في الأندلس» : ٩٤ ، ١٩١ ، ٣٠٩ ، ٣٣٧ .
- بغداد : ١٩ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ٢٩٧ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ .

- البغدادي المتوفى سنة ٤٩٠ هـ / ٨٩٢ م : ٤٩ .
- بلاشير «مستشرق افرنسي» : ٥٠ .
- بلاط الشهداء : انظر بواتية معركة .
- - البوذية : ٣٢٢ .
- البيازين سوق في قرطبة : ٢٥١ .
- البيت العتيق : ● .
- بيت المقدس : ١٨ ، ٥٨ .
- البيرة «ناحية في الأندلس» : ٦٠ ، ١١٣ .
- البيرينة أو البرانس «جبال» : ٧٨ .
- بيزنسون : ٧٧ .
- بيزنطة : ٣١٢ .
- بيكون «مستشرق بريطاني» : ٣٢٤ .
- البغوي ، أبو محمد الحسن بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء : ١٢٣ ، ١٤٩ .
- البغوي ، الفقيه الشافعي ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م - ٥١٠ هـ / ١١١٦ م : - ١٤٠ .
- بغية الملتمس ، «للضي» : ١٤١ .
- بكة : ٥ .
- البكري ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري «جغرافي» ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م - ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م : ٤٩ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ .
- بلج القشيري : ١٩٣ .
- البلديون : ١٢٥ .
- بلنسية «ناحية في الأندلس» : ١٢ ، ١٩١ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣٢٢ .
- البلوطي ، منذر بن سحيد بن عبد الله بن عبد الرحمن البلوطي ٢٧٢ هـ / ٨٨٦ م - ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م : ٣٠٦ .
- بواتية «معركة» : ٧٥ ، ٧٧ .
- بودلين : ٢٢٨ .
- بورديو «ناحية في غرب فرنسا» : ٧٧ .
- بورغو «نهر قرب البرتغال» : ١٦١ .
- بوليوم «قصة» : ٣٣٦ .
- بولاق «ناحية قرب القاهرة» : ٢١٣ .
- بويكز بويكز مستشرق اسباني مؤلف «مؤرخون وجغرافيون عرب» : ٢٣٢ .
- بسلاميوس ، ميكسل آسين «مستشرق اسباني» : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ .
- البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري .

حرف ت

- التاج ، تاجه نهر محيط بطليطلة : ٣٠ ، ٩٢ ، ٢٦٦ ، ٣٣٥ .
- التاج المحلى «لاين الخطيب» : ٢٤١ .
- تاريخ الأدب العربي - الاسباني «لانخل كونثالت بالنسيا» : ٢٠٦ .
- تاريخ افتتاح الأندلس «لاين القرطبة القرطبي» : ١٤ ، ١٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ١٤٧ .
- تاريخ شعراء الأندلس «لاين الفرضي» : ١٦٧ .
- تاريخ علماء الأندلس «لاين الفرضي» : ١٠٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٣١٦ .
- تاريخ قضاة قرطبة «للخشي» : ١٢٠ ، ١٣٨ .
- ترجمان الأشواق «لاين عربي» : ٢٣٩ .

حرف ج

- الجاحظ ، أبو عثمان بن عمرو بن بحر بن محبوب بن الكناني البصري المعروف بالجاحظ ١٦٣ هـ / ٧٧٠ م - ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م : ١٩ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٣٢٠ .
- جايانكوس ، أو جايانجوس انظر : جيانجوس .
- جبران خليل جبران : ٥ .
- جبل طارق : ٦٧ ، ١٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٢٢ ، ٣١٤ .
- الجبلي ، أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الجبلي الوزير : ٣٦ ، ١٩٠ ، ٣٣٠ .
- جحظة : ١٤١ .
- الجذامي ، العلاء بن المغيث «مبعوث أبي جعفر المنصور لاغتيال عبد الرحمن الداخل» : ١٢٥ .
- جلدوالمفتيس «للمحمدي» : ١٥٩ .
- الجرمان : ٢٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٣١٠ .
- الجزائر ، الجزائرية : ١٨٣ ، ٣١٣ .
- جزر البليار : ١٩٨ .
- الجزيرة الايبارية «شبه اسبانيا والبرتغال اليوم» : ١٥ ، ١٧ ، ٣٤ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٣١ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٣٠٣ ، ٣١٣ ، ٣٣٥ .
- الجزيرة الخضراء Aljeziras : ١٤ ، ٦٧ ، ١٢٤ ، ١٣٦ .
- جزيرة طريف : ٩٤ ، ٢٤١ .
- الجزيرة العربية : ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

■ تعليق على تاريخ ابن القرضي «لأبي بكر بن المهلب» : ٣١٢ .

- التعليقة على المدونة «للتونسي» : ١٨٥ .
- تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان للعالم الاسباني ريكموندو : ١٤٨ .
- التكملة لكتاب الصلة «ابن القرضي» «لاين الأبار» : ١٦٨ .
- تلمسان «ناحية في الجزائر» : ٢٠٨ ، ٣١٣ .
- تمام ، أبو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن أوس الطائي «١٨٨ هـ / ٨٠٣ م - ٢٣١ هـ / ٩٧٢ م» : ٨٦ ، ٧٥ ، ١١٤ .
- تمام بن علقمة : ١٢٩ .
- التنبيه والاشراف «للمسعودي» : ٨١ .
- التهافت «لاين عربي» : ٢٣٩ .
- تور «معركة» : ٧٧ .
- توطس «ناحية بالأندلس» : ١٩٩ .
- تولوز «ناحية في فرنسا» : ٧٦ .
- تونس التونسية : ٢٩ ، ٩٣ ، ٢٣٩ ، ٣١٣ .
- التونسي ، أبو اسحق بن ابراهيم المعافري : ١٨٥ .
- التيسير في مداواة والتدبير «لاين زهر» : ٢١٢ .

حرف ث

- الثعالبي ، ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري «٣٥٥ هـ / ٩٦١ م - ٤٢٩ هـ / ١٠٢٧ م» : ٢١٨ ، ٣١٦ .
- ثهلان «جبل» : ١١٢ .

- جزيرة ميورقة : ١٨١ .
- الجسور ، أبو عمر أحمد بن : ١٨٠ .
- جعفر ، أبو- المنصور : ٤٠ ، ٥٩ ، ١٢٣ ، ١٢٥ .
- جليقية : ٥٧ ، ١٩٤ ، ٢٦٧ .
- جهور ، ابن الوليد بن جهور «أحد حكام قرطبة في عهد ملوك الطوائف» : ١٩٦ .
- جهور ، بنو : ٢٠ ، ٦٣ .
- جوهر الصقلي « قائد المعز لدين الله الفاطمي » : ١٧٠ .
- الجلائقة : ١٢ .
- الجباب ، الرئيس أبو الحسن : ٢١٠ .
- جيان : « ناحية في الأندلس » : ٧٣ ، ١١٢ ، ١٢٩ ، ٢٤٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ .
- جيانجوس «مستشرق اسباني» : ١٠٦ .
- حرف ح**
- الحافظ الذهبي «مؤرخ الاسلام» ٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م : ١٦٧ .
- الحبة : ٨٥ .
- حبيب طعنة «وزير المعتضد بن عبّاد» : ١٧٤ .
- الحجاز : ٨٦ .
- الحريري ، أبو محمد القاسم بن علي بن محمد ابن عثمان الحريري « ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م أو ١٠٥٥ - ٥١٥ هـ / ١١٢٢ م : ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ .
- الحريري ، رفيق منشيء مؤسسة الحريري في بيروت ١٩٨٣ لتوفير التعليم - الجامعي والاختصاص على فروع لابناء لبنان : ٦ .
- حزم ، ابن أبو محمد علي بن حزم القرطبي ٣٨٣ هـ / ٩٩٤ م - ٤٦٤ هـ / ١٠٦٣ م صاحب المذهب الظاهري : ٤٠ ، ٤١ ، ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ٣٠٧ .
- الحزم ، أبو- بن جهور «حاكم قرطبة» : ١٨٨ ، ١٩٠ .
- الحسن ، أبو علي بن الأحر : ١٣٧ .
- الخطيئة - أبو مليكة جروول بن أوس بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عيسى العبسي الشاعر المخضرم المتوفي نحو ٤٥٥ هـ / ٦٦٥ م : ١٥١ .
- الخطري البغدادي : ٣١٦ .
- الحفصي ، أبو زكريا حاكم في تونس : ٢٩ ، ٢٣٢ .
- الحفصيون «حكام تونس» : ٢٣ ، ٦٥ ، ١١٦ .
- الحكم بن هشام «الريفي» : ٦١ ، ٢٦٧ .
- الحكم الثاني المستنصر : ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٣١٧ .
- الحكمة الإلهامية «كتاب لابن عربي» : ٢٣٩ .
- الحلقة السرياء «لابن الأبار القضاعي» : ٤٨ ، ١٧٤ ، ١٩٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٣٢٢ ، ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م -
- حمديس ، ابن ، أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر ابن محمد المتوفي « ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م : ٣١ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٣٠٣ .
- الحمراء : انظر قصر الحمراء أو مسجد الحمراء .
- حصص : انظر اشبيلية .
- حصص العريش : ١٩٣ .

• خلدون ، ابن أبو زكريا يحيى بن محمد بن محمد بن محمد الحسن بن خلدون
٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م - ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م .
• خلكان ، ابن شمس الدين أبو العباس أحمد
ابن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر
ابن خلكان البرمكي الأربلي الشافعي
الأشعري (٦٠٨ هـ - ١٢١١ م - ٦٨١ هـ /
١٢٨٢ م) : ١٧١ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

• الخليج : ٢٢٣ .

• الخوارج : ٣٢٦ .

• الخيار ، أبو مسعود بن سليمان بن مفلت أبو
زرعة طريف : ٧٠ ، ١٨٠ .

• خير : ١٣٥ ، ٣١٠ .

حرف د

■ دائرة المعارف للبياتي : ١٨٧ .

• الداخل ، عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك

ابن مروان بن الحكم فر من سوريا

« ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م » أعلن الامارة في

الأندلس « ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م » : ٢٠ ،

٢٦ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٩١ ،

٩٢ ، ٩٣ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ،

٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣١٠ .

• دارينا « بلدة في الخليج العربي » : ١٥٣ .

• داني ، الجبيري : ٢٦١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ،

٣٣١ ، ٣٣٣ .

• الداني ، أبو الصلت : ٢٠٧ .

• داود بن عائشة قائد جيوش يوسف بن

تاشفين يوم معركة الزلاقة في الأندلس :

١١٠ .

• الحميدي ، أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدي
الحميدي « ٤١٩ هـ / ١٠٢٩ م - ٤٨٧ هـ /
١٠٩٥ م » صاحب معجم هجائي لعلياه
الأندلس : ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .

• الحميري ، محمد عبد النعم العنبرجي السبي
المتوفي في حدود العام
« ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م » : ٥٣ ، ٩٦ ،
٩٧ ، ١١٠ ، ١٥٩ ، ١٦٢ .

• حوقل ، ابن « صاحب كتاب المسالك
والممالك » توفي نحو « ٣٦٧ هـ /
٩٧٧ م » : ٩٥ ، ٩٦ .

• حيان ابن ، خلف بن حسين بن
حيان أبو مروان « ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م -
٤٦٩ هـ / ١٠٧٠ م » من كتّاب المنصور بن
أبي عامر : ٤١ ، ١٢٣ ، ١٤٩ .

حرف خ

• خالد بن الوليد : ٢٨٠ .

• خالد الملك السعودي الراحل : ٥ .

• خراسان : ٧٦ ، ٨٦ .

■ خريدة القصر وخريدة العصر وللمعاد
الكاتب الاصفهاني : ٣١٦ .

• الخزرج : ٢٧٠ .

• الخشي - أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد

الخشني القيرواني الأندلسي توفي بعد

« ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م » : ١٨٤ ، ٣١٥ ،

٣١٧ ، ٣١٨ .

• الخصيب ، أحمد بن « وزير المقتدر » المتوفي

« ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م » : ١٤٩ .

• خفاجة ، ابن ابراهيم بن أبي الفتح

ابن عبد الله بن خفاجة الهواري

الأندلسي « ٤٥٠ هـ / ١٥٥٨ م - ٥٣٣ هـ

« ١١٣٨ م » : ٣١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

■ ديوسكوريدس Dioscorides (١٤٨).

حرف ذ

- ذخائر الأعلاق «لاين عربي»: ٢٣٩.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة «لاين بسم»: ٣٥، ١٦٧، ١٨٦، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٣١٦.
- ذو المجاز «سوق في الجزيرة العربية»: ٢٦، ٢٨٩.
- ذو المجنة «سوق في الجزيرة العربية»: ٢٦، ٢٨٩.
- ذو النون، بنو: ٢٦٧.

حرف الراء

- راج «والدة عبد الرحمن الداخل بريرة من قبيلة نفرة»: ١٢٣.
- الرازي «محمد بن موسى، وفد الى الأندلس (٢٤٩ هـ / ٨٦٤ م) مؤلف كتاب الرايات».
- الرايات «كتاب للرازي» مبثوث في المراجع: ١٨، ٢٦٦.
- الرئط في قرطبة ثروة أهداها الرئط: ٢٧٩.

- الدباغين «باب في طليطة»: ٢٦٨.
- دجلة: ١٣٥، ٣٣٦.
- دحون، ابن عبد الله بن يحيى: ١٨٠.
- دحية، ابن أبو الخطاب بن دحية: ٢١٣.
- دراج القسطل، ابن أبو عمر أحمد بن محمد شاعر المنصور ابن أبي عامر (٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م - ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م): ١٤٩، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤.
- درستويه، عبد الله بن (٢٥٨ هـ / ٨٧١ م - ٣٥٤ / ٩٥٦ م): ١٤١.
- دريد، ابن أيوب بكر محمد بن الحسن بن دريد ابن عتاهية بن خيثم الأزدي البصري الملقب بابن دريد (٢٣٣ هـ / ٨٣٧ م - ٢٣١ هـ / ٩٣٣ م): ١٤١.
- دريزين Drayzen: ٩٧.
- دمشق: ١٤، ١٦، ١٨، ٥٤، ٥٨، ٧٢، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ١١٠، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٦١، ٢٨٠، ٣١٠.
- الدمشقي، عماد الدين القرشي: ٨١.
- دمياط «ناحية في مصر»: ٢٣٣.
- دوزي، رانهارت بيتر Dozy مستشرق هولندي: ٩٥، ١٠٠، ١٠١، ١٢٥، ١٧٩، ١٩٧، ٢١٢، ٢١٧.
- دومة الجندل: ١٣٥، ٣١٥.
- دي خويه: ١٠١.
- دي ساسي، سلفستر: ٣٢٢.
- دي كارت، ريت Des cartes (١٥٩٧ - ١٦٥٠ م) فيلسوف فرنسي: ٣٢٤.

(١) في سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ - ٩٤٩ م ارسل اميراطور بيزنطة قسطنطين السابع المعروف يورغيو جهنت «أي لابس الأرجوان» سفارة الى عبد الرحمن الناصر وكان في ما حمله المبعوثون نسخة من الكتاب المذكور وهو مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب.

٢٧ ، ٤٧ ، ٢٤٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

• الرومي ، ابن الحسن علي بن عباس بن جريج المعروف بابن الرومي (٢٢٢هـ / ٨٣٦م - ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) : ٢٤٠ .

• ربييرا ، خوليان «مستشرق اسباني» : ٢٤ ، ٣٤ ، ١٠٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢٦٠ ، ٢٩٩ ، ٣١٣ ، ٣١٧ .

حرف ز

• الزاوي بن زيري : ١٧٣ .

• الزيرقان بن بدر : ١٥١ .

• الزجاج ابراهيم توفي العام (٣١١هـ / ٩٢٣) : ٤ ، ١٤١ .

- الزردشتية «مذهب ديني فارسي» : ٣٣٢ .

• زرقون «قبة زرياب» : ٣١١ .

• زرياب ، «الطائر الأسود الغرد» علي بن نافع : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٢٧٩ ، ٣١١ .

• زفر بن الحارث الكلابي : ٨٢ .

• الزقاق «بحر» : ١٣٦ .

• زمرك ، ابن أبو عبد الله محمد بن يوسف بن

زمرك (٧٣٤هـ / ١٣٣٣م - ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م) : ١١٨ ، ٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .

• زمزم بئر مكة : ٥ .

• زهر ، ابن أبي بكر محمد بن أبي مروان محمد بن زهر : ٣٦ .

• زهر ، ابن أبو العلاء : ٢٠٧ .

■ زهر الآداب «للمصري» : ١٨٥ .

• الزهراء : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٩ .

• ربيع بن فريد الأسقف المعروف باسم ويكيموندو : ١٤٨ .

• رجار النرمانى «ملك صقلية» : ١٠١ . رحلة الى بلاد المجد المفقود «لمصطفى فروخ» : ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٥ .

• الرزاز محمد : ١٤٥ .

■ رسالة الأنوار «لابن عربي» : ٢٣٩ .

■ رسالة التواضع وزواضع «لابن شهيد» : ٣٣٠ .

■ رسالة الغفران «للمعري» : ٣٣٠ ، ٣٣٣ .

■ رسالة الوداع «لابن باجة» : ٢٢٨ .

• رشيد ، ابن أبو الوليد محمد بن

(٥٢٦هـ / ١١٢٦م - ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) : ١٨١ - ٢٢٧ ، ٢٣١ .

• رماحس ، ابن : ١٤٠ .

• الرمادي ، يوسف بن هارون Elceniciento

الرمادي تعريف لاسمه الاسباني رافق المنصور

الى برشلونة في حملته العام (٣٧٦هـ /

٩٨٦م ، توفي (٤١٢هـ / ١٠٢٢م) : ٣٠٦ .

تلميذ أبي علي القالي عرف بحبه العلري :

• الرندي ، أبو البقاء صالح الرندي : ١٥٥ .

■ الروض العاطر الأنفاس في التوصل الى المولى

سلطان فاس ، للعقيلي : ٢٢ ، ٥٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٥ .

■ الروض المسقط في خبر الاقطار

«للحميري» : ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٥٩ .

■ روضة التعريف بالحب الشريف «للسان

الدين بن الخطيب» : ٢٤٣ .

• الروم - روما : ٢٢٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٣١٢ .

■ الرومان ، الرومانيون : ١٣ ، ٣٦٨

- عمر الزلاقة موضع معركة في بطحاء الزلاقة : ٢٠ ، ٦٣ ، ١٠٨ ، ١٩٦ .
- زيلون ، ابن أبو الوليد الوزير ٣٩٤هـ / ١٠٠٣ م - ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م : ٣١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ .
- الزيرية « دولة » : ١٧٣ .
- زينب ابنة اسحق زوجة يوسف بن تاشفين : ٢١١ .
- الزينة « للخطري البغدادي » : ٣١٦ .
- حرف س
- سافدرا : ١٠١ .
- سبتة « ناحية في المغرب » : ٥٤ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .
- سبرونر Spruner مصور اطالس اسبانيا الاسلامية سنة ١٨٨٠ : ٩٠ .
- سبعين ، ابن أبو محمد عبد الحق بن سبعين الاشيلي المكي المرسى الأنسلسي « ٦١٤ هـ / ١٢١٨ م - ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م : ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
- ست ليشم البلدة التي دفن بها علي بن حزم : ١٨١ .
- السجستاني ، أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني « - ٢٤٨ هـ / ٨٠٢ م : ١٤١ .
- سدبا ، الياس تيز « مستشرق اسباني » استاذ المؤلف توفي العام ١٩٨٤ : ٣٩ ، ٤٠ ، ١٣١ ، ٢٩٤ .
- سر الأسرار « قصة » : ٣٣٦ .
- سر السرور « لابن رشيق القيرواني » : ١٨٧ .
- سراج ابن محمد « ٦٥٣ هـ / ١٢٥٦ م - ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م : ١٤١ .
- سراج بنو : قادة في غرناطة : ٢٧٢ .
- السريانية : ٣٣٤ ، ٣٣٦ .
- سعد بن عبادة « سيد الخزرج » : ٢٧٠ .
- السعود بن عبد العزيز « الملك السعودي الراحل » : ٥ ، ٢٨٢ .
- السكاسك « قبيلة » : ٨٢ .
- السلماني ، عائلة من أصلها الوزير لسان الدين بن الخطيب : ٢٤٠ .
- سليمان بن الحكم : ١٥٢ .
- سليمان ، بن داود وزير في بلاط غرناطة : ٢٤٦ - ٢٨٥ ، ٣١٥ .
- سليمان بن عبد الملك : ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٥٨ ، ٧٨ ، ١١٣ ، ١٤٥ .
- السمح بن مالك الخولاني « قتل في حملة على تولوز بفرنسا » : ١٧٦ .
- السمعاني يوسف سمعان أو السمعي الكبير (١٦٨٨ - ١٧٦٨ م) من علماء الموارنة بالشؤون الشرقية : ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ .
- السندباد « كتاب » : ٣٣٤ ، ٣٣٦ .
- سندينو ، نحوسه مونيس مدير الكونسرفتوار الموسيقي الملكي في مدريد سابقاً : ٣٠٩ .
- سوريا : ٥٩ ، ٧٩ ، ١٢٨ ، ٢٨٠ ، ٣٢٢ .
- سوق الدواب Zocodover بطليطلة : ٢٦٨ .
- سيويه ، أبو بشر عمر بن عثمان بن قمبر الفارسي البيضاء أمام النحلة وتلميذ الخليل ابن أحمد الفراهيدي : « ١٣٨ هـ / ٧٦٥ - ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م : ٤٩ ، ١١٥ ، ١٢٥ .

● شرف ، ابن أبو الفضل جعفر بن أبي عبد الله
محمد بن شرف البرجي «الحكيم
الفيلسوف» (٤٤٤هـ / ١٠٥٢م -
٥٣٤هـ / ١١٣٩م) : ١٨٦ .

● الشرق : ١١ .

● شريش «ناحية في الأندلس» : ٢٨٠ ،
٢٨٦ .

● الشريشي ، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن
الشريشي «٦١٨هـ / ١٢٢٢م» أكبر
سراج مقامات الحريري في العالم الاسلامي :
٣٢٢ .

● الشريف الرضي ، أبو الحسن محمد بن الحسن
ابن موسى الرضي . العلوي الحسيني
الموسوي «٣٥٦هـ / ٩٦٦م - ٤٣٦هـ /
١٠٤٤م» : ٤٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

● الششتري ، أبو الحسن الششتري الوادي
آشي النعمري من تلامذة ابن سبعين
«٦١٠هـ / ١٢٣٠م - ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م» :
٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

● شقير ، ابن «نحوي» : ١٤١ .

● شلب ناحية Silves : ١٧٦ ، ١٩٤ .

● شلير : «جبل في الأندلس» : ١١٣ .

● الشمعة «برج في الحمراء» : ٢٧١ .

● شستين «مدينة في الأندلس» : ٢١٥ .

● شنت ياقوب Santiago de gompostela مدينة
مقدسة : ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ .

● شنيل «نهر في غرناطة» : ٣٠ ، ٦٤ ، ١١٣ ،
١١٤ ، ٢٧١ .

● سيرا مورينا «جبل في الأندلس» : ١٣٧ ،
١٤٠ .

● سيرا ناقادا «جبل في الأندلس» : ٢٣ ،
٦٥ ، ٢٧١ .

● سيوليتا : ١٠١ .

حرف ش

● شارلكان «ملك قشتالة» : ٢٥٥ .

● شارلمان حفيد شارل مارتل Charles Martel
الذي انتصر على العرب في موقعة بواتيه
«بلاط الشهداء» (١١٤هـ / ٧٣٢م) :
١٢٥ .

● شاطبة «بلدة في الأندلس» : ١١٢ .

● الشافعي ، محمد بن ادريس
«١٥٠هـ / ٧٦٧م - ٢٠٥هـ / ٨٢٠م» :
١٨٠ .

● الشام ، الشاميون مصطلح في الأندلس
للوافدين على البلاد من الشام يقابله البلديون
نسبة الى أهل البلاد الأوائل : ١٢٥ ،
١٢٩ ، ١٩٣ ، ٢١٧ ، ١٨٠ .

● شانجة بن غرسية بن فرديناند الملك الأسيرييد
المنصور بن أبي عامر في حملته على ليون : ١٤٩ .

● شتايجر ، ارنالد ناشر كتاب الشطرنج في
زيورخ ١٩٤١ : ٣٣٦ .

● الشلوذ في اللغة «لابن رشيق القيرواني» :
١٨٧ .

● شذونة بلدة في جنوب الأندلس دارت قريبا
معركة وادي البرباط الحاسمة بين المسلمين
والقوط «٩٢هـ / ٧١١م - ٧٢ ، ٧١٤ .

● شرح موطأ مالك «لابن رشيق القيرواني» :
١٨٧ .

حرف ض

- الضبي ، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد
ابن عامرة « ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م » :
١٤١ ، ٢٠٧ .

حرف ط

- الطائف : ١٣٥ ، ٣١٠ .
- طارق بن زياد : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ،
١٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٦٩ ، ٧٨ ،
٨٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٧٣ .
- الطاغية : انظر الداخل .
- الطاهر ، أبو عبد الله صاحب مرسية في دولة
ملوك الطوائف « ١٩٥ .
- الطبري ، ابن أبو جعفر محمد بن جرير
ابن يزيد بن خالد الطبري الأملّي
« ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م - ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م » :
١٠٤ ، ١٨٢ .
- طبقات الأمم « لصاعد الأندلسي
الطليطي » : ٢٢٥ .
- الطحان ، أبو الأصبع عبد العزيز بن الطحان
الاشبيلي « ٣٠٤ هـ / ٩١٧ م - ٣٨٣ هـ
٩٩٤ م » من أهل استجة : ١٦٧ .
- طرابلس « لبنان الشمالي » : ٢٥٥ .
- الطراز ، أبو أحمد : ١٦٦ .
- طرش « ناحية في الأندلس » : ١٢٧ ،
١٢٨ ، ١٢٩ .
- طفيل ، أبو بكر محمد بن عبد الملك بن
الطفيل القيسي الأندلسي صاحب قصة
« حي بن يقظان » « ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م
٥٨١ هـ / ١١٨٥ م » : ٢٢٧ .

- شهيد ، ابن أبو عامر بن شهيد أحمد بن
عبد الملك « ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م -
٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م » : ٣١ ، ٦٣ ،
١٠٤ ، ١٤٧ ، ٢٢٧ ، ٣٠٣ ، ٣٢٩ ،
٣٣١ ، ٣٣٠ .
- شيشيرون Cicéron « ١٠٧ - ٤٣ ق م » من
رجال السياسة في روما ومن أفصح
خطبائها : ٣٢٤ .

حرف ص

- صاحب بن عباد : ١٣٣ ، ٢٩١ .
- صاهد ، أبو محمد يحيى بن محمد :
١٤٠ .
- صاعد الأندلسي ، أبو القاسم صاعد بن
أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد
القرطبي الأندلسي الطليطي المالكي
« ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م - ٤٦٢ هـ
١٠٦٩ م » : ٢٢٥ .
- صبح البشكنسية « زوجة المنصور بن أبي
عامر » : ٢٧٩ .
- صخرة الولد « ناحية بالأندلس » : ٢١٢ .
- صفاقس « مدينة في تونس » : ٢٠٠ .
- صفين : ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ .
- الصقالبة : ٦٧ ، ١٨٨ .
- صقر قریش انظر الداخل .
- صقلية « جزيرة » : ١٠١ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ،
١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .
- الصلة « كتاب لابن بشكوال » ١٦٨ .
- الصميل بن حاتم : ١٢٩ .
- صيدون : ٥ .

● طليطلة Toledo مدينة إسبانية: ١٣، ٢٠، ٣٠، ٤١، ٥٠، ٥٤، ٦٣، ٧٢، ٧٣، ٩٢، ٩٦، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٨٦، ٣٠٩، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨.

● طنجة: ٥٠، ٥٦، ٨٦، ٦٩، ٧٢، ١٣٦، ١٧٣.

■ طوق الحمامة في الألفه والآلاف لابن حزم: ١٨١، ٣٣٣.

● الطينة «ناحية قرب دمياط بمصر»: ٢٣٣.

حرف ع

● العائد، أبوزكريا يحيى بن مالك: ١٦٧.

● العامري القرشي: ١٢٤.

● العامري: انظر المنصور محمد بن أبي عامر.

● عبّاد، أبي القاسم محمد: ١٩٣.

● عبّاد، بنو: ٢٠، ٦٣، ١٠٨، ١٠٩، ١٩٣، ١٩٦.

● عباس، أبو بن أبي عبيدة: ١٤٥.

● عباس، احسان: ٩٩.

● العباسيون: ٢٠، ١٢٣، ١٢٨، ٣١٠، ٣٢٠.

● عبد البر، ابن أبو يوسف بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي: ١٩٥.

● عبد الحكم، ابن: ٤٩.

● عبد الحميد الكاتب: ٣١٥.

● عبد ربه، ابن، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن جدير بن سالم القرطبي الأندلسي المالكي ٢٤٦ / ٨٦٠ م - ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م: ٣١، ٣٩، ٤٠، ٨١، ١٣١، ١٣٢،

● عبد الرحمن الأوسط بن الحكم: ٦١، ١٣٦، ١٣٧، ٣١١.

● عبد الرحمن بن حبيب: ٥٩، ١٢٨.

● عبد الرحمن بن معاوية: انظر الناصر.

● عبد الرحمن بن منصور بن أبي عامر: ١٥٣، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢.

● عبد الرحمن بن هشام: ١١٥، ١٢٠، ١٣٨، ٣١١.

● عبد الله أبو محمد «أحد ملوك غرناطة»: ٦٤، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١١٨.

● عبد الله بن الأحمر: ١٧٤.

● عبد الله بن خالد: ٦١، ١٢٨.

● عبد الله بن الزبير: ٨٢، ١٢٤.

● عبد الله بن زياد: ٨٢.

● عبد الله بن عبد العزيز الأموي خبص المنصور بن أبي عامر: ١٥٧.

● عبد الله بن محمد: ٢٢، ١٠٦، ١٤٤، ١٤٥.

● عبد الله بن المقفع: ٣٢٠، ٣٣٤.

● عبد الملك بن مروان: ٥٠، ١٤١.

● عبد الملك منصور بن أبي عامر: ١٥٣، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢.

● عبدون، ابن أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الجبلي: ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠.

■ العبر في خبر من غير «للمحافظ الذهبي»: ١٦٧.

■ العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان

الأكبر «لابن خلدون»: ٧٨.

- العبرانية : ٣٣٤ .
- عبيدة ، ابن الغثى التميمي « ١١٠ هـ / ٧٢٨ م - ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م » : ١٤٠ .
- عبيدة ، أبوابن الجراح : ٢٨٠ ، ٢٨١ .
- العتاهية أبو : ٣٣ .
- عدنان ، أباد بن معد بن : ٢٦٩ .
- العدوي : ١٤٠ .
- العراق : ٧٥ ، ٨٦ ، ٢١٧ ، ٣٢٣ ،
- العرب ، هربي : ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٨ ، ٦٦ ،
- ٧١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٥ ،
- ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ ،
- ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ .
- العربي ، ابن أبو بكر محمد علي بن أحمد
- ابن عبد الله محمد المعافري الأندلسي
- المالكي « ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م -
- ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م » : ٤١ ، ٢٢٦ ،
- ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٧ ،
- ٣٢٩ ، ٣٣٠ .
- العروس ، جبل : ٢٣ .
- المسال ، ابن عبد الله بن فرج اليحصبي
- ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
- المطار ، أبو حفص عمر : ١٨٥ .
- العقد الفرید لابن عبد ربه : ٢٧ ، ٣٩ ، ٨١ ،
- ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ٢١٨ ،
- ٢٩٠ ، ٢٩١ .
- العقيلي ، أبو عبد الله محمد : ٢٢ ، ١١٥ .
- عكاظ ، « سوق في الجزيرة العربية » :
- ٢٦ ، ٢٨٩ .
- حلقة اللحمي : ٦٩ .
- حَلَم « المغنية جارية زرياب » : ٣١١ .
- علون « المغنية جارية زرياب » : ٣١١ .
- علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) : ١٠٤ .
- علي بن معاذ بن سمعان بن موسى : ١٦٧ .
- علي بن نافع : انظر : زرياب .
- عمار ، ابن صديق المعتمد ورفيق شبابه : ٣٠٣ .
- عمارة « قبيلة » : ٧١ .
- العملة « لابن رشيقي القيرواني » : ١٨٧ .
- عمر ابن أبي ربيعة : ٣٠٦ .
- عمر بن حفصون : ١٤٥ .
- عمر بن الخطاب « ١٥١ ، ٢٨٠ .
- عمرو بن العاص : ٤٥ ، ٤٨ .
- عنان ، أبو سلطان بني مرين : ٢٤٧ .
- عترة العبيسي : ٢٦ ، ١٣٦ ، ٢٨٩ .
- العواد ، عبد الله بن عبد المولى : ٢٤١ .
- عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي
- قاضي الأئمة « ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م -
- ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م » : عائلته من بسطة
- Baza ولد في سبتة درس في قرطبة وعاش
- بها : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

حرف غ

- الغافقي ، عبد الرحمن بن عبد الله قائد
- الحملة على جنوب فرنسا : ٧٧ ، ١٢٥ .
- الغالب بالله ، محمد أبو الأحمر بن نصر : ٢٧١ .
- الغاليون : ٧٨ .
- غرناطة : ١٧ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٦٠ ،
- ٦٤ ، ٧٣ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٣ ،
- ١١٧ ، ١١٨ ، ١٧٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ،
- ٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
- ٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ ،

■ الفتوحات المكيّة «لابن عربي»: ٢٣٩ .

فرايدي ، الخليل بن أحمد : ٣٣ .

* فرج ، يوسف بن اسماعيل ٢٧٢ .

* فرديناند : انظر الأدفونش بن فرديناند .

* القرس : ٩١ .

* القرصي ، أبو الوليد عبد الله بن نصر الأزدي

القرطبي المعروف بابن الفرصي

٣٥١ هـ / ٩٦٢ م - ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م

شاعر تولى قضاء بلنسية صاحب التاريخ

المعروف باسمه : ١٠٦ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ،

١٦٨ ، ٣١٦ .

* فروخ ، مصطفى رسام مشهور : ٢٨٠ .

* فريضة ، أبو : ١٢٩ .

* فضل «قينة زرياب» ٣١٣ .

* فلسطين : ٤٧ ، ٢٨٠ .

* فلورنسا : ٣٢٩ ، ٣٣٣ .

* فليب الثاني «ملك قشتالة» : ٢٥٥ .

* فندال ، فندلس اسم : ١٣ ، ٢٦ ، ٥٤ ،

٩٠ ، ٩١ ، ٣١٠ .

* الفنداليون : ٢٨٥ .

الفهد صاحب الجلالة ملك العربية

السعودية : .

* الفهري ، الضحاك بن قيس : ٨٢ ، ١٢٤ .

* الفهري ، عبد الرحمن بن يوسف : ١٩ .

٥٩ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨١ ،

١٢٩ .

* الفونسو العاشر العالم مؤسس مدرسة طليطلة

للتترجمات : ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ،

٣٣٦ ، ٣٣٨ .

* الفلامنكونوع من الرقص الاسباني : ٢٨٧ .

* فيرجيل الشاعر الروماني لدانتي الجبري :

٢٥٥ .

٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،

٢٨٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ .

* الفرناطي ، أبو حامد «رحالة» : ١١٨ ،

٢٠٧ .

* الفزالي ، أبو حامد محمد (٤٥١ هـ /

١٠٥٩ م - ٥٠٥ هـ / ١١١١ م : ٢٧٧ .

* غزلان «جارية زرياب» : ١٣٨ .

* غزيري ، ميخائيل أمين مكتبة الاسكوريال

توفي ١٧١٠ م : ٢٣٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،

٢٥٦ ، ٢٥٧ .

* الغفلة ، خليل بن عيد الملك المعروف

بخليل الغفلة : ٢٣٧ .

* الغني بالله سلطان مراكش : ٢٤٦ ، ٢٥٢ .

* الغوطة : «في دمشق» : ٢٣٧ .

حرف ف

● الفارابي ، أبو نصر محمد

٢٦٠ هـ / ٨١٨ م - ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م

فيلسوف عربي من أصل تركي أو فارسي :

٢٢٧ .

● فارس ، بلاد : ٨٦ ، ١٣٥ ، ٣١٢ .

● فاس «مدينة بالمغرب» : ٢٢ ، ١١٥ ،

١١٦ ، ٢٠٨ ، ٢٢٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،

٢١٣ ، ٣٤٠ .

● فانسان ، سان القديس الذي بنيت كنيسة

قرطبة على اسمه : ٢٨١ .

● الفتح ابن خاقان ، أبو نصر الفتح بن محمد

ابن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي

الاشييلي ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م - ٥٢ هـ /

١١٣٣ م : ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،

٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٣١٦ .

- فيصل بن عبد العزيز الملك السعودي الراحل : ٥ .
- الفينيقيون : ١٣ ، ٢٧ ، ٢٠٨ ، ٢٩٠ .

حرف ق

- القابسي ، علي بن خلف : ١٦٦ .
- قاسم ، أبو عبد الله « من أمراء غرناطة » : ١١٣ .
- قاسيون « الجبل المطل على دمشق » : ٨ ، ١٢٨ .
- القاضي ، محمد بن أحمد بن يحيى : ١٤٠ ، ١٦٧ .
- قاعة الأسود في حمراء غرناطة : ٧٧٢ .
- القاضي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم بن عبدون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان القاضي البغدادي صاحب أول سفارة ثقيفية إلى الأندلس والأستاذ في مسجد قرطبة (٢٨٨هـ / ٩٠٠م - ٣٥٦هـ / ٩٦٦م) : ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ .
- القاضي سلمان مولى عبد الملك بن مروان : ١٤١ .
- القاهرة : ٢٢٨ ، ٢٣٥ .
- القبري ، مقدم ابن معافى الضرير الذي ينسب إليه ابتكار الشعر الموشح في الأندلس : ٣٥ .
- قتيبة ، ابن الدينوري ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة « ٢١٣هـ / ٨٢٨م - ٢٧٦هـ / ٨٨٩م » : ١٤١ .
- قراضة الذهب في نقض أشعار العرب : ١٩٧ .
- قرطاجنة (١٣) : ٥٧ ، ٨٥ .

- قرطبة : ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٧ .
- القرطبية ، نونة بنت فاطمة بنت أبي المثنى « متصوفة » : ٢٣٩ .
- قزمان ، ابن ، أبوبكر محمد بن عبد الملك ابن قزمان الأصغر وعائلته قرطبية عريقة « ٤٦٠هـ / ١٠٦٨م - ٥٥٤هـ / ١١٦٠م » : ٤١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
- القسطنطينية : ١٦ ، ١٧ ، ٧٨ .
- قشتالة قشتاليون : ٢٠ ، ٢٢ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٤٦ ، ١٥٩ ، ١٧٦ ، ٣٣٤ .
- القصر الأحمر في غرناطة : ١١٣ ، ١١٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠ .
- القصير ، ابن ، أبو جعفر عبد الرحمن بن أحمد الأزدي المتوفى « ٥٧٥هـ / ١١٨٠م » مقلد لمقامات الحريري : ٣٢١ .
- قلعة أيوب « ناحية في الأندلس » (٢٥٨) .
- قلم « قينة أندلسية » : ٣١١ .
- قملوش : انظر برج .

- قنسرين : ٨٢ ، ٢٨٠ .
- القوط ، القوطي : ١٣ ، ٢٦ ، ٥٤ ، ٧٠ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٢٧٠ ، ٢٨٥ ، ٣١٠ ، ٣٢٥ .
- القوطية ، ابن أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطبة الأندلسي الاشبيلي المتوفي (٢٦٧ هـ / ٨٨٠ م) : ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ٨١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ١٤٢ ، ١٧٧ .
- قلائد العقيان في محاسن أهل الزمان « لابن خاقان » : ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٣١٦ .
- القيروان مدينة بتونس بناها عقبة بن نافع : ١٢ ، ١٤ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٤ .
- القيسرواني ، أبو علي محمد رشيق الأزدي « ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م - ٤٣٧ هـ / ١٠٦٤ م » : ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .
- القيسيون « القيسية » : ٢٨ ، ٨١ ، ١٢٥ .
- حرف ك
- كاترمير ، اتيان Quatremère مستشرق فرنسي « ١٧٨٢ - ١٨٥٧ م » : ١٠٠ .
- كارلوس الخامس : ٢٧١ ، ٢٧٢ .
- كتاب الأبل « للقالبي » : ١٤٣ .
- كتاب الاصطخري الجغرافي : ٩٦ .
- كتاب الامالي « للقالبي » : ١٤٣ .
- كتاب التبصرة « لابن مسرة » : ٣٢٧ .
- كتاب الحروف « لابن مسرة » : ٣٢٧ .
- كتاب حلى الانسان والخيال « للقالبي » : ١٤٢ .
- كتاب الرّجاري « للدريسي » : ٩٢ .
- كتاب السماع « شرحه ابن ياجه » : ٢٢٧ .
- كتاب الفقهاء « لابن عبد البر » : ٣١٥ .
- الكتاني ، الشيخ استاذ علي بن حزم : ١٨٠ .
- الكتيبة جامع في مراکش : ٢١١ .
- الكرمانى ، ابو الحكم عمرو بن عبد الرحمن ابن احمد بن علي « ٤٥٨ هـ - ١٠٦٦ م » وقد اشتهر بالطب الى جانب انه فيلسوف : ٢٢٦ .
- كوريوس « رأس » في شبه جزيرة ايبيريا : ٩٤ .
- كسرى انوشروان : ٣٣٤ .
- كسروان ناحية في جبل لبنان : ٢٥٤ .
- كلب « قبيلة » : ١٢ ، ٨٢ .
- الكلدانيون : ٣٣٢ .
- كليلة ودمنة « لابن المقفع » : ٣٣٤ ، ٣٣٥ .
- كوديرا : فرنسيسكو ناشر بعض مؤلفات اعلام الأندلس الاسلامي في المكتبة العربية الاسبانية Bibliotheca Arabico Hispana : ١٦٧ ، ٢٠٦ ، ٢٦٠ .
- كوزونيو « نهر في شبه جزيرة ايبيريا قريب من البرتغال : ١٦١ .
- كولن Colin مستشرق : ٢٢٠ .
- كومس ، اميليو غرسية مستشرق اسباني ، استاذ المؤلف وصغير اسبانيا في لبنان ابتداء من العام ١٩٦٢ : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ١٤٣ ، ١٨٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٥١ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ .

• الكومبارتي ، دومينكو Combarati ،
Dominico مستشرق : ٣٣٦ .

الكوميديا الالهية La divina Comedia
لدانتي البجري : ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ .
• كيونكوس ٢٥٧ نشر كتاب : تاريخ افتتاح
الأندلس لابن القوطبة القرطبي الذي ترجمه
ريبييرا واعاد نشره بعد تحقيقه المؤلف في
بيروت ١٩٥٧ دار النشر للجامعيين .

• اللبانة ، ابن ابرو بكر محمد بن
عيسى اللخمي الداني : ١٩٣ ، ١٩٨ .

حرب اللام

• لبلة : « ناحية في الأندلس » : ١١٠ .

• لبنان : ٢٥٥ - ٢٥٧ .

• للزيق مفتصب الحكم من ملك القوط
الأصيل غيطشة وفي عهده سقط الأندلس بيد
المسلمين سنة ٩٢٢هـ / ٧١١م : ٥٤ ، ٥٧ ،
٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٥ .

• لسان الدين بن الخطيب . لسان الدين ابو
عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد
السلماي اللوشي الغرناطي الوزير صاحب
الاحاطة في تاريخ غرناطة وغيره من
المؤلفات : ٧١٣هـ / ١٣١٣م - ٧٧٦هـ /
١٣٧٤م : ١١٨ ، ١٥٥ ، ١٩٧ ،
٢٠٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ،
٢٥٢ .

• لشبونة Lisbonne « مدينة في البرتغال » :
٢١٥ .

• لوشة Lozja ناحية في الاندلس : ٢٤٠ .

• لوزة ناحية في لبنان : ٢٥٥ .

• ليبيا : ٥٩ ، ٦٩ .

• ليدن مدينة في هولندا : ١٠١ ، ٢٠٦ .

• ليون مدينة في وسط اسبانيا وهي غير ليون
الفرنسية وقد اقتحمها المنصور بن ابي عامر
المعافيري تأدياً لحاكمها شنجة بن غرسيا :
٦٢ ، ٧٧ ، ١٤٦ ، ١٥٧ ، ١٦٣ .

حرف الميم

• مارتل ، شارل : ٧٧ ، ١٢٥ انظر :
شارلمان .

• مالقة « ناحية في الأندلس » : ١١٧ ، ١٩١ ،
٢٧٧ .

• المالكية مذهب الامام مالك وكان سائداً في
الأندلس وقد كان فقهاء المذهب من
المتشددين : ٨٤ ، ٨٦ .

• المصني : ابو الطيب احمد بن الحسين بن
الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي
الكوفي المعروف بالمصني : ٣٠٣هـ /
٩١٥م - ٣٥٤هـ / ٩٦٥م : ٣٩ ، ٤٠ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
• مجريط ، انظر مدييد .

■ مجلة الأندلس التي تصدر عن هيئة
المستشرقين الاسبان وقد اسسها في مدييد
القس ميكل آسين بلايوس : ٢٢٨ .

• المحامي : ١٤٠ .

• محمد رسول الله ، النبي صلى الله عليه
وسلم : ٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٢٦١ ،
٣٢٣ .

• المحملية او طنبلية قرية افريقية على عشرة
ايمال من تونس ويقال ان الخضر عليه السلام
حرق السفينة ببحر راحس وقتل الغلام في
طنبلية انظر سورة الكهف : ١٨٣ .

● المساويء في كشف السرقات الشعرية
«لاين رشيق القيرواني» : ١٨٧ .

● المستكفي بالله «الخليفة» : ٣٠٧ .

● المسجد الأقصى في بيت المقدس : ٢٦١ ،
٣٣٠ - ٣٣٣ .

● المسجد الحرام في «مكة المكرمة» :
٣٣٧ .

● مسرة ، ابن محمد بن عبد الله بن : ٢٧ ،
٦٣ .

● المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن
علي المسعودي ، الشافعي المتوفي سنة
٣٤٦هـ / ٩٥٧م : ٨١ .

● مسلم بن الوليد : ٢٩٧ .

● مسلمة بن عبد الملك : ٥٩ .

● المسيلة ناحية في بلاد الغرب قرب الزاب :
١٨٣ .

■ مشارق الأنوار «علم الحديث» للقاضي
عياض : ٢٠٨ .

● المشرق : ١٩ ، ٤٥ ، ٧٥ ، ٨٤ ،
١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤١ ،
٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ .

● المضارة «سهل ناحية في الأندلس قرب
قرطبة» : ٢٤ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٥ .

● مصر ، المصرية : ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٩ ،
١٢٨ ، ١٦٥ ، ١٩٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،
٢٨٠ ، ٣٢٣ .

● المضرية : ٦٠ ، ١٢٩ .

■ المطرب في اشعار اهل المغرب «لاين
دحية» : ٢١٣ .

● المطرزي ، برهان الدين ابو الفتح ناصر بن

● محمد ابو الأحمر بن نصر الملقب
الغالب بالله ؛ انظر الغالب بالله .

● محمد بن عبد الرحمن الأوسط : ٢٦٧ .

● محمد الثالث : ٢٧١ .

● محمد الثاني : ٢٧١ .

● محمد الغني بالله : ٢٤٧ .

● مدريد او مجريط على حد تسمية العرب
للعاصمة الاسبانية : ٢٥٥ ، ٢٦٠ ،
٢٦٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٣١٧ ، ٣٣٠ .

● المدينة المنورة : ١٣٥ ، ٣١٠ .

● المرابطون : ٢٠ ، ٢٣ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ١٠٨ ،
١١٠ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ،
١٩٧ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ،
٢٢٧ .

● مراکش : ٢٠ ، ٦٣ ، ٩٤ ، ١٩٧ ،
٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٤ .

● المراكشي : انظر ابو طالب عقيل
المراكشي .

● مرج راعط : ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٤ .

● مرج الفضة «ناحية في اشبيلية» : ٦٣ ،
١٩٥ .

● مرسية «ناحية في الأندلس» : ٦٠ ،
١٢٨ ، ١٩٥ ، ٢٣٨ ، ٣٣٥ .

● مروان بن ابو عبد الملك بن زهر : ٢٠٧ .

● مروان بن الحكم : ٨٢ ، ١٢٤ ، ١٢٩ .

● مروان بن عمر بن مروان بن الحكم : ٨٢ .

● المرية «ناحية بالأندلس» : ٢٢ ، ١١٥ .
مرين : انظر ابا عنان سلطان بني .

● المريني ، أبو سالم : ٢٤٢ .

● المريني ، انظر ابن سفر .

■ مسالك افريقيا وممالكها «للوراق
الاندلسي» : ١٠٠ .

٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ،
٢٨٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
٣١٣ .

● مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك
الذي اوكل اليه طارق بن زياد حصار قرطبة
بينما تابع القائد المسلم زحفه نحو طليطلة :
٧٣ .

● المقدسي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد
ابن احمد بن ابي بكر البناء المقدسي الحنفي
المعروف بالبشاري جغرافي جال في رحلاته
بأكثر بلاد المسلمين توفي نحو ٣٨٠هـ /
٩٩٠م : ٩٥ ، ٩٦ .

● المقرئ ، ابو العباس احمد بن محمد بن
احمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن ابي
العيش بن محمد المقرئ التلمساني
المالكي الاشعري مؤلف «نفع الطيب من
فصل الأندلس الرطيب» و«ازهار الرياض
في اخبار القاضي عياض» توفي العام
١٠٤١هـ / ١٦٣٢م : ٢٢ ، ١١٩ ،
٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ،
٣٤٠ ، ٣٤١ .

● المقرئ ، ابو بكر بن مجاهد : ١٤٥ .

● المققع : انظر عبد الله .

● مكة المكرمة : ١٦٥ ، ٢٣٩ .

● مكناس : ناحية في المغرب الأقصى :
٢٣٤ .

● مكناسة : ٥٩ ، ١٢٨ .

● المكسي ، ابرو ايوب ، يعقوب بن
الصيدلاني : ١٦٥ .

● ملتون ، الاديب الانكليزي : ٣٣٠ .

● المليية ناحية في الأندلس : ٢٢ ، ٦٥ ،
١١٥ .

عبد السيد بن علي الخوارزمي المطرزي
الحنفي ٥٣٨هـ / ١١٤٣م - ٦١٠هـ /
١٢١٣م : ١٤١ .

● مطمح الأنفس في ملح اهل الأندلس ولان
خاقان : ٢١٣ ، ٣١٦ .

● معاوية بن ابي سفيان : ١٦ ، ٧٥ ، ٧٨ ،
١٢٨ ، ٨١ .

● معاوية بن حديج قائد الحملة في افريقيا قام
بثلاث غزوات فيها : ٥٠ .

● معاوية بن يزيد : ٨٢ .

● المعتز ، ابن عبد الله ٢٤٧هـ / ٨٦١م -
٢٩٦هـ / ٩٠٨م : من ابرز شعراء
العصر العباسي ببساطة وسلامة تعبير : ٣٣ ،
٢٢٣ .

● المعتضد ، عباد بن محمد ابو عمرو :
١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ .

● المعتمد بن عباد : ٢٠ ، ٢١ ، ٣١ ،
٤١ ، ٦٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،
١١١ ، ١١٢ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٣٠٣ .

● معجم الادباء «لواقوت الحموي» : ١٧٩ .

● معجم ما استعجم «للبركي» : ١٠٥ .

● المصري ابو العلاء احمد بن عبد الله بن
سليمان بن محمد بن سليمان القضاعي
التنوشي المصري «٣٦٣هـ / ٩٧٣ -
٤٤٩هـ / ١٠٥٧م» : ٣٣٠ ، ٣٣١ .

● المعز لدين الله الفاطمي : ١٧٠ ، ١٧١ ،
١٧٢ .

● المغرب ، المغربية : ١٤ ، ١٩ ، ٣٩ ،
٤٠ ، ٤٩ ، ٦٧ ، ٨١ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ،
١٠٨ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٤١ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ،

● مليلة : ٥٩ .

■ الممحصات : «ديوان ابن عبد ربه
الاندلسي» : ١٣٢ .

■ الممدود والمقصود «للقالي» : ١٤٢ .
● المملكة العربية السعودية : ٥ .

موريسكي : ٢٨٧ .

● منجبار Monjibar «ناحية بالاندلس» :
٧٣ .

● المنصور ، محمد بن ابي عامر المماري
اعظم قائد انتجه الاندلس الاسلامي تمكن
من اخضاع جميع مقاطعات شبه جزيرة
ايبيريا «اسبانيا والبرتغال» اليوم لحكمه :
١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢٢٥ ،
٢٧٩ .

● منكب بلدة ومرسى في الاندلس : ١٢٨ .

● منكة ناشر اطالس الاندلس : ٩٥ .

● المهدية «ناحية في تونس» : ١٨١ .

● المهلب ، أبو بكر محمد بن احمد بن محمد
«١٠٥٨هـ / ١٠٥٨م» مؤلف الدليل على

تاريخ استانه ابن الفرضي : ١٤٧ .

● المهنس ، أبو بكر محمد : ١٦٦ .

● مهيار الديلمي «ابو الحسن مهيار بن نرزويه
الديلمي الشاعر» توفي «٤٢٨هـ /

١٠٢٧م» : ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

● الموحدون : ٢١ ، ٢٣ ، ٦٥ ، ١١٦ .

● الموحدي ، أبو يوسف يعقوب : ٢١٩ ،
٢٥٢ .

● موسى بن علي : ٢٦٧ .

● موسى بن نصير : ١٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٤٨ ،

٥٧ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ،

٩١ ، ١٤٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٠ .

● مولر ، اوغست «مستشرق الماني» : ٩٥ .

● ميهرن Mehren : ٩٥ .

● الموندو احد ابناء غيطشة ملك القوط وقد

انتحاز مع اخويه الى طارق بن زياد عند الفتح

ضد للتريق مقطعب السلطة والحكم من

والده : ٥٧ ، ٦٩ ، ٨٥ .

حرف النون

● الناصر الثاني : ٦١ .

● ناصر الدولة ، ابو مناد باديس المنصور :
١٨٤ .

● الناصر ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله

مؤسس الخلافة الأموية في الاندلس ومنقلد

الحضارة الاسلامية في شبه الجزيرة : ٦١ ،

٦٣ ، ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٣١ ، ١٤٣ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٥٠ ، ١٥٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،

٢٨٣ ، ٣١١ .

● النباهي ، ابو الحسن قاضي حضرة غرناطة في

عهد بني الأحمر ومؤلف كتاب «تاريخ قضاة

الاندلس المسمى «بالمراقبة العليا» : ٢٢٠ .

● نبرة : ناحية في الاندلس : ٦٢ ، ١٤٦ ،

١٥٩ .

● النبي : انظر محمد رسول الله صلى الله

عليه وسلم .

● نجوير الثاني ، رمون بيير كند برشلونة :

٣٠٣ .

● النجيب ، ابو زكريا يحيى بن هليل :

٢٤١ .

■ نزهة المشتاق في اخراق الافاق
«للادريسي»: ٩٥، ١٠١.

■ نسخ الملح وفسخ الملح «ابن رشيقي
القيرواني»: ١٨٧.

■ النصاري: ٨٥، ٢٦١، ٢٧٩، ٣١٥.

■ نصر، بنو: اصحاب غرناطة: ٢٥٢،
٢٧٠.

■ النصري، ابو اسماعيل: ٢٤٠.

■ النظام ابنة أبي خاشة التي هام بحبها ابن
عربي، محي الدين: ٢٣٩.

■ النعمان بن بشير الأنصاري «امير حمص»: ٨٢.

■ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
«للمقري»: ١١٩، ١٤١، ٣٤٠.

■ نفرة، بنو قبيلة بربرية اخوال عبد الرحمن
الداخل: ١٢٨.

■ النفري، ابو عبد الله: ١٦٦.

■ نكلسون، مستشرق بريطاني: ١٦٩.

■ نواس، ابو: ابو علي الحسن بن هانيء بن
عبد الأول بن الصباح الحكمي المولاه

المعروف بأبي نواس «١٤٦هـ / ٧٦٣م -

١٩٨هـ / ٨١٣م - ١٤٥م»: ٣٣.

■ النورمان: ١٠٢.

■ نوبة «حصن انطلسي»: ١٢٤.

حرف الهاء

■ هارون الرشيد: ١٢٥، ١٣٥، ٣١١.

■ هانيء، ابو القاسم محمد بن هانيء بن
محمد مصلون الأزدي الانطلسي

«٣٢٦هـ - ٣٣٧هـ / ٣٦٢هـ / ٩٧٢م»: ٣١،

١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ٣٠٣.

■ هاتيعيل: ٧٣.

■ هزروتينا: عالم ماروني: ١٠١.

■ هشام بن عبد الملك بن مروان الحكم:
٧٧.

■ هشام الرضي: ٦١.

■ الهمداني، ابو الفضل احمد بن الحسين بن
يحيى بن سعيد الهمداني المعروف ببديع

الزمان. «٣٥٨هـ / ٩٦٨م - ٢٩٨هـ /

١٠٠٧م»: ٢١٨، ٣٢١.

■ الهندية «ديانة»: ٣٣٢.

■ هتيلة «جارية زرياب»: ١٣٩.

■ هولندا: ٢٥٤.

حرف الواو

■ وادي آش «ناحية بالاندلس»: ٢٠٧،

٢٣٦، ٢٧٣.

■ وادي البرباط «ناحية بالاندلس»: ٦٦،

٧٠.

■ وادي بكة «ناحية بالاندلس»: ٧٢.

■ وادي الحجارة «ناحية بالاندلس»: ١٠٠.

■ وادي القرى «ناحية بالاندلس»: ١٣٥،

٣١٠.

■ الوادي الكبير «نهر»: ٧٣، ٨١، ١٠٨،

١٩٩، ٢٢٠.

■ الوراق، محمد بن يوسف ابو عبد الله

والمعروف بالتاريخي «٢٩١هـ / ٩٠٤م -

٣٦٢هـ / ٩٧٣م»: ١٠٠.

■ الوزير، بنو: ٢٤٠.

■ الوطاسي ملك فاس الذي التجأ اليه آخر ملوك

بني نصر ملوك غرناطة: ٢٢، ١١٦.

■ وطي، «قبيلة»: ٨٢.

■ وفیات الاعیان « لابن خلکان » : ١٧١ ، ٢١٢ .

● ولبة « ناحية بالاندلس » : ١٩٤ .

● الوليد ، ابوابن جهور من حکام قرطبة في عهد ملوك الطوائف : ١٩٦ .

● الوليد ، ابوابن حبيب : ١٧٧ .

● الوليد بن عبد الملك : ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٢٦٦ ، ٢٨٠ .

● الوليد بن يزيد بن عبد الملك : ٥٩ ، ١٢٨ .

● وليلي « ناحية بالمغرب » Volubilis : ٥٠ .

● وهيون ، ابن ابو محمد عبد الجليل بن وهيون المرسي الذي تغنى بالنصريوم معركة الزلاقة

د ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م : ١٩٤ .

● ولادة الشاعرة ابنة الخليفة المستكفي التي

هام بها حبا ابن زيدون : ١٨٨ ، ١٨٩ ،

١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٣٠٧ .

حرف اللام الف

لاوتة ، فيلسوف صيني : ٢٥٩ .

حرف الياء

● يانث بن نوح : ٥٣ .

● ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله

ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي

البغدادى « ٥٧٤هـ / ١١٧٨م - ٦٢٦هـ /

١٢٢٨م : ١٧٩ .

■ يثيمة الدهر للثعالبي : ٢١٨ .

● يزيد بن معاوية بن ابي سفيان : ٤٩ .

● اليشكري « شاعر جاهلي » : ٢٦ ، ٢٨٩ .

● يعقوب الحواري تلميذ للمسيح عليه السلام

وقد نقلت رفاة سرأ من بيت المقدس الى

مدينة سانت ياقب Santiago de

Compostela في شمال اسبانيا : ١٥٩ .

● اليعقوبي ، احمد بن اسحاق بن جعفر بن

وهيب بن واضح اليعقوبي توفي بعد

٢٩٢هـ / ٩٠٤م : ٤٩ .

● اليمامة ، ناحية في الجزيرة العربية :

١٣٥ .

● اليمانية ، القحطانية : ٦٠ ، ١٢٥ ، ١٢٩ .

● يوسف بن ابي عبد الله « ملك غرناطة » :

١١٦ .

● يوسف بن تاشفين المرابطي : ٢٠ ، ٢١ ،

٦٣ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٨٨ ،

١٩٦ ، ٢١١ .

● يوسف بن عبد البر بن عاصم النعمري

القرطبي : ٣١٤ ، ٣١٦ .

● يوليان القوطي حاكم سبته وصديق العرب :

١٤ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،

٧١ .

● اليونان ، اليونانيون ، اليونانية : ١٣ ، ٢٧ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٩ ، ٢٩٠ ، ٣٢٣ ،

٣٢٤ ، ٣٣٦ .

فهرست أحداث تاريخية وعسكرية وفقاً لورودها في متن الكتاب

رقم الصفحة	المحدث	التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري
٥٠	غزوة عبد الملك مع معاوية بن حليج الأولى للشمال الافريقي	٦٥٤	٣٤
٥٠	غزوة معاوية بن حليج الثانية للشمال الافريقي	٦٦٠	٤٠
٥٠	غزوة معاوية بن حليج الثالثة للشمال الافريقي	٦٦٦	٤٦
١٦	محاولة فتح القسطنطينية الأولى في عهد معاوية بن ابي سفيان	٦٦٩	٤٩
٧٠	الجيش الاسلامي يختبر قوة القوط قبل فتح الأندلس	٧٠٩	٩٠
٧٠	حملة طريف الى جزيرة بالوماس	٧٠٩	٩١
١٩، ٩٠، ٩٤	فتح الاسلام للأندلس ، وطارق بن زياد يتفقد المواقع بعد معركة وادي	٧١٠	٩٢
١٧٣	البرباط قرب شلونة		
٧١	بدء حكم الولاة الأمويين في الأندلس	٧١١	٩٣
١٢	وفاة موسى بن نصير سقوط الدولة الأموية	٧١٤	٩٦
١٩	في دمشق	٧٤٩	١٣٢

رقم الصفحة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	الحدث
١٢٣	١٣٣	٧٥٠	فرار عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك من سوريا
١٢٥ ، ٢٠	١٣٨	٧٥٥	بدء حقبة عهد الامارة الأموية في الاندلس
١٢٥ ، ٢٠	١٣٨	٧٥٥	يبدء حكم عبد الرحمن الداخل في الاندلس « قرطبة »
١٢٣	١٣٩	٧٥٦	قيام الامارة الأموية في الاندلس
٢٤٠	٢٠٢	٨١٨	« هياج الريض في قرطبة وصول علي بن نافع زرياب المغني الى قرطبة
١٣٦	٢٠٦	٨٢١	مولد اديب الأندلس ابن عبد ربه
١٣١	٢٤٩	٨٦٠	مولد ابي علي القالي
١٤٠	٢٨٩	٩٠١	ولاية عبد الرحمن الناصر
١٤٤	٣٠٠	٩١٢	وصول ابي علي القالي الى بغداد
١٤٠	٣٠٣	٩١٥	اعلان الخلافة الأموية في الاندلس وتسمية عبد الرحمن الناصر بالخليفة الأموي
١٤٤ ، ٦١ ، ٢٠	٣١٦	٩٢٨	مولد الشاعر ابن هانيء
١٦٩	٣٢٦	٩٣٧	انشاء منصب صاحب الوزارتين في الأندلس
١٤٨	٣٢٧	٩٣٩	وفاة الكاتب ابن عبد ربه
١٣١	٣٢٨	٩٣٩	مولد ابن حزم القسطلبي الشاعر
١٤٩	٣٤٧	٩٥٨	وفاة الناصر لدين الله عبد الرحمن
١٤٤	٣٥٠	٩٦١	مولد ابن الفرضي
١٦٥	٣٥١	٩٦٢	وفاة ابي علي القالي
١٥٠	٣٥٧	٩٦٧	قدوم ملك البشكنس شنجة بن غرسية على المنصور بن ابي عامر
١٥٥	٣٨٢	٩٩٢	مولد علي بن حزم
١٧٩	٣٨٣	٩٩٣	وقوع الملك شنجة اسيراً
١٥٦	٣٨٥	٩٩٥	يبدأ المنصور ابن ابي عامر

رقم الصفحة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	الحدث
			المنصور بن ابي عامر يؤدب مملكة
١٥٧	٣٨٥	٩٩٥	ليون
١٨٣	٣٩٠	١٠٠٠	مولد ابن رشيقي القيرواني
١٨٨	٣٩٤	١٠٠٣	مولد ابن زيدون
١٦٧	٤٠٣	١٠١٣	وفاة ابن الفرضي
١٦٧	٤٠٣	١٠١٣	ثورة البربر في قرطبة
١٤٩	٤٢٢	١٠٤٠	وفاة ابن درّاج القسطلبي الشاعر
١٩٣	٤٣٢	١٠١٠	مولد المعتمد على الله الملك والشاعر
١٧٣	٤٣٤	١٠٤٢	سوفاة الملك المعتمد ابن عباد
١٩٨	٤٤٧	١٠٥٥	وفاة الشاعر ابن حمديس
	٤٥٦	١٠٦٣	وفاة ابي علي ابن حزم صاحب المذهب الظاهري
١٧٩	٤٥٦	١٠٦٣	وفاة ابن رشيقي القيرواني
٢٠٢	٤٦١	١٠٦٨	مولد ابن قزمان
١٨٨	٤٦٣	١٠٧٠	وفاة الشاعر الوزير ابن زيدون
٢٠٦	٤٧٦	١٠٨٣	وفاة القاضي عياض
١٠٨	٤٧٩	١٠٨٦	معركة الزلاقة
٢١١	٤٨٠	١٠٨٧	مولد الفتح بن خاقان
	٤٨٤	١٠٩١	سقوط اشيلية بيد يوسف بن تاشفين
١٩٧			وأسر المعتمد الملك
١٩٧	٤٨٨	١٠٩٥	وفاة المعتمد في اغصات اسيراً
	٥٠٢	١١٠٩	ابن بسام يؤلف اللخيرة في محاسن اهل الجزيرة
٢١٦			اهل الجزيرة
٢١٩	٥٠٧	١١١٣	مولد ابن زهر
٢٢٤	٥٢٢ أو ٥٣٢	١١٢٨ أو ١١٣٨	وفاة ابن باجة
٢١٥	٥٤٢	١١٤٧	وفاة ابن بسام
٢٠٢	٥٥٥	١١٦٠	وفاة الشاعر ابن قزمان
٢٧٧	٥٦١	١١٦٥	مولد الصوفي ابن عربي
٢١٩	٥٩٥	١١٩٨	وفاة ابن زهر

رقم الصفحة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	الحدث
٢٢٠	٥٩٥	١١٩٩	مولد ابن الأبار القضاعي
٢٣٩	٥٩٨	١٢٠٠	رحلة ابن عربي الى مكة المكرمة
٢٣٣	٦١٠	١٢٣٠	مولد الصوفي عبد الله الششتري
٢٣٧	٦٣٨	١٢٤٠	وفاة ابن عربي
٢٢٩	٦٥٨	١٢٦٠	وفاة ابن الأبار
٢٣٣	٦٨٦	١٢٨٧	وفاة الصوفي الششتري
٢٤٠	٧١٣	١٣١٣	مولد لسان الدين ابن الخطيب
٢٥٠	٧٣٤	١٣٣٣	مولد الشاعر ابن زمرك
٢٤٠	٧٧٦	١٣٧٤	وفاة الوزير لسان الدين ابن الخطيب
٢٥٠	٧٩٧	١٣٩٥	وفاة ابن زمرك
	٨٩٧	١٤٩٢	سقوط غرناطة آخر معقل للإسلام
١١٣			في الاندلس
٢٥٤	١٧١٠		وفاة المكتبي اللبناني ميخائيل غزيري
٢٥٨	١٨٧١		مولد القس المستشرق ميكل أمين بلاثيوس
٢٥٨	١٩٠٤		وفاة المستشرق بلاثيوس
	١٩٤٩		خوسية مونيوس سندينو يترجم «الاسراء والمعراج» الى الاسبانية واللاتينية والفرنسية بعد ان أمر أصلاً بترجمتهما الفونسو العاشر العالم
٣٣٠			

الكتاب والمؤلف

«القطوف البانعة» صورة صادقة للمكانة العظيمة التي اكتسبها الفكر الإسلامي في العالم كوسيط بين الثقافات القديمة، ونهضة الفكر الأوروبي المعاصر بخاصة، يعرض بأسلوب أدبي شيق، وفي إطار من التناغم بين الواقعة التاريخية، والحقيقة العلمية، والسيرة الشخصية، والروح الشاعرية لتفاعل المدينتين والحضارات على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية التي طبعها الإسلام بأصالته المميزة، فيكشف عن صفحات مشرقة وخالدة لم يُسبق إليها من أجداد أمتنا العظيمة.

أما المؤلف فهو عبد الله أنيس الطيّاح

الناشر